مَوْسُوعَة أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى

وَأَثَرُهَا في اسْتِخلَافِ الإنسَانِ في الأَرضِ

تأليف

أ. د عقيل حسين عقيل

جامعة الفاتح - كلية الآداب

ليبيا - طرابلس الغرب

الجزء الأول

اللهُ الرَّحمنُ الرَّحيمُ الملكُ القُدُّوسُ
السَّلامُ المُؤمنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

مَوْسُوعَة
أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى
وَأَثَرِهَا فِي اسْتِخْلَافِ الإِنْسَانِ فِي الأَرْضِ

الجُزْءُ الأَوَّل

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ ـ 2009 م

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

ردمك : 978-9953-520-28-5

الموضوع : عقيدة

العنوان : موسوعة أسماء الله الحسنى 10/1

التأليف : أ.د. عقيل حسين العقيل

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 5292

القياس : 17×24

التجليد : فني – كعب لوحة

الوزن : 10 كغ

التنفيذ الطباعي : 53 dots – بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد بعينو للتجليد – بيروت

تنضيد و إخراج ضوئي : مؤسسة الجعبري

دار ابن كثير

دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي

ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 – 2228450

مكتب تلفاكس: 2243502 – 2458541

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 – جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9789953520285

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير

فـــاشكـــرْ جميـــلاً نلتَـــه ومُنِحْتَـــه   فـــالشُّـكـــرُ رَبْـــطُ تفضُّـــلٍ وتبـــرُّعِ

يسرني أن أتقدم بعظيم الشكر ووافر الامتنان للذين بذلوا جهودهم الكريمةُ وقدَّموا العون ، فأسهموا في تصويب الهنات التي بدت هنا وهناك ، وأخصُّ بالشكر العالم العلم الذي تجشم عناء قراءة الموسوعة ، وأبدىٰ ملاحظاته بكل موضوعيَّة علىٰ الجانب العلمي ، والعقدي فيها ، وهو لا يريد إلا الدُّعاء ، فله من ألله خير الجزاء ، ومني الشكر كلَّه ، مع فائق التقدير والاحترام .

والشكر موصولٌ للأخوة أعضاء لجنة التصويب اللغوي ، وهم :

* من ليبيا :

الدكتور عثمان إبراهيم علي الذي بذل جهداً محموداً ، وسعىٰ حثيثاً لأن تخرج الموسوعة خاليةً من الأخطاء علىٰ قدر ما استطاع .

* من العراق : الأساتذة المحترمين :

- الدكتور علي عبد الرزاق عبد القادر .

- الدكتور وليد محمد رشيد .

- الدكتور خالد مهدي صالح .

* من مصر : الأستاذ المحترم : الدكتور سالم عبد العزيز سالم .

* من فلسطين : **الأستاذ المحترم** :
عاطف سعيد .

فإلىٰ هـٰؤلاء ، وكلٍّ من خصَّني بعنايته ـ ولو بدعاء ـ أقدِّم شكري ، وتقديري !

المـؤلف

المُقَدِّمَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ سيد الخلق أجمين محمد عليه أفضل الصلاة ، وأتم التسليم !

وبعد :

فإن البحث في أسماء ٱلله الحسنىٰ من أسس العقيدة ، ومن تمام الإيمان به تعالىٰ ، فالإيمان به تعالىٰ أصل كل أصل ، ومصدر كل فرع ، ولٰكن هناك من الحُجُب التي تَحْجُبُ رؤية طريق معرفة الحق للوصول إليه ومنها : القصور في فهم أسمائه تعالىٰ ، فكيف نصل إليه ، دون معرفته ؟ ! ولإسفار ما حُجِبَ وجب علينا فهم أسمائه وصفاته للوصول إلىٰ معرفته ، ومعرفة مراده فينا ، وفي خلقه ، ومنا جميعًا .

ولعل من الواجب ذكر الدافع الحقيقي لتأليف هٰذه الموسوعة ، فقد استثار الفكر ، وحرك رغبة البحث ، ودفعنا إلىٰ الولوج في مكامن دلالات الأسماء الحسنىٰ نظرةٌ في قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [1] ، نظرة أثارت ركود الظن ، وفكّت

(1) البقرة 30.

قيد الغفلة ، فأنطقت لسان التساؤلات ليقول :

أيتفق مطلق اليقين (جاعل) مع عموم التنكير (خليفة) ؟

أيمكن أن تقوم النكرة (خليفة) مقام ماهيتها ؟

أتضفي النكرة (خليفة) إيحاءً معرفياً لليقين (جاعل) ؟

أيأتلف إشراق اليقين (جاعل) مع تساؤل الملائكة (أتجعل) ؟

لاشك أنها تساؤلات موجبة للبحث ، والاستقصاء للوصول إلىٰ قاب قوسي الحقيقة ، مما استفز ملكاتنا المعرفية ، وحفزنا للبحث ، ودفعنا إلىٰ السياحة في أمهات الكتب لصوغ هـٰذه الموسوعة .

ونأمل أن نكون قد وفقنا من ٱلله سبحانه وتعالىٰ في تحقيق ما كنا نصبو إليه من توضيح الإعجاز في اختياره ٱلله سبحانه للفظة (خليفة) في سياق اليقين(جاعل) من خلال ما عرضنا في الموسوعة من ملامح الخليفة المعنيِّ بالاستخلاف في الأرض ، كما تَوضحَ جلياً بعض ملامح الإعجاز في لفظة (خليفة) ، ففي تنكير (خليفة) إثارة لعقل المؤمن ، وقلبه للبحث عن المعرفة ، والوصول إلىٰ حقيقتها حتىٰ تتحقق الخلافة الحق ، فالخليفة يُعرف بصفاته ، وصفاته لا تلتصق به إلا إذا استمدها من خالقه ، وقد توصَّلنا بحمد ٱلله ومن خلال البحث في الأسماء الحسنىٰ إلىٰ الصفات التي تفضي إلىٰ التعريف بالخليفة ، وهي مبثوثة منثورة في ثنايا البحث في أسماء ٱلله الحسنىٰ .

ونستشعر موقنين : أنَّ التنكير مقصود لغاية إعجازية تتمثل في معادلة ، مفادها : أن باب الاستخلاف مفتوح بالمطلق لكل العباد (عموم) ، لـٰكن الدخول مقتصر علىٰ من شاء ، فهو مسألة إرادية ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ ، فالإنسان الذي خلقه ٱلله في أحسن تقويم خصَّه بالقدرة علىٰ التمييز الذي يتيح الاختيار بين موقع الاستخلاف ، وضياع الإفساد .

ومن دلالات التنكير : أنَّ مهمة الاستخلاف عامة ، فهي غير محصورة

بالخليفة الأول (آدم) ، وإنما هي مهمة كُلف بها آدم ومن بعده ممن يسعىٰ للتخلق بصفات الأسماء الحسنىٰ ، فالمستهدف المجموع ، وليس الفرد ، فمن جميل التناسب ورائع الانسياب أن تأتي اللفظة مُنكَّرةً لتناسب السياق المعجز .

كما أنَّ النكرة آيةٌ من العليم سبحانه وتعالىٰ ، فهو يعلم جل شأنه : أنَّ هناك من بني آدم من سينتهج سبيل الخلافة ، وهناك من يتركها ليعمل بعمل الشيطان ، وهـٰؤلاء لا يمكن لهم أن يتصفوا بصفات خلائفية ، فالنكرة في هـٰذا السياق تعبر عن ائتلاف مطلق بين اليقين (جاعل) والتنكير(خليفة) .

وحتىٰ نبلغ مطمحنا ألزمنا أنفسنا بالنظر تحليلياً لا تفسيرياً في آيات ٱلله المنبثقة عن أسمائه في خارج النفس(الآفاق) وفي داخل النفس (الْخَلْقِ ، والأخلاق) بمعنىٰ : أن ننظر في أفعال ٱلله الكونية (في الخارج) والتكوينية في (الداخل) ولنُبصرَ لأنفسنا طريقا للحق لنجلوَ رؤيةً . . ونحدد هدفاً . . ونسلك سلوكاً ، ولنبصر لجوارحنا عملاً بمنهج ؛ لنحقق خلافةً .

ونفي بعهدٍ عُبَاداً لرب ، وعُمَّاراً لأرض ، وننظر مصيراً نرث فيه ثمرة ما أسلفنا من خلافة في الخوالي ؛ لنبقىٰ في الخلد الذي وعدنا ٱلله إياه .

ونقدِّم لغيرنا أنموذجا أمثل ، ومثالاً أكمل ، وحلاً أشمل ، وصدقاً في تغييرٍ إلىٰ ما ترنو إليه الأنفس ، والأرواح .

وٱلله سبحانه وتعالىٰ له الكمال المطلق في أسمائه ، وصفاته ، وكماله عين ماهيته ، وماهيته غير قابلة للإدراك والغاية ، فهو سبحانه يدرك ماهيته ، ويُدْرِكُ أنها لا تُدْرَكُ لغيره ، فهـٰذا ما يليق بكبريائه ، وعدم انتهائه ، وقدره الذي لا يُرَامُ ، فلا يُدْرِكُ ذَاتَه إلا ذاتُه ؛ لأن له كمال الإدراك والإحاطة ، وهـٰذا ما يقتضيه علمه ، وينتفي فيه الجهل الذي يثبت لغيره ، ففي حال غيره يستحيل الإحاطة والإدراك لما لا نهاية له ، فإدراك ما لا نهاية له محال ، حيث

إنَّ إدراكه سبحانه لماهيته حكمي لاستحقاقه شمول العلم ، وعدم الجهل بنفسه ، و هـٰذا يعني : أنَّ ماهيته لا تقبل الإدراك من غيره بوجه من الوجوه .

وٱلله له الغنىٰ المطلق ، والكمال التام ، والمستوعَبُ من هـٰذا الكمال ليس هو الكمال ، بمعنىٰ : أنَّ المُستوعَبَ عن الموصوف يقتضي أن يكون قابلاً للقسمة ، والعدد ، وهـٰذا في حق المخلوق لا في حق الخالق ، فالاستيعاب ليس هو نفس المُسْتَوعَبِ (في حق ٱلله) وهـٰذا لله ، وليس لسواه ؛ لأن الانقسام والتركيب في حقه سبحانه محال .

فصفاته لا يقال : إنها ليست عينه ، وليست غير ذاته إلا من حيث ما نعقله نحن ، ونستوعبه من تعدد الصفات ، والأسماء ، أو ما يُتَوَهَمُ من تضاد .

فصفاتَ ٱلله لا تدرك علىٰ حقيقتها الإلـٰهية إطلاقاً ، فهو سبحانه كما وصف نفسَه في كتابه : واحداً أحداً لا تَجْزَؤُه صفاتُه ولا تعدِّدُهُ أسماؤه ، فهو : ﴿ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [1] و﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [2] و﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [3] و﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [4] وهو كما أُمِرَ النبي ﷺ أن يقول : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [5] فالفاعل

---

(1) الكهف38 .

(2) سبأ 27 .

(3) الزمر 4 .

(4) الحشر 24،22 .

(5) الإخلاص1 4 .

واحد ، والفعل متعدد ، وتعدد الفعل لا يعني تعدد الفاعل بل يعني أحديته المطلقة ، وهٰذا هو عين التوحيد لا التعديد .

والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ : ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ . و(الأسماء) جمع ، و(الحسنىٰ) صفتها ، وهي واحدة [1] ؛ لأن الذات واحدة ، وصفاتها متعددة ، وأصلها واحد(ٱلله) لا إلٰه إلا هو ، فالمعروف : أنَّ الصفة تتبع الموصوف في العدد ، وفي هٰذه الحالة الموصوف جمع والصفة مفرد (الحسنىٰ) وليست الحسنيات ، أو الأحاسن ؛ لأن أسماء ٱلله للتوحيد ، وليست للتعديد .

والمعاني التي نريد إثباتها في الموسوعة لابد لها من قوالب فيها تصب ، وقوالبها اللغة التي لا تفي لما يراد قوله ، وعما يستحق المقول فيه :

إن فـي التَّـوحيـد إحكـام المثـانـي ... عَـالِـمُ التـوحيـدِ بُغْيَتُـهُ الْمَعَـانِـي
والْمعَــانــي فــي أكِنَّتِهَــا رُمُــوزٌ ... فَـالْمَبـانـي فيـه صَـارَتْ كَـالأوانِـي
كــلُّ معنــىٰ كــلُّ مبنــىٰ فيــه يَفْنــىٰ ... صـارَ أعلـىٰ مـا علمنـا عنـه دانـي [2]

إنَّ العلم الكلي في أسمائه وصفاته محال ؛ لأننا في دائرة البداية والنهاية ، وهو سبحانه لا تحتويه بدايات ، ولا تحوطه نهايات ، وحاول أهل العلم توضيح قيمة أسمائه ، وتفسيرها ، ولٰكن وإن حاول أهل العلم ذلك فإنما هو من باب التقريب ، ليدلُّوا الناس علىٰ أصل المعنىٰ ، أما المعنىٰ بكماله ؛ فإنه لا يعلمه أحد إلا ٱلله جل جلاله ؛ ولهٰذا قال ﷺ في دعائه : « لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك » [3] . فالناس حين يفسرون أسماء ٱلله ـ جل وعلا ـ فإنهم يفسرون ذلك بما يقرب المعنىٰ إلىٰ

---

(1) تفسير الطبري، ج 18، ص 275 .
(2) من ديوان شراب الوصل للإمام فخر الدين ص 190 .
(3) أخرجه الترمذي، 3566، وابن ماجه1179 .

الأفهام ، أما حقيقة المعنىٰ علىٰ كماله ؛ فإنهم لا يعونه ؛ لأن ذلك من الغيب ، وٱلله أعظم من كل تفكير في العظمة ، وكذلك الكيفية فإنهم لا يعلمونها ؛ لأن ذلك من الغيب ، فٱلله ـ جل وعلا ـ له الأسماء الحسنىٰ . وتعظيم أسمائه يكون بتعظيمه ، كأن لا يُسأل بوجه ٱلله إلا المطالب العظيمة ؛ التي أعلاها مما خلق هي الجنة ، ولله دَرُّ القائل :

مـا البـدايـاتُ والخـواتـم ؟ سَلْنِـي أو فـامْسِـكْ فكلُّهـنَّ ابتـداءُ
عنـدمـا كـان فـي البـدءِ بـدءٌ حينهـا كـانَ مـا يكـونُ انتهـاءُ
فـاستـوىٰ البـدءُ والنهـايـةُ فيهـا واستـوىٰ أمـرهـا وذا الاستـواءُ (1)

فاللغة من هـٰذا المنطلق وعاء للمعنىٰ ، وقد يكون الوعاء قادراً علىٰ استيعاب ما يوضع فيه ، ولـٰكن في حالة مثل موسوعتنا في « أسماء ٱلله » فهل من الممكن أن تستوعب اللغة معاني أسماء ٱلله الحسنىٰ ؟ وهل من الممكن أن تستوعب اللغة المخلوقة خالقها ؟

الإجابة بالطبع معروفة ، ونحيلها إلىٰ كل ذي عقل رشيد ، وفكر سديد ، فلا يصح أن نقول : إن الرحمـٰن مشتق من الرحمة ، لأن الرحمـٰن خالق الرحمة ، فهـٰذا إن صحَّ عند البعض علىٰ مستوىٰ اللفظ لا يصحُّ علىٰ مستوىٰ المعنىٰ ، وكذلك القدوس مشتق من القدس ، مع أنه من البديهي : أن القدوس خالق القدس ، وما يقوي ما رأيناه : أن هناك من الأسماء ليست مشتقة من اللغة إن قلنا بمبدأ الاشتقاق علىٰ مستوىٰ اللفظ لا المعنىٰ ، فالاسم الحق ، والاسم العدل ، هل هما مشتقان ؟ ! بالطبع : لا !

(وفي أَسماء ٱلله سبحانه العَدْل هو الذي لا يَمِيلُ به الهوىٰ فيَجورَ في الحكم . وهو في الأَصل مصدر سُمِّي به ، فوُضِعَ مَوْضِعَ العادِلِ ، وهو أَبلغ

---

(1) ديوان شراب الوصل للإمام فخر الدين ص 236 .

منه ؛ لأَنه جُعِلَ المُسَمَّىٰ نفسُه عَدْلاً) [1] ، فالعدل (ٱلله) مصدر العدل الذي بعدله يستقيم الملك ، وليس (العدل) مشتق من غيره ؛ لأنه خالق ما سواه ، والحق (ٱلله) مصدر الحق ، وبه يقوم الحق ، ويزهق الباطل ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [2] ، فلا لبس أنه هو الحق المبين ، وكل حق عنه ، وليس هو من أو عن غيره ، تعالىٰ ٱلله علىٰ ذلك علواً كبيراً .

وهـٰذا ما ورد في كتب المعاجم ، وتابعه من كتب في أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وما نعزو إليه أنَّ كتب اللغة تتحدث عن مستوىٰ العلاقة اللفظية ، ونحن ملنا إلىٰ العلاقة الخَلْقِيَّةِ ، فرددنا اللغة إلىٰ من علَّمها مع إجلالنا للعلماء السابقين ، واللاحقين ، والمعاصرين في اللغة .

وكما أننا لم نأخذ بما ورد في كتب المعاجم من أنَّ أسماء ٱلله مشتقات ؛ فأننا لم نأخذ بحكم اللغة في وصف الأسماء ، والصفات بأن ما جاء منها علىٰ صيغة المبالغة للمبالغة في أداء الفعل ، وكأن فعل ٱلله يحتاج للمبالغة لنقصٍ فيه (حاشا لله !) مع يقيننا : أنَّ علماء اللغة لم يقصدوا ذلك ، ولا الذين أخذوا عنهم غير أننا نوَّهنا إلىٰ ذلك من باب الأخذ بالأولىٰ فيما يليق بأسماء ٱلله الحسنىٰ ، فلا يليق أن نقول : (الشهيد) للمبالغة في الشهادة ، و(العليم) مبالغة في العلم ، وغير ذلك ؛ لأن ٱلله له الكمال المطلق في كل ما ورد إلينا من أسمائه الحسنىٰ ، وإن سأل سائل : وما دليلك من القرآن ؛ قلنا قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [3] فأفعاله بقدر ما تحتاجه المفعولات بالوجه الأكمل المطلق ؛ لأنه قد أحاط بكل شيء علماً ،

---

(1) لسان العرب ، ج 11 ، ص 430 .
(2) النور 25 .
(3) الطلاق 3 .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [1] فبلوغ علمه ، وإحاطة قدرته لا يجب فيهما أن يقال : إن من أسمائه مشتق للمبالغة ، فإن ٱلله بالغ أمره ، أي : منفذ أمره ، وممض في خلقه ما قضاه ، ﴿ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴾ جعل لكل شيء من شدة ، أو رخاء أجلاً ينتهي إليه [2] ، فبلوغ أمره بأمره لا بصيغ المبالغة .

ولهـٰذا نرىٰ وجوب تعطيل دلالات اللغة البشرية في التعاطي مع أسماء ٱلله الحسنىٰ ؛ لأن البشري لا يسري علىٰ الإلـٰهي بأي حال من الأحوال ، ومن المعروف فطرياً أن الذي وضعه الخالق يسري علىٰ المخلوق ، وما وضعه المخلوق لا يسري علىٰ الخالق .

وفي خطوتنا الأولىٰ في بحثنا في أصول الأسماء ، والصفات من حيث ورودها في النصوص ، ولأن البحث الموسوعي في أسماء ٱلله ، وصفاته الحسنىٰ لابد له من مستند يستند عليه بالإضافة إلىٰ ما ورد في القرآن الكريم ، فكان هـٰذا المستند دليلاً نقلياً مما ورد عن رسول ٱلله ﷺ ، اعتمدنا علىٰ ما جاء في حديث الأسماء الحسنىٰ مرتبا عند الترمذي الوارد في (سنن الترمذي) « حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَعْقُوبَ الْجُوزَجَانِيُّ ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ صَالِحٍ ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ ، حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ أَبِي حَمْزَةَ ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ ، عَنْ الأَعْرَجِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً غَيْرَ وَاحِدٍ ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ : هُوَ ٱللَّهُ الَّذِي لا إِلَـٰهَ إلاَّ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ

---

(1) الطلاق 12 .

(2) تفسير الخازن، ج 6، ص 117 .

الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيظُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الأَوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَام الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ » .

قَالَ أَبُو عِيسَىٰ هَـٰذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ حَدَّثَنَا بِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ صَالِحٍ وَلا نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ صَالِحٍ وَهُوَ ثِقَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ . وَقَدْ رُوِيَ هَـٰذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ وَلا نَعْلَمُ فِي كَبِيرِ شَيْءٍ مِنْ الرِّوَايَاتِ لَهُ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ ذِكْرَ الأَسْمَاءِ إِلاَّ فِي هَـٰذَا الْحَدِيثِ [1] . كما روي الحديث في كتب الحديث الآتية :

السنن الكبرىٰ للبيهقي [2] ، المستدرك علىٰ الصحيحين للحاكم [3] ، شعب الإيمان للبيهقي [4] ، صحيح ابن حبان [5] ، وورد في كتب التفاسير الآتية :

ـ تفسير ابن كثير ـ بقول ابن كثير : « وجاء تعدادها في رواية الترمذي » [6] .

---

(1) سنن الترمذي، ج 11 ص 412 .
(2) السنن الكبرى للبيهقي، ج 10، ص 27.
(3) المستدرك على الصحيحين للحاكم، ج 1، ص 45.
(4) شعب الإيمان للبيهقي، ج 1، ص 113 .
(5) صحيح ابن حبان، ج 4، ص 108 .
(6) تفسير ابن كثير، ج 1، ص 122 .

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [(1)] ، عن أبي هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ ، قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « إن لله تسعاً وتسعين اسماً مئة إلاَّ واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » .

أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج عنه . رواه البخاري ، عن أبي اليمان ، عن شعيب بن أبي حمزة ، عن أبي الزناد به ، وأخرجه الترمذي ، عن الجوزجاني ، عن صفوان بن صالح ، عن الوليد بن مسلم ، عن شعيب ، فذكر بسنده مثله ، وزاد بعد قوله : « يحب الوتر » : هو ٱلله الذي لا إلٰه إلا هو الرحمٰن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الفرد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، « إلىٰ آخر الحديث » [(2)] .

وفي التفسير نفسه في قوله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [(3)] ، « وسرد الحافظ ابن كثير

---

(1) الأعراف ، 180 .

(2) تفسير ابن كثير ، ج 3 ، ص 515 .

(3) الأعراف 180 .

الحديث » وقال : قال الترمذي : هـٰذا حديث غريب وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة ، رضي ٱلله عنه ، ورواه ابن حبان في صحيحه من طريق صفوان ، وقد رواه ابن ماجه في سننه ، من طريق آخر عن موسىٰ بن عقبة ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة مرفوعاً فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ، ونقصان .

والذي عول عليه جماعة من الحفاظ : أن سرد الأسماء في هـٰذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم ، وعبد الملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد : أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم : أنهم قالوا ذلك ، أي : أنهم جمعوها من القرآن ، كما ورد عن جعفر بن محمد ، وسفيان بن عيينة ، وأبي زيد اللغوي ، وٱلله أعلم [1] .

ثم ليعلم : أنَّ الأسماء الحسنىٰ ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده ، عن يزيد بن هارون ، عن فضيل بن مرزوق ، عن أبي سلمة الجهني ، عن القاسم بن عبد الرحمـٰن ، عن أبيه ، عن عبد ٱلله بن مسعود ، رضي ٱلله عنه ، عن رسول ٱلله ﷺ : أنه قال : « ما أصاب أحداً قط همٌّ ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فيَّ حكمك ، عدل فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أعلمته أحدًا من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ؛ إلا أذهب ٱلله همه ، وحزنه ، وأبدله مكانه فرحًا » . فقيل : يا رسول ٱلله ، أفلا نتعلمها ؟ فقال : « بلىٰ ، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلَّمها » . وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستي في صحيحه بمثله ، وذكر الفقيه الإمام

(1) تفسير ابن كثير ، ج 3 ، ص 514 .

أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه : « الأحوذي في شرح الترمذي » ؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء ٱلله ألف اسم ، فٱلله أعلم [1] !

وقال الشوكاني في فتح القدير في تفسيره للآية : ﴿ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ مبينة لاستحقاقه تعالىٰ للأسماء الحسنىٰ ، وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح [2] ، فالأسماء المذكور في نص الحديث إنما تمثل الحد الأدنىٰ من أسماء ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، والتي تقوم فكرة تحقيق العبودية لله ، وتحقيق العبودية لله هي بالاستخلاف في الأرض .

إن ٱلله جل جلاله هو الأول والآخر ، فلا يمكن أن نحصي صفاته ، وأسماءه لأنه قبل بدء البدء ، وبعد الانتهاء ، فلا أحد قبله ، ولا أحد بعده ، فهو المهيمن علىٰ العدد والعاد ، فنعمه لا حصر لها ، فكيف الحال بالمنعم الذي خلقها ويعلمها ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾ [3] ، فإذا كنا لا نستطيع أن نحصي نعمه فكيف نستطيع أن نحصي أسماءه ؟ !

وفي أثناء البحث الموسوعي في الاسم (المنتقم) وجدنا نفي الاسم(المنتقم) ثم نفي الحديث ، وورد ذلك عند الإمام ابن تيمية ، وكذلك عند إمام العصر في الحديث (الألباني) فضلا عن وجود الحديث واعتماده عند جلِّ المحدثين والمفسرين الذين رووا الحديث ناهيك عن كتب اللغة .

وقد ورد في جامع الرسائل لابن تيمية ما نصه :

« في أسماء ٱلله تعالىٰ (المُنْتَقِم) « هو المُبالغ في العقوبة لمن يشاء »

---

(1) السابق .

(2) فتح القدير ، ج 4 ص 488 .

(3) إبراهيم 34 .

وليس في أسماء ٱلله الحسنىٰ اسم يتضمن الشر ، وإنما يذكر الشر في مفعولا ته كقوله : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ فبين سبحانه أن بطشه شديد ، وأنه هو الغفور الودود »[1] .

ونفىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية أن يكون ـ المنتقم ـ من أسماء ٱلله تعالىٰ فقال : « اسم المنتقم : ليس من أسماء ٱلله الحسنىٰ الثابتة عن النبي ﷺ وإنما جاء في القرآن مقيداً كقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنىٰ الذي يذكر فيه : (المنتقم) وذكر في سياقه : (البر التواب المنتقم العفو الرءوف) ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي ﷺ بل هـٰذا ذكره الوليد بن مسلم عن بعض شيوخه ، ولهـٰذا لم يروه أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي[2] ، رواه من طريق الوليد بن مسلم بسياقه ، ورواه غيره باختلاف في الأسماء وفي ترتيبها يبين : أنه ليس من كلام النبي ﷺ . وسائر من روىٰ هـٰذا الحديث عن أبي هريرة ، ثم عن الأعرج ، ثم عن أبي الزناد لم يذكروا أعيان الأسماء ، بل ذكروا قوله ﷺ : (إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة) . وهـٰكذا أخرجه أهل الصحيح كالبخاري ، ومسلم وغيرهما ، ولـٰكن روي عدد الأسماء من طريق أخرىٰ من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة ، ورواه ابن ماجه ، وإسناده ضعيف يعلم أهل الحديث : أنه ليس من كلام النبي ﷺ ، وليس في عدد الأسماء عن النبي ﷺ إلا هـٰذان الحديثان كلاهما مروي من طريق

---

(1) جامع الرسائل ، ج1 ، ص356 .

(2) « لم يذكر الإمام من هم أهل المعرفة ! ! » . بالرغم من أننا ذكرنا من الكتب المشهورة قبل الإمام بن تيمية ! !

أبي هريرة وهـٰذا مبسوط في موضعه [1] .

وقد ضعفه الألباني في : صحيح وضعيف سنن الترمذي [2] ، وكذلك في صحيح وضعيف الجامع الصغير [3] ، وقال : ضعيف . انظر حديث رقم : (1945) في ضعيف الجامع .

وهنا كانت وقفة بحثية في إثبات الاسم (المنتقم) ثم بعد ذلك لإثبات الحديث .

فقد اعتمدنا في إثبات الاسم (المنتقم) وفي تقوية الحديث بالسير علىٰ نهج أئمتنا من السلف الصالح متعلمين منهم مقتدين بهم راجين النفع والهداية فإن أصبنا ؛ فلله الحمد ، وإن كانت الأخرىٰ ؛ فنسأل ٱلله المغفرة .

أولاً من حيث المعنىٰ :

الاسم (المنتقم) لله يخلو من معاني الشر ودلالاته ، فالانتقام من المجرمين خير ؛ لأن عدم الانتقام منهم في حد ذاته شر ، وقس علىٰ ذلك (المانع الضار) فٱلله بمنعه لفعل الشر هو عين الخير ، ولا منع بالمطلق إلا له . وإن توهم البعض إن صفة المنع شر ؛ فهـٰذا من حيث الفهم السلبي لها ، أما بالمفهوم الإيجابي ؛ فنرىٰ : أن المنع الإيجابي دحرٌ لأعداء ٱلله ومنعٌ لأوليائه ، فٱلله منع أعداءه من أداء فعل يسيء لأوليائه ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [4] ، وقد يتوهم أعداء ٱلله أنهم يمتنعون بما لديهم من عقاب ٱلله لهم ، وهـٰذا غاية الوهم

---

(1) جامع الرسائل ، ج 1 ، ص 356 .

(2) ينظر صحيح وضعيف سنن الترمذي ، 87 .

(3) ينظر صحيح وضعيف الجامع الصغير ، 11202 .

(4) الفيل 1 ـ 5 .

ومنتهاه ؛ لأنه المانع المطلق الذي لا تمنعه موانع ، ولا يرد أمرَه حصونٌ ، ومنْعُه لعزة من يواليه ، ولذلة من يعاديه ، وفي هـٰذا وذاك حكمة بالغة تدفع الخلائق لتسبحه ، وتنزهه ؛ لأنه العزيز بمنعه ، الحكيم بفعله الذي لا يمنع من منعه أولياءه مانع ، ولا يدفعُ منعَهُ لأعدائه عن أذىٰ المؤمنين دافع ، فسبحان العزيز الحكيم المانع القائل في كتابه : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (1) .

وٱلله (شديد العقاب) بمن يحرِّم حلاله ، ويحلِّل حرامه ، وإلاَّ فكيف يكون مصير الكافرين المفسدين ؟ لا يكون إلا بعقابهم بما يليق بما فعلوه من جرائم ، وأليق عقاب لهم جهنم ؛ التي أعدها ٱلله للكاذبين المفسدين المجرمين ، فيقول أعز قائل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (2) ويقول تعالىٰ : ﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (3) ، فشديد العقاب صفة من الصفات التي يصلح بها المجتمع ؛ إذ لو لم يكن ٱلله شديد العقاب ؛ لفعل كل إنسان من مفاسد دون أدنىٰ خوف ، لهـٰذا ـ علىٰ الجانب الإنساني ـ وضعت القوانين الصارمة التي تقوم بردع المفسدين ، وعقابهم دون أن يقول أحدٌ : لماذا وضعتم هـٰذا القانون المبالغ في الشدة ؟ لأن الإجابة ستكون (للصالح العام في الأمة ، أو الجماعة التي وضعت هـٰذا القانون) ، فما بالنا بالصالح العام للبشر ، والحجر ، والشجر

---

(1) الحشر 1، 2.
(2) العنكبوت 68.
(3) الزمر 32.

علىٰ الأرض ، أضف إلىٰ ذلك المخلوقات جواً ، وبحراً ؟ !

ومن المعاني التي لابد من توجيه النظر إليها بالشكل الموجب قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ ، فبطش ٱلله شديد بالمفسدين الضالين ؛ حتىٰ تتهيأ الظروف المناسبة لخلافة ٱلله علىٰ الأرض ، وتعميرها ، وهٰذا المعنىٰ يتفق مع : (شديد العقاب) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [1] فمكره تعالىٰ خير لدحض مكر الكفار الذين أرادوا حبس النبي ، أو قتله ، أو طرده ، فلمنع مفاسدهم الماكرة كان لابد من مكرٍ بالخير لنصرة الخير علىٰ الشر .

مع التأكيد علىٰ أننا لا نقول : إن من أسمائه تعالىٰ : الماكر لما ورد في الآية السابقة ، أو الباني ، والمسوي ، والمغطش ، والمخرج ، والداحي لقوله تعالىٰ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴾ [2] ، ولا نقول بغير ذلك مما لم يرد به دليل نقلي ، أو مما لا يرتضيه العقل الباحث عن الأسماء الحسان لله سبحانه وتعالىٰ .

ثانياً من حيث الدليل النقلي :

لما بحثنا في كتب الصحاح ؛ وجدنا الاسم (المنتقم) مذكوراً عند غير واحد من رجال جمع الحديث ، ومن هٰؤلاء الترمذي [3] : (الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ) وعند البيهقي في سننه [4] : (البر التواب المنتقم العفو) ،

---

(1) الأنفال 30 .
(2) النازعات 27 - 32 .
(3) ينظر سنن الترمذي ، ج 11 ، ص 412 .
(4) ينظر سنن البيهقي ، ج 10 ، ص 27 .

وقد أنصف الحاكم في مستدركه هٰذا الحديث الذي أُخذ عليه تفرد الوليد بن مسلم مع طول الحديث ، وذكره للاسم ـ المنتقم ـ مع عدم ذكره في أحاديث أخرىٰ ، فقال ما نصه :

« هٰذا حديث قد خرجاه في الصحيحين بأسانيد صحيحة دون ذكر الأسامي فيه ، والعلة فيه عندهما : أن الوليد بن مسلم تفرد بسياقته بطوله ، وذَكَرَ الأسامي فيه ، ولم يذكرها غيره ، وليس هٰذا بعلة ، فإني لا أعلم اختلافا بين أئمة الحديث : أن الوليد بن مسلم أوثق ، وأحفظ ، وأعلم ، وأجل من أبي اليمان ، وبشر بن شعيب ، وعلي بن عياش وأقرانهم من أصحاب شعيب ، ثم نظرنا ، فوجدنا الحديث قد رواه عبد العزيز بن الحصين ، عن أيوب السختياني ، وهشام بن حسان جميعاً عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بطوله »[1] . وقد ورد عند البيهقي في كتابه شعب الإيمان في أكثر من موضع[2] ، ونؤكد علىٰ ما جاء في باب أسامي صفات الذات بقوله : « ومنها : (المنتقم) ويختص بعقاب الناكثين »[3] ، وفي صحيح ابن حبان : « المنتقم ، العفو »[4] .

فإذا كان الوليد بن مسلم متهماً ؛ فكيف أورد البخاري في صحيحه ثمانية عشر حديثاً في سندها الوليد بن مسلم . وفي صحيح مسلم تسعة وثلاثون حديثاً في سندها الوليد بن مسلم ؟ ! وعلىٰ الإجمال فقد أورد الموطأ ، ومسند أحمد ، والصحاح الستة له ثلاثمائة وسبعة أحاديث .

ومما تقدَّم نحن نعتمد هٰذا الحديث في ترتيب أسماء ٱلله الحسنىٰ حسب ما ورد في ترتيب الأسماء .

---

(1) المستدرك للحاكم ، ج 1 ، ص 45 .
(2) شعب الإيمان ، 1113 .
(3) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 115 .
(4) صحيح ابن حبان ، 4108 .

إذاً فعدد الأسماء الحسنىٰ التي وردت في حديث الرسول ﷺ تسعة وتسعون اسماً وإن اختلفت الروايات في بعض الأسماء ، غير أن الإجماع علىٰ العدد متفق عليه إذا أخذنا كل رواية علىٰ حدة ، فعندما تُضم هٰذه الروايات إلىٰ بعضها مع حذف المكرر من كل رواية ؛ فإن العدد يصل إلىٰ أكثر من مائة وعشرين اسماً ، ولٰكن جميع الروايات اتفقت علىٰ العدد تسعة وتسعين ، وهٰذا يعني : أن عدة العدد هو قطب الرحىٰ الذي تدور حوله الأسماء ، وتقوم عليه ؛ لأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ كل شيء عنده بحسبان ، وعندما حدد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عدد الأسماء ، وأكَّد عليها ؛ فإن المقصود هو حصر العدد إضافة إلىٰ خصوصية الاسم في الفعل المراد لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « لله تسعة وتسعون اسما ، مئة إلا واحداً لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »[(1)] (والحفظ : القيام بأفعالها ، والتصرف فيها علىٰ ما جاء في الشرع) وهٰذا تأكيد علىٰ خصوصية العدد وقيمته عندما ذكر التسعة والتسعين ، ثم أكّد علىٰ أنها مائة إلا واحدا ، وعلىٰ هٰذا وإن اعتمدنا نحن روايةً بعينها ؛ فهو لا ينافي بقية الروايات وإن اختلفت بعض الأسماء فيما بينها من رواية لأخرىٰ ؛ لأن القصد هو حصر العدد ، وسنبرهن علىٰ ذلك من الأدلة النقلية ، والعقلية .

فالأدلة النقلية جاء بها الكتاب والسنة النبوية ، فٱلله سبحانه وتعالىٰ ذكر أسماءه الحسنىٰ في القرآن الكريم ، وجعلها مطلقة غير مقيدة ، ومجملة غير مفصلة ؛ حيث قال ٱلله تعالىٰ : ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[(2)] فكل اسم حسن هو من أسماء ٱلله تعالىٰ ، شأنها في ذلك شأن كثير مما جاء في القرآن الكريم مجملا ، كالصوم والصلاة والحج والزكاة ، التي فصلها رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام .

---

(1) صحيح البخاري ، 2028 .

(2) الأعراف 180 .

والدليل النقلي الآخر : أن الأسماء مطلقة بصفة الفعل ، ومقيدة بخصوصية العدد هو قوله ﷺ : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك . . . »[1] فنحن لا نستطيع أن نحصر أسماءه جل جلاله ، ولكننا نستطيع أن نقول : إنها أسماء ، وجمال وجلال ، وكمال ، وتنقسم على ثلاثة أقسام :

الأول :

وهو ما علّمه الله لأحدٍ من خلقه ، أي : لأحد دون أحد ، وهنا تكمن خصوصية الاسم مع العدد بما يناسب قدرة التحمل العقلية ، والنفسية على المتحمل للفعل المراد إنفاذه في الإرادة ، فسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام نبي من عند الله تعالى يقول للعبد الصالح : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾[2] ، فالعبد الصالح بما أوتي من علم ، هو مدرك : أن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يستطيع صبراً على ما سيراه من أفعاله وتصرفاته ، وهذا يعني : أن العبد الصالح يتحرك ، ويعمل عن معرفة ؛ بينما لا تزال هذه المعرفة بالنسبة لسيدنا موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ غيباً ، وهذا يعني وجود أسماء مختصة بأفعال معينة تنحصر ضمن العدد في خصوصية حاملها والقدرة على التصرف بها .

الثاني :

وهو الذي أنزله الله في القرآن الكريم هي القاعدة التي يُؤسس عليها العلم بأسماء الله الحسنى ، وحفظها ، وهي سبعة وثمانون اسماً ، ثم إن هناك اثنا عشر اسما أطلقنا عليها المتممات التي ليست بأعيانها ، أي : إنها تختلف

---

(1) مسند أحمد 863 .

(2) الكهف 66 .

من رواية إلىٰ أخرىٰ . وهـٰذه الأسماء الاثنا عشر المتممة للقاعدة التي يؤسس عليها ، هي التي تحمل الخصوصية التي يعلِّمها ٱلله تعالىٰ لأحد دون آخر ، ذلك : أن القدرات العقلية ، والطاقات التحمّلية في الإدراك ، والاستيعاب متفاوتة من شخص لآخر ، وليس بالضرورة أن تكون المتممات هي اثنا عشر بأعيانها ، ففي رواية يكون فيها الدائم ، العالم ، القائم ، الصادق من هـٰذه الاثني عشر . وفي رواية أخرىٰ يكون فيها مثل : السيد ، الراشد ، الجميل . وفي رواية ثالثة لا هـٰذه ، ولا تلك ، مثل : الحنان ، المنان ، ذو الطول ، ذو المعارج ، وجميعها جاءتنا عن الصادق المصدوق ﷺ .

والذي نراه : أن اختلاف بعض الأسماء من رواية إلىٰ أخرىٰ يندرج تحت خصوصية الأسماء بما يناسب المخلوق في احتمال الصفة أو الاسم من أجل الفعل المكلف به لإنفاذ إرادة المشيئة في فعل معين يختص به اسم معين في شخص معين هيّأه الخالق بقدرات تحتمل الاسم ، وتناسب الفعل .

الثالث :

الأسماء التي استأثر بها سبحانه وتعالىٰ في علم الغيب ، ولم يُطْلِعْ عليها أحداً ، أو يُعلِّم بعضاً منها لبعض خلقه لخارقة من الخوارق ، أو أنه استأثر بها لليوم الآخر ، بما يناسب الحياة الآخرة ؛ لما ثبت في الأدلة النقلية من الكتاب ، والسنة : أن الحياة الآخرة لا تخضع للقوانين الطبيعية ، فاستئثاره بها لأمورٍ خارجة عن العادة وتدخل في مجال الخوارق والمعجزات ؛ التي لا نستطيع تحملها في حياتنا الدنيا ، أما في حياةٍ غير حياتنا الدنيا ، كالبرزخ ، والبعث ، والنشور ، ثم الحساب ، والخلود تنتفي الخوارق ، والمعجزات ؛ لأننا نقف علىٰ حقائق كنا نؤمن بها ولا ندركها ؛ لأنها في عالم الغيب الذي فيه الاستئثار بأسماء تختص بالغيب .

فإن كان ٱلله تعالىٰ يرزق العباد باسم الرزاق ، وبالمغيث يغيثهم ، فبأي اسم يطوي السماء حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ

لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [1] ، وبأي اسم يزلزل الساعة ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] . من هنا نستطيع أن نقول : إنّ لله أسماء حسنىٰ كثيرة ، توزعت علىٰ الدنيا ، والآخرة لم نقف عليها وإنما وقفنا علىٰ معانيها من خلال النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية الشريفة ، فصفات مثل الإنزال ، والبثِّ ، والاستقرار ، والاستقلال ، والإرساء ، والإظلام لا ينطبق عليها أيُّ اسم من الأسماء التي وردت في جميع روايات حديث الأسماء ، كونها لا تخص المخلوقين مع وجود أدلة لها .

أمّا خصوصية العدد ؛ فيكمن سر أسماء ٱلله الحسنىٰ في خصوصية العدد المحدد مع ما ذكر من الأسماء التي لا يعلمها إلا ٱلله ، والتزام العدد هو بمثابة درء تعارض العقل مع النقل مما جاء من الزيادة علىٰ العدد المخصوص .

ولقائل أن يقول : ما دليلك علىٰ خصوصية العدد دون كثرة الأسماء ؟

فنقول : الشرع ، فإن قام دليل من الشرع ؛ درأ ما يتعارض مع العقل ، وسوف نعمد إلىٰ كتاب ٱلله تعالىٰ ، ونأخذ أدلة ، ونقيس عليها .

قال ٱلله تعالىٰ في محكم التنزيل : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [3] ، والقرآن الكريم افتتح بالبسملة التي عدد حروفها تسعة عشر حرفاً ، وأول ما قال أهل العلم في ذلك : أن المؤمن يدفع عنه بكل حرف منها ملكاً من ملائكة جهنم ، فيكون من الناجين بإذن ٱلله .

وأما من جهة ثانية ، فإن العدد « تسعة عشر » أو مضاعفاته له شأن عجيب

---

(1) الأنبياء 104 .
(2) الحج 1 .
(3) المدثر 30 .

في القرآن الكريم نستطيع من خلاله أن نقف علىٰ خصوصية العدد ؛ وإن جهلنا السر في ذلك .

إن تعيين العدد وحصره إنما هو سر من الأسرار الإلـٰهية ؛ سواء ما ورد حصره في القرآن الكريم ، أو الأسماء الحسنىٰ ، أو التسابيح ، والأذكار التي وردت عن رسول ٱلله ، عليه الصلاة والسلام ، فهي جميعها معينة ومحصورة برقم محدد دون زيادة أو نقصان للوصول إلىٰ النتيجة التي حُددت من أجلها ، وكذلك عدد الصلوات في اليوم والليلة ، وعدد الركعات ، فهي محددة بعدد محدد لها من الخصوصية التي لا يعلمها إلا ٱلله ، والصيام في الفرض أيام معدودات محددة بعدد قيده الرسول ﷺ تنفيذا لأمر ربه قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (1) ، وكذلك الحج ، فالطواف محدد بعدد ، والسعي بعدد ، وقس علىٰ ذلك ، فالعدد إمّا حدده ٱلله ، أو بينه النبي ﷺ ، وإلاَّ فليقل لنا قائل : من أين عرفنا عدد كل صلاة الصلوات من المفروضة ؟ الإجابة : من النبي ﷺ فهو الذي نفَّذ ، وطبّق في حيز العدد المخصوص والذي أجمعت عليه الأمة ولم تختلف فيه من بعده ، أما النوافل ؛ فمتروكة لمن أراد أن يزيد ، أو ينقص علىٰ قدر طاقته من صلاةٍ ، وصيامٍ ، وعمرةٍ ، وصدقة ، وغير ذلك .

فالأسماء التسعة والتسعون حددها النبي ﷺ في الحديث ، والأسماء الأخرىٰ يمكن الوصول إليها من خلال النص القرآني دون إلحاد في أسمائه

(1) البقرة 183 ، 184 .

تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] .

ومعنىٰ الإلحاد في أسماء ٱلله عزَّ وجلَّ : أنْ يسمُّوا اللاَّتَ نظيرَ اسم ٱلله تعالىٰ . قاله ابن عباس . والعُزَّىٰ نظيرَ العزيزِ . قاله مجاهد . ويسمُّون ٱلله أباً ، ويسمُّون أوثانهم أرْباباً [2] . وفي هـٰذا العصر من ينسب اسماً لله ليس له أصل في الكتاب ، ولا السنة . أعاذنا ٱلله من هـٰذا وذاك !

ولهـٰذا فإن القاعدة هي سبع وثمانون ، التي جاءت في القرآن الكريم ، وينبني عليها اثنا عشر لخصوصية العدد بصرف النظر عمّا ذكرنا من تباين في الروايات (فهو تباين تنوع لا اختلاف) ، وإن أي زيادة لا تكون تعطيلاً ، أو نقصاً ، أو تشويهاً ، فهي تسعة وتسعون اسماً .

إن خصوصية تحمّل الصفات من أسماء ٱلله الحسنىٰ والتصرف بها بالنسبة للمخلوقين إنما تنسجم مع القدرات المؤهِلة للمخلوق في احتمالها عندما يتم له الكشف عنها ، بدليل : أن أولي العزم من الرسل هم خمسة فقط ﴿ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [3] .

وقد استأثر ٱلله تعالىٰ بقسم من الأسماء الحسنىٰ لا يعلمها إلا هو ، واستئثاره هـٰذا لسبب أراده عز وجل في أمر يظهره عندما يريد ، فيلهم من عباده من هو أهل ليطلعه علىٰ اسم من أسمائه تجري به مشيئته علىٰ يد من شاء له .

لهـٰذه الأسباب التي ذكرناها نعتقد بخصوصية ما لأناس مخصوصين يتصفون بصفات مخصوصة في تحمل صفة مخصوصة من تلك الأسماء لإنفاذ

---

(1) الأعراف، 180 .

(2) تفسير الثعالبي، ج 2، ص 82.

(3) الأحقاف30 .

الإرادة ، مع التأكيد علىٰ أن العقل وحده لا يكفي للوقوف علىٰ حقيقة علم الإلـٰهيات لترسيخ قناعة معينة في أمر ما ، غير أن طريق العقل هو المدخل إلىٰ الإيمان الذي يتجاوز العقل وصولاً إلىٰ المسلمات عن طريق الحكمة التي تسلم بالخوارق ؛ إذ إن المعجزات تتجاوز العقل في قدراته الإدراكية .

إن ٱلله جل جلاله هو الأول والآخر ، وهـٰذا يدل علىٰ أنه أحاط بالأزل ، والأبد ؛ لأنه تعالىٰ قبل البدء ، و بعد الانتهاء ، فالأزل و الأبد بالنسبة لنا هو غير متناهٍ ، والذات الإلـٰهية أحاطت بهما ، وهيمنت عليهما ، فمن هنا يكون اسم : (المهيمن) قد استوعب كل الأسماء الحسنىٰ ، ولأن ٱلله تعالىٰ هيمن علىٰ الأزل والأبد ، وتصرف بهما وفق مشيئته . فبالضرورة ترتبط الأسماء الحسنىٰ بعلاقة احتواء الواحد للكل ، والكل للواحد ودون انفكاك . وبالتالي فكونه الأول بلا بداية أزلاً ، والآخر بلا نهاية أبداً ، وقد هيمن عليهما ، فهو مهيمن علىٰ ما انحصر بينهما وجوباً ، وعملية الحصر هـٰذه تؤدي بالنتيجة إلىٰ الإحصاء ، فطالما : أنه حصرها ؛ فقد أحصاها ضرورة ، إذاً فهو المحصي .

وبين اسمي : المهيمن ، والمحصي (خارج الزمان والمكان) تعددت أسماء وصفات ٱلله الحسنىٰ ، فإن قَدَّم (الرحمـٰن ، الرحيم ، الملك ، القدوس) فهو من باب كرم ٱلله ورحمته عز وجل . ونحن في كلامنا هـٰذا لم نخالف أسس العقيدة في سبر أغوار البحث في الأسماء الحسنىٰ متمسكين بأصول التوحيد وقواعد الاستنباط ، معتمدين الدليل النقلي الذي جاء به الشارع ، واستنبطنا منه دليلاً عقلياً يدعم رأينا فيما نذهب إليه بالصفات النسبية للخليفة .

ونرىٰ ضرورة توضيح نقطة هامة للقارئ الكريم عندما يدخل في صلب هـٰذا البحث ، وهي : أن يُنحِّي الزمن جانباً بالنسبة للذات الإلـٰهية ؛ لأن ٱلله تعالىٰ هو المهيمن ، والمحصي ، والخالق ، والرزاق ، والقابض ، والباسط ، والمحيي ، والمميت ، والنافع ، والضار في آنٍ معاً خارج الزمان ، والمكان .

ومن هٰذه الأسماء توالت النعم علىٰ الخلق ، وإنما هي ناتجة عن فعل أو صفة ، وهٰذه النعم منها ما هو مادي ملموس ، كالأموال ، والأولاد ، والمتاع . ومنها ما هو شعور إدراكي ينتاب النفس الإنسانية مثل : الإيمان ، والأمن ، والفرح . ومنها ما هو قيم جمالية ، وأخلاقية ، وكل فعل لله نعمة ، فالانتقام نعمة مفضية إلىٰ الخير ؛ لأنها صادرة عن المنتقم الذي لا تدل أسماؤه إلا علىٰ الخير وعلىٰ الموجب بالمطلق ، فالانتقام نعمة علىٰ من تقع عليه من المؤمنين ، ومن غير المؤمنين ، فهو للمؤمن تزكية من ذنب لأجل مغفرة بعد توبة ، وندم فهو موجب ، وهو لغير المؤمن موجب ؛ لأنه يفضي بالنهاية إلىٰ إدراك الحقيقة ، ثم الإيمان بٱلله الذي قد يؤدي به إلىٰ الفوز بمغفرة ٱلله ، وبرحمته بعد أن يمر بمراحل هي :

1 ـ لحظة القبض : في هٰذه اللحظة حيث لا يزال غير المؤمن علىٰ قيد الحياة تبدأ أولىٰ خطوات الإدراك ، حيث يشعر : أن الوعد الذي كذّب به من قبل قد تحقق ، فيطلب مزيدا من الوقت للتراجع عن الإنكار كما يذكرنا قول الحق سبحانه وتعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ (1) .

2 ـ لحظة الندم ، والأمل ، وفيها يترسخ الإدراك بحقيقة ٱلله ، وصدق وعده فيقوىٰ الإيمان بٱلله ، وتبدأ عبارات الندم ، كما يخبر عنهم مولاهم الحق : ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (2) ، فهم إلىٰ جانب ندمهم موقنون آملون في ٱلله الذي أدركوا صدق وعده لأن يعيدهم ليعملوا الخير ، والصالح من الأعمال .

---

(1) المؤمنون 99، 100 .

(2) السجدة 12 .

3 ـ لحظة الإيجاب ، وفيها يحصل الإدراك التام والمطلق بٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فيبدأ رجاء العارف برحمة ٱلله وعطفه يتصاعد من أفواه جحدت ربها : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (1) .

فالنتيجة إذاً لفعل الانتقام خيرٌ ؛ حيث ترسخ الإدراك ، والإيمان بٱلله سبحانه وتعالىٰ في نفوس تملكها الشك في غابر أيامها ، وليس أدل علىٰ هٰذا من صورة فرعون وقد حل به الانتقام ، يقول المنتقم سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (2) .

ومن هنا تعاظمت النعم من حيث الكم والعدد ، فخرجت عن الحصر والإحصاء ، وطالما : أننا لا نستطيع أن نحصي نعمه تعالىٰ التي هي أصلاً صادرة عن صفة ذات ، أو صفة فعل من الأسماء الحسنىٰ ، فبالضرورة : أن أسماء ٱلله الحسنىٰ لا يعلمها إلا هو من حيث الكثرة والعدد ، وبالتالي فإن المخلوق أعجز من أن يحصي أسماء الخالق .

وينبغي أن يكون واضحاً للقارئ الكريم : أننا بشر من خلق ٱلله نفكر علىٰ قدر ما أوتينا من عقل ، والذي هو عبارة عن سلسلة من الأفكار ، كما أن الإرادة عبارة عن سلسلة الأفعال الصادرة عنا ، وبين سلسلة الأفكار ، وسلسلة الأفعال تكون ملكات العقل الخمس محدودة ، وهي : الإدراك ، والحافظة ، والاستنتاج ، والذاكرة ، والإرادة .

وبما أن الإدراك متفاوت بين الخلق من جانب ، وكذلك المدركات منها

---

(1) الأعراف 50 .

(2) يونس 90 .

ما هو مدرك ، ومنها ما هو غير مدرك ، وبعضها محال من جانب آخر ، بسبب حدود الملكات المتناهية ، وبما أن الإدراك محدود ؛ فبالضرورة ستكون المدركات محدودة ، وهـٰذا ينسحب علىٰ بقية ملكات العقل من الحفظ ، والاستنتاج ، والتذكر ، والإرادة . فنحن لا نحصي من نعمه تعالىٰ إلا بقدر عقولنا ، مما يترتب علىٰ ذلك أننا لا نحصي من أسمائه إلا بقدر هـٰذه العقول ، ويكفينا من ذلك أدلة الخلق ، وأدلة العناية مما جاء في القران الكريم ، ونأخذ مثلاً واحداً جمع الدليلين في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (1) ، هـٰذه الآية وحدها دليل خلقٍ ، وعناية ورعاية ، وتدبير ، وهو كثير في القران الكريم ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (2) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (3) . هـٰذه الأدلة تتضمن كل ما عداها من أدلة قديمة كانت أم حديثة رغم اختلاف أساليب التعبير والتسميات بحسب اختلاف البيئة والزمان ، ففي صورتها السهلة البسيطة : يدل الأثر علىٰ المؤثر ، وفي صورتها الكلامية اللفظية : كل حادث لابد له من مُحدِث ، وفي صورتها الفلسفية القديمة : الممكن والواجب ، وفي صورتها الفلسفية الحديثة : شعور الوجدان ، أو فكرة الكمال . ونحن نستغني عن كل هـٰذا بقوله تعالىٰ : ﴿ لَوْ

---

(1) البقرة 164 .
(2) الروم 19 .
(3) الروم 21 .

كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [1] ، فلم يقل (سوىٰ) ولم يقل (غير) حتىٰ لا يُتوهم : أن هناك إلـٰه سواه ، فقد جاءت (إلا) أداهُ حصر للألوهية في ذات ٱلله ، ونفيها عمن سواه ، صورة منطقية في منتهىٰ القناعة من حيث تصوير الخلق والعناية به وتدبير أموره علىٰ تفاوت هـٰذا الخلق من ناطق ، وجامد ، ونامٍ ، وكذلك اختلافه في الحجم ، والشكل ، والصورة ، وفي الأخلاق ، والطبع ، والفطرة ، فلو كان إلـٰه مع ٱلله ﴿ لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ من هنا نقول : إن وحدة الصنع ، وشمول العناية ، وحكمة التدبير دليل علىٰ وحدانية الإلوهية ، وهـٰذا يعني : أن اسماً من أسماء ٱلله الحسنىٰ يشمل أكثر من صفة ، فالرحمـٰن رحيم ، والرحيم لطيف ، واللطيف خبير ، والخبير معين ، والمعين رؤوف ، والرؤوف حفيظ ، والحفيظ عليم ، والعليم محيط ، والمحيط محصٍ ، والمحصي مبديء ، والمبديء معيد ، وهـٰكذا ، فلو تأملت الذات التي جمعت هـٰذه الأسماء ؛ لوقفت علىٰ التداخل العجيب بين أسمائها وصفاتها بحيث إن الصفة الواحدة تتداخل مع غيرها بشكل لا يسمح انفكاك بعضها عن بعض ، ولا يطغىٰ بعضها علىٰ بعض ؛ لأنها تصدر عن ذات واحدة ، وهـٰذا دليل علىٰ وحدانية ٱلله ، ومصداق قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [2] وهـٰذا هو المضمون الامتدادي الذي يشمل جميع أسماء ٱلله تعالىٰ وصفاته بدءاً من لفظ الجلالة الذي هو اسم علم للذات الإلـٰهية ، ومن ثَمَّ ينتهي إليه .

---

(1) الأنبياء 22 .

(2) الحشر 22ـ24 .

وبهـٰذا نخلص إلىٰ مصداق قوله تعالىٰ : ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (1) فبالضرورة أنكم لا تحصون صفات الذات الإلـٰهية التي صدرت عنها تلك النعم .

وأما أن كل صفات ٱلله تعالىٰ قد تضمنها القرآن الكريم ؛ فهـٰذا أمر فيه نظر وتدقيق ، حيث إن ٱلله تعالىٰ استأثر بقسم من هـٰذه الأسماء في علم الغيب لا نعلمه كما جاء في حديث رسول ٱلله ﷺ ، فإن كان عليه الصلاة والسلام عَلِمَ : أن ٱلله تعالىٰ استأثر في علم الغيب بأسماء حجبها عن خلقه في الحياة الدنيا ، وأخبرنا بهـٰذا الاستئثار ؛ فنحن نأخذ بما آتانا رسول ٱلله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (2) ، لأن ما أخبر به الرسول هو الحق في نفسه ، لا يختلف باختلاف عقائد البشر وأحوالهم ، ولا يتغير بتقادم الزمان ، فهو الحق الذي لا يقبل النقيض ، ولهـٰذا : كل ما عارضه فهو باطل .

ومن المعلوم : أن الأمة أجمعت علىٰ ما جاء به الشرع من دلائل الإيمان بٱلله تعالىٰ ، وأسمائه ، وصفاته ، وكل ما عارض الشرع فالعقل يعلم فساده ؛ وإن كان معقولا ، فالكفر ، والإيمان من المعقولات ، والعقل يظهر فساد الكفر وصلاح الإيمان بأدلة عقلية علىٰ هـٰذه المعقولات ، وفوق ذلك : إن ما جاءنا من أسماء ٱلله الحسنىٰ هو منقول بالتواتر كحروف القرآن ، والصلوات ، وما إلىٰ ذلك من الأقوال والأعمال عن رسول ٱلله ، عليه الصلاة والسلام ، أي : الألفاظ والأفعال ، فلكل لفظ معنىٰ ، ولكل فعل مقصد ، فجاءت ألفاظه وأفعاله ، ومعاني ألفاظه ومقاصد أفعاله متواترة عند الأمة ، منها ما هو عام مشهور بين الناس كالعبادات ، ومنها ما هو خاص بأهل الذكر

---

(1) إبراهيم 34 .

(2) الحشر 7 .

كالعقائد والإلـٰهيات ، فإن كان مجهولاً للعامة ؛ فهو معلوم للخاصة بالتواتر .

لقد ثبت : أن الاعتماد علىٰ العقل وحده للوصول إلىٰ حقائق علم الإلـٰهيات لم يجدِ نفعاً ، بدليل : أن المتكلمين من أهل الرأي والنظر ، والفلاسفة الذين يعمدون إلىٰ المنطق والبرهان في سياق الأدلة لم يزعم أحد منهم أنه اتصل بالذات الإلـٰهية ، أو تم له الكشف . والسبب في ذلك : أن هـٰذا الطريق مدخله اليقينيات عن طريق القلب ، وجميع هـٰؤلاء اتخذوا العقل سبيلاً إلىٰ مبتغاهم ، فعجزوا .

وننبه إلىٰ أنَّ موسوعتنا في أسماء ٱلله الحسنىٰ توجه لأصنافٍ عدَّةٍ ، منهم : علماء الدين ، والفلاسفة ، وطلاب العلم ، وخاصَّةً المسلمين وعامتهم ، وأهل الفكر والرأي ، وأهل الديانات الأخرىٰ ، فمن وجد شيئاً أغلق عليه ؛ فهو لغيره ، لا ينكره حتىٰ يتبين مخرجاً لنفسه ، أو مدخلاً يلج منه إلينا ، فمعاني الأسماء الحسنىٰ منها ما يعود علىٰ ٱلله ، ومنها ما يعود علىٰ الخلق . ونعلم : أن الكلمة تأتي بمعنىٰ حقيقي ومجازي ، أو تنصرف إلىٰ دلالة أخرىٰ لا علاقة لها بما نبحثه .

إن البحث العقلي في علم الإلـٰهيات وما وراء الطبيعة أمر طبيعي للمفكرين الذين نشؤوا في بيئة خالية من الدليل النقلي ، أما بالنسبة للبيئة التي وجد فيها النص دليلاً نقلياً ؛ فإن البحث العقلي والضرورات العقلية تقوم علىٰ خدمة النص الإلـٰهي بالبراهين العقلية لدرء معارضة العقل للنقل ، وهـٰذا ما سلَّمت به العقول الحكيمة .

وأما عن علاقة الإنسان بأسماء ٱلله الحسنىٰ واستخلافه في الأرض دون غيره ؛ فإن ٱلله تعالىٰ خلق خلقه واختص من بين هـٰذا الخلق الإنسان ؛ ليستخلفه في الأرض ؛ لذلك خلقه في أحسن تقويم .

وقد يتساءل البعض : لماذا الإنسانُ دون غيره من المخلوقات؟ وما علاقة

أسماء ٱلله الحسنىٰ بذلك؟ وللإجابة علىٰ هـٰذا السؤال نقول :

إن ٱلله خلق الملائكة من نور ، فالملائكة لم يُخْتَلَفْ في أصل خلقها ، وليس يخفىٰ علىٰ أحد من نعمة ٱلله في خلق الملائكة لتبليغ الوحي للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ من أجل هداية الناس ، وليسوا مقتصرين في أفعالهم علىٰ ذلك القدر ، وطبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات : الملائكة الأرضية ، والسماوية ، وحملة العرش ، وكلٌّ مكلف بعمل مخصوص لا يتعداه ، ولا يطلب منه غيره ، فمنهم أهل التسبيح ، ومنهم الحفظة ، ومنهم الكتبة ، ومنهم ما لا يعلم تكليفه إلا ٱلله . أي : إنه خلق الملائكة الغيبيين ؛ ليباشروا مهمة غيبية محددة في الحياة .

و خلق الجانَّ من مارج من نار ، والجان الذي هو من المارج لا استقرار له ، كما أن المارج لا يستقر .

وأما الإنسان اختلف خلقه علىٰ أربعة أنواع من الخلق : فخلق آدم لا يشبه خلق حواء ، وخلق حواء لا يشبه خلق سائر بني آدم ، وخلق عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يشبه خلق أحد مما ذكر ، وإن كانت أنواع الخلق تعود إلىٰ أصل واحد ، والأصل الذي منه خلق الإنسان ، وهو التراب ، والماء ، والنار ، والهواء ، وذكر ٱلله تعالىٰ العناصر التي خلق منها آدم ، عليه الصلاة والسلام ، ونبَّه علىٰ أنه جعله إنساناً في سبع مراحل ، وأشار إلىٰ ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة ، فقال في موضع : خَلَقَه من تراب إشارة إلىٰ المبدأ الأول ، وفي آخر : من طين إشارة إلىٰ الجمع بين التراب والماء ، وفي آخر : من حمأٍ مسنون إشارة إلىٰ الطين المتغير بالهواء أدنىٰ تغير ، وفي آخر : من طين لازب إشارة إلىٰ الطين المستقر علىٰ حالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة ، وفي آخر : من صلصال من حمإٍ مسنون إشارة إلىٰ يبسه ، وسماع صلصلة منه ، وفي آخر : من صلصال كالفخار ، وهو الذي قد أُصلح بأَثر من النار فصار كالخزف ، وبهـٰذه القوة النارية حصل في

الإنسان أثر من النارية ، وعلىٰ هـٰذا المعنىٰ دلَّ بقوله : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ . فنبه علىٰ أن الإنسان فيه من القوة النارية بقدر ما في الفخار من أثر النار . ثم نبه ٱلله علىٰ تكميل الإنسان بنفخ الروح فيه ، فقال : ﴿ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ . فهـٰذه سبع مراحل نبّه عليها بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (1) .

ثم دلَّ علىٰ تكميل نفسه بالعلوم والآداب بقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي أوجدها حالةً بعد حالة ، فنبه علىٰ أنه جعلهم أناساً في سبع مراحل ، وأشار إلىٰ ما جعل له من قوة العقل ، والفكر ، والنطق ، والإرادة .

ولم يذكر في غير نشأة الإنسان قط تسوية ولا تعديلاً ؛ لأن التسوية والتعديل لا يكونان معاً إلا للإنسان ، ولم يكن ذلك لغيره من المخلوقين من العناصر ، ثم قال له بعد التسوية ، والتعديل : (كن) فكان الإنسان .

وبسبب اختلاف خلق الإنسان عن الجن ، والملائكة بما يحمل من العناصر المتباينة تميَّز بهـٰذه التقلبات ، والأهواء ، والتغايرات بين الرضا والغضب ، والحزن والفرح ، والقناعة والطمع ، والإيمان والكفر ، والحزم والتردد ، والكرم والبخل ، والشجاعة والجبن ، والخوف والحرص ، وما إلىٰ ذلك من التناقضات التي يحملها بين جوانحه ؛ إذ إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يواجهك بموقف يختلف عن سابقه وعن لاحقه في لحظة واحدة بموجب هـٰذه التناقضات ، فكل خصيصة من هـٰذه

(1) المؤمنون 12 ، 14 .

الخصائص النفسية تحتاج إلىٰ نوع من العلاج في موقف ما لا يجدي معها غيره أبداً .

ولما كان الإنسان يحمل هٰذه التغايرات التي أودعها ٱلله به ؛ فقد جعله مفكراً عاقلاً مختاراً ، وجاءت الأسماء الحسنىٰ علىٰ ما نعتقد بهٰذا التعدد وفق اختصاص الاسم لمواجهة موقف ، أو نيل طلب ، أو إنفاذ أمر شاءه ٱلله بإرادته ، فكانت السبعة والثمانون اسماً هي القاعدة التي يبنىٰ عليها اثنا عشر اسماً مضافاً إليها الاسم المختص بالفعل المراد إنفاذه ، فتصبح تسعة وتسعين اسماً .

إن حقيقة فهم الأسماء الحسنىٰ يؤدي إلىٰ ربط تأثير دلالاتها بالأخلاق الإنسانية وبالحضارات علىٰ مستوىٰ البشرية جمعاء .

ولمعرفة حقيقة هٰذا الأثر يجب بادئ ذي بدء أن نُقرَّ بحقيقةٍ مفادها : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ ربُّ العالمين جميعاً ، فهو الخالق لكل ذات ، ولأنه خالق كل ذات فهٰذا يفضي إلىٰ نتيجة ؛ هي : أنه سبحانه أثر في كل ذات ، لاسيما الإنسان الذي تتجلىٰ في صورة خلقه وأخلاقه أعظم آيات الخالق ، عز وجل ، وقبل الشروع في بيان أثر أسمائه الحسنىٰ في الأخلاق الإنسانية نذكِّر ببعض الثوابت ، وهي :

1 ـ ٱلله رب العالمين بالمطلق : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (1) .

2 ـ ٱلله سبحانه خالق كل شيء : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (2) .

---

(1) الشعراء 23، 24.

(2) الزمر 62.

3 ـ ٱلله أحسن خلق المخلوقات جميعاً : ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [1] .

4 ـ ٱلله خص الإنسان بحسن التقويم : ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِىٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ﴾ [2] .

وهٰذه الثوابت تفضي ـ ولا شك ـ إلىٰ حقيقة وجود ٱلله سبحانه وتعالىٰ في يقين كل ذات آمنت ، أم كفرت ، فالمؤمن يؤمن بوجود ٱلله ، والكافر ينفي وجود موجود ، ولو لم يكن موجوداً ؛ لما احتاج الكافر إلىٰ نفي وجوده . تنزه سبحانه عما ينفون ، ويشركون !

من هنا نقول : إن أسماء ٱلله الحسنىٰ التي لا تدل إلا علىٰ الخير والموجب بالمطلق لابد لها أن تكون قد أثرت في صيرورة الأخلاق الإنسانية وتشكلها في هيئة المثل العليا .

فقد قامت المجتمعات الإنسانية علىٰ أخلاق الفضيلة والخير ، وبلغت أرقىٰ مستويات تطورها عندما نهجت مساراً تطبيقياً لمضامين الخير التي تدل عليه الأسماء الحسنىٰ أكمل دلالة ، حتىٰ وإن لم تنخرط في عبادة الواحد الأحد ، وانهارت هٰذه المجتمعات عندما اختارت ترك الفضائل ، والعمل بالرذائل .

فكلما اختارت المجتمعات مضامين الخير والفضيلة المجسدة في أسماء الخالق عز وجل ؛ ارتقت ، وليس أدل علىٰ ذلك من حركة التحول من الهمجية إلىٰ المدنية المتحضرة ، فالمدنية في الحقيقة هي انتهاج واضح لمعاني الخير والفضيلة التي لا تدل عليها إلا الأسماء الحسنىٰ التي تشع بالخير والفضائل ؛ لتنير طريق الإنسانية جمعاء .

والفرد في منظومة المجتمع المتحضر يتصرف في إطار دلالات الأسماء

---

(1) السجدة 7.

(2) التين 4.

الحسنىٰ بشكل إرادي ولا إرادي ، بشكل إرادي عند المؤمن ؛ لأنها قائمة في وعيه ، فهو دائم التحري لمعانيها ، وشديد الحرص علىٰ العمل بمضامينها ، وعند غير المؤمن الخاضع للمجتمع بشكل لا إرادي ؛ إلا إذا اختار عدم الانتماء إلا لذاته ، وعند ذاك يصبح حالة شاذة لا يقاس عليها .

فسلوك الفرد في أي مجتمع ينطلق من الوعي الجمعي ؛ لأنه لا يمكن للفرد إنشاء كيان مستقل بقيم فردية ، فالأفراد يخضعون لنظم المجتمع .

وفي قراءة شاملة لاختيارات المجتمعات الإنسانية لنظمها نجد أثر الأسماء الحسنىٰ واضح وجلي في مسيرة هـٰذه المجتمعات ، فالعدل مثلاً نظام اختارته المجتمعات الإنسانية في كل بقاع الأرض وباتفاق جمعي في الوعي واللاوعي ، في الوعي من خلال النظم التي أقرتها المجتمعات ، وفي اللاوعي من خلال تشكل صورة مشوهة وقبيحة للظلم . هنا نسأل : ما هو مصدر هـٰذا العدل ؟ أليس اسم ٱلله العدل ، وهـٰذا مثال لبقية واسعة من القيم الأخلاقية التي تسود المجتمعات الإنسانية ، وتدل عليها أكمل دلالة أسماء ٱلله الحسنىٰ .

إن قراءةً في ماهية الأخلاق الإنسانية وطبيعة استمدادها للقيم وتوحدها في المجتمعات المختلفة تاريخياً وفكرياً وعقدياً تؤدي إلىٰ نتيجة مؤداها : أن مصدر هـٰذه القيم واحد ، ولا شك : أنها الأسماء الحسنىٰ .

فقد توحدت اختيارات الإنسان في مرحلته المدنية بانتقاء قيم الفضيلة ؛ لأنه أدرك من خلال التأمل في مبدأه ومنتهاه ومصيره وسعادته وشقاه وعلاقته بمن حوله وبالكون صلاحيتها للقيام بأمر إعمار الأرض ، ولو تأملنا طبيعة الاختيار ؛ لوجدناه متطابقاً عملياً مع مضامين الأسماء الحسنىٰ ، مطلقاً أحياناً ، ونسبياً أحياناً أخرىٰ ، وذلك عائد إلىٰ طبيعة المجتمعات ونوع عقائدها والىٰ الفهم التام لمضامين الخير التي تدل عليها الأسماء الحسنىٰ ، فنحن لا يمكن أن نبحث عن تطبيق المضامين في مجتمع مستغلق ، بل نجدها في كل مجتمع اختار الانفتاح في البحث عن مضامين الخير والفضيلة .

وقد أثرت الأسماء الحسنىٰ في الأخلاق الإنسانية بطريقين أساسيين : الأول إيماني وتطبيقي ، وذلك بجعل مضامين الأسماء حاضر في وجدان المؤمن وفي لحظة التطبيق في آن واحد ، وهٰذا يمكن تلمسه في المجتمعات المؤمنة بٱلله سبحانه وتعالىٰ والواعية بأسمائه وصفاته ، والثاني تطبيقي ، وذلك في المجتمعات غير المؤمنة ، فأيُّ نظرة فاحصة إلىٰ مسيرة هٰذه المجتمعات تدلك بلا شك إلىٰ تأثير الأسماء الحسنىٰ فيها من خلال النهج الذي تنهجه في تسير شؤون حياتها بتحري قيم العدل ، والحق ، والرحمة ، والمساواة ؛ لأنها الأصلح لها في تسير شؤون حياتها ، فطبيعة الاختيار لم يكن خياراً تفضيليّاً ، وإنما خياراً حتمياً تبعاً لتجربة متحققة ، فمضامين الأسماء الحسنىٰ هي وحدها تصلح للقيام بأمر تسيير الحياة وأمر الإعمار ومن ثم الاستخلاف ؛ لما فيها من الفضائل والخير والموجب بالمطلق .

نخلص إلىٰ القول : إن أسماء ٱلله الحسنىٰ أثرت في مسيرة الأخلاق الإنسانية ، وذلك لسببين رئيسيين هما : الأول : حتمية الاختيار . وذلك يرجع إلىٰ مضامين الأسماء الحسنىٰ فلا خيار تفضيلي يمكن أن يدفع بالبعض إلىٰ اختيار مؤثر آخر يكون مورداً ننهل منه قيمنا في كل العصور ، والثاني : الانجذاب السلوكي لمفاهيم الأسماء الحسنىٰ ؛ لما فيها من كمال ، وهي بالتالي قادرة علىٰ منحنا القيم التي نحتاج إليها في تحقيق الخلافة علىٰ الأرض .

ولا يشك الباحث العاقل فضلاً عن الباحث العالم : أن في هٰذا الكون محاور ثابتة وأسس راسخة ومبادئ قائمة استعصىٰ علىٰ سائر البشر سبل البحث العلمي في الوصول إلىٰ حقيقة ماهيتها عن طريق التجربة والمشاهدة علىٰ مر الأزمنة والعصور ، ولم يستطع أيٌّ من البشر إلحاق النسخ بها أو إدخال أي تعديل عليها ، حتىٰ تكوَّن في هٰذا الاتجاه منهجٌ من الاستقراء التام أصبح دليلا بديهيا لدىٰ الجميع علىٰ أنها نواميس ثابتة راسخة ، ليس من شأنها أن

تتطور أو تتبدل ، تلك هي فطرة ٱلله التي فطر عليها خلقه .

قال ٱلله تعالىٰ في محكم التنزيل : ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾ (1) وفطرة ٱلله تعالىٰ التي فطر عليها الناس والكون هي التوحيد الذي هو رأس العقل ومدار الخير في الدنيا والآخرة ، بالرغم مما أوجد فيها من الخير والشر .

وقد يتساءل : لماذا شاءت إرادة ٱلله تعالىٰ أن يجعل هـٰذه الحياة الدنيا مزيجاً من الخير ، والشر ، والإنعام ، والحرمان ، والصحة ، والآلام ، والأفراح ، والأحزان ، وقد كان قادراً علىٰ أن يجعلها مزدانة بأسباب اللذة ، والسرور ، والصحة ، والعافية وحدها صافية عن الأكدار ، والآلام ؟

بل لماذا كلَّف الإنسان بحمل هـٰذه الأثقال والأعباء كلها ؛ حتىٰ أصبح يعيش مهيضاً حائراً تحت وطأتها ، ولم يكن مستحيلاً علىٰ ٱلله تعالىٰ أن يحمّله نعمة العقل دون أن يربط به ذيولاً من النتائج المؤلمة . بل لماذا كانت المعرفة مقرونة بنكد الحياة ومصائبها ؟

نقول : إن إرادة ٱلله تعالىٰ شاءت أن يكون الإنسان من أعظم مظاهر إلوهيته سبحانه وتعالىٰ ، وأبين لسان ناطق بسر الوجود كله . والشكل الذي شاءت حكمة ٱلله أن يظهر فيه ذلك كله ، هو عمارة الأرض باستخلافه فيها من خلال الاتصاف النسبي للإنسان بالأخلاق التي أمر بها سبحانه وتعالىٰ والمتمثلة في أسمائه الحسنىٰ ، جل جلاله .

ثم إن قوام مشقات الحياة التي تقوم بإعمار الأرض ، وتنهض بالتكاليف الإلـٰهية علىٰ أساسها هما أمران اثنان : مغريات يراد من الإنسان الصمود لها والصبر عليها ، وخيرات يراد منه الشكر عليها والكف عن الاستغراق فيها .

---

(1) الروم 30.

وكلاهما يدخل تحت قاسم مشترك من مشقات الابتلاء ، والامتحان ، والاختبار لمقياس التخلق بأخلاق ٱلله في هـٰذه الحياة وشدائدها . فقد قال تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (1) ، فليس معنىٰ الشكر ما قد يظنه البعض من تحريك اللسان بالحمد والثناء ، وإنما إضافة إلىٰ ذلك ، بل وقبل ذلك أيضاً ، هو أن يسخر الإنسان جميع ما أنعم ٱلله به عليه لما قد خلق من أجله ، أي : ألا يستعمل شيئاً من تلك النعم في أمر غير مشروع نهىٰ ٱلله عنه عباده . وليس هـٰذا فقط ، بل عليه أن يستخدمه في سبيل المبدأ الذي خلق من أجله (الاستخلاف) ، فإن لم يفعل ذلك وانحرف في الاستفادة من تلك النعم عن هـٰذا الصراط الذي ألزمه ٱلله به ؛ انقلبت النعمة كلها وبالاً وشقاء عليه فيما بعد .

وعرَض الدنيا ، وكل ما فيها من مظاهر الغنىٰ ، والترف ، والزخرف ، والفنون ، والمفاخر الدنيوية المختلفة هي من المباحات للمؤمن ، وغير المؤمن . فقد يمنحها ٱلله تعالىٰ عباده الصالحين وأعداءه الجاحدين ، وإنما العبرة بتلك الحالة التي إذا ارتقىٰ إليها العبد ، وجعل من كل ما تطوله يداه من الدنيا وأسبابها سلماً لبلوغ مرضاة ٱلله عز وجل ، وذلك بإتباع أوامر ٱلله ، والامتناع عن مناهيه ؛ لأنه تخلق بأخلاق ٱلله تعالىٰ ، واتصف بالصفات الحسان ، فجُعل خليفة .

والعبد الذي وصل إلىٰ هـٰذه الحال هو سعيد ؛ وإن رأيته يعاني ـ فيما تظن ـ ألواناً من المصائب والمآسي ، وهو قوي ؛ وإن رأيته ـ في وهمك ـ ضعيفاً لا يملك ما يخيف منه أحداً أو يدفع عنه عدواً ، وهو غني ، وإن تبدّىٰ لك في ظاهر حاله : أنه فقير مهين .

وعلىٰ هـٰذه المبادى والقيم والأخلاق المستمدة من صفات أسماء ٱلله

---

(1) الملك 1 ، 2 .

الحسنىٰ يمتد الأمر علىٰ ذلك في إعمار الأرض لمن استمسك بتلك القيم ، فتساق إليه الدنيا ، ويخضعها لحكم ٱلله ، ومنهج دينه ، وسلطان شريعته دون أن تتعلق منه بنفس أو تسيطر له علىٰ فؤاد .

فإذا اختلف الأمر ، وتراخت القيم ، وتسلل حب الدنيا إلىٰ قلوب البشر ؛ انطلقوا يتنافسون فيها ، ويتباهون بزخرفها ، ويضعونها من حياتهم في موضع الصدارة من الاهتمام ، تقلصت القوة من حياتهم ، ونزعت الرهبة التي كانت تخيف الآخرين منهم ، فيتفرق أمرهم بعد تآلف ، ويتشتت جمعهم بعد اتحاد ، فما علاقة ذلك في بناء الحضارات وانهيارها؟

إنَّ جملة القيم الأخلاقية تنضوي تحت مسميين اثنين ، هما : الخير ، والشر ، فما كان من باب الخير يندرج في القيم الأخلاقية السامية ، وما كان من باب الشر فهو من القيم الأخلاقية المتدنية ، وعلىٰ هـٰذا تنقسم إلىٰ ما هو أخلاقي ، وغير أخلاقي ، والأخلاقي هو ما ألفته النفس الإنسانية ، واطمأنت إليه وإن لم تفعله ، وغير الأخلاقي هو ما أنفت منه ؛ وإن فعلته ، وهـٰذه فطرة الإنسان التي جُبل عليها بصرف النظر عن سلوكه ، وممارساته .

ويبقىٰ أمر مهمٌّ لا بدَّ من الإشارة إليه في عملية البناء الحضاري لأي مجتمع ، ألا وهو الذات ، فلابد لأي تجمع إنساني يتطلع إلىٰ بناء حضارة من الاهتداء إلىٰ الذات ، وتحقيق مقومات هـٰذه الذات ، وطبيعي أننا لا نعني الذات البشرية التي تتكون من مقومات الإنسانية العامة التي يتساوىٰ فيها الناس جميعاً . وإنما نعني المقومات الفكرية ، والاعتقادية ، ومن ثم السلوكية التي تنسج الذات الحضارية ، وتورث لدىٰ التمسك بها كل ما يمكن تملكه من مقومات الاستمرار ، وهـٰذه المقومات بالنسبة لنا تتمثل في أصول اعتقادية تشرح لنا حقيقة الكون ، والإنسان ، والحياة ، وتملأ بذلك ساحة الفراغ الفكري ، والنفسي من خلال هـٰذه الأصول ، ثم إن وحدة الاعتقاد لابد لها أن تثمر وحدة السلوك المنسجم مع واقع كل من الكون ، والإنسان ، والحياة ،

والتخلق والتحلي بصفات الأسماء الحسنىٰ يحقق هٰذه العلاقة بشكل متوازن ، يفضي بالنتيجة إلىٰ الغاية المرجوة في تحقيق خلافة الإنسان .

إن ٱلله تعالىٰ الذي أراد للإنسان أن يكون خليفة له في الأرض أوضح له السبل ، وبين له المقاصد ، وسخر له الأدوات والوسائل وفق فطرته وجبلته التي خلقه عليها من أجل إنجاز ما هو مكلف به من الخلافة والإعمار ، فشرع له قانون الخير ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (1) فهٰذه جوامع قوانين الحق والعدل ، دعوة إلىٰ الخير ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، فهو منهج ٱلله وشريعته إلىٰ خلقه من أجل الوصول إلىٰ السعادة ، ونقصد بالسعادة : المواءمة بين متطلبات الدنيا ، ومرجوات الآخرة وصولاً إلىٰ التحلي بما أمر ٱلله به ، والتخلي عما نهىٰ ٱلله عنه ، فإذا ترفع الإنسان عن هٰذه الأخلاق المتدنية ؛ أصبح عمله مجرداً عن التنافس خالصاً لله ، وبذلك يخلق بصفات الأسماء الحسنىٰ التي أمر بها الخالق عز وجل من الحق ، والعدل ، والرحمة ، واللطف ، وما إلىٰ ذلك . وطالما أن الإنسان وصل إلىٰ هٰذه المرحلة ، واستمسك بهٰذه الخَلاق ؛ فقد وصل إلىٰ البناء الفكري الحضاري ، فالحضارة أصبحت لديه وجود قوة ، وهي مجموعة العوامل المعنوية (قيم أخلاقية سامية) والمادية (الأشياء الحسية) التي تنتج حضارة ، وتخرجها إلىٰ وجود الفعل .

ونحن عندما نتكلم عن الحضارة وفق منهجنا ، نقصد الحضارة التي تنتج عن أثر اتصاف الخليفة بالأسماء الحسنىٰ وفق هٰذه الأسس ، ولا نعني بها التجمعات العمرانية المجردة عن أثر الروحانيات ، تلك التي تصل إلىٰ أوج عظمتها من التقدم في الصناعة ، والزراعة ، والعمران ، والخدمات ، ومباهج الحياة المادية من الترف ، والبذخ ، ولٰكن كما قال ٱلله تعالىٰ في محكم

(1) آل عمران 104 .

التنزيل : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [1] ، فهـٰذا هو الأساس القويم في الوصول إلىٰ حضارة يكون نتاجها المدنية الإنسانية التي يكون أثر الأسماء الحسنىٰ أساسها ، والخلافة غايتها .

وبصرف النظر عن الأسباب التي ساقها ابن خلدون في مقدمته ، والتي تركزت في جملتها علىٰ القضايا المادية ، ومجموعة من القيم العلمية في (الصنائع) تنتج العمران ، والمأكل ، والمشرب ، والملبس ، وهو الأساس العام لأيِّ حضارة إنسانية .

غير أن هـٰذه الأسباب والأسس التي تقوم عليها الحضارات ، هي نفسها مدعاة لانهيارها وأُفولها حال فقدان التوازن الناتج عن فائض الحاجة الذي يؤدي إلىٰ البذخ ، والترف ، واللَّهو ؛ بحيث تُهمل الأساسيات ، وينصبُّ الاهتمام علىٰ القشور (الكماليات) من التباهي ، والتفاخر الناتج عن الشعور بالعظمة والكمال ، وفائض الحاجة ، فتبدأ عملية الانحدار ، فالأُفول ، ثم التلاشي .

وأما الذي نراه : أن النظر في الوجود المطلق مما هو وراء الحس من الروحانيات ـ وهو التحلي بصفات الأسماء الحسنىٰ ـ يعطي الحضارة التي تتمسك بهـٰذه الخصائص أسساً قوية في الاستمرار أكثر من غيرها ، ونقول : أكثر من غيرها احترازاً ؛ لأنه لا يمكن لأيّة حضارة أن تستمر إلىٰ ما لا نهاية ، ولـٰكن تبقىٰ القضية نسبية ؛ إذ إن الأجيال المتعاقبة لا تبقىٰ علىٰ أخلاق أسلافها . وبتبدل الأخلاق تتبدل القيم ، وإذا تبدلت القيم ؛ تغيرت العلاقات ، وأصبحت النظرة إليها نظرة جديدة ، وبالتالي يصبح التعامل معها وفق المفهوم الجديد مما يؤدي إلىٰ رفض الماضي علىٰ أنه قيمٌ بالية ، ويتوجه الاندفاع للتعلق بما هو جديد .

---

(1) القصص 77.

ولا شك : أن تعدد الأسماء والصفات مثير لمكامن الفكر ؛ وهو يسبر أغوار الحقيقة الباحثة عن ماهية الذات ، وموجبات تعدد أسمائها ، وصفاتها ، فقد أنكر البعض وجود التعدد أصلاً مخافة شبهة الإشراك ، وذهبوا في ذلك مذاهب متعددةً منها :

1 ـ إن تعدد الصفات يعني تعدد الذات ، وكأنَّ الذي زين لهم ذلك الحرصُ علىٰ توحيد ٱلله تعالىٰ ، وتنزيهه عن العدد والكثرة ، فكان نزغة من نزغات الشيطان وإلا فمن يقول : إن تعدد الصفات تدل علىٰ تعدد الذات أيا كانت تلك الصفات [1] ؟ !

2 ـ إن الصفة عين الموصوف ، وإن كل صفة عين الصفة الأخرىٰ ، وهـٰذا موجب للتعدد . وهـٰذه مكابرة في المعقولات ، فإن من المعلوم بضرورة العقل ، والحس : أن الصفة غير الموصوف ، وأنَّ كل صفة غير الصفة الأخرىٰ فالعلم غير العالم ، والقدرة غير القادر ، والكلام ، غير المتكلم ، كما أن العلم ، والقدرة ، والكلام صفاتٌ متغايرة .

قولهم : « إن إثبات صفات متغايرة مغايرة للموصوف يستلزم التعدد » قول باطل مخالف للمعقول ، والمحسوس ، فإنه لا يلزم من تعدد الصفات تعدد الموصوف ، فها هو الإنسان الواحد يوصف بأنه حيٌّ ، سميع ، بصير ، عاقل ، متكلم إلىٰ غير ذلك من صفاته ، ولا يلزم من ذلك تعدد ذاته [2] .

قولهم في الأسماء : « إن إثباتها يستلزم أن يكون متصفاً بمعنىٰ الاسم ، فيقتضي أن يكون إثباتها تشبيهاً » جوابه : أن المعاني التي تلزم من إثبات

---

(1) محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل ، 136.

(2) ابن عثيمين ، المجلىٰ شرح القواعد المثلىٰ من شرح القواعد المثلىٰ في الأسماء والصفات الحسنى ، ص 107.

الأسماء صفات لائقة بٱلله تعالىٰ غير مستحيلة عليه ، والمشاركة في الاسم ، أو الصفة لا تستلزم تماثل المسميات ، والموصوفات [1] .

وقد ردَّ كثير من العلماء علىٰ هـٰذه التناقضات الفكرية ، وتناولوها بالنقد والتحليل ، فالإنكار يرفضه العقل ، ولا ندري ماذا يقولون في أنفسهم؟ فالواحدُ منهم يوصفُ بأنه عالمٌ ، وغنيٌّ ، وصانعٌ ، وتاجرٌ . والواحدُ منهم له عِدَّةُ صفاتٍ ، هل معنىٰ ذلك أن يكونَ عِدَّةَ أشخاصٍ ؟؟!! . هـٰذه مكابرةٌ للعقولِ ؛ فلا يلزمُ من تعددِ الأسماءِ والصفاتِ تعدُّدَ الآلهةِ ، ولهـٰذا لمَّا قال المشركون من قبلُ لَمَّا سمعوا النبي ﷺ يقول : (يا رحمـٰن ، يا رحيم) قالوا : هـٰذا يزعم : أنه يعبدُ إلـٰهاً واحداً ؛ وهو يدعو آلهةً متعددةً ، فأنزل ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ قوله : ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [2] ، فأسماء ٱلله كثيرة ، وهي تُدلُّ علىٰ كمالِه وعظمتِه سبحانه وتعالىٰ ، ولا تدلُّ علىٰ تعدُّدِ الآلهةِ ـ كما يقولون ـ بل تدلُّ علىٰ العظمة ، والكمالِ لله وحده [3] .

« إن وصف ٱلله تعالىٰ بصفات الإثبات أدل علىٰ الكمال من وصفه بصفات النفي ؛ لأن الإثبات أمر وجودي يقتضي تنوع الكمالات في حقه ، وأما النفي فأمر عدمي لا يقتضي كمالاً إلا إذا تضمَّن إثباتاً . وهـٰؤلاء النفاة لا يقولون بنفي يقتضي الإثبات » [4] .

ويذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلىٰ« أن اتصاف الذات بالصفات اللازمة لهـا توحيـدٌ فـي الحقيـقة » [5] .

---

(1) المرجع السابق 107 .
(2) الإسراء 110 .
(3) المناهج والفرق، ص 232 .
(4) ابن عثيمين، المجلىٰ شرح القواعد المثلىٰ من شرح القواعد المثلىٰ في الأسماء والصفات الحسنى، ص 107 .
(5) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، الرسالة التدمرية، ص 118 .

أما الذاتُ المجرَّدةُ التي ليس لها صفاتٌ ؛ فهـٰذهِ لا وجودَ لها ، مستحيلٌ وليس له صفاتٌ أبدًا ، ولو علىٰ الأقل صفة الوجود [1] .

وربما يمكن لنا أن نناقش قضية تعدد الأسماء والصفات من جانب عقلي لمعرفة حقيقة التعدد ، وموجباته للذات الواحدة : أولاً : يجب البحث في ماهية الذات ، ولابد لهـٰذا النمط المعرفي من سلسلة افتراضات ، هي :

هل الذات جزء لكلٍّ ؟

هل الذات كلٌّ لأجزاء ؟

هل الذات مطلق ؟

لمناقشة الافتراض الأول نقول : لا يمكن أن تكون الذات جزءاً لكلٍّ ؛ لأن ذلك يقتضي وجود كلٍّ يتجزأ منه بفعل إرادي ، أو لا إرادي ، وبزمن استغراقي يتمخض لا محالة عن وجود أجزاء مكملة .

والذات منتفٍ عنها هـٰذا ، فلا توالد أوجدها ، ولا أوجد لها ، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [2] ، فالإيجاد (لم يولد) معناه حدوث وإقرار بأسبقية سواه عز وجل ، والتوالد (لم يلد) معناه الاشتراك في الصفة والحكم والفعل وهو ما ذهب إليه أصحاب الثالوث ، ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [3] .

(1) كتب المناهج والفرق، ص 232.
(2) الإخلاص 3.
(3) النساء 171.

وهٰذا ادعاء مجٌّ لا يقبله العقل ؛ لان الاشتراك يوجب أن تكون الأجراء المكونة للكل بذات القدرة علىٰ الإتيان بفعل واحد في برهة واحدة وبجودة متطابقة كليةً ، وهٰذا وهم وقع فيه أصحاب هٰذا الادعاء ؛ لأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ يفوق عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالمطلق ، ويعجز عيسىٰ عن أن يكون بعض ذات ٱلله بالمطلق ، وهو ما أقر به لسانه ﷺ كما يخبرنا العليم ، عز وجل ، فيقول : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [1] ولذا فإن الخالق لا يقارن بالمخلوق ، وذلك لانعدام التماثل ، وهٰذا مرتبط بخلق عيسىٰ ﷺ فهو يمرض ، ويجوع ، ويغضب ، ويهلع ، ويضعف ، ثم بعد ذلك هو يموت ، فمن أين جاء الاشتراك مع ٱلله في صفة ، أو حكم ، أو فعل ؟ !

فالذات ليست جزءاً ، وهٰذه الأسماء والصفات لم تكن أسماء وصفاتٍ لأجزائها .

فهل تكون كلا لأجزاء كما في الافتراض الثاني ؟

هٰذا غير ممكن أيضاً ؛ لأن الكل قابل للتجزئة بكل حال من الأحوال ، مما يفضي إلىٰ وجود أجزاء متحدة للتكوين ، وهو يستلزم وجود قوة رابطة للأجزاء ، وكل ذلك محتاج ـ ولابد ـ من استغراق الزمن للتكون ، والاتحاد ، ثم بعد ذلك يتوجب اتفاق الأجزاء ، وهو أمر مستحيل كما يخبرنا الخبير ، عز وجل : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن

(1) المائدة 116، 117 .

دُونِهِۦٓ ءَالِهَةًۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [1] .

بقي الفرض الثالث (المطلق) وهو يليق بوصف الذات ؛ لأن المطلق يدل علىٰ الماهية بلا قيد [2] ، أي : ينتفي عن الوصف بالمطلق البداية والنهاية ، والزمن واستغراقه ، كما أن المطلق لا يحتويه الحيز ، وهو محتويه .

والمطلق يوجب اتصاف الذات بإطلاقية الفعل ، فإذا كان الفعل مطلقاً تعددت الأسماء والصفات الدالة علىٰ الذات ، ومختلف فعلها .

فما هي طبيعة التعدد ؟ وما هو تفسيره ؟

للإجابة نقف عند حقائق التعدد ، وهي :

1 ـ إن هٰذه الأسماء والصفات لا تدل علىٰ متعددٍ لمختلف ، فكل هٰذه الأسماء والصفات تدل علىٰ ذاتٍ واحدة ، هي ذات ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، وقد أكسبها تعددية الصفة الفعل المختص المطلق ، وهو الفعل الذي لا يمكن لمخلوق الإتيان به بالمطلق ، فكل الصفات يقابلها فعل مخصوص مطلق للذات ، فلو قلت : الكريم صفة لله دل ذلك علىٰ كرمٍ مطلق لم يرتق إلىٰ مرتبة فعله أحد ؛ وإن سعىٰ ؛ لأن فعل الإكرام منه سبحانه عام ودائم ، فهو مطلق ، بينما إكرام البشر للبشر منقطع ، فلا يليق أن يكون الإطلاق وصفاً له لانقطاعه .

ومن أمثلة ذلك المعجزات : فقد دلَّت المعجزات الإلـٰهية علىٰ الفعل المطلق المخصوص به وحده ، جل في علاه ، وهي كثيرة أكبر من قدرتنا علىٰ

(1) الأنبياء 21ـ24.
(2) محمد عبد الرءوف المناوي ، التوقيف على مهمات التعاريف ، ص 1663 .

الإحصاء ، ولـٰكن نذكر خلق السمـٰوات والأرض ، وخلق الإنسان ، فهما يكفيان العاقل لبيان مفهوم الفعل المخصوص المطلق .

والمعجزات هي فعل مختص علىٰ وجهين :

الأول : الأداء .

والثاني : التفرد .

وفعل ٱلله معجزة بالنسبة لنا وليس بالنسبة للفاعل ؛ لأنه صاحب الفعل .

وعليه فإن امتلاك الذات للفعل المختص المطلق أكسبها عديد الأسماء والصفات التي تدل عليها وعلىٰ فعلها ، فهي متعددٌ لواحد .

2 ـ لا تـدل الأسمـاء الحسنـىٰ علـىٰ التـرادف ؛ لأن التـرادف يعنـي التكرار ، ويقبل الاستغناء ، ويسمح بالاستبدال ، وهو بعيد كل البعد عن حقيقة الذات وطبيعة فعلها ، فالرحمـٰن ، والرحيم ، والرءوف تدل علىٰ محتوىٰ متقارب غير متطابق بفعل المضمون الامتلائي لدلالاتها ، ولو كانت متطابقة لكانت عبارة عن مترادفات تعاني من الخواء المضموني ، تنزه في علاه عن ذلك ! وكان هـٰذا الأمر من أحد أهداف هـٰذه الموسوعة حيث سيتجلىٰ للقارئ الدلالات الخاصة لكل اسم وصفة بما يميز بين كلٍّ منها .

3 ـ وهـي لا تـدل علـىٰ التضـاد ، فحيـن نقـرأ فـي الأسمـاء والصفات : (المانع والمعطي ، النافع والضار ، والمنتقم والرؤوف) نعلم : أنه لا تضاد في هـٰذه الأسماء والصفات ؛ لأن الضد يوجب التناقض ، وٱلله منزه عنه ، جلَّ شأنه !

فكيف نفسرها ؟

نقول : إن هـٰذه الصفات حقٌّ ، ومن حقٍّ ، ولحقٍّ . فالنافع هو الذي يفعل ما ينفع المخلوقات بالإيجاب والسلب ، فهو بالحياة ينفع وبالموت ينفع ، وكذلك الضار بفعل الضرر يضر وينفع ، وهـٰذا هو التوازن الحاصل في

الصفة الواحدة بما يمنع التناقض في داخلها ، وكذلك الأمر بالنسبة للصفات المتعددة حيث ترتبط بعلاقة التئام لا علاقة انفصام تفضي بها إلىٰ التضاد ؛ لأنها دالة علىٰ ذات واحدة غايتها الحق وإحقاقه ، فإذا توحدت الغاية ؛ انتفىٰ التناقض بالفعل .

فالضدُّ إذاً مصطلح لا يتسع دلالياً لاحتواء أسماء ٱلله وصفاته ، ذلك أن مطلقية الصفة المفردة يمنحها الاتساع الدلالي المعبر عن تنوُّع أجزاء الفعل ، واختلاف طرق أدائه .

فكل اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ هو كمال في ذاته ، مكتفٍ بدلالاته لبيان المضامين والصفات التي يشع بها الاسم الحسن ، فاسم ٱلله كمال بذاته ، لا يحتاج إلىٰ ما يتم به معناه ، فلا موجب لذكر اسم النافع عندما يذكر اسم الضار ، لأن في كلٍّ من الضار والنافع دلالاته التي تؤدي معناه ، بشكل تام ، فمسألة الاقتران الشرطي لاسم بآخر فيها من الإيحاء بحاجة الاسم إلىٰ غيره لبيان معناه ، وهي إشارة غير مباشرة إلىٰ وجود نقص من نوع ما في اسم ، وآخر(حاشا لله !) . ونعتقد أن هـٰذا أمر لا يليق بالأسماء الحسنىٰ ، فقد ذهب الإمام الجليل ابن تيمية إلىٰ شرط اقتران اسم باسم في الذكر ، والدعاء ، فقال : « إذا ذكر باسمه الخاص قرن بالخير كقوله في أسمائه الحسنىٰ الضار النافع المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل ، فجمع بين الاسمين لما فيه من العموم ، والشمول الدال علىٰ وحدانيته ، وأنه وحده يفعل جميع هـٰذه الأشياء ، ولهـٰذا لا يدعىٰ بأحد الاسمين كالضار والنافع والخافض والرافع بل يذكران جميعاً »[(1)] .

ثم يفصل القول مدللاً علىٰ ذلك بقوله : « وكذلك الأسماء التي فيها ذكر

(1) منهاج السنة النبوية ابن تيمية ، 5410 .

الشر [1] ، لا تذكر إلا مقرونة ، كقولنا : « الضار النافع ، المعطي المانع ، المعز المذل » أو مقيدة ، كقوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [2] ، وكل ما خلقه ـ مما فيه شر جزئي إضافي ـ ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك ، مثل إرسال موسىٰ إلىٰ فرعون ، فإنه حصل به التكذيب ، والهلاك لفرعون وقومه ، وذلك شر بالإضافة إليهم ، لـٰكن حصل به ـ من النفع العام للخلق إلىٰ يوم القيامة ، والاعتبار بقصة فرعون ـ ما هو خير عام ، فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به ، كما قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ بعد ذكر قصته : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴾ [4] ، وكذلك محمد ﷺ ، شقي برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب ، وهم الذين كذبوه ، وأهلكهم اللّه تعالىٰ بسببه ، ولـٰكن سعد بها أضعاف أضعاف هـٰؤلاء » [5] .

وتابعه كثير من المحدثين في عرضهم للأسماء الحسنىٰ باقتران شرطي ، فهم يتحدثون عن اسم المعز واسم المذل في آنٍ واحد ، كأنهم يقولون : إنه لا يمكن الحديث عن اسم المعز دون اسم المذل . ونعتقد : أن هـٰذا غير دقيق . فكل اسم من الأسماء الحسنىٰ له كمال الدلالة الذي يوضح معانيه ويبرز الصفة الأكمل له والصفات الحسان الأُخر ، وكل اسم مستقل بإظهار صفة محددة يدل عليها أكثر من صفة أخرىٰ ؛ وإن تضمن ذات الاسم عديد

(1) ناقشنا قضية الخير المطلق في أسماء الله الحسنى في عرضنا لاسم المنتقم ودلالاته في المقدمة وفي متن الموسوعة .
(2) السجدة 22 .
(3) الزخرف 55 - 56 .
(4) النازعات 26 .
(5) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ص 223 .

الصفات ؛ لـٰكن تبقىٰ هناك في كل اسم صفة أساسية يدل عليها ، فاسم الرحمـٰن يدل علىٰ مطلق الرحمة بشكل أساسي ، ويحمل في دلالاته صفات أخرىٰ ، كالرأفة ، واللطف ، والمغفرة ، والرزق ، وغير ذلك مما يليق بٱلله ، وبأسمائه الحسنىٰ .

وهـٰذا دفعنا إلىٰ الكتابة عن كل اسم من الأسماء الحسنىٰ بشكل مستقل ، مستهدين ومؤمنين بما توصَّلنا إليه من حجج واضحة في مناقشة قضية الاقتران الشرطي للأسماء .

4 ـ تدل علىٰ الفعل الظاهر . فالأسماء والصفات تدلنا علىٰ الفعل الظاهر له سبحانه وتعالىٰ ، فنقول : رزاق ؛ لأنه يرزق من يشاء . وهو فعل ظاهر ، ونقول التواب ؛ لأنه أخبر عن نفسه بذلك فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] ، فإذا وضح الفعل ؛ غاب الترميز ، فكانت معرفتنا بهـٰذه الأسماء والصفات ، وإيماننا بها للظهور ، أو الإخبار ، أما الفعل الباطن ؛ فنحن لا ندرك كنهه ، بل نعرف الفعل البين الظاهر ، ونؤمن بالقدرة علىٰ الإتيان بالفعل الباطن ؛ لأننا نعرف أن من أسمائه سبحانه وتعالىٰ (الباطن) فوجب علىٰ ذلك وجود فعل باطن لا نعرفه اختص به سبحانه وتعالىٰ لنفسه ، أو لمن اصطفىٰ من خلقه ، وهو ما أخبر عنه المصطفىٰ صلوات ٱلله وسلامه عليه فقال : « اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ، ابْنُ عَبْدِكَ ، ابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمِكَ ، نَافِذٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلِمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجِلاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ غَمِّي » .

5 ـ ذات مضمون امتدادي . سبق القول بالمطلقية ، وتم تأكيد ذلك

(1) البقرة 160 .

فيما سبق ، والمطلقية تعنىٰ : الامتداد اللامنتهي ، فكل صفة من الصفات ذات مضمون امتدادي ، وعلمنا به ينتهي في لحظة انتهاء القدرة ، أما لحظة التجاوز إلىٰ المساحة المحجبة عنا ؛ فمقرونة بإرادة الذات .

وبعد هٰذا العرض يبدو جلياً : أن التعدد مصدره تعدد فعل ذات واحدة مما قابل ذلك أسماء وصفات تدل علىٰ فعل الذات الواحدة وصفاتها .

وقد قمنا بعملية إحصاء استدلالي لهٰذه الأسماء والصفات في القرآن الكريم نهدف من خلاله إلقاء الضوء علىٰ أنماط ورودها ، وهي كالآتي :

أولاً : الذكر نصاً . ورد في القران الكريم خمسة وخمسون اسماً من أسمائه الحسان بالنصِّ ، هي : (ٱلله ، الرحمٰن ، الرحيم ، الملكُ ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبِّر ، الخالق ، البارئ ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، السميع ، البصير ، اللطيف ، الخبير ، العظيم ، الغفور ، العليُّ ، الكبير ، الكريم ، الرَّقيب ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الوليُّ ، الحميد ، الحيُّ ، القيوم ، الواحد ، الصمد ، القادرُ ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، المتعال ، البرُّ ، التواب ، مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، الغني ، الوارث) ، ويظهر اسم (ٱلله) بما يفوق كل الأسماء الأخرىٰ ، فقد ورد في ألفين وسبع وخمسين آية كريمة ، تلاه اسم العليم ، ثم الرحيم ، ثم الحكيم ، ثم العزيز ، ثم الغفور ، ثم الرحمٰن ، ثم السميع ، فالبصير ، والخبير ، وهٰكذا تأتي بقية الأسماء متفاوتةً في عدد مرات الذكر في آيات القران الكريم .

ثانياً : الذكر الدلالي . أي : أن يرد في آيات القران الكريم ما يدل علىٰ الاسم ، وهو علىٰ نمطين :

1 ـ **الدلالة بالفعل** : وذلك بأن تتضمن الآيات الفعل الدال علىٰ الاسم بشكل مباشر ، مثل اسم المعز ، والمذل ، فعندما نقرأ قول ٱلله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ

وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] ؛ لا شك نعرف : أن من أسماء ٱلله الحسان اسم المعز ، واسم المذل ، وهٰذا ينطبق علىٰ ستَّة عشر اسماً هي : (القابض ، الباسط ، المعزُّ ، المذلُّ ، الحكم ، الباعث ، المؤخر ، المحصي ، المبدئ ، المعيد ، المحيي ، المميت ، المقسط ، الهادي ، الباقي .

2 ـ **الدلالة بالصفة** : وذلك بأن يُعرف الاسم من خلال ذكر الصفة الدالة عليه ، وهي ستة عشر اسماً ، هي : (الشكور ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، المجيب ، الواسع ، الشهيد ، المقتدر ، الحليم ، العفوُّ ، المنتقم ، الرؤوف، الجامع ، النور ، الوالي ، البديع) .

وبهٰذا يكون العدد المذكور في القرآن هو سبعة وثمانون اسماً ، أما تتمتها ؛ فلم يذكر في القرآن ، وإنما ذكر بنصِّ حديث الترمذي ؛ الذي اعتمدناه في الموسوعة ، وهي : (الخافض ، العدل ، الجليل ، الواجد ، الماجد ، المقدِّم ، المغني ، المانع ، الضارُّ ، النافع ، الرشيد ، الصبور) .

بقي أن نثير فيك سؤالاً حتمياً أيها القارئ ، مفاده : ما الفرق بين الاسم ، والصفة ؟ وما هي أسماء ٱلله جل في علاه ؟ وما هي صفاته ؟

لا بد للإجابة علىٰ هٰذا السؤال من تقرير حقائق لا يمكن إغفالها ؛ لكي يتحصل المعلوم غير المدرك ، وهي :

أولاً : إن ذات ٱلله لها أسماء ، ولها صفات ، وهي غير متطابقة في دلالتها ، فالاسم دال علىٰ الذات ، والصفة دالة علىٰ بعض أحوالها [2] ، ولو كان الاسم والصفة بذات المعنىٰ ؛ لأمكن الاستغناء عن أحدها ، والاكتفاء بالآخر ، وسيكون الاسم بالتأكيد باقياً ؛ لأن ٱلله اختاره ، فقال عز

---

(1) آل عمران 26 .

(2) التعريفات ، الشريف الجرجاني ، ص 143 .

وجل : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (1) .

ثانياً : ذكر ٱلله جل وعلا في كتابه الحق : أنَّ له أسماء حسنىٰ في كل الآيات المحكمات التي ذكَّرنا فيها سبحانه وتعالىٰ بأسمائه علىٰ سبيل الجمع : (الأسماء) ، وعلىٰ سبيل الإفراد (اسم) ، وهي علىٰ النحو الآتي :

أولاً : ذكر الأسماء الحسنىٰ بصيغة الجمع دلالة قاطعة علىٰ تعدُّدها :

ـ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (2) .

ـ ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ (3) .

ـ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (4) .

ـ ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (5) .

ثانياً : ذكر الاسم بدلالة المفرد تذكيراً ، وتعليماً بسبل دعوته سبحانه وتعالىٰ ، فأولىٰ الذكر والدعاء ما كان بأسمائه :

ـ ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (6) .

---

(1) طه 8 .
(2) الأعراف 180 .
(3) الإسراء 110 .
(4) طه 8 .
(5) الحشر 24 .
(6) الرحمن 78 .

ـ ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴾ [1] .

ـ ﴿ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [2] .

ـ ﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ [3] .

ـ ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [4] .

وفي مقابل ذلك لم تذكر الصفات ولا في آية واحدة بالنصِّ ، مما يوجب أن تُعرف بالتأويل .

ثالثاً : إن ما تعارف عليه البعض من وصف الأسماء بأنها صفاتٌ مخالفٌ لقول ٱلله سبحانه وتعالىٰ ، فربما توهم البعض بأن الرحمـٰن صفة لله ، وهو غير ذلك بنص الرحمـٰن جل شأنه ، يقول عز من قائل : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ [5] ، فالرحمـٰن اسمه ، جل في علاه ، كما تدل الآية ، وهي حجة قاطعة لكل اجتهاد ، وليس صفة من صفاته ؛ وإن غلبت عليه صفة الرحمة ، فاصطبغ بها .

إذا عرفنا هـٰذا ؛ فكيف نفرق بين الأسماء والصفات ؟

اعلم : أن « الاسم هو ما دل علىٰ معنىٰ في نفسه دلالة مجردة عن الاقتران » [6] ، وهو كل كلمة دلت علىٰ معنىٰ في نفسها ، ولم تقترن بزمن [7] ، أما الصفة فهي المشتق للدلالة علىٰ معنىٰ [8] ، وهي ما دل علىٰ

---

(1) المزمل 8 .

(2) الإنسان 25 .

(3) الأعلى 1 .

(4) الواقعة 74 .

(5) الإسراء 110 .

(6) المفصل في صنعة الإعراب ، الزمخشري ، ص 11 .

(7) شرح متن الاجرومية ، ص 122 .

(8) المذكِّرَات النَّحْوِيَّهْ شَرْح الأَلفيَّهْ الدّكتور عبدالرَّحمن بن عبدالرَّحمن شُمَيْلَة الأَهدل ، =

بعض أحوال الذات [1] ، فأنت حين تقول عن إنسان : إنه كريم ؛ فأنت لا تقصد بهٰذه الصفة كل أحوال الذات ؛ لأن الصفة عبرت عن بعض أحوال الذات ، فهو إلىٰ جانب كرمه شجاع وهو أيضاً صادق وغير ذلك ، فالصفة لا تعبر عن كل أحوال الذات ، فإذا عرفنا هٰذا ؛ وجب القول بأن الاسم غير الصفة (ولله المثل الأعلىٰ) .

فما هي أسماء ٱلله وما هي صفاته ؟

لا شك : أن أسماء ٱلله هي ما أخبر عنها هو سبحانه وتعالىٰ في كتابه العزيز بالنصِّ ، فقال : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [2] ، ثم ما جاء في حديث النبي ﷺ « الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الأَوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّءُوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ » وقد سبق تناول الحديث بإسهاب .

ويمكن ملاحظة : أن الأسماء في النص القرآني ، وفي متن الحديث جاءت بذات المبني اللفظي ؛ أي : علىٰ سبيل اقتران الـ : (أل) في كل

= ص 145 .

(1) التعريفات، ص 143 .

(2) الحشر 22ـ24 .

الأسماء ، ونعتقد : أن (أل) هـٰذه من أصل الاسم وليس مضافة إليه ؛ لأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ معرفة لا يحتاج إلىٰ من يعرفه أو إلىٰ ما يكسب اسمه صفة المعرفة ، وعليه نجزم : أنها ليست أداة تعريف ، وإنما هي من أصل الاسم ، وإليك الدليل : (هُوَ اللهُ) فحاول إذا كنت تعتقد أنها مزيدة للتعريف يمكن الاستغناء عنها أن تستغني عنها في اسم (ٱلله) ، فإذا عجزت ؛ فاعلم : أن ما ينطبق علىٰ اسم ٱلله ينطبق علىٰ بقية أسمائه الحسنىٰ .

أما إذا قيل : هـٰكذا قواعد اللغة! نقول : إن قواعد اللغة لا تنطبق علىٰ أسماء ٱلله ؛ لأنها هي الأصل ، فهو الذي علَّم اللغة ، والبشر هم الذين وضعوا قواعد لها ، فعلمه مطلق ، وأحكام البشر نسبية ، وقد عالجنا هـٰذا الموضوع في قضية اشتقاق أسماء ٱلله ، فرددنا كل قول يقول : إن اسم ٱلله مشتق ، وقلنا : إنه أصل وكل ما بعده مشتق منه ، ولو أخذنا بما يقول علماء اللغة الأجلاء ، وطبقناه علىٰ الأسماء الحسان ؛ لوقعنا في محظور خطير ، فهم يقولون : الشيء لا تعرفه نفسه ؛ لأنه لو كان بنفسه ؛ لما احتيج إلىٰ تعريفه بـ : (أل) أو بالإضافة [1] ، فهل يمكن لعاقل أن يطبق هـٰذا الحكم علىٰ أسماء ٱلله وصفاته؟! وهل يليق بالذات الإلـٰهية أن تكون نكرة تحتاج إلىٰ ما يعرفها ؟ !

وذهب بعض الكوفيين إلىٰ جعل الألف واللام في اسم ٱلله تعالىٰ جاءتا للتفخيم والتعظيم . نُقل عن سيبويه : أن الألف واللام في هـٰذا الاسم الشريف للتعظيم كما تقدَّم عن بعض الكوفيين [2] .

هنا لنسأل أصحاب العقول أيهما أقوىٰ في تعظيم ٱلله : الاسم المقترن بـ : (أل) أم ما جاء بدونه ؟ والإجابة بالتأكيد ستكون ما نسبه ٱلله سبحانه إليه

---

(1) المحكم والمحيط الأعظم المؤلف ابن سيده ، ص 1118 .

(2) الجنى الداني في حروف المعاني ، ابن أُمّ قَاسِم المرادي ، ص 133 .

من أسماء في الآيات الكريمة ، أو في أحاديث الرسول الأكرم محمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، وكلها معرف لا تحتاج إلىٰ ما يعرفها ، فالألف واللام من أصل الاسم .

ولهٰذا أختار أن ندعو ٱلله في هٰذه الموسوعة بأسمائه الحسنىٰ بنصها الذي ورد في القرآن الكريم ، وفي الحديث الشريف ، إيماناً منا بأن الواجب أن ندعو ٱلله بأسمائه كما أمرنا ﴿ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾ ، ولم نخالف في ذلك حتىٰ قواعد اللغة ، فقد أجمع عدد من علماء اللغة علىٰ جواز الجمع بين يا وأل من غير الضرورة [1] ، والكوفيون يجيزون الجمع بين يا و أل مطلقاً [2] ، عليه دعونا بالأسماء الحسنىٰ ، ونعتقد أن من الأولىٰ أن ندعو ٱلله بها لأنها أسماءه الدالة عليه هو ، أما الصفات فإنها تدل علىٰ بعض أحوال الذات ، من هنا تأتي أولوية الدعاء بأسماء ٱلله الحسنىٰ لا بصفاته ، ومثل ذلك القسم ؛ فهل الأولىٰ أن تقسم باسم ٱلله أم بصفته ؟

أما ما جاء من هٰذه الأسماء بدون الألف واللام مثل : (رحمٰن ، ورحيم ، وقادر ، وحي ، وقيوم ، ولطيف ، وواحد . . .) ، فنعتقد : أنها هي الصفات التي تضمنتها أسماؤه ، فالصفات إذاً متضمَنة في الأسماء ، فرحمٰن صفة تضمنها اسم الرحمٰن ودل عليها ، وكذا بقيتها ، وليس أدل علىٰ ذلك من قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ [3] ، فـ : « لطيف » صفة من صفات ٱلله ، أما القوي ، والعزيز ؛ فهما من أسمائه الحسان جل في علاه ، وهو ما يوضحه السياق في الآية بشكل جلي ، والىٰ ذلك ذهب صاحب كتاب القائد إلىٰ العقائد في شرح

(1) النحو الوافي ، عباس حسن ، ج4 ، ص36 .
(2) السابق ، ج4 ، ص34 .
(3) الشورى 19 .

صفة : « واحد » فقال : « وأما اسم ٱلله تعالىٰ (الواحد) فلفظ (واحد) يراد به في اللغة ما يقابل المتعدد ، ومن تتبع مواقعه في القرآن وغيره من الكلام العربي الفصيح ؛ وجده يأتي وصفاً لموصوف ويكون هناك شيء محكوم عليه بالموصوف مع وصفه ، فعدم التعدد يكون للمحكوم عليه باعتبار الموصوف »[1] ، وهـٰكذا بقية الصفات (رحيم ، كريم ، عظيم ، بديع ، مصور) وغيرها من الصفات الحسان .

كما يمكن الاستدلال عقلياً علىٰ كونها صفات ، وليست أسماء ، فكلها توصف في الحكم اللغوي بأنها (نكرات) لأنها بدون (أل) التعريف إذ اعتقد البعض : أن أل في الأسماء الحسنىٰ هي للتعريف ، وفي قواعد اللغة « محال وصف النكرة بالمعرفة »[2] . وهـٰذا يتعارض إلىٰ حد الانتفاء مع حقيقة الذات التي تدل عليها ؛ لأنها ذات معرفة لا تنكير لها ، فحكم التنكير ، والتعريف لا ينطبق علىٰ الأسماء الحسنىٰ ، ولا علىٰ الصفات ؛ لأنها كلها معارف ودالة علىٰ معرفة ، ولأنه محالٌ أن يكون الشيء الواحد معرفة ونكرة في حالٍ واحدة[3] . تنبلج حقيقة قاطعة مفادها : أن أل في الأسماء من أصل الاسم ، وهي لا تؤثر فيه فتكسبه التعريف ، كما إن سلبها لا يكسب صفة التنكير .

من هنا وجب أن تكون هـٰذه ليست بأسماء للذات المعرفة ، فماذا يليق بها؟ يليق أن نطلق عليها صفات تدل عليها أسماء ، فرحمـٰن صفة يدل عليها اسم الرحمـٰن ، ورحيم كذلك ، وهـٰكذا بقية الصفات .

فالصفة تدل علىٰ بعض أحوال الذات[4] ، ورحمـٰن تدل علىٰ الرحمة ،

---

(1) القائد إلى العقائد، عبد الرحمن المعلمي اليماني، ص 1136 .

(2) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده 1118 .

(3) اللباب علل البناء والإعراب، أبو البقاء محب الدين عبدالله بن الحسين بن عبدالله، ص 1157 .

(4) التعريفات 143 .

وهي بعض أحوال الذات ، أما الرحمـٰن فاسمه الذي يدل عليه سبحانه وتعالىٰ ؛ أي : علىٰ مطلق الذات . وليس من حجة نحتج بها علىٰ قولنا هـٰذا أبلج من قول ٱلله سبحانه : ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [1] . فلو كان لطيف اسم لجاء مقترناً بـ : (أل) كبقية الأسماء في الآية : (ٱلله ، القوي ، العزيز) دون إخلال ، فيمكن لك أن تقول : إن (ٱلله اللطيف بعباده يرزق من يشاء) ويستقيم المعنىٰ ولـٰكن الغاية التي يريدها عز وجل غير ذلك ، فهو يريد أن يعرفنا بصفاته كما يذكرنا بأسمائه ، فلطيف في سياق هـٰذه الآية صفة تناسب لطف الرزق الذي مصدره اللطيف ، وقس علىٰ ذلك بقية ما جاء من صفات .

عليه فإن أسماء ٱلله الحسنىٰ هي ما نصَّ عليه سبحانه وتعالىٰ في محكم كتابه العزيز ، ثم ما دلنا عليه الرسول الأكرم ، صلوات ٱلله وسلامه عليه ، ثم ما اجتهدتْ في معرفته عقول المؤمنين ، واطمأنت إليه قلوبهم .

أما صفاته فتدلنا عليها أسماؤه ، فاسم الكريم يدلنا علىٰ صفته (كريم) واسم العزيز يدلنا علىٰ صفته ، فهو عزيز ، وهـٰكذا .

وهـٰذا (بفضل ٱلله) ما توصلنا إليه من خلال بحثنا في أسماء ٱلله الحسنىٰ الكثيرة ، والمقيَّدة بحصر العدد لمناسبة طبائع الإنسان .

ويجب أن ننوه إلىٰ إننا قد اعتمدنا القرآن الكريم مصدراً رئيساً في بحثنا في الأسماء الحسنىٰ ؛ لأنه المصدر الأول في الوصول إلىٰ الحقيقة متذكرين آيات ٱلله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ التي تدعونا إلىٰ اتخاذ كتابه العزيز مصدراً رئيساً ، ولنقف مع الآيات المحكمات ؛ التي يقول فيها جلَّ مِنْ قائل :

ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [2] .

---

(1) الشورى 19 .

(2) محمد 24 .

- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (1) .

- ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (2) .

- ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (3) .

- ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ (4) .

فهل بعد هٰذه الآيات حجة علىٰ وجوب تقديم هٰذا الكتاب الحكيم علىٰ أيِّ مصدر ، أو مرجع مهما علا شأنه ، وارتقىٰ علمه ؟ !

من هنا اتخذنا القرآن الكريم مصدراً رئيساً لنا ثم ما توافر في كتب الحديث وشروحه . ومما تجدر الإشارة إليه : أن الاستشهاد بالحديث الشريف أتىٰ (في الغالب الأعم) بعد الاستشهاد والاحتجاج بالآية الكريمة ، ثم ينساق الحديث في سياق العرض المتوافق مع الآية .

ثم عمدنا إلىٰ كتب تفاسير القرآن الكريم ، وراجعنا ما كتب عن أسماء ٱلله الحسنىٰ في كافة العصور في المصادر المتوفرة بقدر الإمكان ، فوجدنا : أن ما كتب لم يكن موسوعياً ، وغير متخصص أحياناً ، وهٰذا ما دفعنا لأن نخوض غمار هٰذا البحر الواسع ؛ الذي استغرق ما يزيد علىٰ خمس سنوات .

وقد لاحظنا من خلال البحث في أسماء ٱلله : أنها مبثوثة في كلِّ القرآن الكريم ، فلا تكاد آية تخلو من اسم لله ، أو تدل علىٰ اسم من أسمائه ، لذا فلا يمكن استثناء أية غير متصلة باسم من أسمائه ، أو صفة من صفاته تعالىٰ ،

---

(1) النساء 82 .

(2) ص 29 .

(3) النحل 89 .

(4) الفرقان 33 .

وقد توصلنا من خلال البحث : أن اسم ٱلله تدل عليه جميع آيات القرآن الكريم وإن لم تتضمنه نصاً ، بمعنىٰ : أن كل اسم من الأسماء الحسنىٰ موجود بكل ما نفكر فيه في دلالات الآيات الكريمة ، فلا نقرأ آية من الكتاب الحكيم إلا ونجد رابطاً واضحاً من نوع ما بين الاسم الذي نبحث فيه ، وبين ما جاء في الآية الكريمة ، فكلام ٱلله لابد أن يدل عليه .

وقد بذلنا جهدا نعتقد : أنه موضوعي دون تحيز ، أو انحراف ، ولم نتخذ موقفاً سلبياً من أيِّ فرقة ، أو اتجاه إسلامي طالما يتوافق مع أساسيات الملَّة من توحيد لله ، وإقرار برسالة النبي ﷺ ويتجه إلىٰ القبلة ، ويعتمد القرآن الكريم ، وهدي الرسول ﷺ أصلا لعقيدته . ومع ذلك فالكمال لله !

وقد ورد مصطلح الخليفة في موسوعتنا ، ولٰكننا لم نحصره في معنًى تقليدي ، فلم نقصد به حاكماً ، أو أميراً ، أو خليفةً ، أو رئيساً ، أو زعيماً ، أو شيخاً بعينه ، بل توسعنا في ذلك لنجعله في النوع الإنساني الذي خلقه ٱلله ، وأسكنه الأرض ليعبد ٱلله واحداً أحداً ، ويعمر ، وينشر الخير لا ليفسد فيها ، ويسفك الدماء ، وهٰذا الإنسان الخليفة هو الذي يتفاعل مع أسماء ٱلله فهماً بوعيٍ ، وعملاً بمنهجٍ ، وإرادةً بعقيدة تنطلق من أنه لا إلٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، فيتحرر من عبادة المال ، والرأي ، والهوىٰ ، والطمع فيما ليس له ، فيصلح بالمال ما مال ، وبالرأي ما ورىٰ ، ويبتعد عمَّن هوىٰ ، فهوىٰ ، وعمَّن طمع ، فغوىٰ .

ومن هٰذا المنطلق كانت الموسوعة دعوةً للتوحيد ، توحيد لله بالرأي المقنع ، والدليل الثابت ؛ الذي لا يرقىٰ إليه شك ، وتوحيد للعنصر الإنساني علىٰ معنىٰ سام ينطلق من التحرر ؛ ليفك قيوداً ما زالت تكبل العقول والعقائد ، ولكي يلتصق بٱلله ربّاً ، ويتفاعل مع أوامره ونواهيه في بوتقة من الإيمان ، فينصهر نفساً وعقلاً ، وقلباً ؛ لتخرج نفسه راضية بما تعمل ، وعقله معتقداً بما يحمل ، وقلبه مطمئناً بما يأمل .

وهـٰذه الموسوعة تنطلق من أنه لا تفرقة ، ولا تحزب ، ولا هجوم علىٰ أحد ، فنحن أمة واحدة ، ولنا رب واحد ، نؤمن بالرسل جميعاً ، نهدف إلىٰ الإصلاح في شتىٰ مجالاته مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [1] ، وهو أمر دفعنا إلىٰ اتخاذ منهج الصلاة والتسليم علىٰ نبينا المصطفىٰ ، صلوات ٱلله وسلامه عليه ، وعلىٰ كل أنبياء ٱلله ، ورسله دون استثناء مستهدين بكلام رسولنا الأكرم ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ الذي يقول : « صلوا علىٰ أنبياء ٱلله ورسله ، فإن ٱلله بعثهم كما بعثني » [2] .

وقوله ﷺ : « أكثروا من الصلاة علىٰ موسىٰ ، فما رأيت أحداً من الأنبياء أحوط علىٰ أمتي منه » [3] .

وٱلله الموفق ، وهو يهدي إلىٰ سواء السبيل

---

(1) الأنبياء92 .

(2) شعب الإيمان للبيهقي 1142، وينظر مصنف عبد الرزاق 2216، وجامع الأحاديث 1411 .

(3) جامع الأحاديث للسيوطي 5374 .

الله جل جلاله

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال تعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [1] .

نزلت هٰذه السورة الكريمة لتجيب ؛ عن سؤال الكفار لرسول ٱلله ﷺ ، بعدما سألوه عن إلٰهه من يكون ، فنزلت هٰذه السورة المباركة علىٰ الرسول الكريم ﷺ ، تأمره بقراءتها ، وقولها إجابةً لمن قدَّم السؤال : (من إلٰهك يا محمد ؟) . رواه أحمد ، والترمذي عن أبي بن كعب [2] .

لذا كان سؤالهم عن الإلٰه ، وهٰذا لسان حالهم ؛ حيث إنهم يؤمنون بالآلهة ، التي هي من اختياراتهم ، كالشمس ، والقمر ، والنجوم ، والنار ، أو من أيديهم الصانعة لها ، كالأصنام ، ولأن لسان حالهم ، وإيمانهم هو وجود الإلٰه القريب لمشاهداتهم ، وحواسهم . لذا لم يرتق تفكيرهم إلىٰ ٱلله المجرد من المشاهدة المادية كما كانوا هم يعتقدون . فكانت الإجابة : قل لهم يا محمد : أنه (أنا ٱلله) الذي لا مثيل له مما يعتقدون ، ويتوقعون ، أو لا يتوقعون .

---

(1) الإخلاص، 1ـ4.

(2) مواهب الجليل من تفسير البيضاوي. محمد أحمد كنعان، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1984م، ص 826.

وبما أنه الواحد الذي لا يماثله شيء .

إذاً الواحد الذي لا يماثله شيء لا يمكن أن يشتقَّ من شيء .

والقاعدة تقول : لا يشتقُّ شيءٌ من شيءٍ إلا وهو علىٰ حالة من التماثل معه . ولذا من يقبل بأن اسم ٱلله مشتق من اسم إلـٰه ؛ فعليه أن يقبل بالتماثل مع المشتق منه ، وإذا قبل بذلك يجد نفسه علىٰ غير قاعدة .

ولأن الإلـٰـه مخلـوق (القمـر ، والنجـوم ، والشمـس ، والنـار ، والأصنام ، وغيرها مما اتخذ آلهة من دون ٱلله) . ولأن ٱلله هو الخالق . إذاً كيف يؤمن الإنسان باشتقاق الخالق من المخلوق ؟ ! !

ولذلك لا أحد يتماثل مع ٱلله عز وجل ، فالذي لم يكن له كفؤاً أحد ، لا يماثله أحد في الصورة ، ولا المضمون ، ولا الاسم . وعلينا أن نتبيّن الفرق بين الاسم ، والمسمىٰ ، فالاسم اسم ٱلله ، والمسمىٰ الآخر (الإلـٰه مسمىٰ) ، و (أسماؤنا مسميات) ، أما ٱلله ؛ فلم يسمه أحد ، حتىٰ يقال عنه : المسمىٰ ، فاسمه عز وجل في ذاته . ﴿ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] . إذاً بما أنه قال تعالىٰ : (أنا ٱلله) وٱلله لا يماثله شيء في الصورة ولا المضمون ولا الاسم . إذاً (لا إلـٰه إلا ٱلله) . إي لا إلـٰه من دونه (لا معبود من دونه) فلا وجود لمن يستحق العبادة غيره ، فالذي سُمي بالإلـٰه يقول ٱلله ليس هو أنا ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : (لا إلـٰه إلا ٱلله) أي : لا إلـٰه غيري ، وبالتالي من تعتقدون بأنه أنا فهو ليس كذلك (لا إلـٰه إلا ٱلله) ولهـٰذا نهىٰ ٱلله العباد عن اختيار آلهة من دونه ، حيث لا وجود لمن تعتقدون بأنه إلـٰه غيري ، فأنا ٱلله . أما أولـٰئك الذين اتخذتموهم من دوني ؛ فهم ليس أنا ، وهـٰذه تحمل في مضمونها حكم وجوبي لتركهم ، ومن لم يترك هـٰذا الأمر ، ويتخلىٰ عنه

(1) النَّمل، 9.

سيكون مشركاً ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [1] ولهـٰذا لا يعد الإلـه من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، بل الإلـه مسمىٰ من قبل البشر ، وبالتالي جاء الخطاب علىٰ لسان حال الذين أطلقوا هـٰذا المسمىٰ (المعبود) الذي يقبل التعدد . ولذلك فٱلله هو الواحد الأحد الذي تتعدَّد صفاته التي بها يُسمىٰ وهو لا يتعدد . وهنا يتضح الفرق بين اسم ٱلله وبين بقية أسمائه التي يتصف بها ويحقُّ لنا أن نسميه بها ما يجعله المسمىٰ بصفاته الحسنىٰ .

أما ٱلله تعالىٰ فهو الاسم الأعظم المطلق الذي لا يقتصر علىٰ صفة ، أو خاصية واحدة ، بل هو الذي تتعدد فيه الصفات التي يتضمنها ويحتويها في أسمائه الحسنىٰ ، والتي إن نعدها ؛ لا نحصيها : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [2] وهـٰذا لا يعني : أن نعمة ٱلله غير محصية ، بل تعني : أن قدراتنا المحدودة لا تستطيع حصرها وعدها ، مع أنَّ ٱلله أحصىٰ كل شيء وعدَّه عدّاً : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [3] .

إذاً بالنسبة لله كل شيء مسجل إحصاءً وتعداداً ، أما بالنسبة لنا نحن بني الإنسان ؛ فغير قادرين علىٰ ذلك ، وإلا هل هناك من يستطيع أن يُحصي ما تراه العين ، أو يُحسُّ به ، وما لا تراه العين ، ولا يُحسُّ به مع أنه موجود من حولنا وعلىٰ مقربة منا ، وكذلك يمتد إلىٰ ما يبعد عنّا إلىٰ مالا نهاية حيث قدراتنا القاصرة أمام مقدرته تعالىٰ ؟ !

ينتفي التماثل مع ٱلله في الفعل ، والاسم ، والمضمون ، والصورة ، ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [4] . (لا إلـه) نفي ، لاعتقاد ظني في إلـه يفيد

(1) طه، 8.
(2) إبراهيم، 34.
(3) مريم، 93ـ94.
(4) الحشر، 22.

ويضر ، أو يقرِّب مِنْ ويبعد عن ، مع تأكيد علىٰ الوحدانية (هو ٱلله) . واستثناء الإلـٰه الذي ينسب إلىٰ الذين ألَّهوه باختياراتهم ، أو لرغباتهم وحسب ظنونهم . ولذا فإن اسم الإلـٰه يرتبط بتأليه (تعلّق) من البشر لغير ٱلله . أما اسم ٱلله تعالىٰ فلا يرتبط بالإلـٰه إلا لسبب تقريب المعنىٰ والدلالة للذين يظنون باعتقاداتهم في الآلهة ؛ حتىٰ يتبين لهم المعنىٰ المرشد إليه ، وهو ٱلله .

إذاً لا إلـٰه إلا ٱلله ، تعني : أنَّ الإلـٰه ليس هو ٱلله ، وبما أنه ليس هو ٱلله . إذاً لا يُمكن أن يكون من اشتقاقاته ، (ليس من اشتقاقات اسم ٱلله) . الإلـٰه مسمىٰ بشري أطلقه البشر علىٰ ما يعبدون ، أما اسم الجلالة (ٱلله) فمسمىٰ ذاتي مصداقاً لقوله تعالىٰ في سورة النَّمل : ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ ولهـٰذا اسمه غير مشتق ، ولا يُشتق منه مسمىٰ . فلو سلمنا بأنه بالإمكان أن يشتق منه مسمىٰ ؛ نسلم أيضاً في الوقت ذاته بالتعدُّد ، وهـٰذا أمر مستحيل ؛ حيث ٱلله واحد لا يتعدد ، ولا شريك له .

ولذلك جاء اسم ٱلله اسم علم ؛ ليدل علىٰ ذاته ، ومجموع صفاته الحُسنىٰ . وهـٰذا ما يخالف ما ورد في بعض المشتقات اللغوية التي تسند اسمه تعالىٰ إلىٰ اشتقاق من : (ألَه) التي تعني : التحيُّر في ، وعدم الاهتداء إلىٰ . ويقال : إنه مشتق من (الوله) وهو ذهاب العقل ، والحب الشديد ، الذي قد يؤدي إلىٰ ذهاب العقل من التعقل . ويقال : إنه مشتق من (لاه) ولهـٰذا جاءت : (أله ، وألوهة ، وألاهة) وهـٰذه تدل علىٰ أن الإلـٰه هو المعبود بحق ، أو بباطل ، كما ورد في كتاب القول الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ للسيد مجدي منصور الشورىٰ [1] . ولذلك يتم الاتفاق في هـٰذا الأمر مع ابن القيم رَحِمَهُ ٱللهُ تعالىٰ قال : « زعم السهيلي وشيخه أبو بكر

---

(1) مجدي منصور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة: مكتبة B•''–ú 1999م، ص 29. =

ابن العربي : أن اسم ٱلله غير مشتق ؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها ، واسمه تعالىٰ قديم ، والقديم لا مادة له ، فيستحيل الاشتقاق ، ولا ريب أنه إنْ أريد بالاشتقاق هـٰذا المعنىٰ ، وأنه مستمد من أصل آخر ؛ فهو باطل ، ولـٰكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هـٰذا المعنىٰ ولا ألمَّ بقلوبهم ، وإنما أرادوا : أنه دال علىٰ صفة له تعالىٰ ، وهي الإلـٰهية كسائر أسمائه الحسنىٰ ، كالعليم ، والقدير ، والغفور ، والرحيم ، والسميع ، والبصير ، وبقية صفاته الحسنىٰ »[1] . ولأن الإلـٰه تؤلهه اختيارات بشر ؛ لذا يرتبط الإلـٰه بالبشر ؛ لأنه منهم ، أما ٱلله تعالىٰ فلم يؤلهه أحد ، بل ألَّه ذاته ، حيث : ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ . وبما أن ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ . إذاً لماذا المقارنات ، والاشتقاقات من آخرِ لا يساويه في شيء ؟ وهل ٱلله في حاجة لأن يُعرَّف بغيره ؟ ! الذي يُعرَّف بغيره يمكن أن يكون نكرة ، وٱلله تعالىٰ لم يكن ولن يكون نكره . ولهـٰذا يُعرَّف ٱلله جل جلاله بذاته العلية . وهو ليس بناقص حتىٰ يُعرَّف بآخر ليستدل عليه . ولهـٰذا فٱلله تعالىٰ يُستدل به لا يُستدل عليه بآخر .

وعليه فإن قوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ تنفي الألوهية عن غير ٱلله وتثبتها لله وحده دون غيره . ولأن الإلـٰه ما دون ٱلله عز وجل ، حيث لم يبلغ الكمال كما هو ٱلله تعالىٰ ، لذا فإن الآلهة التي هي من دون ٱلله صفتها القصور ، أما ٱلله تعالىٰ فصفته الكمال ، ولهـٰذا فإن الإلـٰه هو الدون (الأقل) ، وٱلله هو (الأعلىٰ) ، ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴾[2] ولأننا نعلم : أن العزة لله فكان من الواجب علينا أن نقول : لا عزة لآلهة من دون ٱلله ولهـٰذا يقول تعالىٰ : ﴿ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ ﴾[3] . إذاً الكفار الذين

---

(1) المرجع السابق، ص 30.

(2) مريم، 81.

(3) النساء 139.

يعتقدون في أن العزة للآلهة كان اعتقادهم في غير محله . حيث محل العزة لله جلَّ وعلا .

ولأن للزمان حُجّة ، فلا ينبغي أن نغفل عن تقديمها في التساؤل التالي :

هل ٱلله سابق علىٰ المسمىٰ أم المسمىٰ سابق علىٰ وجود ٱلله تعالىٰ ؟

بالنسبة لله فالزمن مخلوق منه ، أما بالنسبة للإله فهو المخلوق في الزمن .

بما أن ٱلله هو الأول والآخر ، وهو الخالق لكل شيء ، إذاً كل المخلوقات هي بفعل الفاعل ، وهو ٱلله الخالق تعالىٰ .

وبما أنها من فعله ، أو بفعله عز وجل ، إذاً بطبيعة الحال يترتب وجودها علىٰ وجوده تعالىٰ .

ولهـٰذا فالمسمىٰ الإلـٰه هو مسمىٰ بشري . أما اسم ٱلله تعالىٰ فلم يكن مسمًى بشرياً ، ولا من بقية المخلوقات . وذلك وفقا للقاعدة التي تنص : أن وراء كل مخلوق خالق . ولأن الآلهة اختلقها البشر ؛ ليعبدوها من دون ٱلله ، لذا فهي لم تكن بخالقة ، والفرق كبير بين خالق عظيم ، وبين مخلوق يفتقر للعظمة : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (1) . العابد مخلوق من عند ٱلله ، والمخلوق (البشر) الذي بعضه يعبد بعض من المخلوقات التي هي الأخرىٰ من عند ٱلله ، ويعبد البعض الآخر منهم ما خلقوا بأيديهم (كالأصنام التي يصنعونها بأيديهم) .

وعليه يقول تعالىٰ : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ (2) . في هـٰذه الآية الكريمة النص صريح

(1) النحل ، 20 .
(2) يوسف ، 40 .

علىٰ أن أسماء الآلهة التي اتخذها بعض البشر للعبادة هي التي سُميت من قِبلهم ، وليس هي التي تستوجب العبادة ، فالذي يستوجب العبادة الذي خلق كل شيء بما فيها ما اختاره البعض إلـٰها له .

الذين اتخذوا آلهة لهم من دون ٱلله هم الذين يعتقدون : أنها ستقربهم إلىٰ ٱلله زلفىٰ ، ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [1] . فالناس تبحث عن المنزلة الرفيعة ، وهم يعتقدون : أن ما يعبدون من دون ٱلله هو القادر علىٰ تقريبهم من هـٰذه المنزلة ، في حين لو أنهم تساءلوا : ألا يكون من صنعناه بأيدينا هو تحت سيطرتنا ، وأن ما يظهر ويغيب ، أو يشرق ويغرب هو الآخر تحت سيطرة غير سيطرتنا ؟ وبما أنه غير مسيطر علىٰ ثباته ووجوده ألا يكون تحت سيطرة من هو أكثر منه ومنا مقدرة وقوة؟ ومن يا ترىٰ هـٰذا الذي يتحكم في أمرنا وأمرهم؟ آلا يكون هو الأولىٰ بالعبادة؟

لو تساءل الإنسان ، لوجد الإجابة ، أو كانت له الإجابة مباشرة بلا وسطاء يتخذهم ليقربوه لله زلفىٰ . إنه ٱلله جل جلاله الذي جعل في الأرض خليفة ، خلقها فسواها فعدلها في إي صورة ما شاء ركبها ، إنه الإنسان الواعي المؤمن بخالقه تعالىٰ . ولأنه ٱلله الذي لا شريك له في المُلك كان له الخليفة ، ولهـٰذا ليس من باب المقارنة ولـٰكن للتوضيح فقط ، يتضح أمر من يخلق ومن يُخلَق ، فالمخلوق سيظل هو المخلوق إلىٰ النهاية ، ولن يستطيع أن يترك له خليفة ، فالقمر لم ولن يترك له خليفة ، والشمس هي الأخرىٰ لم ولن تترك لها خليفة ، والأصنام التي اتخذها البعض من الكافرين آلهة لهم لم ولن تترك من بعدها خليفة . وهـٰكذا الإنسان لم ولن يترك له خليفة من أمره ، بل الإنسان يخلف بعضه البعض كغيره من الكائنات الأخرىٰ بأمر التكاثر الذي صدره ٱلله لخلقه .

---

(1) الزمر، 3.

وعليه : من يستطيع أن يترك خليفة ؛ فهو أحق بالعبادة ، ولهـٰذا الإنسان الذي ميزه ٱلله بأحسن تقويم هو المؤهل قبل غيره بالإيمان والعبادة لله تعالىٰ . ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) . هنا يقصد آدم وجنسه ؛ حيث أعلم ٱلله تعالىٰ الملائكة بالقرار : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ أي : قُضىٰ الأمر في هـٰذه القضية ، وهو استخلاف آدم وجنسه لعمارة هـٰذا الكون ، حتىٰ ترتب عليها أمر آخر في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (2) . وطاعة لأمر ٱلله عز وجل سجد الملائكة لآدم لا لعبادته ولـٰكن لعبادة ٱلله الذي أصدر لهم أمر السجود ، ولذا فكان سجودهم طاعة لله تعالىٰ ، وكانت المعصية ممن لم يطع الأمر ، وهو إبليس ، أعوذ بٱلله منه !

إنَّ سجود الملائكة لآدم يوم أن استخلفه ٱلله تعالىٰ علىٰ إدارة الشؤون الإنسانية في الكون يُعد التقدير الأوفر لمن خُلق في أحسن تقويم . إنه اليوم الذي تحدد فيه من يكون الخليفة علىٰ الكون ، ولذلك لمَّا أنبأهم آدم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا ؛ أمرهم ٱلله تعالىٰ بالسجود لآدم اعترافاً به ، وتقديراً له ، واعتذاراً عما قالوه فيه .

وقد يتساءل البعض : هل آدم وجنسه هم خلفاء ٱلله علىٰ الكون؟

بالتأكيد لا ، ٱلله واحد أحد لا يخلفه أحد .

إذاً آدم وجنسه خليفة مَنْ ؟

آدم وجنسه استخلفهم ٱلله في الكون ، أي : تركهم يُنظمون شؤون

---

(1) البقرة، 30.

(2) البقرة، 34.

حياتهم فيه ، ولم يتركهم ليحلوا محله ، فهٰذا الأمر استغفر ٱلله ليس من مهام الخلافة التي كلَّفهم بها ٱلله تعالىٰ .

ولهٰذا لا يمكن أن يخلف ٱللهَ أحدٌ في ذاته ، بل ٱلله استخلفهم ، في تنظيم حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والإنسانية .

ولأن ٱلله حي قيوم إذاً لا محل في أن يحل المستخلف محل من كلفه بالاستخلاف . فالإنسان يمكن أن يكلف أحداً من بني جنسه في استخلافه أن يحل محله في غيابه ، ولٰكنَّ الحيَّ القيوم ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [1] لن يغيب حتىٰ يخلفه أحد ، ولٰكنه صاحب القوة ، وعلام الغيوب قد استخلف آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأنبأه بما لم تعلم الملائكة ؛ حتىٰ كانت المعجزة التي انتهت بالسجود لآدم عرفاناً به ، وبما قدَّره ٱلله تعالىٰ له من أسرار .

ولذا جاءت في لسان العرب المحيط كلمة : « خلائف في الأرض » بمعنىٰ : « يخلف بعضكم بعضاً » [2] ، حيث ينتهي السابقون ، ويأتي من بعدهم اللاحقون . « فالخَلَفُ كل من يجيء بعد من مضىٰ » [3] . ومن هنا يتضح الفرق بين الخَلَف وبين الاستخلاف ، فالخلف يتعاقب من وراء بعضه البعض ، أما الاستخلاف هو تمكين من يود أن يكون خليفة في مهمته التي تناط به حتىٰ يؤديها .

وفي حديث ابن عباس : « أن أعرابياً سأل أبا بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ فقال

---

(1) البقرة، 255.

(2) لسان العرب المحيط، العلامة ابن منظور. بيروت: دار لسان العرب، المجلد الأول، ص 883.

(3) المصدر السابق، ص 884.

له : أنت خليفة رسول ٱلله ﷺ فقال : لا . قال : فما أنتَ؟ قال : أنا الخليفة بعده »[1] .

ماذا تعني إجابة سيدنا أبي بكر رضي ٱلله عنه ؟

تعني : أنه لا يمكن أن يخلف أحد رسول ٱلله ﷺ ، فالرسول لا يخلفه إلا رسول ، وهـٰكذا خلف عيسىٰ موسىٰ ، عليهما الصلاة والسلام ، وهـٰكذا خلفهما سيدنا محمد ﷺ . الرسول لا يخلفه إلا رسول ، ولهـٰذا كان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين . ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[2] . إذاً لا نبي من بعده ، ولهـٰذا لا يمكن أن يحل محله أحد . ولـٰكن بطبيعة الحال سيخلفه من بعده من يؤمن برسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليقوم بدوره تجاهها ، ولـٰكنه لا يمكن أن يقوم بدور رسول ٱلله ﷺ . فالرسول يصطفيه ٱلله تعالىٰ ، وتكون له رسالة من عند ٱلله تعالىٰ ، وله تكليف في حدود المستهدف بالرسالة ، خاصة كانت أم ، عامة (للناس كافة) كما هي رسالة خاتم النبيين ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام . وفي مقابل ذلك الخلفاء من بعد رسول ٱلله ﷺ لم يصطفيهم ٱلله تعالىٰ ، ولم تكن لهم رسالة ، وليس لهم تكليف من السماء . ولهـٰذا لا يخلف الرسول إلا رسول من عند ٱلله . وما أمر صحابة رسول ٱلله ـ رضوان ٱلله عليهم ـ إلا أمر صحبة علىٰ كلمة سواء (لا إلـٰه إلا ٱلله محمد رسول ٱلله) . ولذا خلف الصحابة بعضهم بعضاً ، ولم يخلف أحد منهم رسول ٱلله ﷺ .

ولهـٰذا فالخلافة توالي عبر الزمان والمكان مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[3] وقوله

(1) المصدر السابق، ص 885.

(2) الأحزاب، 40.

(3) الأعراف، ، 69.

تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [1] . هنا جاءت الخلافة عامة للمؤمن ، وغير المؤمن ، أما في الآية ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ ﴾ [2] . هنا الوعد مقصور علىٰ الذين آمنوا . وفي هـٰذه الآية يوجَّه الكلام للرسول ﷺ ، والذين آمنوا : ليجعلنهم خلفاء متصرفين في شؤون الحياة البشرية بما أمر ٱلله تعالىٰ ، أي : إن الرسالة سيبلغ مداها إلىٰ أن تعمّ المعمورة ، لتكون عليها الخلافة الإلـٰهية ، وأعني ما يريده ٱلله أن يكون علىٰ الأرض ، فسيكون علىٰ أيدي المؤمنين به الطائعين لأمره ، وفي هـٰذا استثناء من الخلافة ، حيث استثنىٰ ٱلله غير المؤمنين من الخلافة بقوله : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وهـٰذا يدل علىٰ أمور ثلاثة :

الأول : استثناء غير المؤمنين من الاستخلاف .

ثانياً : تعميم الاستخلاف للمؤمنين منهم .

ثالثاً : تخصيص الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ، وهنا يتضح التميُّز بين من آمن ولم يعمل عملاً صالحاً ، وبين من آمن وعمل عملاً صالحاً .

ولهـٰذا سيُبدِّل ٱلله تعالىٰ خوف المؤمنين من الأعداء أمناً . وبما أن هـٰذا الأمر وعدٌ من الذي وعده الحق ، وهو لا يخلف وعده . إذاً فليُرمَ الخوف في غيابات الجب ، ولنعمل صالحاً حتىٰ نكون من المستخلفين في الأرض .

ومن الآية السابقة يتضح أمر الخليفة بأنه ليس الإنسان المطلق ، بل الإنسان المؤمن الذي يعمل صالحاً . وهـٰذا لا ينفي الوجود ، والعيش علىٰ

---

(1) الأعراف، 74.

(2) النور، 55.

الأرض للكل دون استثناء ، بل يعني أن مستقبل الأرض سيكون بين أيدي آمنة ، وليس بين أيدي عابثة ، ولهـٰذا : لا إكراه في الدين ، بل في الدين الحُجَّة التي تحمل في مضامينها الحقيقة التي تتطلب مؤمنين بها ؛ حتىٰ يتمكنوا من تسويقها بقواعد ما يجب دون إكراه للآخرين . ولذا فإن أمر الخلافة يتعلق بصناعة المستقبل . وهـٰذا المستقبل لن يتحقق إلا بما يتركه الإنسان من أثر طيب في القول ، والفعل ، والسلوك . فعندما استخلف موسىٰ أخاه هارون ـ عليهما الصلاة والسلام ـ عندما استخلفه في قومه لم يكن موسىٰ ﷺ قد أنهىٰ رسالته ، بل لأنه سيكون في مهمة إلـٰهية ، والإلـٰهية هنا لا تعني الاشتقاق من : إلـٰه ، بل مدد من عند ٱلله ، أي : انتساب المهمة الموسوية إلىٰ ٱلله تعالىٰ . ولهـٰذا فإن الإلـٰهية صفة من صفات ٱلله تعالىٰ ، والإلهية نسبة إلىٰ إلـٰه .

ولأن قول ٱلله حق ، لذا لا يمكن أن يكون إلـٰها ، فالآلهة التي اتخذوها لتقربهم لله زلفىٰ هي غير قادرة علىٰ القول ، حقا أو حتىٰ باطلا . ولهـٰذا فهي قاصرة عن القول ، ولأنها كذلك : أيكون اتخاذها آلهة مناسباً للعبادة أو حتىٰ للتقريب زلفىٰ ؟

ولو سلمنا بأن اسم ٱلله تعالىٰ هو اسم الإلـٰه ، فلنسلم أيضا بأن اسمه يُجمع . ولأنه لم يكن كذلك فيجمع اسم الإلـٰه علىٰ آلهة ، ويبقىٰ وجه ربك ذو الجلال والإكرام هو ٱلله . ولهـٰذا في الجمع التعدد ، وفي اسم ٱلله تعالىٰ الوحدانية .

في عقول الخلق الذين يسبِّحون بحمد ٱلله وشكره لا وجود في أذهانهم لآلهة ، بل الوجود لله تعالىٰ ، وهـٰذا يدل علىٰ انتزاع الظنون الباطلة من عقولهم ، وامتلائها باليقين . ولهـٰذا كان للطير منطقاً ، وكان للنملة لغة ؛ لتسبح جميعها باسم لله تعالىٰ دون أن تتخذ آلهة من دونه . وهنا يحدث الاستغراب ، طائر ، ونملة ، ومخلوقات متعددة لم تصل إلىٰ الرقي الذي عليه

خلق الإنسان ، لم تتخذ آلهة من دونه ، ويتخذ البعض من بني الإنسان ما دون ذلك من دون ٱلله تعالىٰ! . لقد اتخذها الإنسان ، إنه كان عجولا ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [1] . ولهٰذا جاءت السور القرآنية التي تتضمن في آياتها العظام ، ألاَّ يكون الإنسان عجولا . قال تعالىٰ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [2] . فاللين في هٰذه الآية الكريمة لا يتم إلا بمقدرة علىٰ الاستيعاب ، فحيث من يخالفك ، أو يعصيك أمراً قد يجعلك في حالة عدم توازن ، وقد يؤدي بك إلىٰ اتخاذ مواقف استعجالية مما يجعلك علىٰ أخطاء لا يحمد عقباها ، ولهٰذا الاستعجال يُضيع الصوابَ . ومع أن المشورة تحتاج إلىٰ وقت أطول إلا أنها تؤدي إلىٰ قرار أصوب ، ولهٰذا لا داعي لأن تكون أيها الإنسان عجولاً . وإن قبلت بذلك فأنت لن تكون خليفة في الأرض ، التي في حاجة لمن يَعمُرها ، وليس في حاجة لمن يسفك فيها الدماء ، ويهلكها . ونحن المؤمنون جميعاً نحمد ٱلله تعالىٰ علىٰ نعمه التي أنعم بها علينا ؛ حتىٰ لا نُسهِم في إهلاك الأرض ، وهتك العرض ، وسفك الدماء بغير حق . ونحن بالمشاورة نكون خير خليفة ، وبدونها لن نتمكن من بلوغ الخليفة . ولهٰذا أكد ٱلله في قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [3] . أكد في مجمل هاتين الآيتين ، وما سبقهما ، وما لحقهما من آيات عظام في سورة الشورىٰ علىٰ الامتناع والابتعاد عن ارتكاب السلوكيات والأفعال الناقصة ما ظهر منها وما بطن ، والإقدام علىٰ كل ما من شأنه أن يرضي ٱلله تعالىٰ ؛ لأجل أن يصبح الإنسان خليفة منه تعالىٰ علىٰ الأرض .

---

(1) الإسراء، 11 .

(2) آل عمران، 159 .

(3) الشورى، 37ـ38 .

ومع أن أمر الخليفة قد صدر من ٱلله ـ عز وجل ـ للمؤمنين الذين يعملوا الصالحات ، إلا أنه من باب التقدير للخليفة أن يكون قد أدرك هـٰذه المسؤولية حتىٰ يَقدَمَ علىٰ حملها بإرادة . ولذلك لمَّا يدخل الإيمان في القلوب ؛ تتم سيطرة الإنسان علىٰ الأرض ويُتوج عليها خليفة . ﴿ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ (1) . هـٰذه الآية الكريمة نزلت في نفر من بني أسد ، الذين قدموا إلىٰ المدينة في سنةٍ جدبةٍ ، وأظهروا الشهادتين ، ولم يكونوا بمؤمنين ، فقد أعلنوا إسلامهم لغايةٍ في أنفسهم وهي الحصول علىٰ الصدقات ، ولأنهم لم يؤمنوا بثقة ورسوخ . لذا فهـٰؤلاء ومن هم علىٰ شاكلتهم يعدون مسلمين من حيث نطقهم ، وقولهم بالشهادتين دون الإقدام علىٰ أداء بقية الواجبات ، وخاصة مجاهدة النفس في سبيل ٱلله ، عز وجل . ﴿ وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ﴾ وحتىٰ يأتي الوقت الذي يدخل فيه الإيمان قلوب المسلمين ؛ حينها يكون الاستخلاف سيد الموقف ، وحينها يعرف المسلمون أنفسهم بأنهم علىٰ الحق مؤمنون .

ولأن القضية الأساسية في الدين تكمن في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) ؛ لذا جاء نفي أن يكون ، أو يتخذ من غير ٱلله إلـٰها ، ولهـٰذا فكلمة إلـٰهكم تعود علىٰ ٱلله تعالىٰ ، حيث (إلـٰهكم) جاءت مطلقة ، ولأنه لا مطلق إلا ٱلله ، أو ما يأتي منه تعالىٰ ، لذا تعود (إلـٰهكم) عليه دون غيره ، حيث لا وجود لمطلق سواه . ولهـٰذا يقول الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهـٰذه الآية الكريمة ﴿ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ « إن ٱلله لا ينفي ، ويقول : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلا حين

(1) الحجرات، 14 .
(2) البقرة، 163 .

توجد غفلة تعطي الألوهية لغير ٱلله ولشركاء معه ، إن القرآن ينفي ذلك ويقول : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ وليس هناك شيء غير ٱلله إلا نعمة منه سبحانه ، أو منعم عليه »[1] وفي هٰذه الآية الكريمة خاطب ٱلله تعالىٰ من يتخذون آلهة غيره أو يفكرون أن يتخذوها باللغة المعرفية التي سادت بينهم ، اللغة التي تعترف بوجود الآلهة من دونه ، وحتىٰ يبدأ معهم من حيث هم خاطبهم بإلٰهكم ، لعلهم يفطنون من غفلتهم ، ويتساءلون : ما هٰذا الأمر ؟ ألا ما نحن عليه ليس بآلهة ؟ أم أن في القضية أمر يتطلب التعرُّف عليه ؟ ولهٰذا بدأ ٱلله معهم من حيث هم لغرض أن ينقلهم إلىٰ ما يحب أن يكونوا عليه .

وعليه يتضح الفرق بين من تؤلهه العباد ، وبين الذي تألهه العباد . فالتأله يدل علىٰ عشق ، وتعلق المخلوق بالخالق ، والتأليه يدل علىٰ من يوضع في مكانٍ أكبر منه ، أو ينظر إليه كذلك ، وهو عن غير حق . حيث تأليه البعض لبعض الحكام ، وكأنهم لم يكونوا من العباد . وهٰؤلاء كمثل من جعل له النار إلٰهاً ، أو أختار له القمر ، أو الشمس إلٰهاً ، هٰذه تدل علىٰ التأليه ، أما التعلق بٱلله تعالىٰ ؛ فهو تأله ؛ أي : تعلق متين بالواحد الأحد . وفي هٰذا الأمر يقول ابن تيمية : « إنَّ ٱلله هو من تألهه العباد حباً ، وذلاً ، وخوفاً ، ورجاءً ، وتعظيماً ، وطاعةً له ، وهو الذي تأله القلوب »[2] .

فٱلله سبحانه هو الاسم الأعظم الذي سمىٰ به نفسه حين قال تعالىٰ : ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾[3] . في هٰذه الآية الكريمة تحديد قاطع بأن المسميات التي خاطب بها العباد ليتخلوا عمن هم دونه من آلهة ليس هي بأسمائه ، ولهٰذا اسم ٱلله لا يتعدد برغم تعدد صفاته التي بها يوصف أو يسمىٰ .

---

(1) تفسير الشعراوي، القاهرة: أخبار اليوم، المجلد الثاني، ص 682.

(2) منهج الإمام ابن قيم الجوزية، في شرح أسماء الله الحسنى. الرياض: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 2005، ص 268.

(3) القصص، 30.

فٱلله اسم مطلق للبقاء ، وما دونه أسماء فانية ، لا يكتب لها البقاء ، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [1] . ولأن الأسماء والأجسام التي لا تبقىٰ لا تليق أن تكون معبودات جاء قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [2] . ولأن كل ما نشاهده بأعيننا ليس له صفة البقاء والاستمرارية ، وله صفة التبدل ، لذا جميعها لا تليق بأن يتم اختيارها آلهة ، ولذا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقبل بأن تكون النجوم ، أو القمر ، أو الشمس آلهة تستحق العبادة حيث فقدانها لصفة الديمومة والبقاء بدون تبدل . ولأنه لا بقاء إلا لله تعالىٰ ، لذا فلم يكن مثله شيء ، ولهٰذا فهو الذي يستحق العبادة .

وقد يتساءل البعض : لِماذا جعل ٱلله علىٰ الأرض خليفة ؟

لِيُريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتىٰ يتبين لهم الحق من الباطل ، ويكونوا الخليفة التي يُطمئن لها ، وتُصلح الأرض ، ولا تفسد فيها وتسفك الدماء ، وتعلم : أن الحق من عند ٱلله تعالىٰ ، فتزداد تعبداً له دون غيره . ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [3] ولهٰذا يُريهم ٱلله من فضله ونعمه عليهم بداية من أنفسهم وما خُلقوا عليه وما يحيطهم عن القرب والبعد حتىٰ السماء ، ولهٰذا من حق الخليفة أن يبحث وينهل من العلم في الأرض وفي الآفاق حتىٰ يزداد يقيناً بنعمه وفضله الواسع . ولذا يقول

(1) الرحمٰن، 26 ـ 27 .
(2) الأنعام، 76ـ78.
(3) فصلت، 53.

تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [1] . إذاً جعل ٱلله الخلائف علىٰ الأرض لينظر كيف يعملون ، هل سيعملون خيراً أم سيعملون شراً ، بعد أن بين لهم كل شيء تفصيلاً ، فهل سيكونون علىٰ وحدانيته وطاعته ، أم أنهم سيكونون علىٰ معصية وكفر ؟ ولأن الخلائف تتوالىٰ عبر الزمن حيث سابقون ولاحقون ، حتىٰ كانت آخر الخلائف بعد القرون التي هلكت . والتي فيها يقول القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن : « كل من جاء من بعد من مضىٰ فهو خليفة ، أي : جعلكم خلفاً للأمم الماضية ، والقرون السالفة » [2] .

وبناء علىٰ تفسير السيد القرطبي ، إذاً لا خليفة إلا وسابق عليها . وفي هٰذا الشأن قد يكون استخلاف الإنسان علىٰ الأرض علىٰ أنقاض السابقين له : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [3] هٰذه الآية دليل إثبات علىٰ أنّ أناساً كانوا من قبل ، وقد انتهوا ، وجيء بخلق من بعدهم ، وأولٰئك كانوا علىٰ حضارةٍ راقيةٍ في البناء والإعمار حتىٰ وُصِفوا بأنهم أكثر قوةً من الذين خلفوهم .

ولأنه ٱلله ـ الذي لم يشتق اسمه وفعله وصفاته من أحد ـ جعل في الأرض خليفة ، ولأن الآخر إلٰه فلم ولن يستطيع أن يترك له خليفة . فالشمس هي الشمس علىٰ ما خُلقت ، أو فُطرت عليه ، فمن يتخذها إلٰهاً ؛ فليتخذها ، ولٰكن لن تترك له خليفة . وذلك لأنها غير قادرة علىٰ ذلك ، فالقادر وحده ٱلله تعالىٰ . وهٰكذا حال أيِّ إلٰهٍ يمكن أن يُتخذ كما سبق وأن أُتخذت القمر والنار

(1) يونس ، 14 .

(2) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن . دار الكتاب العربي ، المجلد السابع ، ص 158 .

(3) الروم ، 9 .

والأصنام المتعددة آلهة ، فهي جميعها لا تستطيع أن تترك خليفة .

فالذي يترك خليفة في الأرض خلقاً هو ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ (1) . ٱلله الذي بدأ الخلق مما لم نعرف ، ويستمر به إلىٰ نهاية ما لن نعرف ، فبداية الخلق منه ونهايته إليه ، ولذا لن يكون هناك دور لمن لا يؤخر أو يُقدم في الأمر شيء ، الدور والمُلك لله الواحد القهار . ولأن ٱلله هو الخالق ، وكل ما غيره مخلوق ، فهل من الأفضل للخلافة التي تركها ٱلله لخلقه أن تتخذه معبوداً وتخلص له الدين ، أم أن تتخذ من هو مخلوق مثلها إلـٰهاً ؟ وهل من اللائق بنا نحن بني الإنسان أن نعبد ٱلله الذي ليس كمثله شيء ؟ أم نعبد غيره من الذين هم في أحسن تقويم أو من الأقل منهم تقويماً ؟ تكمن الإجابة علىٰ هـٰذه الأسئلة في قوله عز وجل : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (2) .

وقد يتساءل البعض : ما هـٰذا الشيء الذي استخلفنا ٱلله فيه ؟ الخيرات والنعم التي انعم ٱلله بها علىٰ الذين من قبلنا ، وعلينا ، وعلىٰ الذين سيأتون . لقد خلق ٱلله النعم والخيرات سابقة علىٰ خلقنا ، حيث خلق آدم في الجنة ، أي : خلقه في وسط النعيم ، وإلا لو لم يخلق ٱلله النعيم سابقاً علينا ؛ هل يمكن لنا أن نحيا ونعيش من غير مصدر رزق ؟ . ولهـٰذا أمر ٱلله عباده بأن ينفقوا مما جعلهم مستخلفين فيه من خيرات .

وحتىٰ لو كان فينا ضعف ، وعرفنا هـٰذه الحقيقة : أن ٱلله خلق النعم سابقةً علىٰ خلقنا ، وهي من أجلنا ، من أجل أن نعيش دون عوز أو فاقة ، ألا يكفي هـٰذا الأمر لأن يجعلنا نقول بإرادتنا : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ .

---

(1) الروم، 11، 13 .

(2) الحديد، 7 .

بناء علىٰ ما تقدم فإن الخليفة ليس له بدٌّ إلا أن يقول : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (1) ولأن الأمر بيد لله . لذا لا شريك له : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) .

الحمد لله الواحد الأحد ، الذي لم يكن له صاحبة ولا ولد ، ولم يكن له شريك في الملك ولا له ندٌّ ، والصلاة والسلام علىٰ من لم يعبد سواه ، ولم يجعل سواه ضدّاً ، وعلىٰ من سار علىٰ نهجه ونجا يوم الجدِّ .

اسم ٱلله هو المستحق للعبادة ؛ لأنه هو المتصف بصفات الكمال والجلال ، ولذا علىٰ الخليفة أن يحسن عبادة ربه ، وأن يحسن التوكل عليه ، وحقيقة التوكل علىٰ ٱلله جل جلاله : أن يعلم العبد : أن هٰذا الملكوت إنما هو بيد ٱلله جل وعلا يصرفه كيف يشاء ، فيفوض الخليفة الأمر إليه ، ويلتجئ بقلبه في تحقيق مطلوبه ، وفي الهرب مما يسوءه ، ويلتجئ في ذلك ، ويعتصم بٱلله جل جلاله وحده ، فينزل حاجته بٱلله ، ويفوض أمره إلىٰ ٱلله ، ثم يعمل السبب الذي أمر ٱلله به من حيث التوكل عليه ، فحقيقة التوكل في الشرع تجمع تفويض الأمر إلىٰ ٱلله جل جلاله ، وذلك بفعل الأسباب ، فالإيمان سبب من الأسباب التي يفعلها الخلفاء المتوكلون علىٰ ٱلله ، بل إن نفس التوكل علىٰ ٱلله ـ جل وعلا ـ سبب من الأسباب ؛ لأن التوكل حقيقته في الشرع تجمع عبادة قلبية عظيمة ، وهي تفويض الأمر إليه ، والالتجاء إليه ، والعلم بأنه لا أمر إلا أمره ، ولا شيء إلا بما قدره ، وأذن به كوناً ، ثم فعل السبب الذي أوجب ٱلله جل وعلا فعله ، أو أمر بفعله ، فترك فعل الأسباب ينافي حقيقة التوكل ، كما أن الاعتماد علىٰ السبب ، وترك تفويض الأمر إلىٰ ٱلله جل وعلا ينافي حقيقة التوكل ، فالمتوكل هو من عمل السبب ، وفوض الأمر إلىٰ ٱلله جل

(1) المائدة، 18 .

(2) الحديد، 2 .

وعلا في الانتفاع بالسبب ، وفي حدوث المسبب من ذلك السبب ، وفي توفيق ٱلله وإعانته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا به جل وعلا ، فالتوكل عبادة قلبية محضة ؛ ولهـٰذا كان إفراد ٱلله جل وعلا بها واجباً ، وكان صرفها لغير ٱلله جل وعلا شركاً »[(1)] ، قال تعالىٰ : ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[(2)] .

ولذلك علىٰ الخليفة أن يعتقد : أن ٱلله جل جلاله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، سبحانه جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾[(3)] ، رتّب الحسب (وهو الكفاية) علىٰ التوكل عليه ، وهـٰذا فضيلة التوكل ، وفضيلة المتوكلين عليه ، ومن هنا اختلف العلماء في أيهما يغلب : الخوف ، أم الرجاء ؟ هل يغلب العبد جانب الرجاء ، أو يغلب جانب الخوف ؟ في الحقيقة : أن ذلك علىٰ حالين :

ـ **الأولىٰ** : إذا كان الخليفة في حال الصحة والسلامة ؛ فإنه إما أن يكون الخليفة مسدداً مسارعاً في الخيرات ، فهـٰذا ينبغي أن يتساوىٰ في قلبه الخوف والرجاء ، فيخاف ويرجو ؛ لأنه من المسارعين في الخيرات ، وإذا كان في حال الصحة والسلامة وكان من أهل العصيان ؛ فالواجب عليه أن يغلب جانب الخوف حتىٰ ينكفَّ عن المعصية .

ـ **الحال الثانية** : إذا كان في حال المرض المخوف ؛ فإنه يجب عليه أن يعظم جانب الرجاء علىٰ الخوف ، فيقوم في قلبه الرجاء والخوف ولـٰكن يكون رجاؤه أعظم من خوفه ، وذلك لقول النبي ـ عليه الصلاة

(1) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ج2، ص27، ص 28.
(2) يونس 84.
(3) الطلاق 3.

والسلام ـ : « لا يمت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه تعالىٰ »[1] ، وذلك من جهة رجائه في ٱلله جل جلاله ؛ ومن هنا اختلفت كلمات أهل العلم ، فتجد بعضهم قال : يجب أن يتساوىٰ الخوف والرجاء . وبعضهم قال : يغلب جانب الخوف علىٰ جانب الرجاء . وبعضهم قال : يغلب جانب الرجاء علىٰ جانب الخوف . وهي أقوال متباينة في ظاهرها ، ولـٰكنها متفقة في الحقيقة[2] . ومع ذلك فمن يخاف ٱلله يتقيه ومن يرجو ٱلله يتقيه ، وفي كلتا الحالتين كلُّ ما من شأنه أن يزيد التقوىٰ هو مُفضَّل عند ٱلله تعالىٰ ، ولهـٰذا فالخوف يؤدي إلىٰ التجنب والابتعاد عما نهىٰ ٱلله عنه ، والرجاء تضرع لا تمدُّ فيه الأيدي إلا لله تعالىٰ ، وفي كلتا الحالتين يتحقق الرضا من ٱلله الواحد القهار ، ولأنه الواحد القهار ؛ فمخافته ضرورة واتقاؤه واجب . والحمد لله رب العالمين .

ولذلك علىٰ الخليفة أن يرضىٰ ويُسلِّم ، فالرضا بالمصيبة اعترافٌ بكمال القدرة لله تعالىٰ واعترافٌ بنقصها عند من سواه ؛ ولهـٰذا يختلط علىٰ كثيرين الفرق بين الرضا والصبر ، فالصبر علىٰ المصائب واجبٌ من الواجبات ؛ لأن فيه ترك السخط علىٰ قضاء ٱلله وقدره ، والرضا له جهتان :

ـ **الجهة الأولىٰ** : راجعة إلىٰ فعل ٱلله جل وعلا ، فيرضىٰ بقدر ٱلله الذي هو فعله ، ويرضىٰ بفعل ٱلله ، ويرضىٰ بحكمة ٱلله ، ويرضىٰ بما قسم ٱلله جل وعلا ، وهـٰذا الرضا بفعل ٱلله جل جلاله واجبٌ من الواجبات ، وتركه محرَّمٌ ومنافٍ لكمال العقيدة .

ـ **والجهة الثانية** : الرضا بالمقضي ؛ أي : بالمصيبة في نفسها ، فهـٰذا مقبول ، وليس واجباً علىٰ الخلفاء أن يرضوا بالمرض ، وأن يرضوا بفقد

(1) أخرجه مسلم رقم : 7229.

(2) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ج2، ص41.

الولد ، وأن يرضوا بفقد المال ، لـٰكن هـٰذا مقبول ، وهو رتبة الخاصة من خلفائه ، لـٰكن الرضا بفعل ٱلله جل وعلا بمعنىٰ الرضا بقضاء ٱلله من حيث هو واجبٌ ، أما الرضا بالمقضي فإنه في دائرة القبول حيث لا مجال للرفض ، فالأمر واقع بالفعل (كن) الذي لا يملكه إلا هو جل جلاله ، وأمره لا مردَّ له سبحانه ما أعظم شأنه ! إنه ربي ، ربُّ العالمين ، عز وجل .

وفي معرفة اسمه (ٱلله) جملة من الفوائد والثمرات التي يجنيها المسلم بتحقيقه لهـٰذا الاسم العظيم ، من ذلك :

ـ إنَّ العبد ينال بذلك سعادة الدنيا والآخرة ، بل إن السعادة في الدارين متوقف الحصول عليها علىٰ الإيمان بٱلله ، فحظ الخليفة منها بحسب حظه من إيمانه بربه وأسمائه الحسان .

ـ إنَّ إيمان العبد بربه واسمه هو أعظم أسباب خوفه سبحانه وخشيته وتحقيق طاعته ، فكلما كان العبد بربه أعرف ؛ كان إليه أقرب ، ومنه أخشىٰ ، ولعبادته أطلب ، وعن معصيته ومخالفته أبعد [1] .

ـ إنَّ العبد ينال بذلك طمأنينة قلبه ، وراحة نفسه ، وأنس خاطره ، والأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [2] .

ـ إنَّ نيل ثواب الآخرة متوقف علىٰ الإيمان بٱلله ، فبتحقيقه وتحقيق لوازمه ينال العبد ثواب الآخرة ، فيدخل جنةً عرضها السماء والأرض ، فيها من النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ، وينجو من النار ، وعذابها الشديد ، وأعظم من ذلك كله أن يفوز برضا ربه

(1) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ، ج1 ، ص118 .
(2) الرعد 28 .

سبحانه ، فلا يسخط عليه أبدًا ، ويتلذذ يوم القيامة بالنظر إلىٰ وجهه الكريم في غير ضراء مضرةٍ ، ولا فتنةٍ مضلَّة .

ـ إنَّ الإيمان بٱلله هو الذي يصحح الأعمال ويجعلها مقبولة ، فبفقده لا تقبل بل ترد علىٰ صاحبها وإن كثرت وتنوعت ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ﴾ (2) .

ـ إنَّ الإيمان بٱلله ملجأ الخلفاء في كل ما يلم لهم من شرور ، وحزن ، وأمن ، وخوف ، وطاعة ، ومعصية ، وغير ذلك من الأمور التي لا بدَّ لكل أحدٍ منها ، ففي السرور يلجأ الخلفاء إلىٰ الإيمان بٱلله ، فيحمدون ٱلله ، ويثنون عليه ، ويستعملون نعمته فيما يحب ، وعند المكاره ، والأحزان ، والمخاوف يلجؤون إلىٰ الإيمان بٱلله فيتسلون بإيمانهم وما يترتب عليه من الأجر والثواب ، فتطمئن قلوبهم ويزداد إيمانهم وتعظم ثقتهم بربهم . وعند الطاعات والتوفيق للأعمال الصالحات يلجؤون إلىٰ الإيمان بٱلله ، فيعترفون بنعمته عليهم ، ويحرصون علىٰ تكميلها ، ويسألونه الثبات عليها ، والتوفيق لقبولها . وعند الوقوع في شيء من المعاصي يلجؤون إلىٰ الإيمان بٱلله فيبادرون إلىٰ التوبة منها ، والتخلص من شرورها . فالخلفاء في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلىٰ الإيمان بٱلله وحده (3) .

ـ إنَّ معرفة ٱلله تعالىٰ بأسمائه وصفاته توجب محبة ٱلله في القلوب ؛ إذ إن أسماء ٱلله وصفاته كاملة من كل وجه ، والنفوس قد جبلت علىٰ حب الكمال والفضل ، فإذا تحققت محبة ٱلله في القلوب ؛ انقادت الجوارح بالأعمال

(1) المائدة 5.
(2) الإسراء ، 19 ، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ، ج1 ، ص119 .
(3) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ، ج1 ، ص121 .

وتحققت الحكمة التي خلق العبد من أجلها ، وهي عبادة ٱلله .

ـ إنَّ العلم بالأسماء والصفات يورث قوة اليقين بانفراد ٱلله تعالىٰ بتصريف شؤون الخلق وانفراده بذلك لا شريك له ، وهـٰذا مما يحقق صدق التوكل علىٰ ٱلله في جلب المصالح الدينية والدنيوية ، وفي ذلك فلاح العبد ونجاحه ، فمن توكل علىٰ ٱلله فهو حسبه .

ـ إحصاء الأسماء الحسنىٰ والعلم بها أصل للعلم لكلِّ معلوم ، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقاً له تعالىٰ أو أمراً ، وهي إما علم بما كونه ، وإما علم بما شرعه ، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنىٰ ، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضىٰ بمقتضيه ، فمن أحصىٰ أسماء ٱلله كما ينبغي للمخلوق أحصىٰ جميع العلوم [1] .

فعلىٰ الخليفة أن يعلم أن اسم (ٱلله) جل جلاله مستغرقٌ لكل أسمائه بما اشتملت عليه من الكمال والجلال ، فيحذر غضب الجبار ، فالخليفة يعلم : أن اسم ٱلله (السميع) هو الذي استغرق كل الكمال في صفة السمع ، وكذلك اسم ٱلله (البصير) هو الذي استغرق كل الكمال في صفة البصر ، فالواجب علىٰ الخلفاء أن يعلموا : أن ٱلله جل جلاله متصف بالأسماء الحسنىٰ ، وأن لا يجحدوا شيئاً من أسمائه الحسان ، فمن جحد شيئاً من أسماء ٱلله فهو كافر ؛ لأن ذلك من صنع الكفار ، والمشركين ، والإيمان بالأسماء والصفات يقوي اليقين بٱلله ، وهو سبب لمعرفة ٱلله ، والعلم به ، بل إن العلم بٱلله ومعرفة ٱلله ـ جل وعلا ـ تكون بمعرفة أسمائه المستوجب دعاءه بها ، وبمعرفة آثار الأسماء في ملكوت ٱلله تعالىٰ ، وهـٰذا شيء عظيم يتضح في قوله ٱلله عز وجل : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [2] ، فنحن بحاجة ماسة

(1) الإسراء ، 19 ، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ، ج1 ، ص122 .
(2) الأعراف 180 .

لمعرفته جل جلاله وبخاصة في هـٰذا الزمن ؛ لشدة الحاجة إليه ، ولا نكون كالكفار ، فقد وصفهم جل جلاله في سورة النحل بأنهم ينكرون نعمة ٱلله ؛ وهم لها عارفون ، وإنكار النعمة أن تنسب إلىٰ غير ٱلله ، وأن يجعل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها ، وهو ٱلله جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (1) .

وعليه فالخليفة يعلم : أن كل النعم من ٱلله جل في علاه ، وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كل نعمة إلىٰ ٱلله جل جلاله ، وأن إضافة النعم إلىٰ غير ٱلله نقص في كمال العقيدة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ (2) ، فدلت الآية علىٰ أنه لا يخرج شيء من النعم أيا كان ذلك الشيء صغيراً أو كبيراً عظيماً أو حقيراً لا يكون إلا من ٱلله جل جلاله ، فكل النعم صغرت أو عظمت هي من ٱلله جل جلاله وحده ، وأما الخلفاء فإنما هم أسباب تأتي النعم إليهم ، وتأتي علىٰ أيديهم ، وأسباب في إيصال النعمة إلىٰ الناس ، فمن كان سبباً في معالجتك ، أو سبباً في نجاحك في مادة ، أو نحو ذلك لا يدل علىٰ أنه هو ولي النعمة ، أو هو الذي أنعم ، فإن ولي النعمة هو ٱلله جل وعلا ، وهـٰذا من كمال اليقين ، فإن القلب الموحد يعلم : أنه ما ثَم شيء في هـٰذا الملكوت إلا وٱلله جل وعلا هو الذي يرسله ، وهو الذي يمسك ما يشاء ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ (3) ، فكل النعم من ٱلله عز وجل ، والعباد أسباب في ذلك ، فالواجب إذًا أن تنسب النعمة إلىٰ المسدي لا إلىٰ السبب ؛ لأن السبب لو أراد ٱلله جل وعلا لأبطل كونه سبباً ، وهـٰذا السبب إذا كان آدمياً ؛ فقلبه بين

(1) النحل 83.
(2) النحل 53، 54.
(3) فاطر 2.

إصبعين من أصابع ٱلله جل وعلا لو شاء لصده عن أن يكون سبباً ، أو أن ينفعك بشيء ، فٱلله تعالىٰ هو ولي النعمة ، وما من أحد تعلق بمخلوق ؛ إلا وخذل ، وذلك لأن الواجب علىٰ المسلم أن يعلق قلبه بٱلله جل في علاه ، وهـٰذا هو حقيقة التوحيد ، ومعرفة تصرف ٱلله جل في علاه في ملكوته [1] ؛ ولذلك نجد من قوة اسم (ٱلله) جل جلاله ألا يستطيع أحد أن يُسمي به نفسه أو أحداً من خلقه ، وكل من حاول أن يفعل ذلك قهر وغلب وأُخِذ من حيث لا يدري ، بل ومن مأمنه ، ومن حيث لا يحتسب ، كما فعل بفرعون . قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾ [2] ، فأسماء ٱلله جل وعلا يجب علىٰ الخليفة تعظيمها ، وألا يسمي بها البشر ؛ لأن هـٰذا الفعل راجع إلىٰ تعظيم شعائر ٱلله جل جلاله ، قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [3] . فالواجب علىٰ الخليفة أن يتحرز في ألفاظه وبخاصة فيما يتصل بٱلله تعالىٰ ، أو بأسمائه الحسنىٰ ، أو بأفعاله وإنعامه ، أو بعدله وحكمته ، وأن يعلم : أن ٱلله جل جلاله مطلع عليه ، وأنه سبحانه هو ولي الفضل ، وهو ولي الإنعام ، وهو الذي يستحق أن يجل فوق كل جليل ، وأن يحب فوق كل محبوب ، وأن يعظم فوق كل معظم ، والخليفة يعلم : أنه فقير لله جل جلاله ، وأنه لا مغني له إلا هو ، وأن ٱلله هو الربُّ المستحق علىٰ

---

(1) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ج2، ص137.

(2) القصص38ـ42.

(3) الحج32.

العبد أن يشكره ، وأن يذكره ، وأن ينسب النعم إليه ، والخليفة ليس مستحقاً في الدنيا بحق واجب علىٰ ٱلله جل في علاه إلا ما أوجبه ٱلله جل جلاله علىٰ نفسه .

وحاول أهل العلم توضيح قيمة أسمائه وتفسيرها ، ولٰكن وإن حاول أهل العلم ذلك فإنما هو من باب التقريب ، ليدلوا الناس علىٰ أصل المعنىٰ ، أما المعنىٰ بكماله ؛ فإنه لا يعلمه أحد إلا ٱلله جل جلاله ؛ ولهٰذا قال ﷺ في دعائه : « لا نحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك » [1] . فالناس حين يفسرون أسماء ٱلله ـ جل وعلا ـ فإنهم يفسرون ذلك بما يقرب المعنىٰ إلىٰ الأفهام ، أما حقيقة المعنىٰ علىٰ كماله ؛ فإنهم لا يعونه ؛ لأن ذلك من الغيب وٱلله أعظم من كل تفكير في العظمة ، وكذلك الكيفية فإنهم لا يعلمونها ؛ لأن ذلك من الغيب ، فٱلله جل وعلا له الأسماء الحسنىٰ . وتعظيم أسمائه يكون بتعظيمه ، كأن لا يسأل بوجه ٱلله إلا المطالب العظيمة التي أعلاها مما خلق ، وهي الجنة .

ومن تعظيم الخليفة لأسمائه ألا يجادل في كيفيتها وكنهها وحال وجودها بل يسلم في ذلك تسليماً واعياً بأنها الحق المطلق الذي لا يدرك بالعقول كما هو عليه ، ودون الولوج في ما لا يحمد عقباه من الجدال العقيم الذي لا يليق بالخليفة الفهيم ، فكيف لعاقل أن يجادل ، فٱلله جل في علاه وهو شديد المحال ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [2] ، هٰذه الآية الكريمة نزلت فيمن جادل في ٱلله جل جلاله بغير الحق ، فكانت عاقبته أن باء بغضب ٱلله تعالىٰ في علاه ، فنزلت به صاعقةٌ في يوم صائف

(1) أخرجه الترمذي3566، وابن ماجه1179 .

(2) الرعد13 .

صافٍ ، بقي آية لغيره يدل بها علىٰ عظمة ٱلله تعالىٰ ، وبقي برهاناً لصدق رسالة رسولنا الكريم ﷺ ، فقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ يدل علىٰ شدة القوة والكيد ، فٱلله جل جلاله يظهر لنا بعضا من قوته وجبروته في قوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ (1) ، وظهور آثار قدرةِ ٱلله في الكون ظاهرة ، والبرقُ من هـٰذه الظواهر الكونية العجيبة ، فٱلله جل جلاله الذي يسخّر البرقَ فيخافه بعضُ الناس خشية الضرر علىٰ نفسه أو محصوله من نزولِ المطر أو ما يترتّب عليه من الصواعق ، ويطمع فيه بعضُهم رجاءَ نزول الغيث لسقي الزرع ، فبعضهم يخاف ، وبعضُهم يطمع في الخير من ورائه .

وٱلله تعالىٰ هو الذي ينشئُ السحابَ المملوءة بالأمطار فيغيث بها الزرعَ والضرع ، ويسبِّح الرعدُ بدَلالتِه علىٰ وحدانية ٱلله بحمدِه وتقديسه ، فهـٰذا الصوتُ المدوِّي في السمـٰوات إنما هو حمدٌ وتسبيحٌ بالقدرةِ التي صاغت هـٰذا النظام ، ويسبِّح الملائكةُ الكرامُ من هيبته وجلاِله ، ثم تتم الصورةُ الرهيبة المشمولة بالرهبة والانبهار والرعدِ والسحابِ الثقال ، بإرسال الصواعق ، فيُصيب ٱلله بها من يشاء رادعاً لمن يكذب ، أو يشرك به غيره جل جلاله .

ومع كل هـٰذه الآيات والظواهر الكونية العجيبة يجادلُ الكفّار في شأن ٱلله ووحدانيته وتفرُّدِه بالمُلْك ، وهو سبحانه لا يغالب ، فهو شديدٌ في عقوبة من طغىٰ عليه وتمادىٰ في كفره ، روي عن ابن عمر : « أَنَّ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ وَالصَّوَاعِقِ ؛ قَالَ : اللَّهُمَّ لا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ ، وَلا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ » (2) . فالمشركون المعاندون يجادلون في ٱلله ، وينسبُون إليه شركاءَ يدْعونهم معه ، ودعوةُ ٱلله هي وحدَها الحق ، وما عداها

(1) الرعد12 .
(2) سنن الترمذي، ج 11 ، ص345 .

باطلٌ ذاهب ، ما يدعونهم من الآلهة المزيَّفة من دونِ ٱلله لا يَستجيبون دعاءَهم ولا يُنجِدونهم بشيء ، ومثلُهم في ذلك كَمَن يبسُط كفّيه ليأخذَ بهما ماءً إلىٰ فمه ، وهيهاتَ أن يحصَل علىٰ شيء منه ! قال تعالىٰ : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (1) ، أي : في ضياعٍ وخسارة بدون فائدة .

وعظمة اسمه جل جلاله تظهر في قوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴾ (2) ، ففي الوقت الذي يتّخذ الجاحدون آلهة من دون ٱلله ، ويتوجَّهون إليها بالرّجاءِ والدعاء نرىٰ كلَّ من في هٰذا الكون يخضعُ لإرادته ، ويعنُون لعَظَمته من أناس وجِنّ وملائكةٍ طائعين أو كارهين ، حتىٰ ظِلالُهم خاضعةٌ لأمرِ ٱلله ونَهْيِهِ في جميع أوقات النهار ، وفي هٰذا تعميم لكل شيء . وتظهر قوة هٰذه الآية في جعلها مما يسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند سماعها ، أو قراءتها .

فالقارئ يجد عند قراءة قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ من الرهبة والخوف من عقابه بما يظهر في ألفاظها من قوة ، وسطوة ، وجبروت في كونه تعالىٰ في علاه شديد حالما يريد أن يهلك عدوه . فعلىٰ الخليفة أن يظهر من الخضوع والخشوع ما يليق برضاه للفوز بجناته ، واتقاء عذابه ، وذلك بالذكر والشكر ليل نهار والتسبيح والتهليل ، ويظهر الجدال في كيفية الذكر ، فهناك من يقول : إن الشكر والذكر لا يكونان إلا بذكر لفظ الجلالة (ٱلله) ؛ استنادا إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (3) ، فلفظ (ٱلله) في هٰذه الآية يأمرنا بذكر لفظه تعالىٰ وبهٰذا الاسم

---

(1) الرعد14 .
(2) الرعد15 .
(3) الأحزاب41ـ43 .

فيكون الذكر بترديد لفظ الجلالة : ٱلله ٱلله ٱلله . . . . ليل نهار ، وهـٰذا المعنىٰ الحرفي لهـٰذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي أمرت بذكر ٱلله تعالىٰ ، وهناك من يرىٰ غير ذلك بأن الذكر لا يكون مقتصراً علىٰ تكرار لفظ الجلالة (ٱلله) بل الذكر يكون بالقيام ، والصيام ، وترك الموبقات ، وعمل الصالحات ، ومتابعة العلوم الدينية ، وذكر القرآن الكريم ، بل بعض الناس حرم ومنع المسبحة واستخدامها للذكر ، ورآها بدعةً لا وجود لها في الدين ونسوا : أنها لا تعبد في ذاتها بل هي وسيلة لتأدية ما أمر به الدين الحنيف من الطاعات .

وعلىٰ كل حال فكل من يريد عبادة ربه فإن ٱلله به عليم ، وهو قريب سميع الدعاء ، وكل وسيلة تقرب منه ، أو بها يُذكر واحداً أحداً هي وسيلة مباركة لا تؤخذ غاية في ذاتها ، فليعبد الخليفة ربه سبحانه بالطريقة التي تناسبه ، والطريقة التي يقدر بها علىٰ تأدية فرضه وسننه ونوافله ، فالأمي الذي لا يستطيع قراءة القرآن لا نمنعه من التسبيح ، ونبقيه مكتوف الأيدي بحجة أن المسبحة بدعة ، وإن كانت كذلك فهي حسنة ولم تغير في الدين شيئاً ، بل تدعمه بمن هو قادر علىٰ عبادة ربه وبأخف الألفاظ وبأثقل الموازين ، ويؤيد هـٰذا قول الرسول الكريم ﷺ : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَىٰ اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَىٰ الرَّحْمَـٰنِ : سُبْحَانَ ٱللهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ ٱللهِ وَبِحَمْدِهِ » (1) ، وعلىٰ هـٰذا يشترط لمن يريد ذكر ربه أن يكون طاهراً ظاهراً وباطناً : وذلك بأن يطهر قلبه ونفسه من الأدران التي أساسها الطمع في جمع المال والعيال ونسيان ما خلق من أجله ، وله سخر ما في الكون ليقوم به التسبيح (ذكر ٱلله في الحركة والسكون) ، ومع هـٰذا فالتسبيح لا يشترط المسبحة ، بل يستوجب المسبح به ، وبذكره .

(1) صحيح البخاري ، ج20 ، ص21 .

وليعلم الخليفة : أن كل ما في الكون خلق ليسبح بحمد ربه ؛ فكيف لمن خلق علىٰ أكمل وجه ، وكلفه بما لم يقدر أيُّ مخلوق علىٰ حمله أن يقوم بواجبه تجاه من عرف حقيقته حق المعرفة ، فالطهارة واجبة علىٰ كل من يريد أن يذكر ربه ، وقد مدح ٱلله جل جلاله الذين يتطهرون من الذنوب والخطايا بقوله تعالىٰ : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (1) .

والطهارة الداخلية تكون بالابتعاد عن كل ما هو جالب للذنوب ، فالخليفة يكون مبتعداً عن وهن الدنايا والخطايا ، فلا يتعمد ارتكاب أو الاقتراب من الذنوب وذلك باجتراح السيئات ؛ لأنه تعالىٰ لم يجعل الذين يتقون فعل السيئات كمن يقوم بفعلها ، فقد جاء ذلك في قوله : ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (2) ؛ ولأن الطهارة الداخلية هي التي ترتكز عليها الطهارة الخارجية ، فلذلك يجب علىٰ الخليفة أن يطهر نفسه وقلبه من الحسد والحقد وما ينتج عن ذلك من نميمة وغيبة وذكر الناس بما تكره أو بما ليس فيهم ، فهٰذه الأشياء تأكل الحسنات كما تأكل النار الهشيم ، وبذلك يجد الإنسان نفسه خارج الدائرة بدلاً من أن يكون من المقربين والعياذ بٱلله ! وقد نهىٰ جل جلاله عن ذلك نهياً صريحاً واضحاً ، وجعله كمن يأكل لحم أخيه ، قال عز من قائل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ

---

(1) التوبة108، 109 .

(2) الجاثية20، 21 .

لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] ، ولما كان الخليفة طاهراً في سريرته حتماً يجب أن يكون طاهراً في :

ـ بدنه .

ـ نفسه .

ـ فيما يفكر ، ويتذكر .

ـ وطاهرا في ثوبه ، وبيته ، ومركبه ، وفيما يشرب ، ويأكل ، ويتذوق .

ـ طاهراً في ظاهره وباطنه .

طاهراً في سلوكه ، فيكون الخليفة مقتدياً بقوله تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [2] وفي هـٰذه الآيات وعند قوله تعالىٰ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ بالتحديد من ينظر إليها يجدها تشتمل علىٰ الطهارة الداخلية كما تشتمل علىٰ الطهارة الخارجية ، ويظهر ذلك بمجيئ قوله تعالىٰ : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ بعدها ، فترك الرجز من الأشياء التي يعملها القلب ، وتكون بين العبد وربه ، قال تعالىٰ : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ، فلا وجود لخليفة إذا لم يكن طاهراً في كل ما ذكر ، وما يجب أن يكون به طاهراً .

وعليه يصفِّي الخليفة نفسه ، وقلبه مع ربه ومع خلقه باتباع ما أمره ٱلله تعالىٰ ، والانتهاء عما نهاه عنه بتوجيه النفس والقلب التوجه الصحيح ، وذلك بإقامة الفروض المنصوص عليها في القرآن ، والسنة ، فعليه :

1 ـ أن يقيم الشهادتين إقراراً بالقلب ، ونطقاً باللسان ، وعملاً بالجوارح .

---

(1) الحجرات 12.

(2) الإسراء 36.

2 ـ أن يقيم الصلاة في أوقاتها ، قال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ (2) .

3 ـ أن يؤتي الزكاة في أوقاتها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (3) .

4 ـ أن يؤدي فريضة حجه متىٰ استطاع ذلك ، وقال تعالىٰ : ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (4) ،

5 ـ أن يصوم رمضان إيماناً ، واحتساباً ، قال تعالىٰ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (5) .

6 ـ إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ولو كره المجرمون ، والكافرون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ

---

(1) النساء103 .
(2) المعارج23 .
(3) المعارج24ـ26 .
(4) آل عمران97 .
(5) البقرة185، 186 .

ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ [1] .

7 ـ الابتعاد عن ارتكاب الآثام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝١١١ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ [2] .

8 ـ الابتعاد عن الموبقات ، فالخليفة مأمور بالبعد عن السلوكيات التي تذهب به إلىٰ جهنم ، والعياذ بٱلله ! ومن هـٰذه الموبقات :

ـ الإشراك بٱلله تعالىٰ .

ـ قتل النفس البريئة : بغياً وعدواناً ، أو خوفاً من الفقر .

ـ ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن : كالزنا والسرقة ، والغش وإشعال نار الفتنة .

ـ أكل مال اليتيم بغير حق .

ـ التطفيف للكيل والميزان .

ـ ارتكاب المظالم .

وعليه لا يوصف ٱلله إلا بما سمىٰ به نفسه ، ولا وصف إلا بأحد ثلاثة :

ـ إما رؤيته ، وهـٰذه استحالة . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [3] .

---

(1) الأنفال 7، 8 .
(2) النساء، 111، 112 .
(3) الأعراف 143 .

ـ أو رؤية مثيله ، وهـٰذه أيضا استحالة . قال تعالىٰ : ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (1) .

ـ أو وصفه ممَّن يعرفه ، وهـٰذه بالإيمان ممكنة ، ولأن الإيمان بالشيء لا يكون إلا تسليماً بالشيء مباشرةً أو بآية من آياته العظام ، أو برسول مرسل . وفي هـٰذا الأمر الكثير الذي به يتم الإثبات دون ظهور للشبيه ، أو المثيل ، حيث وراء كل مخلوق خالق ، ولا يمكن أن يكون المخلوق لو لم يكن الخالق سابقاً عليه ، ولهـٰذا فالخالق الأول مثبت بآياته العظام ، وهو مصطفي الرُسُل ـ صلوات ٱلله عليهم ـ مبشرين ومنذرين ومحرضين ؛ ولهـٰذا ليس أحد أعلم بٱلله من ٱلله ، ثم رسله الذين أوحىٰ إليهم وعلمهم ، فوجب لزوم طريق الوحي في أسماء ٱلله الحسنىٰ ؛ إذ لم نر ربنا في الدنيا فَنَصِفه وليس له مثيل من خلقه فيوصف بوصفه ، تعالىٰ ربنا ، وتقدس ! ولذلك وجب اتباع قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (3) .

ولأنه ٱلله الواحد الأحد يحق الحق ، ويزهق الباطل ، وهو العدل الحق

---

(1) الشورى 11 .

(2) الإسراء 36 .

(3) الحشر 22 ـ 24 .

قال : ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ (2) .

وعلىٰ الخليفة أن يعلم أنه سبحانه أجلُّ من أن يُدرَكَ كُنْهُ ذاته وصفاته ، أو يحاطَ بها علماً ، قال تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (3) ، وليعلم : أن الواحد هو ٱلله تعالىٰ ، وأن الأسماء مضافة له ، فقوله : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا

(1) الأنعام151ـ153 .
(2) الإسراء29ـ39 .
(3) الشورى11 .

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، أي : أضافها إليه . كما قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [2] . وقوله : ﴿ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ ، أي : فادعوا ٱلله بأسمائه ، ولذا فالاسم غير المسمىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ﴾ [3] ، والمتبارك هو ٱلله ، وأن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة ، و(ٱلله) عَلَمٌ علىٰ الرب تبارك وتعالىٰ ، ويقال : إنه الاسم الأعظم ؛ لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [4] ، كما قال : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [5] . وعن أبي هريرة : أن رسول ٱلله ﷺ قال : « إنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسماً مِئَةً إلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » [6] . ونحن نقول ٱلله واحد أحد وأسماؤه لا تحصىٰ ، وما نقدمه للقراء في هٰذا الجهد هو محاولة لإظهار ما استطعنا إظهاره مما عرفنا من أسمائه الحسنىٰ التي لا تعد ولا تحصىٰ ، ومهما تعددت الأسماء فٱلله واحد أحد سبحانه جل جلاله ، لا شريك له ، ولا مثيل ، ولا شبيه ، وليس له صاحبة ، ولا ولد مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ

---

(1) الأعراف180.

(2) الواقعة74.

(3) الرحمن78.

(4) الحشر22ـ24.

(5) الإسراء110.

(6) صحيح البخاري، ج9، ص261.

﴿ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [1] .

وعليه : ٱلله اسم ، وغيره مسمىٰ ، ومن المسمىٰ ما هو مسمىٰ منه جل جلاله ، ومنه ما هو مسمىٰ بالمتعرف عليه ، أو المتعرف به ، فالأرض مسمىٰ منه ، وهـٰكذا الشمس ، والقمر ، والليل ، والنهار ، والفجر ، والعصر ، والزمان ، وكذلك مثل آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [2] ، وكذلك يحيىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا﴾ [3] ، وهـٰكذا : الإنس ، والجن ، والملائكة أسماء لم تسم إلا منه جل جلاله .

إما المسمىٰ فهو من يكون الآخر مسمياً له ، كما يسمي الآباء أبناءهم ، أو ما يطلقونه من أسماء علىٰ صفات سلوكية أو حركية أو أخلاقية أو بيئية ، وهـٰكذا تتعدد الأسماء والصفات وٱلله تعالىٰ واحد أحد لا يتعدد .

ولأن ٱلله تعالىٰ هو الاسم الأعظم ، فهو الأصل لكل شيء ، والمسمىٰ دائما لاحق للشيء الذي يسمىٰ .

وعليه قد يتساءل البعض : لماذا ٱلله ؟

ٱلله جل جلاله خالق لكل شيء ، ولذا فهو يَسأل ، ولا يُسأل ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ [4] ولأن السؤال دائماً يلاحق الإجابة ، فالإجابة دائماً سابقه علىٰ السؤال ، أي : لا سؤال إن لم تكن الإجابة سابقة عليه ، وإلا هل يمكن للمعلمين أن يسألوا التلاميذ أو المتعلمين بشكل

---

(1) الإخلاص 1 ـ 4 .
(2) آل عمران 59 .
(3) مريم 7 .
(4) الأنبياء 23 .

عام إذا لم يعلموهم أولاً ثم ليسألوهم ثانياً عما تعلموا ، ولذلك لا تُجرىٰ الامتحانات والاختبارات إلا بعد تعلم ومعرفة ، ولهـٰذا تُبث المعلومات والمعارف وتعلم أولاً ليتم الاختبار عليها ثانياً ولله المثل الأعلىٰ ، وهـٰكذا ٱلله جل جلاله لا يسأل عباده أولاً بل بدايةً نزَّل الكلم عليهم ، وبين لهم الحلال من الحرام ، وبين لهم ما يجب الإقدام عليه وما ينبغي تجنبه والابتعاد عنه ، ولهـٰذا أوجب عليهم الإصلاح في الأرض ، وحرَّم عليهم الإفساد فيها كما حرَّم عليهم سفك الدماء بغير حق .

وعليه لا إجابة علمية وموضوعية إلا من مصدر ، ومصدر كل المعلومات هو ٱلله الخالق المصور السميع المجيب ، ولأنه المجيب فمن حقنا أن نسأل لأجل أن نعرف ، ولأن كل الإجابات منه ، فهو المجيب بالمطلق ، ولهـٰذا يكون المجيب جل جلاله هو الإجابة الشافية علىٰ السؤال : لماذا ٱلله ؟

إذاً لماذا ٱلله ؟

لأنه المجيب . فلو لم يكن مجيباً ؛ ما عرفناه وما عرفنا المعرفة التي تُعرِفُنا به ، ولأن المعرفة هي التي تحتوي الإجابة وكل المعرفة من ٱلله ، فلهـٰذا عرفناه واحداً أحداً لا شريك له : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (1) .

ولأن ٱلله هو المعرفة التامة والكاملة ، فكانت له الأسماء الحسنىٰ ، التي يدعىٰ بها وهو السميع المجيب ، وعليه لا يَسأل (لماذا ٱلله) ؟ إلا من يعرفه ، فلو لم يعرفه ما كان سائلاً عنه ، ولـٰكن البعض يعرفونه ، وينكرونه في الحياة الدنيا ، إلا أنهم سيقولونها علناً وبصوت عالٍ في الآخرة يوم أن يطرح سؤاله

---

(1) الحشر 23، 24 .

جل جلاله : لمن الملك اليوم ؟ فتكون الإجابة بالإجماع (لله الواحد القهار) . قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (1) .

إذاً لماذا ٱلله ؟ لأنه الخالق الذي خلق من طرح هـٰذا السؤال : (لماذا ٱلله) . سبحانه لو لم يخلقه ما كان من المتسائلين .

وهـٰذا السؤال عندما يكون لأجل المعرفة لا عيب فيه ، ولـٰكن عندما يكون لأجل الإنكار يكون كل العيب فيه ، ومع ذلك حتىٰ الذي يريد الإنكار كيف له أن يسأل عنه لو لم يكن هو ٱلله جل جلاله . أي : إنه سأل عن واجدٍ ، فلو لم يكن المخلوق موجوداً ما كان الواجد موضوع التساؤل ، ولأنه الواحد الحق بالمطلق الذي أوجد الوجود فمن حق الموجود أن يسأل عن واجده إلىٰ أن يعرف ، وعندما يعرف يؤمن ، ويكون من المستخلفين فيها ، وبعدها بطبيعة الحال سيكون السؤال ذاته من الخالق للمخلوق : لماذا ٱلله ؟ فتكون الإجابة : لأنه الخالق المجيب مالك الملك . ولهـٰذا يطرح السؤال : لمن الملك اليوم؟ فتكون الإجابة لله الواحد القهار .

لماذا ٱلله ؟ سؤال يقود إلىٰ الهداية ، ولا يقود إلىٰ الضلال ، فمن سأله في الدار الدنيا ليعرف ؛ يعرف أنه ٱلله الواحد القهار ، ومن سأله فيها ليفسد فإنما يضل عليها ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ (2) .

إذاً لماذا ٱلله ؟

---

(1) غافر 16 .

(2) الإسراء 15 ـ 17 .

لأنه الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنىٰ التي يدعىٰ بها فيجيب سبحانه جل جلاله ، فلو لم يكن واحداً أحداً ومالكا للملك والخالق المطلق ؛ ما كُنَّا ، وما طُرح هـٰذا السؤال الذي من عرفه أجاب : (واحداً أحداً) . ولهـٰذا لماذا ٱلله ؟ لنسبحه واحداً أحداً لا شريك له .

وعليه لماذا ٱلله ؟

ليعم العدل بين من خلق في الدارين ، ويكون الملك ، والعرش له ، والبعث بعد الحياة والممات ، وليكون الحساب ، والعقاب ، والثواب ، والجنة ، والنار بين العباد بالأعمال .

فلماذا ٱلله ؟ لندركه دون غفلة ، ولنؤمن به ونقوله هو كما هو في سورة الإخلاص ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ (1) .

ولأن الإنسان خلق عجولاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴾ (2) فقد يتساءل البعض : هل خلق ٱلله نفسه ؟ أم خلقته الطبيعة ؟

الطبيعة مخلوقة ، وٱلله جل جلاله خالق ، وشتان بين الخالق العظيم وبين المخلوق العجول ، أما من يتساءل : هل خلق ٱلله نفسه ؟ نجيب : إنه الأول والآخر ، وهو ذات ، والذات تَخلُق ، ولا تُخلَق ، والخالق سابق بالمطلق علىٰ كل سابق ، ولهـٰذا فهو الأول وغيره لاحق ، إنه الأول مسبب الأسباب وخالق المخلوقات ، وهو الآخر الباقي جل جلاله . ولو خلق نفسه لما كان الأول تعالىٰ ، ولو خلق نفسه ؛ لكان من مادة ، ولكان له المثيل والشبيه ،

---

(1) الإخلاص 1 ـ 4 .

(2) الأنبياء 37 .

وهو سبحانه جل جلاله ليس كمثله شيء قال تعالىٰ : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (1)

سبحانه ليس كمثله شيء ، ولأنه كذلك فهو الواحد القهار ، والقهار هو الغالب بالقوة ، ولأنه كذلك فلا يوصف بالقدم ولا بالحداثة ، إنه ٱلله خالق الزمان وجاعله قيداً علىٰ من خلق وما خلق ، أما ذاته العلية فلا تحاط بالزمان الذي به يتم تحديد القديم من الحديث ، إنه تعالىٰ المحيط بالمطلق ، وغيره محاط بالقوة ، والقدرة ، والهيمنة ، والجلالة ، سبحانه يُحِيط ولا يُحَاط ، ويُهيمن ولا يهيمن عليه ، إنه ربي الواحد الأحد الأول والآخر ، ولأنه عز وجل ذات ، فالذات لا مادة ، ولهٰذا تخلو الذات العلية من المثيل والشبيه ، وبما أنه ذات ، والذات خالقة لا مخلوقة ، إذاً الذات الخالقة سابقة علىٰ الخلق ، ولأنه ذات ، فالذات لا يلحقها الخلق بالمطلق ، أي : لو لاحقها الخلق لأحاط بها ، ولهٰذا السؤال : هل خلق ٱلله نفسه ؟ لا يطرح إلا علىٰ المستوىٰ البشري ، (الخلق) أي : لا يطرح إلا قصوراً في التفكير ، ومن يدرك الحق يعلم : أن الخالق سابق علىٰ قواعد الخلق ، ولهٰذا يحيط ولا يحاط . ولأنه يحيط ولا يحاط يسقط السؤال من طرحه لعدم مقدرته علىٰ الإحاطة .

---

(1) الشورى 11 ـ 15 .

وعليه القاعدة تقول : (الخالق يَخلِق ولا يُخلَق) .

ولأن ٱلله تعالىٰ ذات ، والذات لا مادة ، ولا روح ، فالذات لا توصف إلا بصفاتها الحسان ، ولأنه جل جلاله ذات فهو فعَّال لما يُريد ، ولأنه الفعَّال لِما يريد فليس كمثله شيء ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، ولأنه القدير بالمطلق فهو يخلق ولم يخلق ، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، سبحانه جل جلاله سبحان ٱلله العظيم !

ولأن ٱلله ذات خلق أول ما خلق التهيؤ ، وهو التأهب لكينونة الأشياء ، ولهـٰذا فالتهيؤ مجموع المعطيات الصالحة لتنفيذ الأمر (كن) أي : قبل أن يخلق الحركة والزمان خلق التأهب للحركة والزمان ، ولهـٰذا أمره نافذ ولا مرد له سبحانه جل جلاله ، فقبل أن يكون القمر ، والشمس ، والأرض ، والسمـٰوات العلا ، والطير ، والنبات ، والأسماك ، وكل شيء ، كان كل شيء بأمره متأهب لأن يكون متميزاً بما هيَّأه ٱلله عليه ، ولهـٰذا فالتأهب بيئة صالحة لكينونة الشيء علىٰ الخاصية ، والصفة .

وعليه كلما تهيأت ظروف الأشياء لأن تكون كانت بالأمر (كن) هي كما هي . ولذا كلما تهيأت ظروف البركان كان ، وهـٰكذا كلما تهيئت ظروف الزلزلة ، أو المطر ، أو الحياة ، أو الموت ، أو أي شيء كان هـٰذا الشيء قابلاً للملاحظة أو المشاهدة أو الاثنين معا ، والخليفة لأنه مؤمن يؤمن بأن معطيات البعث متهيئة مما يجعله في دائرة الممكن المتوقع في أيِّ حين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا

(1) الشورى 17 ، 18 .

عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ
وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا
ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا
يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [1] .

وعليه كلما تهيأت ظروف المخلوق كان فعلاً ماثلاً بالأمر (كن) ، ولهٰذا ظروف كل شيء يراد له أن يكون تكون ظروفه متهيئة بالقوة والقدرة الإلٰهية لتكون كما يريدها ٱلله أن تكون عليه ، ولذا كل يوم يكتشف العباد الجديد من خلق الخالق : فيروسات جديدة بأمراض جديدة ، وعلوم متطورة ملاحقة للعلاج ، ومع ذلك فلم يؤت الإنسان من العلم إلا قليلاً .

ولأن ٱلله تعالىٰ هو الخالق الأعلىٰ ، فالخالق الأعلىٰ يَخلِق ولا يُخلَق ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين ، ولهٰذا يسبحه الخليفة كثيراً ، وتسبحه المخلوقات الأخرىٰ بما هيئت عليه ، قال تعالىٰ : ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي
خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا
تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾
سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾
قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ
وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [2] . فسبح اسم
ربك الأعلىٰ ، تتطلب مسبح باسمه تعالىٰ ، ولهٰذا فعندما يقال للخليفة : سبح

---

(1) النمل 65 ـ 76 .

(2) الأعلى 1 ـ 19 .

اسم ربك الأعلىٰ ، ليس له بدٌّ إلا يقول : (سبحان ٱلله) ، فٱلله هو الرب الأعلىٰ ، ولا ربَّ سواه ، ولذا فسبح اسم ربك الأعلىٰ ، حدده يقيناً ، واذكره واحداً أحداً .

وعليه كان الأمر بتسبيحه تعالىٰ مما يستوجب علىٰ المسبح به بأن يقول : (سبحان ٱلله) وذلك لأنه لا ربَّ أعلىٰ غيره ، وهـٰكذا يكون التتابع واليقين في التسبيح باسمه تعالىٰ .

وعودا علىٰ سورة الأعلىٰ نلحظ أمر التوكيد علىٰ اسمه الأعلىٰ ، (ٱلله جل جلاله ، وهو الاسم الأعظم) فسبحان ٱلله ، سبحان ٱلله ، سبحان ٱلله .

إذاً استجابة للأمر المطلق ، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ يتطلب التسبيح باسمه جل جلاله .

وهـٰكذا قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ يستوجب التسبيح باسمه ، فالذي خلق فسوىٰ يستوجب اعتراف المؤمن بقدرته علىٰ الخلق ، وهو المعجزة الكبرىٰ ، وهـٰذه المعجزة الكبرىٰ تستوقف الخليفة المؤمن مما يجعله في حالة تأمل ويقين بقوله : سبحان ٱلله ، ولهـٰذا قوله تعالىٰ : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ يستوجب التسبيح باسمه (ٱلله) وهـٰكذا قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ يستوجب التسبيح باسمه تعالىٰ (ٱلله) .

وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ فالذي قدَّر وهدىٰ هو ٱلله ، وهو الرب الأعلىٰ للخليفة ، الذي يستوجب ذكره والتسبيح باسمه جل جلاله ، ولأن الذي قدَّر فهدىٰ هو (ٱلله) فسبحانه كيف قدَّر وكيف هدىٰ ، أي من تأمل في خلقه وهدايته لِما خلق ليس له بدٌّ إلا أن يقول : سبحان ٱلله علىٰ ما قدَّر وهدىٰ .

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ هو ٱلله لا إلـٰه غيره ، ولهـٰذا سبحان ٱلله الذي أخرج المرعىٰ ، أي : سبحانه الذي خلق النبات نعمةً واسعةً منه ليكون للحياة

معنىٰ ، وللطبيعة كسوة من البهاء والجمال ، فسبحانه علىٰ ما خلق وسبحانه علىٰ ما أخرج مما خلق ، ولذا فالذي أخرج المرعىٰ هو ٱلله الذي يستوجب التسبيح باسمه جل جلاله ، ولهٰذا كيف أخرج المرعىٰ معجزة تستوقف المؤمن لأن يذكره بقوله : (سبحان ٱلله) .

ومع ذلك ليس الغاية من قوله ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾ هو أن يذكر المسبح ٱلله تعالىٰ ويمجده فقط ، ولـٰكن الغاية هي التمكن من إدراك المعجزات العظام ، والصفات الحسان ، والوقوف عندها ، والتأمل فيها من أجل توصيل دلائل كل معجزة من المعجزات إلىٰ الآخر المستهدف بالتبشير ، والهداية .

وقوله تعالىٰ : ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴾ أي : من الذي غير حال الاخضرار في المرعىٰ ، وجعله يبساً جافاً ؟ ، وكيف غيره ؟ هـٰذه معجزة أخرىٰ تستوجب من المؤمن التوقف ليدرك : أنه ٱلله ، مما يجعل حال لسانه وقلبه معاً علىٰ القول : (سبحان ٱلله) وهو التسبيح باسمه عز وجل واحداً أحداً ، ولا ربَّ أعلىٰ منه .

وقوله تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا ﴾ ، الآية موجهة لمحمد عليه الصلاة والسلام ، الذي اقرأه ٱلله فلم ينس شيئاً مما أقرأه جل جلاله ، ونظراً للكثرة الكثيرة لما تم استقراء محمد عليه الصلاة والسلام به ، فلم ينس شيئاً منه ، إلا الذي لا يريده ٱلله له ، فسبحان ٱلله علىٰ ما أراده ٱلله ، وسبحان ٱلله علىٰ مقدرة محمد علىٰ عدم النسيان ، ولذلك فالمتأمل ، والمستقرئ لما أقرأ ٱلله تعالىٰ به محمداً عليه الصلاة والسلام ، يجد نفسه أمام معجزة تغالبه بالحق مما يجعله علىٰ ذكر ربه (ٱلله) بقوله : (سبحان ٱلله) .

قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴾ أي : إن ربَّك الأعلىٰ الذي تسبحه يا محمد باسمه الأعلىٰ هو (ٱلله) الذي تدركه يقيناً ، وهو الذي خلق فسوىٰ ، ولذا فكان التسبيح تكراراً لاسمه الأعلىٰ (ٱلله) ، وهـٰكذا

الخليفة عندما يقرأ قوله تعالىٰ : ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ يقول : (سبحان ٱلله) وعندما يقرأ قوله : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ يقول أيضا : (سبحان ٱلله) وهـٰكذا يستمر التسبيح باسمه كلما قرأ آية من آيات سورة (الأعلىٰ) ، ولهـٰذا يكون التسبيح وفقا للآتي :

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ .

سبحان ٱلله . أي : سبحان ٱلله الذي لا إلـه إلا هو عز وجل !

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ .

سبحان ٱلله . أي : سبحان ٱلله علىٰ ما خلق وسوىٰ !

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ .

سبحان ٱلله . أي : سبحان ٱلله علىٰ ما قدَّر وهدىٰ !

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ .

سبحان ٱلله . أي : سبحان ٱلله علىٰ إخراجه للمرعىٰ !

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ .

سبحان ٱلله . الذي جعل الأخضر يابساً !

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ .

سبحان ٱلله !

﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

سبحان ٱلله !

وعليه فسبحان ٱلله ، تسبيح باسمه الأعلىٰ ، واعتراف بمعجزاته الكبرىٰ التي عُدِّدت في سورة (الأعلىٰ) .

ومع ذلك فمن يسبحه كما يسبح أثناء السجود بالقول : (سبحان ربي الأعلىٰ) فهٰذا لا يخرج عن كونه : أن الربَ الأعلىٰ هو ٱلله جل جلاله ، فسبحان ٱلله ربِّي الأعلىٰ .

وفي مقابل ذلك نزل قوله تعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [1] ثلاث مرات ، مرتين في سورة الواقعة ، ومرة في سورة الحاقة ، ولذا فسبح اسم ربك الأعلىٰ ، تعني : اذكره كثيراً ، أي : اذكر اسمه كما سمىٰ نفسه ، ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [2] ، أمَّا قوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ تستوجب التسبيح بالقول : (سبحان ٱلله العظيم) . ولهٰذا سبَّح رسول ٱلله ﷺ به في كل ركوع ، ومتىٰ ما أدرك التسبيح به عز وجل ، وهٰكذا يُسبِّح به المستخلفون فيها في كل ركعة يركعونها ، ومتىٰ ما يشاؤون اتصالاً به دون وسطاء ، ولهٰذا فالتسبيح باسم الرب العظيم هو تسبيح بٱلله العظيم جل جلاله .

اللهمَّ إنك أنت ٱلله العظيم في كل مكان وحين ، لا إلـٰه إلا أنت واحد أحد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، سبحانك عما يصفون . نوحدك اللهم يا واحد أحد ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونتوكل عليك في كل أمر ، فنعم المولىٰ ونعم النصير ، تعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير لا شريك لك سبحانك جل جلالك ، الحمد لك علىٰ رحمتك يا الرحيم يا مالك يوم الدين ، اللهمَّ إننا إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اللهمَّ إننا نتضرع إليك لتهدينا الصراط المستقيم صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

(1) الواقعة 74.

(2) طه 14 .

وَلا الضَّالِّينَ ، اللهمَّ إننا نسألك باسمك الأعظم أن تعظم الإيمان في قلوبنا والطمأنينة في أنفسنا حتىٰ نخشاك ونتقيك ونعمل صالحاً ترضاه ، اللهمَّ إننا نركع ونسجد إليك واحداً أحداً لا شريك لك ، فلا تجعلنا راكعين وساجدين لسواك ، اللهمَّ إنك الحق بك آمنا فاجعلنا للحق طائعين حتىٰ يطاع الحق لنا .

اللهمَّ أسألك باسمك الأعظم أن تبدِّل سيئاتنا حسنات ، وأن تجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونبراس دربنا فلا نضل أبداً ، اللهمَّ سدّد خطانا إلىٰ الخير ، والمعروف ، والإصلاح ، وأبعدنا عن الفساد والرذيلة ، اللهمَّ إنك اخترت لنا الإسلام دينا فلا تُمتنا إلا عليه ! !

الرَّحمٰن جلّ جلاله

الرحمٰن : هو الذي « رحمتُه تمنع إهمالَ عباده »[1] .

الرحمٰن : « يختصُّ بٱلله سبحانه وتعالىٰ ، ولا يجوز إطلاقه في غيره . وقال بعض أهل التفسير : الرحمٰن الذي رحم كافة خلقه بأن خلقهم وأوسع عليهم في رزقهم »[2] .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[3] بما أنكم تدعون ٱلله أيُّها المؤمنون ؛ فبأيِّ اسم من أسمائه ادعوه ، سواء دعوتم ٱلله تعالىٰ ، أم دعوتم الرحمٰن ، لا فرق في ذلك ، فدعاؤكم لم يخرج عن أسمائه الحسنىٰ . وفي جميع الحالات أنتم تدعون ٱلله . فلا تدعوا آخرَ من دونه . وهٰذا لا يعني وجود ازدواجية ، بل يعني : أنَّ ٱلله واحد لا يُثنىٰ ، ولا يُجمع ، ولا يُعدُّ بأيِّ متواليةٍ حسابية . نزلت هٰذه الآية الكريمة حسبما رواه الواحدي عن ابن عباس ـ رضي ٱلله عنهما ـ بعد ما سمع بعضٌ من المشركين رسولَ ٱلله ﷺ يدعو ربه بقوله : (يا ٱلله يا رحمٰن) فقالوا : « إنه ينهانا أن نعبد إلٰهين ، وهو يدعو إلٰهَ آخر »[4] . وكما يبدو : أنَّ لضعف اللغة أثراً سالباً علىٰ معرفة الدلالة

---

(1) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ـ ج 1 ، ص 20 .

(2) تفسير أسماء الله الحسنى ، ج 1 ، ص 28 .

(3) الإسراء ، 110 .

(4) تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل . محمد أحمد كنعان ، بيروت : دار=

بالدعاء السابق ، فرسول ٱلله ﷺ لم يقل في دعائه : (يا ٱلله ، ويا رحمـٰن) بل قال : (يا ٱلله يا رحمـٰن) فانعدام حرف الواو من دعاء رسول ٱلله تأكيدٌ لا يصاحبه الشك في أن المدعوَّ هو واحدٌ لا شريك له ، ولأن الداعي يتضرَّع إلىٰ ربه بالرحمة ، فلا أفضل له إلا أن يدعوه بالرحمـٰن ، ولهـٰذا قال : (يا ٱلله يا رحمـٰن) . وفي الدعاء الافتراضي جاء (يا ٱلله ويا رحمـٰن) وفي هـٰذا الدعاء دخل حرف الواو الدال علىٰ إثبات وجود الآخر ؛ الذي ورد في عقول أولـٰئك المشركين ، وهو ما لم يقله الرسول في دعائه المبارك .

ولهـٰذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (1) جاءت ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ مطلقة دالة علىٰ من يستحق أن يُعبد ، و « واحد » : تعني ليس له ثانٍ ، و ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ردٌّ علىٰ من يظن بوجود آلهة أخرىٰ من دونه ، ولأجل التنبيه ، والتفطين من الغفلة جاء التأكيد بـ : ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ولهـٰذا تدلُّ : (هو) علىٰ (ٱلله) الذي (لا إلـٰه إلا هو) الذي (هو) الرحمـٰن الرحيم . وبذلك إثباتٌ لا فرق بين أن يُقال : ٱلله ، أو يُقال : الرحمـٰن ، فكلاهما واحد .

ولذا فالخليفة بدأ عمله في ممارسة شؤونه الحياتية باسم ٱلله مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ (2) فما يود قوله سليمان ﷺ هو : إنّ ما نودُّ القدوم عليه معكم فيه الرحمة ، وبالتالي لا مجال لكم في التأخير عمَّا من شأنه أن يجعل بيننا ، وبينكم رحمة ، فاقبلوا ، ولا تتأخروا عن دخولكم ميادين المحبة ، والرحمة ، ولهـٰذا بدأ سليمان بعنونة رسالته باسمه تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ

= لبنان ، ودار العلم للملايين ، الطبعة الأولىٰ ، 1984م ، ص 379 .

(1) البقرة 163 .

(2) النمل 30 ، 31 .

ٱلرَّحِيمِ ﴾ . فالرحمـٰن اسمه تعالىٰ الذي لا يثنىٰ ، ولا يجمع ، وذلك لارتباطه بالوحدانية ، وعدم المشاركة ، ولذا لو لم يكن ٱلله رحمـٰناً ما كان رحيماً . فالرحمـٰن شاملةٌ جامعةٌ لكل رحمة ، ولهـٰذا فٱلله تعالىٰ هو مصدر الرحمة ، ومن وجوده استُمدَّت الرحمة ، أو اشتُقَّت ، فٱلله سابق الوجود علىٰ كلِّ موجود ، ولأن الرحمة من الموجودات (المخلوقات) لذا كان الرحمـٰن سابقاً عليها ، وكانت هي مترتبةً علىٰ وجوده .

وعليه لا يمكن أن يشتقَّ الخالق مما خَلقَ ، ولكن كل شيء يشتقُّ من خالقه . ولأن البشر كغيرهم من ورائهم خالق ، ولأن المخلوق وفقاً للقاعدة تشتق صفته من خالقه ، لذا يستخلف البشر خالقهم بالرحمة . فالرحمة صفة التمام بين المحبين ، ولهـٰذا فهي خاصيَّةٌ إنسانيَّةٌ تميَّز بها البشر عن غيره من المخلوقات الأخرىٰ . ومن يكتسي بالرحمة يُخلِف الرحمـٰن في شيء من خواصِّ الرحمة ، ومن لا يُخلفه يفقد هـٰذه الخاصية ؛ التي بفقدانها لا يتمكن من أن يكون خليفة .

والفرق كبير بين الخليفة الكم ، والخليفة الكيف : الخليفة الكم : كلُّ من خُلق فهو خليفة عدداً . وكلُّ من آمن بما أنزل الرحمـٰن فهو الخليفة قيمياً . ومن هنا يتضح الفرق في المعنىٰ بين الكافر الذي له الحقُّ في الرحمة في هـٰذه الدار الدنيا ، وبين الخليفة الذي له الحقُّ في الرحمة باستخلاف الدارين معاً .

فالخليفة هو من يستمدُّ صفاته من مستخلفه ، ولأن الرحمـٰن هو الخالق ، فالمخلوق ينبغي أن تكون الرحمة من صفاته ، وخاصِّيته ، فهو في أساسه مخلوق عليها ، وهـٰكذا كلَّما تمسّك الموصوف بصفته ؛ ارتبطت صفته به ، وكلَّما تخلىٰ عنها ؛ انسلخت منه .

ولأن الرحمـٰن تعالىٰ خاصيته المطلقة هي الرحمة المتضمنة في اسمه ، وجنس آدم مستخلف ممن له الخاصية المطلقة (الرحمة) كما يدل علىٰ ذلك

قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ (1) ، تتجلىٰ في هـٰذه الآيات دلائل عظيمة ، قُصد بها الخليفة ؛ ليتأمل ، ويعرف عن ربه الذي استخلفه في الأرض ، فيعمل بما يريد ، وينتهي عما نهىٰ ، ومن هـٰذه الدلائل تقديم اسم الرحمـٰنٍ في السورة ، وعلىٰ الخليفة أن يعي : أنَّ ٱلله سبحانه جعل للرحمة مرتبة عظيمة ، فسمىٰ نفسه باسم الرحمـٰن ، وهو الاسم الذي خص به ذاته في استدعاء الدعاء بعد اسمه الأعظم (ٱلله) فقال : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (2) . هـٰذه الآية توضح للخليفة : أن كل أمر لله هو رحمة منه بالمخلوقات وبالمطلق ، هنا تتجلىٰ الدلالة العظيمة الأخرىٰ ، فخلق الإنسان ، وتعليمه إنما هما من وجوه رحمة ٱلله به ، وليس لأمرٍ آخر ، فليتصور من يشاء لو أن الإنسان لم يُخلق ؛ هل ستكون الجنة مأوىٰ خلودٍ له ؟ هـٰذه الرحمة المطلقة أن يُخلق لتكون له الجنة مأوىٰ . ثم ليتساءلوا بينهم لو لم يعرف الإنسان هـٰذا القران العظيم فهل له أن يعرف طريقاً إلىٰ الجنة ؟ هنا ليفهم الخليفة ، وليعمل بما فهم ، فليجعل الرحمة شعاره ، ودثاره ، والطريق إلىٰ تحقيق الاستخلاف الحق متذكراً قول الرحمـٰن جل في علاه لنبينا الأكرم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (3) .

ثم من عظيم الدلائل أن نعرف : أنَّ الرحمـٰن اسم ٱلله ، والرحمة صفته المُتضمنة فيه إلىٰ جانب صفات أُخر ، فالرحمـٰن عليم علَّم الإنسان ما لم يعلم ، والرحمـٰن خالق ، فهو الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وعليه ، وكما تنص الآية الكريمة فالاسم يتضمَّن صفةً أساسيةً (رحمـٰن) ويتسع

(1) الرحمن 3 - 1 .
(2) الإسراء 110 .
(3) آل عمران 159 .

لصفات أخرىٰ : (عليم ، وخالق) .

ومن دلائل الآية : أن الرحمة صفة مطلقة ؛ لأنها من الرحمـٰن المطلق . واليك بعضاً من دلائل هـٰذا الإطلاق :

1 ـ النبوة رحمة : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [1] ، فرحمة دلالة عموم ، وهي مجهولة بالنسبة لمفرد اللفظ ، لـٰكن سياق الآية يدل عليها ، إنها النبوة التي رحم ٱلله بها عباده ، فقد كان عليه الصلاة والسلام رحمة في الدين ، وفي الدنيا ، أما في الدين ؛ فلأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ بُعث ؛ والناس في جاهلية وضلالة ، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم ، وانقطاع تواترهم ، ووقوع الاختلاف في كتبهم ، فبعث ٱلله تعالىٰ محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلىٰ الفوز والثواب ، فدعاهم إلىٰ الحق ، وبين لهم سبيل الثواب ، وشرع لهم الأحكام ، وميز الحلال من الحرام . . . ، وأما في الدنيا ؛ فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذلّ ، والقتال ، والحروب ، ونُصروا ببركة دينه [2] .

2 ـ الرزق رحمة : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ [3] ، فرحمة هنا تدل علىٰ عموم الخير من مالٍ ، أو ولدٍ ، أو صحةٍ ، أو جاهٍ ، أو غير ذلك من مطلق الخير .

3 ـ التثبيت علىٰ الدين رحمة : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ [4] .

---

(1) الأنبياء 107 .

(2) تفسير الرازي ج 11 ، ص 80 .

(3) يونس 21 .

(4) الإسراء 86 - 87 .

4 ـ الهداية رحمة ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ﴾ [1] « أي : رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك ، وهي الهداية بالمعرفة ، والصبر ، والرزق ، والأمن من الأعداء » [2] .

5 ـ الحفظ رحمة : ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [3] .

6 ـ القوة رحمة : ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [4] .

7 ـ قوانين الأرض رحمة : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [5] .

8 ـ النجاة رحمة : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [6] .

وهٰذا قليل من مطلق لا يمكن لبشر أن يحصيه ويعطيه حقه ؛ وإن أفاض ، ولٰكنها بعض مما شاء ٱلله له أن يظهر رحمة منه بمن أراد له أن يعرف ، فيعلم ، ثم يعمل . اللهم اجعلنا ممن يعرفون ، فيعلمون ، ثم يسر لنا العمل بما تحبُّ ، وترضىٰ يا رحمٰن !

---

(1) الكهف 10 .
(2) تفسير الآلوسي ج10 ص 162 .
(3) الكهف 82 .
(4) الكهف 98 .
(5) يس 41 - 44 .
(6) هود 58 .

لذا فالخليفة يحمل في مكوناته شيئاً مِن خصائص مَن استخلفه . ولأن الرحمة كما بيّنا خاصية مطلقة ، وثابتة للرحمـٰن ، لذا فهي لن تكون خاصيةً مطلقة ، وثابتة للخليفة ، ولهـٰذا فهي في حالة اهتزاز بين الثبات النسبي ، والاهتزاز النسبي ، مما يجعل البعض في سلوكهم الرحمة ، والبعض في سلوكهم يفتقدونها . فالذين لا يحكمون بالعدل ، ويأكلون أموال الناس بينهم بالباطل ، ولا يتطهَّرون ، ولا يتصدَّقون ويتزكَّون ، ولا يتوادُّون مع من تربطهم بهم صلة رَحِم ، ولا يناصرون المظلوم ولا يَقدِمون علىٰ أعمال البر ، والخير ، والإحسان فهـٰؤلاء يعتبرون منحرفين عن القيم والفضائل ؛ التي بها يُستخلفون في الأرض . وهـٰذا الأمر يجعلهم من تعداد الخليفة الكم ، وليس من تعداد الخليفة الكيف (القيم ، والفضائل الإنسانية) .

الرحمة لا يمكن أن تتم إلا بوجود طرفين ، طرف يمتلك مسببات الرحمة ، وطرف في حاجة ماسة لهـٰذه المسببات التي تطعمه من جوع ، وتؤمنه من خوف : ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾ (1) . الطرفان هما خالق ، ومخلوق ، فالرحمة من الذي يمتلكها ؟ (الرحمـٰن) . والذي هو في حاجة إليها (الخليفة) . ولأن الخليفة استمد خاصية الرحمة من خالقه الـرحمـٰـن ، ولأن الخَلـقَ بينهـم فـروقٌ فـرديـة مـن حيـث القـدرات ، والاستعدادات ، والإمكانات ، والمستوىٰ الإيماني ، لذا فهم يتراتبون علىٰ السلّم القيمي للرحمة من حيث درجات الاقتراب والابتعاد عن (الرحمـٰن) قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ (2) فعمل الخير رحمة مطلقة من ٱلله بين الناس ، وعمل الشر لا مطلقة فيه بينهم . لذا تتوزع الرحمة بين الناس تناسبياً ، وبتماثل مع ما يُقدم

(1) قريش 4 .
(2) الزلزلة 7 ، 8 .

من أفعال الخير كبيرةً كانت ، أم صغيرة ما يجعل لها أثراً موجباً علىٰ كفة التماثل في ميزان الحسنات . ولهـٰذا بنو الإنسان (الخليفة) في إيمانهم ، وأقوالهم ، وأفعالهم لم يكونوا علىٰ حالة من المساواة علىٰ السلم القيمي للرحمة ، مما يجعلهم علىٰ درجاتٍ من التفاوت من حيث الاقتراب ، والابتعاد من الرحمـٰن ، عز وجل . ولأن الخليفة يتعرض في حياته لظروف قد تجعله في حاجة لمن يُقدِّم له المساعدة نتيجة عوزه ، وفقره ، وبما هو عليه من ظروف ، أو نتيجةً لِما ألمَّ به من كوارث ؛ حتىٰ يتمكن من النهوض ، ومن مغالبة الصعاب . وفي المقابل هناك من تهيأت له الظروف حتىٰ أصبح قادراً علىٰ العيش السعيد ، وقادراً علىٰ مدِّ يد العون للمحتاجين بدون منة ، ما يجعله علىٰ الكفة التي تستطيع أن تُقدِم المساعدة في مقابل الطرف الذي يستلمها ، أو يأخذها . وهـٰذه من دلائل الرحمة بين الناس .

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرًا يَرَهُۥ ﴾ جاءت سابقة علىٰ قوله : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ وهـٰذا الأمر يدل علىٰ أن ٱلله تعالىٰ يهب لنا الرحمة قيمة مطلقة في ذاتها ، أما الشر ؛ فلم يكن كذلك ، فهو المترتب علىٰ ما تقدِّم أيادينا ، ولهـٰذا : الرحمة المستمدة من اسمه (الرحمـٰن) هي الصفة الفعلية السابقة في عمومها ، والغضب هو الفعل اللاحق ، أو المترتب علىٰ ما تُقدم أيادينا ، مما يجعل الغضب عقاباً لنا علىٰ ما قَدِمنا عليه من أفعال غير مرضية للرحمـٰن .

اسم الرحمـٰن عز وجل هو اسم ٱلله ، ولذا لا يعدُّ الرحمـٰن اسماً آخر لله تعالىٰ ، بل هو اسم ٱلله في ذاته ، ولهـٰذا فهو الاسم الذي لا يُثنىٰ ، ولا يُجمع ، ورحمته شاملة تسع الخلق من إنس ، وجان ، وملائكة ، وطائر ، وحيوان ، ونبات ، وجماد ، وماء ، وهواء . والنار التي بواسع رحمته جعلها عز وجل برداً وسلاماً علىٰ إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام . ولهـٰذا : الرحمة تعم كل شيء ، وإلا لو لم تعمَّ كل شيء ؛ ما كانت النار

رحمةً علىٰ إبراهيم ، وعقاباً للكافرين ، ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ ﴾ (1) فكما للجنة أصحاب من المؤمنين ، كذلك للنار أصحابها من الكافرين ، والذين كفروا هم في أساس خلقهم خليفة ترث الأرض ، ولكن انسحابهم عن قيم الخليفة ، وتخلِّيهم عنها لن يجعل لهم مستقبلاً لنيل الجزاء الأوفر كما هو حال الذين استجابوا لله ، وللرسول . ولهـٰذا لا يدخل النار إلا الذي لم يحافظ علىٰ فضائل ما استخلف عليه ، ومن لا يحافظ عليها سيلاحقه الخزي ؛ حتىٰ ينال العقاب بالحق (بالنار) مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ ﴾ (2) .

ولأن الرحمـٰن هو مصدر الرحمة ، لذا فهو الذي يستحق العبادة ، والشكر ، والثناء ، فمن خلقك ، وجعلك خليفة علىٰ الأرض التي فيها معاشك ، وجميع النعم التي تُشبع حاجاتك المتعددة والمتطوِّرة ألا يستحق العبادة ؟ ! وإذا كان من يعمل لك خيراً تشكره كثيراً ؛ فما بالك بالذي خلقك ، وجعل لك الرحمة (الرزق ، والنعم) ، ألا يكون هو الأولىٰ بالشكر ، والثناء والعبادة ؟ ! إنّ الشكر والعبادة صلة لا تنقطع بين الرحمـٰن وخليفته ، فمن تمسَّك بها ؛ تمسَّك بالصلة ، ومن تخلىٰ عنها ، وقطعها ؛ انقطعت الصلة معه ، وعندما تنقطع الصلة بمن يمدُّك بالخاصية والصفة ؛ تنعدم خاصيتك وصفتك به ، ولهـٰذا عندما تنقطع صلة الخليفة بمن استخلفه يفقد صفته التي علىٰ أساسها استخلف في الأرض . ولذا لا يخلف الرحمـٰن إلا من آمن به ، واستمد منه صفة الرحمة التي علىٰ أساسها خُلق علىٰ الأرض ، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَـٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾ (3) جاءت الخلافة علىٰ حالة الجمع : (خلائف) وهـٰذه تدل علىٰ

(1) البقرة 39 .
(2) آل عمران 192 .
(3) الأنعام 165 .

خلافة سابقة ، وأخرىٰ لاحقة ، وهـٰكذا تتوالىٰ ، ﴿ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ فهو لم يخلقكم أيها الخلائف نسخة واحدة ، بل خلقكم علىٰ حالات من الفروق الفردية ، وبطبيعة الحال لو خَلق الرحمـٰن بني الإنسان نسخة واحدة ؛ لكان أمر الخلق أهون مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (1) ، ولأنه هو مصدر الخلق والإعجاز أراد لنا أن نكون غير متناسخين ، كورق السحب الذي يستخدم في الطباعة ، ويريد لنا أن نعرف : أنه القادر علىٰ كل شيء (الكل ، والجزء ، والمتجزئ من الدقيق إلىٰ الأدق منه ، وإلىٰ ما لا نهاية) ، ولهـٰذا لم يخلق الرحمـٰن في خلقنا اثنين متماثلين ومتطابقين بالتمام حتىٰ ولو كانا توأمين ، بل جعلنا متكاملين في خلقه ، فرفع بعضنا فوق بعض درجات ﴿ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ . في هـٰذا الأمر يقول الشيخ متولي الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أي : إن البعض قد رُفِع ، والبعض الآخر قد رُفِع عليه ، فكل واحد مرفوع في جهة مواهبه ، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه » (2) . ولو جعل ٱلله تعالىٰ البشر علىٰ نسخة واحدة في هـٰذه الحالة لا يحتاج أحدنا للآخر ، ولو لم يحتج بعضنا لبعض ؛ ما كنَّا في حاجة للتراحم بيننا ، ولهـٰذا من مبررات نزول الرحمة : أنَّ البعض دائماً في حاجة للبعض . ولذا فإن الرحمة لا تنزل إلا بين طرفين ، مالك ، ومحتاج ، فالمالك هو الذي بيده الخير ، والمحتاج هو الذي يفتقد إليه . والمالك المطلق هو الرحمـٰن الرحيم ، ومالك الجزء ، أو المتجزئ ، هو الذي يمتلك شيئاً ، ويفتقد لأشياء ، ولهـٰذا مالك الجزء ، والمتجزئ مهما امتلك من أشياء ؛ فهو في حاجة لأشياء أخرىٰ . كالطبيب يحتاجه المريض ، وإذا مرض الطبيب هو الآخر سيكون في حاجة لطبيب غيره سواء في تخصصه ، أو في

---

(1) الروم 27 .

(2) تفسير الشعراوي . المجلد السابع ، القاهرة : أخبار اليوم قطاع الثقافة ، ص 29 .

تخصص آخر ، ولذا فإن المريض الواحد يحتاج إلىٰ عدد كبير من الأطباء حيث تنوع الأمراض ، وتعددها ، وهـٰكذا لو كان المريض صاحب حرفة فالطبيب هو الآخر في حاجة لخدماته الحرفية ، فلو كان حيّاكاً ، أو بناءً ، أو سائقاً ، أو طباخاً ، أو حارساً ؛ فالطبيب سيكون في حاجة ماسة لخدماته ، وهـٰكذا تتنوع المهن ، والحرف ، وتتعدد مثلما تتعدد المهارات والخبرات ، ليتمم البعض إشباع حاجات البعض ، حيث لا كمال للخليفة ، بل الكمال لمن خلق الخليفة .

يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ (1) . الزَّبُورِ هو الكتاب الذي أنزل علىٰ داود ، عليه الصلاة والسلام ، والذكر هو التوراة ، ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ الصالحون هم الخلفاء دون غيرهم ، فغيرهم هم الذين يعيشون عليها مادة ، ولا يعيشون عليها قيمة ، وفضيلة ، فالخليفة هو الذي استمدَّ الخلافة من ٱلله تعالىٰ . هو الذي يستمدُّ جميع صفاته ، وخاصياته من القوة التي تحتويها أسماء خالقه تعالىٰ ؛ التي ستتضح بعونه بإتمام هـٰذا العمل الذي نأمل أن يكون فيه حُجّة لنا لا حُجّة علينا ونأمل أن يكون فيه خير .

ومع أن الرحمـٰن ـ عز وجل ـ خلق الإنسان من صفاته الكاملة ، إلا انه لم يخلقه علىٰ صفات الكمال ، فلو خلقه علىٰ حالة الكمال ؛ لم يعد المخلوق في حاجة لخالقه ، وحينها يصبح للخالق شركاء ، ولهـٰذا خُلق الإنسان ضعيفاً ؛ حتىٰ يستمد الرحمة من القوي تعالىٰ . وباستمداده من الرحمـٰن رحمة يمتلك مقاليد القوة التي تجعله علىٰ الأرض خليفة .

خلافة الأرض مسؤوليةٌ ، وأمانة ، فمن يحافظ عليها حافظ علىٰ الأمانة ، ومن لم يحافظ عليها يخونها ، ولذا فالأمانة قيمة طيّبة ، ومن يتصف بها يقال

(1) الأنبياء 105 .

له : أمين ، ومن لا يتصف بها يقال له : خائن ، وهـٰكذا حال الخلافة : فمن كان مؤتمناً عليها وُصِفَ بالخليفة ، ومن خانها فلا يعد من الذين يتصفون بها من شيء . يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [1] أي : يجعلكم سادة فيها ، ولأجل أن تكونوا سادة فاعملوا علىٰ مكانتكم ، وإلا ستكونوا عليها بدون مكانة ، أي : بدون قيمة تذكر ، فالمكانة درجة من الرقي القيمي تجعل الإنسان في حالة هيبة ؛ حتىٰ ينال الاعتراف ، والتقدير من الآخرين . ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴾ [2] فمكانة الذين لا يؤمنون هي البقاء في حياتهم علىٰ الكفر حتىٰ بلوغ العذاب الأليم ، ومكانة المؤمنين هي الرفعة في الحياة الدنيا ، والجنَّة في الحياة العظمىٰ . ولذا فمن يكن علىٰ حالة الرفعة حتىٰ بلوغ الجنة هو الذي يرث الأرض ، ولم يخن الأمانة (الخلافة) فينل الجزاء الأوفر .

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [3] الأرض التي استخلفوا عليها يقدِّرونها كأمانة حقَّ قدرها ، فلا يعيثوا فيها فساداً ، بل يحافظون عليها محافظة أمانة ، ولأجل ذلك يمشون عليها هوناً ، برقةٍ ، وأدب مع رفعةٍ ، وتقدير للفضل الذي استخلفوا به . ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [4] الأمانة هي الخلافة التي ليس بالأمر الهين أن تتم المحافظة عليها ، ولهـٰذا لو عرف الإنسان عاقبة تقصيره كيف تكون ؛ ما حمل الأمانة باعتبار : أنه لم يخلق علىٰ الكمال ، فالإنسان فيه من القصور ما يجعله دون المستوىٰ الذي تتم به المحافظة علىٰ الأمانة ، ولهـٰذا كان ظلوماً جهولا . ولكن من يأتي ٱلله بقلبٍ

---

(1) النمل 62 .
(2) هود 121 .
(3) الفرقان 63 .
(4) الأحزاب 72 .

سليم يجعله علىٰ حالة استثناء من قاعدة الجهولة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [1] ولهـٰذا فالأعمال بالنيات ، فمن آمن بقلبه ؛ اهتدىٰ ، ومن لا يؤمن به ؛ فقد ضلَّ : ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [2] . ولهـٰذا إذا قيل للكافرين : ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [3] فكانت الإجابة بقوله تعالىٰ ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [4] في هـٰذه الإجابة قُدِّم تعلّم القرآن علىٰ خلق الإنسان ؛ لأن المخاطب له ملكة التمييز التي بها يتبين الخطأ من الصواب ، وبها يتبين ما يجب ، ويَقدِم عليه وما لا يجب ، ويبتعد عنه ، ولأن من يراد له أن يكون خليفة في الأرض وقع في الخطيئة نتيجة الإغراءات ، والإقدام علىٰ ما نهىٰ ٱلله عنه ، مع أن له عقل يُمكِّنه من التبيُّن قبل الإقدام علىٰ الفعل ، ومع أنه حُذِّر إلا أنه غَفل حتىٰ غُرر به ، ووقع في الخطيئة . وحتىٰ لا يتكرر مثل هـٰذا الفعل ؛ قُدِّم القرآن الذي فيه البيان الكامل والواضح لمن يريد أن يتبين ويميز بين الحلال والحرام والصواب والخطأ (ما يجب الإقدام عليه ، وما يجب الابتعاد عنه) حتىٰ لا تتكرر الخطيئة . ولذا ينبغي علىٰ الخليفة أن يتبين أولاً قبل أن يفعل ويسلك ثانياً ، ولهـٰذا جاء (تعلّم القرآن) مُقدّما علىٰ (خلق الإنسان) لِما يحتويه ويتضمنه من البيان المُفصَّل حتىٰ يتيسر للإنسان الذي ورد لاحقاً في سورة الرحمـٰن أن يتعرف علىٰ ما يجب قبل أن يقدم علىٰ فعله .

بسورة الرحمـٰن تتزين الأنفس ، وتتطهَّر ، وإذا تبيَّن الخليفة ؛ تمكَّنَ من الوقوف علىٰ ما ورد فيها من إعجاز ، يُطمئن القلوب المؤمنة ، وينير البصر كما هو ينير البصيرة ، ويرشد الخليفة لدروب الحياة الطاهرة ، وإلىٰ خشية

---

(1) الشعراء 89 .
(2) يونس 108 .
(3) الفرقان 60 .
(4) الرحمن 1 - 4 .

الرحمـٰن والخشوع له عزة . ولهـٰذا كانت سورة الرحمـٰن عروس القرآن ، كما روي عن عليٍّ ـ رضي ٱلله عنه ـ : أنَّ رسول ٱلله ﷺ قال : « لكل شيء عروس ، وعروس القرآن سورة الرحمـٰن » [1] .

قال ٱلله جلَّ جلاله : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴾ [2] استغفر ٱلله ! فالرحمـٰن ﴿ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴾ ولهـٰذا لم يكن له مثيل بالمطلق . فلو كان له ولدٌ ؛ صدق من قال : ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ۝٨١ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [3] بمعنىٰ : قل يا محمد ﷺ ، بدون تردد إن كان للرحمـٰن ولد ؛ لكنت أنا أول العابدين لله علىٰ انه لا ولد له ، قلها لأنك تعرفني ، وتؤمن بما أنزلت ، ولا تشرك بي ، وقل بدون تردد : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ ولذلك فمن أراد أن يؤمن فليؤمن ، ومن أراد أن يكفر فليكفر . ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ ﴾ [4] . إذاً لسان حال الخليفة في خلقه لسان توحيد ، وما الخروج عنه إلا ابتعاد عن قول الحق ، وفعل الحق . فلو كان لله ولد ؛ لكان له بالضرورة والد : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ . وعليه أتساءل : كيف يؤمن الكفرة بأن ٱلله ليس له والد ، ويؤمنون في الوقت ذاته بأنّ له ولد ؟ . فبطبيعة الحال بما أنه لا والد له إذاً لا يمكن أن يكون له ولد . وهـٰذا الأمر يجعله يختلف عن أمر الخليفة الذي خُلق ليتكاثر حتىٰ النهاية ، علىٰ قاعدة : والد ، وولد .

﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ

---

(1) القرطبي الجامع لأحكام القرآن . المجلد 17 دار الكتاب العربي ص 151 .
(2) مريم 88 .
(3) الزخرف 81 ، 82 .
(4) المائدة 73 .

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [1] الأمة التي أنت فيها رسول هي خالفة لأمم سابقة عليها ، وجاءت كلمة (كذلك) لتدل علىٰ أحوال الأمم السابقة التي هي الأخرىٰ بَعثَ ٱلله فيها رُسلاً وكفر البعض من كل أمة بهم ، ولذا لا استغراب إن كفر بعض من قومك بالرحمـٰن ، لـٰكن عليك أن تقول : الرحمـٰن ربي لا إلـٰه إلا هو ، وبلِّغ به ، وتوكل علىٰ ربك الذي هو مرجعك في كل حين . فإنَّ تمسكك بالرحمـٰن رباً واحداً يجعلك القدوة الحسنة لِمن آمن بك رسولاً ورحمةً ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2] أيها النبي الكريم في رسالتك البيان ، والحنان فيك قدوة ، يا محمد ! أنت رحمة ، وبشائر للعباد ، خاتم الأنبياء أنت ، واحدٌ ربُّ العباد ، في الشهادة ، والصلاة لا إلـٰه إلا هو ، والخليفة في ازدياد ، جئتنا بالحق رحمة والسلام ، فصحونا بعد غفلة ، وصدقناك الكلام ، لا إلـٰه إلا أنت يا رحيماً في البداية والختام ، ورسولاً يا محمد أنت رحمة للأنام .

ولأن محمداً ﷺ جاء رحمة للعالمين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [3] لا استثناء لأحد من رحمة ٱلله ، إلا الذي يستثني نفسه منها بمعصية أمر الطاعة ، فرحمته الواسعة في عمومها كرسالة محمد ﷺ في عمومها ، ولذا كانت رسالته رحمة للعالمين . تستهدف الناس كافة بالرحمة ، ولا تخصُّ قوماً ، أو مجتمعاً بذاته . فخليفة ٱلله وحدة واحدة ، ولهـٰذا يستهدفها ٱلله برحمته دون استثناء . ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [4] النفخة هي الرحمة التي بها يخلف المخلوق مستخلفه ، وهـٰذه هي الرحمة ، التي جعلت من بني آدم خلفاء علىٰ الأرض ، فالنفخة هي انبعاث

---

(1) الرعد 30 .
(2) الأنبياء 107 .
(3) الأعراف 156 .
(4) الحِجر 29 .

الحياة في النفس الإنسانية من الرحمـٰن الرحيم . ولذا فمن استمد روحه من روح ٱلله يخلفه بالثبات والبقاء علىٰ روح ٱلله ، وروح ٱلله ليس هي الأنفاس التي فيها حركة الأوكسجين شهيقاً ، وزفيراً ، بل هي الانطباع بروح ٱلله في صلة الرحم ، لأجل إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، ولاتباع ما أمر به ، وللانتهاء عما نهىٰ عنه . ولعمارة الأرض .

فالإضافة في (روحي) للتشريف والتكريم ، والروح جسم لطيف روحانيٌّ ، والدليل علىٰ ذلك قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [1] في الآية إخبار بثلاثة أمور :

1 ـ إخبار بتوفيها .

2 ـ وإمساكها .

3 ـ وإرسالها .

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [2] بما أنّ ٱلله تعالىٰ هو خير حافظاً . إذاً هناك حافظين غيره ، إلا أنهم قُصَّر عن التساوي معه في مستويات الحفظ ودرجاته . ولأنه هو الرحمـٰن ، والبشر الذين نَفخ فيهم من روحه هم خلفاؤه في الأرض ، فهم بطبيعة الحال في أساس خلقهم الرحمة ، ولـٰكن لا يمكن أن يتساووا معه بناءً علىٰ القاعدة التي تقول : (لا يمكن أن يستوي المخلوق مع خالقه) ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ ولم يقل : (نفخت فيه روحي) فلو قالها ؛ لكان الخليفة متماثل بالتمام مع مستخلفه ، وهـٰذه تعترض مع قاعدة المخلوق والخالق من حيث انعدام التساوي ، أو حتىٰ الاقتراب منه . فالرحمـٰن هو اسم ٱلله العظيم ، ولم يكن

(1) الزمر 42 .

(2) يوسف 64 .

صفة له ، بل الرحمة صفة استمدت من اسم الرحمـٰن ، والفرق كبير بين أن تكون الرحمة صفة وبين أن تكون مستمدةً من الأصل ، ومترتبة عليه . فاسم الرحمـٰن مصدر لكل رحمة ، ولو لم يكن للرحمة مكوّنٌ ؛ ما كانت ، أي لو لم يكن الرحمـٰن ما كانت الرحمة صفة مفضلة بيننا . ولذا فالرحمـٰن هو بيت الرحمة ، وليس هو الرحمة ، ولهـٰذا بَعث الرحمـٰن لنا نحن بني الإنسان الأنبياء والرسل رحمة . وجعل لنا الليل لنسكن فيه رحمة ، وجعل لنا النهار معاشاً رحمة ، وجعل لنا المحبَّة والأرزاق والكثير من النعم التي لا تحصىٰ رحمة .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (1) استوىٰ علىٰ العرش بواسع رحمته ، وتحكَّم بسيطرة تامة علىٰ كل شيء خلقه ، والحمد لله الذي استوىٰ علىٰ العرش بالرحمة حتىٰ عمَّت كل شيء ، ولأنها عمَّت كل شيء فكل شيء يُسبِّح للرحمـٰن . ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ ﴾ (2) كل المخلوقات تسبح لله تعالىٰ باللغة التي هي عليها عِرفاناً بواسع رحمته التي عمَّت كل شيء ، ولهـٰذا سبقت النِعم وواسع الرعاية خلق الكائنات الحية ، وإلا هل هناك من يعتقد : أنَّ خلق الكائنات كان سابقاً علىٰ ما يُشبع حاجاتها المتعددة والمتنوعة ؟ . المأكل ، والمشرب ، والمأمن كانت وفرة تامة (الجنة) في الحياة الأولي بالنسبة للجنس البشري ، ثم الأرض (الكنز المُكوّر) الممتلئة في باطنها وعلىٰ ظاهرها بمسببات الإشباع ، وهـٰذه جميعها رحمة . ولولا ذلك ما كُتبت الحياة للكائنات الحية ، وإلىٰ يومنا هـٰذا ، ويوم غدٍ ، فمعظم الكائنات ما دون الإنسان ترتع ، فتشرب ، وتأكل ، وتنام تحت واسع رحمته بدون أن تُسهم في إنتاج ما يُشبع

(1) الرحمن 5 .
(2) الإسراء 44 .

حاجاتها ، فلو لم يكن الماء سابق الوجود علىٰ من هو في حالة ظمأ ؛ ما شرب ، وارتوىٰ ، وهـٰكذا لو لم يكن الكلأ سابقاً علىٰ من به جوع ؛ ما أكل ، وشبع ، وكلها تُسبِّح بحمد الرحمـٰن الذي علىٰ العرش استوىٰ ، وفي ذلك يقول تعالىٰ : ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ (1) فمن رحمته تعالىٰ تجدده لأحياء الأرض بما ينمو عليها من خيرات ، ومما تفيض به من باطنها من ماء ، فكلما جدبت ؛ أنبتت عشباً وكلأ جديداً ، وهـٰكذا رحمة الرحمـٰن تتجدد ، والتسبيح باسمه وحمده وشكره علىٰ رحمته ومن حول العرش لا ينقطع .

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ (2) التسبيح شكر ، وعرفان بمن عمَّت رحمته كل شيء ، ولأن العرش محمول من قِبل المكلفين به من الملائكة العظام ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾ (3) .

ومن يستخلفه الرحمـٰن ينبغي أن يكون أول المسبِّحين (الحامدين الشاكرين) له ، ولذا فمن يخلقه الرحمـٰن ينبغي أن يكون رحيماً بنفسه ، وبزوجه ، وأبنائه ، ووالديه ، وعلىٰ جميع من يُسبح للرحمـٰن تعالىٰ . ولأن الرحمـٰن استوىٰ علىٰ العرش بالرحمة ، وبعث الأنبياء والرسل رحمة للعباد ، ولم يرسلهم لغير ذلك ، لذا فإن الخليفة هو أول المستهدفين بالرحمة ، ولهـٰذا ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (4) فالإكراه هو ما يناقض الرحمة ، حيث احتوائه علىٰ المظالم والاستعباد ، وعدم احترام من يراد له أن يكون

---

(1) الروم 50 .

(2) غافر 7 .

(3) الحاقة 17 .

(4) البقرة 256 .

خليفة للرحمـٰن الرحيم . ولهـٰذا فرُسل ٱلله رحمة يُبلِّغون الناس بما يُرضي الرحمـٰن تعالىٰ ، ويحرِّضونهم علىٰ فعل الخيرات ، وينذرونهم من الوقوع فيما يؤدي إلىٰ الشرور . ويحرضونهم علىٰ اتباع الحلال والابتعاد عن الحرام . ولذا فهم رحمة لإبلاغ العباد بما لا يعلمون ، حتىٰ لا يكونوا في غفلة من أمرهم ، وما يُحيط بهم ، وما ينتظرهم .

رحمـٰن علىٰ وزن فعلان ، وهي صيغة مبالغة تدل علىٰ الكثرة ، والزيادة في الصفة ، فكلما زادت الصفة الراحمة للخليفة كان خير خليفة ، وكلما قلت قلَّ خيره . وفي هـٰذا الأمر يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [1] قراءة القرآن عن تدبر بدون شك زيادة رحمة لِمن يقرأه ، ولمن يستمع له ، وينصت ، ولأن في الإنصات تتبع وانتباه عن وعي ، لذا فهو يُمكِّن من الوقوف علىٰ الحِكَم التي يتضمنها في الكلمات والجمل المقروءة في زمن الإنصات . ولأنها حِكم من ٱلله تعالىٰ ؛ فهي ذات أثر موجب ، تؤدي إلىٰ الصحوة بعد غفلة من الأمر ، وهـٰذه الصحوة فطنة إدراكية تجعل المستمع ، والمنصت لكلام ٱلله ـ عز وجل ـ علىٰ حالة من التبيُّن ، وهـٰذه رحمة من الرحمـٰن الرحيم . حيث ظهور الفعل المترتب علىٰ الاستماع والإنصات للقرآن الكريم ، وهو الإيمان (الانتقال من حالة الخليفة الكم إلىٰ حالة الخليفة القيم ، والفضائل) .

إنّ الاستماع للقرآن ، والإنصات له ليس غايةً في ذاته ، بل الغاية هي بلوغ المترتب علىٰ قراءته ، والاستماع له ، والإنصات إليه ، والمترتب علىٰ كل ذلك هو (الرحمة) التي تتحقق بالهداية ، أو الوقوف علىٰ إعجازه ، وإظهار كنوزه من مكامنها ، والانتقال من حالة الغفلة إلىٰ حالات اليقظة ، فالظالم إذا اهتدىٰ ؛ يصبح عادلاً ، والكافر يصبح (مؤمناً) ، والكاذب ،

---

(1) الأعراف 204 .

والمنافق ، وشاهد الزور يصبحون صادقين ، فالمؤمن لا يأكل إلا حلالاً ، ولا يسرق ، ولا يزني ، يقول الحق ، ويقدم علىٰ فعله ، ولا يسلك إلا خيراً . وفي ذلك يقول الرحمـٰن تعالىٰ : ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [1] تشير (تلك) إلىٰ (الم) التي في ظاهرها تقرأ أحرف ، وفي مضمونها تُدرك آيات إعجازية من الكتاب الحكيم تهدي للتي هي أحسن ، وهي رحمة لِمن هم يُحسنون القول والفعل ، وخاصة في أدائهم للصلاة ، وإيتائهم للزكاة ، وإيقانهم بالآخرة . ومع أن الرحمة مطلقة المفهوم والدلالة ، إلا أنها في هـٰذه الآيات جاءت للخاصة (للمحسنين) فإذا أعجبك فاعل خير (مُحسن) ، فعليك أن تعرف أن للإحسان معايير قيمية ، ودرجات قياسية ، تتفاوت من عملٍ صالحٍ إلىٰ عملٍ أكثر صلاحاً منه ، وهـٰكذا بما أن بين الناس محسنين ، فبالطبيعة هم يتفاوتون في درجات إحسانهم عند ٱلله ، فكلما ازددت عطاءً في الأوجه الخيرة ؛ ازددت إحساناً وبركة ، ولهـٰذا إذا رأيت محسناً ؛ تأكد بأن هناك من هو أكثر إحساناً منه ، ولذا فإن الرحمة تعمُّ المؤمن وغير المؤمن ، وتخص بأعلىٰ درجاتها المحسنين الذين يُقدِمون علىٰ فعل الخيرات .

يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [2] ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ترتبط بما هو سابق ، وهو الإصلاح بين الإخوة ، وبما هو آتي ، وهو الرحمة ، حيث لا يتحقق اللاحق إلا بنوعية الفعل السابق ، فإن كان خيراً تكون الرحمة هي الفعل المترتب عليه ، وإن كان شراً يكون العقاب هو المترتب عليه ، ولأن أفعال التفضيل إصلاحية ، لذا تُقدَّم أفعال الرحمة علىٰ أفعال العقاب .

(1) لقمان 1 - 3 .
(2) الحجرات 10 .

الرحمة صفة تُغرس من الذات الإلـٰهية في الذات الإنسانية ، التي هي في أساس خلقها نفخة من روح الرحمـٰن . ولهـٰذا فالقاعدة هي : (خُلقت الأرض رحمة بالإنسان ، وخُلق الإنسان رحمة عليها) ، والاستثناء هو : (أن يُفسد البعض من بني الإنسان الأرض التي خُلقت رحمة به وبحاله) . ولذا فالخليفة هو الذي يستخلف في الأرض لإصلاحها ، لا أن يُفسد فيها . ولذلك يُعد إصلاحها رحمة .

ولذا فإن الرحمة تعم المؤمن ، وغير المؤمن ، وتخص بأعلىٰ درجاتها المحسنين الذين يقدمون علىٰ فعل الخيرات : فالرحمة الخاصة ، وأقصد بها أن يتجلىٰ ٱلله علىٰ قلبك ، فتمر عليك ساعة لا تعدلها الدنيا وما فيها ، والعبد الصالح يسعىٰ للوصول للرحمة الخاصة ، فهناك تقريب ، وهناك مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وهناك نور يقذفه ٱلله في قلبك ، فترىٰ به الخير خيراً ، والشر شراً ، وهناك شعور بأن ٱلله يحبك ، وهناك مشاعر لو وزعت علىٰ أهل بلدٍ ؛ لأسعدتهم . وهـٰذه الرحمة الخاصة تحتاج لأن يكون للعبد مع ٱلله مودة : سهر الليالي في ذكره ، غض البصر عما نهىٰ عنه ، إنفاق الأموال في الوجه الحق ، احترام العلماء ، وحضور مجالسهم ، تفقد اليتامىٰ ، والفقراء ، والمساكين ، وتقديم العون لهم ، فحينما تشمر للعمل الصالح ، وحينما تقدم شيئاً ثميناً لأخيك المسلم . هـٰذه الجهود المتتابعة المتراكمة الكثيرة المديدة تتوَّج بما يسميه العارفون بٱلله بتجليات ٱلله علىٰ قلبك ، فتشعر بالسعادة التي لا يعادلها الدنيا وما فيها ، وهي من رحمة ٱلله الخاصة وجنته في أرضه . والرحمة الخاصة مشروطة بالطاعة ، والمجاهدة ، وبذل المال ، وعدم تبذيره ، ومعاونة الضعيف ، ومعاونه الأرملة ، وتفقد الجيران ، وتلاوة القرآن هـٰذه من القنوات التي تصلك من خلالها الرحمة الخاصة .

وبناء علىٰ قاعدة : الأرض رحمة للإنسان ، والإنسان رحمة عليها ، يستخلف البشر بعضهم بعضاً أمماً وشعوباً ، علىٰ قاعدة : عبادة ٱلله ،

والإحسان بالوالدين مصداقا لقوله عز وجل : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (1) في هـٰذه الآية الكريمة أمَرَ رَبُّك وحَكم بعبادته دون غيره ، وهـٰذه رحمة لا تجعلك تفكر في معبود آخر من دونه ، وأمر بالإحسان للوالدين ، حتىٰ يتم نيل رضاهما ، وهـٰذه رحمة . وبما أنّ نيل رضاء الوالدين رحمة علىٰ الأبناء ؛ إذاً الأبناء رحمة علىٰ الوالدين ، ولهـٰذا يُستخلف البشر علىٰ أساس قاعدة الرحمة المستمدة من (الرحمـٰن) . ولذا فإن نيل رضاء الوالدين رحمة ، ونيل غضبهما عذاب ، فالرحمة مفاتيح خير ، والغضب شواظ من نارٍ ، ونحاس . قال أبو داود ، والترمذي . قال رسول ٱلله ﷺ : « الراحمون يرحمهم ٱلله تبارك وتعالىٰ . ارحموا من في الأرض يرحمْـكم من في السماء » (2) .

بناء علىٰ ما تقدم لا يسع الخليفة إلا أن يقول ما قاله ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (3) . ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (4) .

الرحمـٰن من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وصفة من صفاته الكريمة ، واسم الرحمـٰن لا يطلق إلا علىٰ ٱلله تعالىٰ من حيث إن معناه لا يصح إلا له ؛ إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة ، أما الرحيم ؛ فإنه يستعمل في غيره ، وهو الذي كثرت رحمته ، قال تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (5) وقال في صفة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ

(1) الإسراء 23 .
(2) المعجم الكبير للطبراني ، ج 20 ، ص 108 .
(3) المؤمنون 118 .
(4) المؤمنون 109 .
(5) النور 5 .

رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) والرحمـٰن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين ، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين ، وعلىٰ هـٰذا قال : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) ، وفي ذلك تدل الآيات الكريمة علىٰ رحمة ٱلله الواسعة في الدارين ، إلا أن رحمته في الدنيا عامة (المسلم ، والكافر) ، ورحمته في الآخرة خاصة بالمستخلفين الوارثين .

الرحمـٰن اسم عظيم لله الأعظم علىٰ صيغة فعلان الدالة علىٰ المبالغة ، وهناك علاقة قوية ، وتداخل في الدلالة مع الاسم الودود في قوله تعالىٰ : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ (4) .

وحظ الخليفة من اسم ٱلله الرحمـٰن أن يتخلق بشيء مما يدل عليه قدر الاستطاعة البشرية ، فيكون رحيماً بخلق ٱلله ، مؤيداً لأرباب الحق ، ناصراً لأولياء ٱلله ، لطيفاً في معاملاته لخلق ٱلله ، رفيقاً بهم ، مملوء القلب بالرأفة والرحمة ، محباً لله ، ومحباً لكلِّ من يحبهم ٱلله ، ولكلِّ ما يحبه ٱلله .

أكثر ما ورد اسم (الرحمـٰن) في سورة الرحمة الكريمة ، وهي سورة مريم ؛ إذ تبتدئ هـٰذه السورة بذكر الرحمة ، يقول تعالىٰ : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ (5) ثم يبدأ تردد اسم الرحمـٰن في هـٰذه السورة خصوصاً في

---

(1) التوبة 128 .
(2) الأعراف 156 .
(3) هود 90 .
(4) البروج 13 - 14 .
(5) مريم 2 .

قصة مريم ، وإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين قال ٱلله تعالىٰ لمريم : ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [1] كما ورد اسم الرحمـٰن ضمن سياق قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [2] وقصة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تشكل أسلوبها وفق معيار الخير الذي يريده ٱلله تبارك وتعالىٰ للخلق أجمعين ، فإبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ صاحب شخصية اتَّسمت بالرضا ، والحلم ، والود حاول أن يهدي أباه إلىٰ الخير الذي هداه ٱلله إليه ، وعلَّمه إياه ، فكان أسلوب الحوار في هـٰذه القصة مبني علىٰ الاحترام ، واللطف ، وبهـٰذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلىٰ أبيه ، يحاول أن يهديه إلىٰ الخير الذي هداه ٱلله إليه ، وعلمه إياه ؛ وهو يتحبب إليه فيخاطبه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ فقد كرر ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ أربع مرات ، ففيها من التحبب ما ليس في (أبي) وفي ذلك دليل علىٰ سماحة نفس إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ناحيةٍ ، وتلطفه في إيصال دعوته من ناحية أخرىٰ . ويستمر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في خطابه مع أبيه ، ويسأله : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ والأصل في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلىٰ من هو أعلىٰ من الإنسان ، وأعلم ، وأقوىٰ ، وأن يرفعها إلىٰ مقام أسمىٰ من مقام الإنسان ، فكيف يتوجه بها إذاً إلىٰ ما هو دون الإنسان . بل إلىٰ ما هو في مرتبة أدنىٰ من مرتبة الحيوان : لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يملك ضراً

(1) مريم 26 .

(2) مريم 41 - 46 .

ولا نفعاً ؛ إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام . وفي حوار سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع أبيه الذي ينبني في كل ثنياته علىٰ جو الرحمة والاحترام من إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأبيه الكافر ، وهنا يخطر لنا سؤال : ما دلالة استخدام الرحمة في هـٰذا المقطع بالذات ؛ إذ ترددت مرتين متتاليين ، في قوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَـٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَـٰنِ عَصِيّٗا ۝٤٤ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَـٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [1] ؟ والملاحظ : أن الآيتين تتحدثان عن المعصية والعذاب فلماذا أتىٰ اسم (الرحمـٰن) فيهما مع أن من الأولىٰ أن يأتي باسم فيه دلالة علىٰ العذاب ، أو العقوبة ، إلا أن التحليل لسياق الخطاب يبين : أن العذاب كان مفترضاً من إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليس متحققاً ، ولهـٰذا قال : ﴿ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ﴾ علىٰ الظن ، وليس علىٰ اليقين ، وغلّب الظن علىٰ اليقين في هـٰذا العذاب باستعمال لفظ (الرحمـٰن) رأفة بأبيه ، وعطفاً عليه ، وكأنه يريد أن يقول : إنه في داخله لا يتمنىٰ أن يحدث هـٰذا العذاب لأبيه مستعملاً صيغة الرحمة للدلالة علىٰ هـٰذه الأمنية ، ذلك : أن العذاب في حالة تحققه هو حرمان من رحمة ٱلله تعالىٰ ، فضلاً عن ذلك : أن الجرم الكبير يحرم صاحبه من رحمة الرحمـٰن مما يترتب عليه الوصول إلىٰ نقطة النهاية التي يكون عندها تحقق العذاب المقدر . فكان اسم (الرحمـٰن) إشارة دائماً إلىٰ التفكر ، والتروي من أجل نيل الرحمة وبخاصة في الأمور المهمة التي يكون في ارتكابها فقدان الرحمة ، وتحقق العذاب ، أما وروده في قوله تعالىٰ : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ﴾ [2] فإن المقام هنا يقتضي الرحمة ، ولا يقتضي أيَّ شيء غيرها ، فقد تحققت كل علامات القدرة ، وأصبح الجميع في موقف اليقين

---

(1) مريم 45 - 44 .

(2) النبأ 38 .

المتحقق من قدرة ، وعظمة ، وجلال الله تبارك وتعالىٰ ، فالموقف شديدٌ ، وحاسم ، والكل يساقون إلىٰ رب العزة ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (1) فحين يبعثون من قبورهم ، ويقومون منها يدعوهم الداعي إلىٰ الحضور ، فيحضرون لموقف القيامة ، خاشعة أصواتهم للرحمـٰن ، ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ أي : إلا ما يدل علىٰ الاحترام ، والأدب ، والذوق الرفيع ، والطاعة المتطلعة إلىٰ نيل الرحمة ، وبذلك تكون المخافتة همساً بتحريك الشفتين فقط ، يملكهم الخشوع ، والسكون ، والإنصات انتظاراً لحكم الرحمـٰن فيهم ، والاجتماع للموقف ، فيتبعونه مهطعين إليه ، لا يلتفتون عنه ، فتكون الدعوة لجميع الخلائقُ دون استثناء ، والكل ينتظر حكم أرحم الراحمين ، جلَّ جلاله ، والأمل بالرب الكريم : الرحمـٰن الرحيم أن يرىٰ الخلائق منه من الفضل ، والإحسان ، والعفو ، والصفح ، والغفران ما لا تعبر عنه الألسنة ، ولا تتصوره الأفكار ، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميعُ الخلق لما يشاهدونه ، فالأمل قائم لديهم ؛ لأنَّ مرجعياتهم عن هـٰذا اليوم تعود إلىٰ سياقات تتشكل جميعها من رحمة رب العالمين ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ (4) فالسياقات هنا كلها جاءت واسم (الرحمـٰن) متشكل فيها ، مما يعطي انطباعاً عن الرحمة الواسعة التي تنتظر الخلق جميعاً . ومن المرجعيات

---

(1) طه 108 .

(2) طه 108 .

(3) طه 109 .

(4) الفرقان 25 - 26 .

التي تنم عن رحمة ٱلله الواسعة ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ ٱللهَ لَمَّـا قَضَـىٰ الْخَلْـقَ كَتَـبَ عِنْـدَهُ فَـوْقَ عَـرْشِـهِ : إِنَّ رَحْمَتِـي سَبَقَـتْ غَضَبِي » (1) .

ثم يتكرر اسم (الرحمـٰن) مراتٍ أخرىٰ في سياقاتٍ أخرىٰ في هـٰذه السورة ، وأغلبها سياقات يتضح فيها أسلوب التوعد ، والعقاب ، يقول تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ (4) كما يتكرر بآيات أخرىٰ بسياقات فيها شكل من أشكال الرحمة ، يقول تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ (5) وقوله تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ (6) وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (7) فما دلالة استخدام هـٰذا التضاد الظاهر لاسم ٱلله تعالىٰ (الرحمـٰن جل جلاله) بسياقات عذاب مرة ، وبسياقات رحمةٍ مرةً أخرىٰ ، والتأمل الدقيق للسياقات جميعاً يوصل إلىٰ نتيجة : إن سياقات العذاب تنتهي في الأخير إلىٰ شكل من أشكال الرحمة ، فهو عذاب ظاهري علىٰ شكل توعد ، وليس عذاباً متحققاً ، ولهـٰذا أتبع ٱلله تعالىٰ كل سياق من سياقات العذاب سياقاً من سياقات الرحمة ،

(1) صحيح البخاري ج 22 ص 432 .
(2) مريم 69 .
(3) مريم 75 .
(4) مريم 78 .
(5) مريم 85 .
(6) مريم 93 .
(7) مريم 96 .

أو سبقه به ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [1] .

ينقدح في الذهن سؤال جوهري عن علاقة اسم (الرحمـٰن) بسورة الرحمـٰن ، ولماذا سميت هـٰذه السورة (عروس القرآن) ؟ ولا يمكن الإجابة عن هـٰذا السؤال إلا بتفحُّص السياقات التي شكلت مفاهيم السورة ، وهي مفاهيم تنتمي بمجملها إلىٰ شمولية اسم (الرحمـٰن) ، بمعنىٰ : أن سورة الرحمـٰن هي شرح قرآني لاسم ٱلله تعالىٰ ، وصفته العظيمة (الرحمـٰن) ، فكل آية ، وكل سياق في السورة يشكل مظهراً من مظاهر قدرة الرحمـٰن ، ولهـٰذا ابتدأت السورة بلفظ : (الرحمـٰن) واستمرت من بدايتها إلىٰ نهايتها بتعداد مظاهر (الرحمـٰن) سواء علىٰ المستوىٰ الدنيوي ، أم علىٰ المستوىٰ الأخروي ؛ إذ في كليهما تتجلىٰ عظمة (الرحمـٰن) ، ولهـٰذا قيل عن الرحمـٰن : أنه رحمـٰن الدنيا ، والآخرة ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [2] السورة تؤكد هـٰذه الثنائية الرحمانية لاسم (الرحمـٰن) فهي لا تعدد أشكال ، أو مظاهر الرحمة الدنيوية فقط ، بل إنها

---

(1) مريم 84 - 86 .

(2) الرحمن 5 - 25 .

تتجاوز هـٰذه المظاهر إلىٰ مظاهر الرحمة الأخروية التي شكلتها علىٰ مستويين دلاليين ، مستوىٰ عالٍ ، ومستوىٰ أعلىٰ ، أما الأول فيمثله وصف الجنة الأول الذي هو للمرتبة العليا ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ (1) بينما المرتبة الأعلىٰ التي هي تخص الأنبياء والشهداء والصديقين فلهم جنة مختلفة ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (2) .

تتشكل رحمة ٱلله تبارك وتعالىٰ ضمن ثنائية الدنيا ، والآخرة مما يرتسم لها أطر تحددها ، وتكسبها مساحات تتوزع بحسب الإرادة الإلـٰهية المتحققة فيها الرحمة المطلقة ، وهـٰذا يحيلنا إلىٰ حديث الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليرسم لنا الرحمة التي أرادها ٱلله تبارك وتعالىٰ لعبده وفق ترتيب أراده ٱلله تعالىٰ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ لِلَّهِ مِئَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَىٰ وَلَدِهَا ، وَأَخَّرَ ٱللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً

---

(1) الرحمن 46 - 60 .
(2) الرحمن 62 - 77 .

يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[1] هنا تتجلىٰ رحمة ٱلله ـ تبارك وتعالىٰ ـ من خلال تقسيمها وفق معطيات أرادها سبحانه ، بدأ من الدنيا التي تحضن مختلف المخلوقات ، فبالرحمة تعيش المخلوقات ، وتتوافق ، وتستمر حياتها ، وهـٰذه المعيشة في الحياة صورة للرحمة التي رسمها شطر الحديث النبوي ، وهي متحققة ، وبتحققها نجد : أن رحمة ٱلله تعالىٰ عظيمة جداً ، فصورها متكررة يومياً نراها ، ونتعجب ، ونسأل أنفسنا دائماً ونحن نرىٰ الأسد يلعب مع ابنه ، والنسر يقطع المسافات الطويلة ؛ لكي يجلب لأفراخه الطعام ، ويقوم هو بإطعامهم بنفسه . صور تبهر العيون ، وتسحر العقول . لماذا لا يأكل الأسد ابنه ؟ ! لماذا لا يأكل النسر صغاره ؟ ! هـٰذه الأسئلة وغيرها تخرج من بوتقة واحدةٍ مُشكِّلةً حزماً تبحث في اتجاهات مختلفة للحصول علىٰ إجابةٍ لهـٰذا النظام العجيب ، لـٰكنها في نهاية المطاف تجد الإجابة ، وهي أن نظام هـٰذا الكون كله يسير وفق رحمة الرحمـٰن ، ولا يقتصر الأمر علىٰ الحيوانات ، بل إن للإنسان نصيبه الأكبر من ذلك ، فتشكلات الإنسان من بداية الخلق إلىٰ أن يرث ٱلله تعالىٰ الأرض ومن عليها توحي بالرحمة التي أسبغها ٱلله تعالىٰ علىٰ خلقه ، وهـٰذه الرحمة المتحققة للجميع لا تنقطع بعد زوال الدنيا ، إنما تدخل منعطفاً جديداً ؛ إذ تتوسع أفاقها ، وتتفوق علىٰ الصورة المتخيلة لرحمة ٱلله تعالىٰ المرسومة من قبل عباده فمهما كانت الصورة المتخيلة لرحمة ٱلله تعالىٰ لا تصل إلىٰ أي نسبة للصورة التي سوف يجدها عباد ٱلله أمامهم يوم القيامة ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] أما قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ

---

(1) صحيح مسلم ج 13 ص 311 .

(2) الأعراف 156 .

ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [1] فهو يعرض الرحمة لصنفين من الخلق ، كانت لهم اليد الطويلة في تكذيب الدعوة الإسلامية ، والوقوف بوجهها ، وفي ذلك ترغيب لهم في ابتغاء رحمة ٱلله تعالىٰ ، وإتباع رسوله ، عليه الصلاة والسلام ، فإن أصروا علىٰ عنادهم ، وكفرهم ؛ فحذرهم من نقمة ٱلله تعالىٰ ، وعذابه ، فإن بأس ٱلله تعالىٰ شديد ، ولا يرده شيء عن القوم المجرمين ، يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] .

والرحمة تتجلىٰ بين العباد ضمن العلاقات القائمة التي رسمها ٱلله تبارك وتعالىٰ بين الخلق جميعاً من آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلىٰ أن يرث ٱلله تعالىٰ الأرض ومن عليها ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [3] سياق الآية هنا رسم بداية الخلق وفق تشكيل تقاربي يلملم الأجزاء المتناثرة ، ويجمعها بقصد التعارف ضمن الوعي المتحقق بين الجميع ، مما يؤدي إلىٰ خلق نماذج مختلفة يتحقق من خلالها التعارف ، وهي الشعوب والقبائل ، وهـٰذا التشكل للخلق يمنحهم صفاتٍ ، منها : التناصر ، والتعاون ، والتوارث ، والقيام بحقوق الأقارب . ومن هـٰذا التقسيم الكبير للخلق يتبلور تقسيم صغير ؛ إلا أنه يمثل القاعدة الأساسية لهـٰذا الخلق ، وهو الأسرة

(1) الأنعام 147 .
(2) المائدة 41 .
(3) الحجرات 13 .

المتكوِّنة من الزوجين ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (1) . هنا صورة من صور الرحمة التي بينها ٱلله تبارك وتعالىٰ للخلق أجمعين ، فالجمع بين الرجل والمرأة آية من آيات ٱلله تعالىٰ الدالة علىٰ رحمته ، وعنايته بعباده ، وحكمته العظيمة ، وعلمه المحيط ، فهـٰذا الارتباط بين الزوجين يحيل إلىٰ رحمة ٱلله تعالىٰ التي تكون هي الأساس في بناء الأسرة ، فبها يكون التعاطف ، والتراحم ، والسبب في مواصلة الحياة ، وإنَّ استمرار الأسرة وبقاءها يمثل جانباً من جوانب رحمة ٱلله ، تبارك وتعالىٰ ، وتتجلىٰ صورة الرحمة في الأسرة بصورة الأمومة التي تمثِّل تشكلاً من تشكيلات الرحمة الإلـٰهية ، بدءاً من الحمل ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (3) هنا صورة الأمومة في كل تجلياتها تطرح عدة تساؤلات مبعثها : أنها رحمة من رحمات ٱلله تبارك وتعالىٰ ، فلولا رحمة ٱلله تعالىٰ ؛ لما تحقق بناء الأسرة وفق هـٰذه الصعاب التي تمرُّ بها الأم .

ومن رحمة ٱلله تعالىٰ إرسال الرسل ، وهـٰذا الأمر المتحقق نتج عنه : أنَّ الخلق أجمع غيروا مسار حياتهم من الكفر إلىٰ الإيمان وبتحقق هـٰذا التغيير تتغير نهاية الخلق من النار إلىٰ الجنة ، وهنا تكون الرحمة الواسعة من الرحمـٰن الرحيم ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ

---

(1) الروم 21 .
(2) لقمان 14 .
(3) الأحقاف 15 .

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [1] . وإرسال الرسل يستند إلىٰ أمر مهم جداً وهو العذاب المتحقق في حالة عدم تلبية دعوة رسل ٱلله تبارك وتعالىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [2] وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ [3] وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [4] هنا نجد : أنَّ السياقات كلها تحمل الخطاب إلىٰ نهاية متوقعة وهي العذاب ، ومفردة العذاب ترسم معلماً دلالياً مرتبطاً باليوم الآخر ، وهـٰذا اليوم تتحقق فيه كل خطابات الدنيا المختلفة من عذاب ورحمة ، وقد عبر القرآن الكريم عن هـٰذا التحقق من خلال لفظة (سيق) التي بني فيها الخطاب للكافرين والمؤمنين ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَاۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [5] فهنا زمر الكافرين تساق زمرةً بعد زمرةٍ إلىٰ نار جهنم ، فيستوضح الخطاب هنا رحمة ٱلله تعالىٰ السابقة عليهم ؛ التي كانت أمام أعينهم ، وحاربوها بكل الوسائل ، ووقفوا منها موقف الجبار المتغطرس . والتذكير جاء علىٰ لسان خزنة نار

---

(1) الإسراء 15 .
(2) يونس 15 .
(3) هود 84 .
(4) الزخرف 64 - 65 .
(5) الزمر 71 - 72 .

جهنم : ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ هـٰذا هو مقصد الرسل ، اليوم تستوضح دلالته ، وترىٰ صورته المتحققة التي رسمت في الدنيا . والتذكير بالرسل ورد مراراً في القرآن الكريم ، يقول تعالىٰ : ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [1] ، وفي هـٰذا السياق يستوضح شأن عظيم من شؤون ٱلله تعالىٰ ، وهو شأن عَدله ورحمته ، ورضاه لعباده الخير والصَّلاح ، وكراهيته سوء أعمالهم ، وإظهاره أثر ربوبيته إياهم بهدايتهم إلىٰ سبل الخير ، وعدم مباغتتهم بالهلاك قبل التقدُّم إليهم بالإنذار ، والتنبيه .

أما الصورة الثانية ، وهي صورة الرحمة المتحققة ، يقول تعالىٰ : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [2] ، وصورة الرحمة هنا نراها من بداية دخول الجنة إلىٰ الحمد الذي ورد علىٰ لسان أهلها ، فالخزنة خطابهم هنا اتسم بالطيبة ، والرحمة ، وبما يليق بالمخاطبين ، فالصورتان المتحققتان في الجنة ، والنار ـ أي : صورة النعيم ، وصورة العذاب ـ كان تحققهما مرتبط بإرسال الرسل ، والتصديق بالرسل ، فصورة العذاب المتحققة استندت إلىٰ عدم التصديق ، قال تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى

---

(1) الأنعام 130 - 131 .

(2) الزمر 73 - 74 .

ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [1] أما صورة النعيم المتحققة ؛ فقد استندت إلىٰ التصديق برسل ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [2] ، فإرسال الرسل يمثل جانباً مهماً من جوانب رحمة ٱلله تعالىٰ للخلق ، فهو باب للتنبيه ، وللتوجيه ، وللإرشاد ، ورحمة ٱلله تعالىٰ شاملة مطلقة لا تتقيد بأي قيد ، بل هي مفتوحة للكل ينالها الجميع ، فمن صورها الرزق في الدنيا ، فهو مطلق للكل لا يقتصر علىٰ المؤمن دون الكافر ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [3] ترتسم الرحمة هنا وفق معيار واحد يتشكل الجميع منه ، وهو : أنهم جميعاً خلق ٱلله تعالىٰ ، والعطاء في الدنيا للكل دون قيد أو شرط في الحصول عليه من ٱلله تعالىٰ ؛ لأنه منحة للكل . وهنا تتهافت الأسئلة التي تراود الخلق من آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلىٰ يومنا هـٰذا ، كيف يتساوىٰ الكفرة مع المؤمنين في الرزق ، بل ربما إنَّ الكفرة أكثر رزقاً ؟ ! من ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [4] هـٰذه الآية تحيل إلىٰ صور ماضية تتكرر بين حين وآخر ؛ لتمثل رزق ٱلله تعالىٰ المتحقق بين خلقه ، وهـٰذا الرزق مثل رحمة ٱلله تعالىٰ من جانب ، أما الجانب الآخر فكان سبباً في هلاك كثير من الأقوام ، فقد مكَّن ٱلله تعالىٰ لهم الأرض ، وأمدَّهم بأموال وبنين ، وجعلهم أكثر قوةً وعمارةً في الأرض ، وجعل السماء تمطر عليهم بصورة متتالية مطراً غزيراً ، وفجَّر لهم من

---

(1) الزمر 71 - 72 .

(2) الزمر 74 .

(3) الإسراء 20 ، 21 .

(4) الأنعام 6 .

الأرض ينابيع ، وأنهاراً استدراجاً لهم ، وإملاءً ، ثم أهلكهم ٱلله تعالىٰ بذنوبهم وخطاياهم وجعل من بعد هـٰؤلاء الهالكين أجيالاً أخرىٰ ؛ ليختبرهم ، فعملوا مثل أعمال من كانوا قبلهم ، وهنا الصورة تتكرر ؛ أي : أن الرزق مستمر ، والهلاك مستمر ، مما يدلل : أن رحمة ٱلله تعالىٰ مستمرةٌ لا تنقطع رغم الهلاك المستمر الدال علىٰ الكفر ، والعصيان .

وتمثل الرياح صورةً من صور رحمة ٱلله تعالىٰ ، علىٰ الرغم من أنها تمثل صورةً من صور العذاب المتحققة في الأرض ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [1] . وصورة العذاب المتحققة بالريح ليست دائمةً ، بل هي وقتية تنتهي بتحقق الهلاك المقدر ، أما الجانب الأخر الذي تمثله الرياح وهو جانب الرحمة ، فهو صورة دائمة من صور رحمة ٱلله تعالىٰ في الأرض ، فهي سبب من أسباب الرزق الدائم علىٰ الأرض ، والذي بسببه تستمر حياة المخلوقات جميعاً ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [2] وقوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [3] . والرياح بكل تجلياتها تمثل مظهراً من مظاهر

---

(1) الأحقاف 22 - 25 .

(2) البقرة 164 .

(3) الأعراف 57 .

رحمة ٱلله تعالىٰ بما تقوم به في هـٰذا الكون الواسع ، فحركتها في جميع الاتجاهات ترسم رحمة ٱلله تعالىٰ علىٰ جميع أصقاع الأرض ، فضلا عن ذلك : إنها تمثل رمزاً من رموز رحمة ٱلله تعالىٰ ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [1] والجانب النفعي الذي تمثله الرياح مع السفن التي تجوب البحار يمثل جانباً مهماً في خدمة الخلق في مكان يعد الأصعب ، وهو البحر ، يقول تعالىٰ : ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [2] .

خلق ٱلله تعالىٰ الخلق وفق حكمته وإرادته ، فهم مختلفون في كل شيء بدءاً من لون البشرة إلىٰ أصغر دقائق الخلقة التي هم عليها ، وأهم نقطة خلاف بينهم هو العقل ، وهو أهم جهاز يتمتع به الإنسان ، فبه يميز الأمور كلها بكل تفاصيلها ، ودقائقها ، فيختار لنفسه الطريق الأسلم ، والأصوب بحسب ما يعتقده ، ويؤمن به ، والاعتقاد إيمان لا بد أن يكون عن قناعة دون إكراه ، وتجلىٰ ذلك في قوله تعالىٰ : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [3] فدلائل الوحدانية ، وعظمة الخالق ، وتنزيهه عن شوائب ما كفرت به الأممُ من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلىٰ قبول هـٰذا الدين الواضح العقيدة ، المستقيم الشريعةِ ، باختيارهم دون جبر ، ولا إكراه ، ومن شأنه أن يجعل دوامهم علىٰ الشرك بمحل السؤال : أيُتْرَكون عليه ، أم يُكْرَهُون علىٰ الإسلام [4] . يتزامن هنا مع سؤال النفس أسلوب الدعوة المتبع الذي يشغل حيزاً كبيراً في عملية

(1) الفرقان 48 - 49 .

(2) الروم 46 .

(3) البقرة 256 .

(4) التحرير والتنوير ج 2 ص 434 .

الإقناع ؛ إذ يترتب عليه قبول الدعوة ، أو الصدُّ عنها ، وأسلوب الدعوة يجب أن يكون كما خطه ٱلله تبارك وتعالىٰ لرسوله الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (1) تجلت هنا صورة من صور الدعوة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، فالأخلاق الحسنة ، تجذب الناس إلىٰ دين ٱلله ، وترغبهم فيه ، مع ما لصاحبه من المدح ، والثواب الخاص ، والأخلاق السيئة تنفر الناس عن الدين ، وتبغضهم إليه ، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص ، فهٰذا الرسول المعصوم يقول ٱلله له ما يقول ، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات ، وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة ، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ من اللين ، وحسن الخلق ، والتأليف ، امتثالاً لأمر ٱلله ، وجذباً لعباد ٱلله لدين ٱلله (2) .

والدعوة إلىٰ ٱلله تعالىٰ بطريقةٍ لينةٍ سمةٌ من سمات الخليفة ، وهٰذه الطريق لا تقتصر علىٰ الدعوة إلىٰ ٱلله تعالىٰ فقط ، بل تكون منهجاً له في الحياة ، في كل تصرفاته مع جميع الخلق القاصي ، والداني ، فهي ترسم شكلاً ، وصورة للإسلام العظيم الذي غيَّر مسار الحياة ، ونقل الخلق إلىٰ حياة جديدة تقوم علىٰ أطر معرفية تحدد العلاقة الصحيحة بين الخلق أجمعين ، فضلاً عن ذلك : اختيار شخصية تكون هي المرجعية لهٰذه المعرفة متمثلة بشخصية الرسول محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقوله تعالىٰ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

(1) ال عمران 159 .
(2) السعدي ج 1 ص 154 .
(3) الأحزاب 21 .

عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] .

اللهم يا الرحمـٰن عمَّنا بواسع رحمتك في الدارين ، فاجعلنا من المستخلفين الوارثين ؛ الذين يكنزون الطاعة ، ولا يكنزون المعصية ، والذين يكنزون سلامة البصر ، والبصيرة ، وسلامة البدن ، والروح ، والنفس ، والمُلك ! اللهم يا الرحمـٰن إننا في حاجة لرحمتك ، فارحمـٰنا بكل ما يرضيك عنا ! اللهم يا الرحمـٰن قلت ، وقولك الحقُّ : ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ اللهم بأسمائك الحسنىٰ ندعوك أن ترحمنا في أنفسنا ، وأزواجنا ، ووالدينا ، وأبنائنا ، وإخواننا ! اللهم برحمتك اكسُنَا سترة ، وقوة ، وقدرة ، وحكمة ، ومالاً ، حلالاً ! اللهم برحمتك احفظنا ، وحطَّنا من كل سوء ، وأبعد عنا شرور الوسواس الخناس من الجنة والناس ، إنك أنت الرحمـٰن الرحيم ، فالحمد ، والشكر لك !

اللهم يا الرحمـٰن يا من أنزلت القرآن رحمة ، وبعثت رسولك الكريم رحمة ، وجعلت الطريق إلىٰ الفوز بجنتك رحمةً اجعلنا رحماء في أنفسنا ، وفيمن حولنا ! يا من خلقتنا برحمة ، وعلمتنا الرحمة ارحمنا في الدنيا والآخرة ! اللهم يا الرحمـٰن منك الرحمة فلا رحمـٰن سواك اجعلنا من المرحومين برحمتك ، والراجين ، والطامعين بها ، وأن تغلِّبنا علىٰ النفس بأن تبعث فيها النقاء ، والصفاء ؛ لتسعىٰ إلىٰ الخير ، والإصلاح ! اللهم اجعلنا من الذين وضعت الرحمة في قلوبهم ، فنشروها في الأرض كما أردت يا الرحمـٰن ! اللهم إليك نشكو حالنا ، وضعفنا ، فارحم ضعفنا ، واجعلنا نرحم الضعيف فينا يا الرحمـٰن !

---

(1) التوبة 128 .

الرَّحِيمُ جلّ جلاله

الرحيم : « الذي وسعت رحمته كل شيء »[1] .

قال تعالىٰ : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] باسم ٱلله تعني : باسم القوة والجلال الأعظم التي تحتوي في مضمونها جميع الصفات العظام لله رب العالمين ، فكانت باسمه تعالىٰ بداية العمل ، وإيذاناً للركوب في السفينة المعجزة التي كما قال الضحاك : « كان نوح عليه الصلاة والسلام إذا قال : باسم ٱلله مجراها ؛ جرت ، وإذا قال : باسم ٱلله مرساها ؛ رست »[3] ، ولأن السفينة استمدت قوتها من قوة المعجزة التي بسببها بنيت ، فكانت للآوين إليها رحمةً من ربٍّ رحيم .

وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[4] وكأن سليمان ، ونوح من قبله ـ عليهما الصلاة والسلام ـ يودان أن يقولا : إذا أُرِيد للخليفة أن يوفَّق في عملٍ ، أو أن يُقدَّر ؛ فعليه أن يبدأ عمله باسم من استخلفه . ولهـٰذا صدَّرَ رسالته إلىٰ ملكة سبأ بقوله : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ، التي ترتبت عليها إجابة ملكة سبأ بقولها ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى

---

(1) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ج 1 ، ص 43 .
(2) هود 41 .
(3) القرطبي الجامع لأحكام القرآن الجزء التاسع دار الكتاب العربي ، ص 37 .
(4) النمل 30 .

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (1) ظلمت نفسها بعبادتها لِمن لم يستخلفها ، وكأنها كانت في حالة غفلةٍ ، وانتبهت منها مع قول سليمان الذي نبهها إلىٰ ٱلله ربِّ العالمين ، وهـٰذه رحمة من الرحيم الذي تصدَّر اسمه الرسالة المعنونة من سليمان : بسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم .

وبنظرنا إلىٰ البسملة نلحظ : أنها لم تقتصر علىٰ ذكر ٱلله فقط ، بل ربطت اسمه الأعظم باسم الرحمـٰن الرحيم ، وهـٰذا يدل علىٰ أنه لو أُقتصِر علىٰ اسم ٱلله تعالىٰ فقط ؛ فالقول جليل فيه المخافة من عظمته ، وقدرته ، وقوته ، وكبريائه ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (2) خوفاً مما يرد علىٰ خاطر من قوَّتِه التي تَدُك الجبال جاء اسم الرحمـٰن متزامناً مع اسم ٱلله تعالىٰ لكي تكون الرحمة من اسمه للترغيب والمحبة والألفة التي تجعل الخليفة في شوقٍ للتقرب منه ، وحتىٰ لا يظن البعض بأنها مجرد قولٍ جاء اسم الرحيم متتالياً بعد الرحمـٰن ، وذلك لإظهار الفعل من القول ؛ حتىٰ تتم ملامسته ، ومعايشته شواهد دالة علىٰ واسع رحمته مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (3) . نلحظ في هـٰذه الآية الكريمة رحمتين من رحمته الواسعة ؛ الرحمة الأولىٰ : أن يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان من المسبِّحين . والرحمة الثانية : أن ٱلله أخرجه من بطن الحوت بكلِّ سلام . ولذا فالخليفة بطبعه الإنساني ينبغي أن يكون من المسبِّحين ، ومن الغرابة ألاَّ يكون كذلك .

(1) النمل 44.
(2) الأعراف 143 .
(3) الصافات 143 - 144 .

وعليه : ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تحتوي الآتي :

1 ـ باسم ٱلله : (باسم القوة الأعظم التي فيها الجلالة ، والهيبة التي تجعل الخليفة في حالة مخافةٍ من عظمتها ، وجلالها) .

2 ـ باسم الرحمـٰن : (باسم الرحمة التي تلين القلوب وتتلهف الأنفس إليها ؛ لتصبح مطمئنة ؛ حتىٰ تؤمن بثقةٍ ، وتعمل بشوقٍ ، وإرادة) .

3 ـ باسم الرحيم : (باسم من بيده أفعال الرحمة شواهد بين أيدي الناس) .

وبناء علىٰ ذلك ارتبطت الرأفة والرحمة باسمه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [1] جاءت في هـٰذه الآية الكريمة الرأفة مطلقةً مثلما الرحمة جاءت مطلقةً لكل الناس بدون استثناء ، فٱلله ـ عز وجل ـ لا يمكن أن يستثني أحداً من خليفته ، بل الاستثناء يأتي إرادياً من البعض من الناس ؛ الذين فُتِّحت لهم أبواب الرحمة ، ولم يدخلوا من أبوابها . إذاً ٱلله بعنايته رحيم بالناس .

فالكلمة : (**رحيم**) : اسم دائم بفعل دائم ، فعندما يُمد حرف الياء بقراءة في اتصال كأنه لا ينقطع ؛ يتبين للقراء العطاء الدائم من الاسم الرحيم الدائم ، أي : يتبين لهم : أنَّ الأفعال تحمل في هـٰذه الكلمة ما يجعل الرحمة قيمة والرحيم فاعل لهـٰذه القيمة ، والخليفة هو الذي يجعل من أقواله أفعال : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [2] ولهـٰذا فالعمل الناجح هو الفعل الناجح : ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [3] . فالخليفة هو الذي يقتدي بالعمل الصالح ، أما أولـٰئك الذين يقولون ما لا يفعلون ، أو يفعلون الباطل ؛ فهـٰؤلاء هم من البشر الذين لم

(1) البقرة 143 .

(2) الأحقاف 14 .

(3) فصلت 46 .

تتجسَّد في أفعالهم أعمال الخير ؛ التي ترضي ٱلله ، ورسوله ، والمؤمنين .

وعليه الخليفة من حيث الوجود الحي لا فرق فيها بين الكائنات ، أما الخليفة من حيث الاقتداء بمن استخلفهم ؛ فهم أولـٰئك الذين يذكرون ٱلله قياماً ، وقعوداً ، وعلىٰ جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السمـٰوات والأرض ، ويقولون سبحانك ما خلقت هـٰذا باطلاً ! إنها الخلافة العاقلة ، التي تتذكر ؛ حتىٰ تتعظ ، وتُفكر ؛ حتىٰ تؤمن .

إذاً الخليفة هو الذي تتجسد الرحمة في أقواله ، وأفعاله ، حتىٰ يكون رحيماً علىٰ نفسه ، وعلىٰ الذين تربطه بهم علاقات الأبوة ، والأمومة ، والأخوة ، وذي القربىٰ ، والجيرة ؛ حتىٰ تسود الرحمة بينهم : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [1] فمحمد ﷺ والذين معه هم الذين يؤمنون بمن استخلفهم ، وقبلوا أن يكونوا خلفاء بحملهم الرسالة (رسالة الخليفة) أما الذين استخلفوا ، ولم يقبلوا بأن يكونوا الخليفة ؛ فهم أولـٰئك الذين كفروا جحوداً ، ونكراناً لفضل من استخلفهم في الأرض . هـٰؤلاء هم الذين أعطاهم المستخلف العقل ، فكفروا بما أعطي لهم ، وهم الذين عرض عليهم الأمانة ، وقبلوها ثم بعد ذلك تخلَّوا عن حملها ، وهم الذين أنعم ٱلله عليهم بنعم لا تحصىٰ ، ولم يُقدِّروها حق قدرها . هـٰؤلاء هم المعنيون بالكفرة الذين لا يمكن أن يكونوا الخليفة .

الخليفة هو الرحيم الذي يلين قلبه ، ويرق لقول الحق ، وفعل الخير ، ومساعدة المحتاج ، ورعاية اليتامىٰ ، ومناصرة المغلوب ظلماً ، ورفع الضيم عن المضام .

وبما أن من أسماء ٱلله تعالىٰ ، وصفاته (الرحيم) ، إذاً بطبيعة الحال من يخلفه يجب أن يكون رحيماً ، حتىٰ تُستخلف الرحمة بين الناس ؛ لتعمَّ

---

(1) الفتح 29.

بينهم ، ويتوادون بأعمال الخير . ولهٰذا كانت عواطفنا ترق بحالنا حتىٰ نرق علىٰ غيرنا بإحسان ، ويعطف الصغير علىٰ الكبير مثلما يعطف الكبير علىٰ الصغير ، وإلا : هل هناك من يخلف شيئاً ولا يترك فيه شيئاً من صفاته ، ولهٰذا جميع الكائنات تخلف بعضها البعض بصفاتها ، وخصائصها ، وعلم الجينات يثبت ذلك بكل وضوح .

أما الاستخلاف فهو بفعل فاعل لأسباب ، وأغراض مستقبلية يعلمها من أوجد الخليفة وسيلةً لتحقيقها ، وهٰذا الأمر يتطلب طرح السؤال : لماذا جعل ٱلله في الأرض خليفة ؟

الإجابة علىٰ هٰذا السؤال هي : لغاية هو يعلمها (يعرفها) ومن ضمن هٰذه الإجابة : ليُعمِّر الأرض ، ولهٰذا ، إن لم يفعل ذلك لن يكون مناسباً للمكان الذي وُضِع خليفة فيه . ولأن الاختيار من الخالق ـ عزَّ وجل ـ فهو بطبيعة الحال يكون مناسبا الإعمار بإرادة . ولأن فعل الإعمار تركه ٱلله للمستخلفين فعلاً إرادياً ، فكان البعض بإرادته الحرة يُسهم في إعمار الأرض ، والبعض لا يُسهم في إعمارها ، والبعض الآخر يُسهم في خرابها . والسبب : إن الحياة الدنيا تُحفُّ بين الحين والحين بالغرور الذي يجعل البعض ممن يراد له أن يكون خليفة متناسياً لأسباب استخلافه في الأرض ، حتىٰ يظنَّ : أنه بذاته قادر ، ممَّا يجعله من المُعرَّضين للفشل في أداء المهام التي من أجلها أُستخلف : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (1) . ولذلك كان الاستخلاف لغاية ، وكان لله الفضل علىٰ من يلتزم بأسباب استخلافه : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ (2) ولهٰذا من شروط الاستخلاف العمل . ولٰكن أي عمل؟ إنه العمل

(1) البقرة 11.

(2) النور 55.

الصالح بإرادة : ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [1] ولذلك فإنّ العمل غير الصالح هو دليل عدم القبول بأمر الاستخلاف في الأرض . ولو لم يجعل ٱلله تعالىٰ أمر العمل بإرادة ؛ لكان الجميع مستخلفين فيها بالقوة ، وفي مقابل ذلك لو يؤاخذ ٱلله تعالىٰ الخليفة بما يفعل السفهاء ما ترك علىٰ ظهرها من دابة : ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [2] . وبما أنّ ٱلله تعالىٰ ترك الخليفة علىٰ أمر الإرادة فيما يتعلق به من شؤون ، وأجّل أفعال العقاب لمعظم الأفعال إلىٰ اليوم الآخر ، إذاً يريد ٱلله ـ عز وجل ـ أن يسود التسامح صفة بين المستخلفين ، وبما أنَّ الأمر كذلك فلماذا لا يسود التسامح بين الناس فيما لا أمر قاطعاً للقصاص ؟

وهٰكذا يُغرس التسامح بيننا قيمة ، ويغفر بعضنا لبعض الخطايا اقتداءً بمن استخلفنا علىٰ الأرض : ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [3] وبما أنَّ ٱلله غفور رحيم إذاً بطبيعة الحال يجب أن يكون للخليفة صفتان من صفتي الغفور الرحيم . وإلا كيف يكون خليفة ، ولا يقتدي بمن استخلفه في الأرض ؟ !

والرحيم اسم لله تعالىٰ ، ولأن اسمه الرحيم ، ومن صفته الرحمة ، إذاً لا يمكن أن يَقنُط فاعل خير ، أو مؤمن من رحمته . ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [4] . ولهٰذا التمسك بالأفعال الحسان هو الدليل علىٰ ممارسة الخليفة لدوره الطبيعي ، أما الذين لم يُقدِموا علىٰ أداء الأفعال الحسان ؛ فهم المنحرفون عن نهج الخليفة علىٰ الأرض . ولذا أحسِن

---

(1) فصلت 46 .

(2) فاطر 45 .

(3) النساء 110 .

(4) الرحمٰن 60، 61 .

يُحسَــن إليــك : ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ (1) . التمسك بالقيم والفضائل الإنسانية ، والعمل بها له جزاءٌ حسنٌ من قِبل الذين يُقدَّم لهم كلما قدَّروه ، ومن ورائه جزاء أعظم من الرحمـٰن الرحيم ، وفي مقابل ذلك إنزال الضرر بمن لا يعمل صالحاً ، وذلك بالعقاب في الحياة الدنيا متىٰ وقع بين أيدي الناس الذين وقع عليهم منه ضرٌّ يستوجب عقاباً أو قصاصاً عاجلاً ، والضر الأكبر يلاحق الضر الأصغر حتىٰ يدعمه يوم القيامة إن لم يقع العفو بأسباب تجبُّ ما قبلها .

وبما أن ٱلله هو الرحمـٰن الرحيم ، إذاً الرحمة آتية لا محالة . وبما أنها آتية لا محالة لكل من يتقدَّم لها ، إذاً فلماذا القنوط ؟ ولماذا لا تُفتح صدور البعض لاستقبالها واحتضانها ؟ وعليه فمن يريد أن يُعَمَّ برحمته الواسعة فعليه بالإيمان ، الإيمان بأنه المستخلف بصفات كرام فلا يسيء إليها حتىٰ لا يسيء لنفسه وللآخرين . وعندما يكون كذلك تكون الرحمة من نصيبه ، ولهـٰذا فهي ضمان لكل مؤمن ، وأمل لكل إنسان ضامرٍ لفعل الخير .

يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (2) كلمتا : غفور ، ورحيم تدلاَّن علىٰ أنه الفاعل لذلك علىٰ أرض الواقع والقادر في أي حين علىٰ فعل المغفرة والرحمة ، ولهـٰذا جاءت كلمة الرحيم مستمرة بأفعالها التي هي شواهد دالة علىٰ إظهار الحقيقة كما هي سواء كانت ذات أثرٍ سالبٍ ، أو أثرٍ موجبٍ . وقصة سيدنا الخضر مع سيدنا موسىٰ ـ عليهما الصلاة والسلام ـ دليل شاهد علىٰ تجسد الرحمة في الأفعال : ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ

---

(1) فصلت 46 .

(2) الأنعام 54 .

إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (1) ولننظر لرحمة ٱلله علىٰ أفعال السيد الخضر ، عليه الصلاة والسلام ، حتىٰ كان بأفعاله رحيماً بما هو آتٍ :

1 ـ خرق السفينة رحمة : من أجل المساكين الذين يعملون في البحر ، ولو لم يعبها الرجل الصالح الأكثر علما من سيدنا موسىٰ ـ عليهما الصلاة والسلام ـ لكانت تحت حوزة الملك (قاطع الطريق برجاله المأجورين) ليأخذ كل شيءٍ غصباً .

إذاً الرحمة جاءت مرتين :

أ ـ خرق السفينة رحمة حتىٰ لا تفلت من أيدي المساكين العاملين في البحر وهي مصدر معيشتهم . وبمقارنة خرقها بتلفها نهائياً يكون الخرق رحمةً ، وذلك لأنها أصبحت قابلةً للإصلاح ، وليست قابلةً للتلف .

ب ـ إقدام الرجل الصالح علىٰ فعل الخرق إقدام رحمة . فلولاه ما سَلِمت من

(1) الكهف من 70 إلىٰ 82 .

الوقوع في أيدي رجال الملك ، ولأخذت إلىٰ يوم يبعثون من المساكين العاملين في البحر الذين هم يقتاتون علىٰ ما يجنونه علىٰ ظهرها .

2 ـ قتل الغلام رحمة : من أجل الأبوين المؤمنين حتىٰ لا يرهقهما طغياناً ، وكفراً ، فكانت الرحمة عليهما بالتخلُّص ممن لو بقي حيّاً لكان سبباً في إرهاقهما طغياناً ، وكفراً ، وجاء البديل خيراً علىٰ الوالدين ، ولدٌ صالحٌ ، خير زكاةً وأقرب رُحمة .

من هـٰذا الأمر جاءت الرحمة مرتين :

أ ـ قتل الغلام في ذاته رحمة علىٰ الأبوين ، باعتباره تخلُّصاً من أسباب تؤدي إلىٰ الطغيان ، والكفر .

ب ـ الولد الصالح جاء بديلاً للولد الطالح ، وهـٰذه رحمة من رحمـٰن رحيم .

3 ـ بناء الجدار رحمة : من أجل الغلامين اليتيمين أبناء الرجل الصالح الذي ترك لهما كنزاً تحت الجدار حتىٰ إذا بلغا أشدَّهما (بلغا سن حُسن التصرف) استخرجا كنزهما رحمةً لهما من رحمـٰن رحيم .

يستقرأ من وراء بناء الجدار :

أ ـ فعل حفظ الكنز كان رحمةً ، وذلك حتىٰ لا يضيع في غير محلِّه .

ب ـ استخراج الكنز من قِبل الغلامين اليتيمين بعد أن يبلغا أشدهما كان رحمةً لهما ، ورحمةً عليهما .

ج ـ أن الأمر الذي جعل الوالد صالحاً هو الذي بأسبابه كانت الرحمة متصلةً مع أبنائه .

وعليه : يمكن استنباط الآتي مما قُصَّ علينا في قصة سيدنا موسىٰ ، والخضر ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من الآيات السابقة الذكر :

1 ـ الاعتماد علىٰ الصبر في استقراء الأمور ، ومعالجتها كلما ألمَّت

بالإنسان : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل ﴾ [1] . ولأن ٱلله وحده هو الذي يصطفي الرسل ، والأنبياء من عباده ؛ ليجعلهم قدوةً ومثالاً للخليفة الذي يود له أن يكون في الأرض ، لذا كانت الرحمة حيث قصَّ ٱلله علينا من قصص أُولي العزم حتىٰ يقتدي بأقوالهم ، وأفعالهم كل من يريد أن يكون خليفة لله علىٰ الأرض . وهـٰذا لا يعني أن يكونوا بالتمام مثل الرسل والأنبياء ، فالرسل والأنبياء الذين لا يمكن أن يكون غيرهم مثلهم ، بل إن غيرهم بإمكانه أن يقتدي بهم قولاً ، وفعلاً ، وسلوكاً ، وهـٰذه رحمة من ٱلله تعالىٰ علىٰ الخليفة .

فكلمة الخليفة لا تعني أن يحل المستخلف محل من استخلفه ، بل تعني أن يقوم بما يأمر أو يرغب أو يُفضل القيام به . ولهـٰذا بطبيعة الحال لا يمكن أن يحلَّ بنو الإنسان محل ٱلله تعالىٰ في هـٰذا الأمر . استغفر ٱلله رب العالمين ! فالبشر حتىٰ وإن اجتمعوا لن يخلقوا ذباباً : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ [2] . والعلاقة الاستخلافية بين الرسل والأنبياء ، وبين من بُعثوا لهم هي علاقة سلف ، وخلف ، وعلاقة قدوة حسنة ، ولهـٰذا لا يمكن أن يكون الخلف نسخة طبق الأصل من السلف (نتيجة للفروق الفردية) ولذا قال تعالىٰ : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ إذاً لو كان الخلف نسخةً من سلف ؛ لكان المؤمنون نسخةً من الرسل ، وهـٰذا الأمر ليس هَيِّناً إلا علىٰ الصالحين . والخلف المشار إليهم في الآية السابقة هم الذين أضاعوا الصلاة بدل أن يستمروا بها ، ويحافظوا عليها ، كما هي عليه عند السلف الصالح .

2 ـ الرحمة الكبرىٰ علىٰ الغلامين (أصحاب الكنز) : إن رحمة ربي كانت

---

(1) الأحقاف 35 .

(2) الحج 73 .

عليهما مباشرة ، وذلك لأن ٱللهَ تعالىٰ هو الذي أراد أن يبلغ الغلامان أشدَّهما ولم يكن السيد الخضر الذي يودُّ ذلك : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ . هـٰذه المشيئة هي الرحمة من ٱلله الرحمـٰن الرحيم ، فسبح باسم ربك العظيم . (سبحان ٱلله العظم !) .

علاقة قوية تربط قيمة الرحمة بأفعال الإحسان ، ولا تقصرها علىٰ دينٍ أو جنسٍ معينٍ ، بل تربط ذلك بمن يقوم بأفعال الإحسان . فعل رحمة من الخليفة يُعدُّ إحساناً يلاقيه فعل الإحسان من الرحمـٰن الرحيم ، فقد جاء عند الترمذي من حديث ابن مسعود ؛ حيث قال : قال رسول ٱلله ﷺ : «من لا يرحم الناس لا يرحمه ٱلله» . أفعال الإحسان قد تنال الرضا من البشر ، ولـٰكنها لا تنال الجزاء منهم ، فالجزاء بالنسبة لأفعالها لم يكن في الحياة الدنيا ، ففي الحياة الدنيا يمكن أن يتمَّ نيل الاعتراف ، والتقدير علىٰ ما يتم تقديمه من أفعالٍ حسان ، ولـٰكن الأجر الكبير والأوفر سيتم نيله من الرحمـٰن الرحيم ، وهـٰذه هي الرحمة . فالحمد لله ربِّ العالمين ! ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [(1)] يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ : « الأرض هي مكان الخليفة ، وهو الإنسان ؛ الذي إذا أحسن ؛ قربت منه الرحمة » [(2)] ولذلك كلما اقترب الإحسان من الرحمة ؛ اقتربت الرحمة من المُحسن . والمُحسن هو المُقدِم علىٰ ممارسة ، وأداء أفعال الخير (الإحسان) .

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « هناك ثلاثة دلالات من قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

الدلالة الأولىٰ : دلالة بمنطوقه عن قرب الرحمة من أهل الإحسان .

(1) الأعراف 56.

(2) تفسير الشعراوي المجلد السابع 4180.

الدلالة الثانية : دلالة بتعليله ، وإيمائه ، علىٰ أنَّ هـٰذا القرب مستحق بالإحسان ، فهو السبب في قرب الرحمة منهم .

والدلالة الثالثة : دلالة بمفهومه علىٰ بُعد الرحمة من غير المحسنين .

الرحيم دائماً قويٌّ في مقابل ضعيف ، وهو الذي يمتلك القوة التي بها يشتد الكرب علىٰ المكروب ، أو بها يُفرج عنه : ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] نلحظ من هـٰذه الآية الكريمة وجود خائف ومخوف ، والخائف في حاجة ماسة لرحمة من مخيفه ، ولأن مصدر القوة في هـٰذه الآية هو ٱلله فكان بالخائفين منه رؤوف رحيم ، وذلك لاعترافهم بقوته ، وإعلانهم عن مخافته بعد معرفتهم بما ألم من عقابٍ بالذين سبقوهم بالمعصية ، ولهـٰذا ترتب علىٰ الخوف تأجيل العقوبة ، وإتاحة الفرصة للإنسان ؛ ليتذكر ، ويُفكر حتىٰ يأتيه اليقين رأفةً به ، ورحمةً .

قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [2] عندما يكون المسلمون هم الغالبون (المنتصرون) فإن جنح عدوُّهم للسلم (إن مال إليهم بسلم) فلا عيب أن يميلوا هم معه إلىٰ كل ما من شأنه أن ينهي الحرب بينهم . وبطبيعة الحال لا يجنح للسلم إلا مغلوبٌ بالقوة ، فعندما تشتعل نار الحرب يميل الضعيف إلىٰ عقد المصالحات ، أو المعاهدات مع عدوه الأقوىٰ . ولهـٰذا نلحظ : أنَّ زمن المفاوضات بين الأقوياء يطول ، وبين الضعفاء يقصر ، وبين القوي ، والضعيف يكون بين أمرين :

الأمر الأول : أن القوي يعمل علىٰ عدم إطالة زمن التفاوض بما أنه

(1) النحل 45ـ47.
(2) الأنفال 61.

منتصر ، والفرصة مناسبة لإملاء شروطه .

والأمر الثاني : أنّ الضعيف يعمل علىٰ إطالة زمن التفاوض لأجل أن يغتنم الوقت ، ويعدَّ العدَّة من جديد .

وعليه من يريد أن يكون الخليفة عليه أن يستمدَّ صفة الرحمة من الرحمـٰن ، ويستمدَّ فعلها من الرَّحيم الذي أوجب الجنوح للسلم كلَّما مال الخصم ، أو العدو إلىٰ إبرام صلح ، أو عقد مسالمة . أما الاستكبار فلا يؤدي بصاحبه إلا للهلاك : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [1] ٱللَّه جل جلاله هو القوة بذاته ، فمن يحاول أن يستكبر علىٰ القوة فلا بد أن يُهزم ، ولو لم يكن رحيماً ؛ لكان العقاب في حينه علىٰ كل فعل ، ولأنه كذلك يؤجل العقاب عن معظم الذنوب حتىٰ يكون للإنسان الزمن ، والفرص الكافية للتبيُّن من أجل التكفير عن السيئات .

جاء اسم الرحمـٰن مصدراً لكل رحمة ، وجاء اسم الرحيم قائماً بأفعال الرحمة ، ولهـٰذا فمن اسم الرحيم يستمد فعل الرحمة : ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ ﴾ [2] يتضح من هـٰذه الآية الكريمة : أنَّ للرحمة أثراً ، والأثر لا يمكن أن يكون إلا بفعل من تركه ، فلو لم يكن هناك فاعل ما كان هناك أثر قابل للتقصي ، والمعرفة . فإذا نظرنا للرياح والسحب ، نتوقع سقوط المطر ، وإذا سقط المطر ؛ أنبت عشباً ، ما يجعل كلاًّ من الرياح ، والسحب ، والمطر ، ونبات العشب آثاراً من رحمة رحيم ؛ وإلا هل هناك غيره قادر علىٰ القيام بهـٰذه الأفعال نيابة عنه ؟ ! ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ

(1) فصلت 15 - 16 .
(2) الروم 50 .

أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) . من الآية السابقة عرفنا : أنَّ البلد الميت أثر ، وسقوط المطر عليها أثر ، والنبات المثمر أثر ، وهـٰذه الآثار جميعها تشاهد من قبل كل ذي بصر ، ولـٰكن الأثر الأعظم هو الذي يلحظ ، ويدرك ، ولا تراه الأبصار : إنه (إحياء موت البلد) الذي يتماثل مع أفعال الرحيم في إحياء الموتىٰ . ولذا فبالملاحظة ندرك ، ونقارن بين الظروف التي كان عليها البلد ميتاً ، وبين الظروف التي غيرته إلىٰ حياة . وعليه لو لم يكن إمكانية إحياء الموتىٰ حقيقةً ؛ ما آمن المؤمنون بيوم البعث ؛ الذي لا يمكن أن يكون إلا بقوَّة إحياء الموتىٰ .

إذاً كل رحيم قادر علىٰ أن يقوم بأفعال الرحمة مباشرة وبدون إنابة ، ولذا لا يمكن أن تكون أفعال الرحيم خالية من الرحمة ، ولهـٰذا كل أثرٍ من رحيم هو أثر رحمة . وبما أن الأمر كذلك إذاً بطبيعة الحال تكون الرحمة صفة للرحيم . وبما أنّ الرحمة صفة ، إذاً الاتصاف بها ممكنٌ ، وبما أنه ممكن فالاقتداء بأفعالها كما يود لها أن تكون يجعل الإنسان خليفة ، بها وخليفة عليه .

ولارتباط الرحمة بالرحيم نلحظ أينما وُجِدَ رحيم ؛ وجدت الرحمة ، وأينما غاب رحيم ؛ غابت الرحمة . ولأن ٱلله هو الرحمـٰن الرحيم فإن رحمته لن تنقطع ، ولهـٰذا فالعذاب يخصُّ ، والرحمة تعمُّ : ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (2) . ولأن العذاب عام ، والرحمة خاصة جاءت قضايا العذاب جامعةً مانعة ، جامعة للذين يحق عليهم العذاب ، وتستثني الذين يقومون بأفعال الرحمة . أمّا قضايا الرحمة ؛ فهي قضايا جامعة لا مانعة ، جامعة لكل من هم يقومون بأفعال الرحمة (أفعال الخير) ومستوعبة

(1) الأعراف 57 .

(2) الأعراف 156 .

لكل من يُكفِّر عن سيئاته متىٰ ما يشاء .

وعليه لكلٍّ من العذاب ، والرحمة أفعال مترتبة علىٰ أفعال ، ولكلٍّ من العذاب والرحمة فاعل ، ولذلك لا يمكن أن يكون العذاب ، أو الرحمة إلا بفاعل . ولهـٰذا فإن فاعل الرحمة هو الرحيم الذي تتصف أفعاله بها ، وفاعل العذاب هو المنتقم الذي تتصف أفعاله بها ، وفي هـٰذا ، وذاك فإن ٱللَّه واحد هو الرحمـٰن الرحيم ، وهو المنتقم من الذين يجرمون ما يجعل انتقامه منهم رحمةً علىٰ المؤمنين : ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [1] .

وقد يتساءل البعض : كيف تترتب الأفعال علىٰ الأفعال ؟

علىٰ سبيل المثال : لو لم يقترف المنحرف جريمةً ما صدر بشأنه فعلٌ عقابي ، ولذا فالعقاب فعل مترتب علىٰ الفعل الانحرافي . ولو لم يكن يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المسبحين ؛ للبث في بطن الحوت إلىٰ يوم يُبعثون ، وهـٰكذا دائماً : تترتب الأفعال تحت ظروف السبب ، والمسبب ، والعلة والمعلول .

الرحمة قيمة علائقية ، بها تلين القلوب ، وتقترب من بعضها بعضاً من أجل ما يُفيد ، وينفع ذوي العلاقة ، سواء كانوا أفرادَ أسرة ، أو عشيرة ، أو رفاق عمل ، أو جيرة ، أو أصحاب مصلحة ، أو مواطني دولة ، فبدون الرحمة لا يمكن أن تتكون العلاقات بين الناس ، وإذا انقطعت الرحمة ؛ انقطعت العلاقات ، وإذا سادت بينهم ؛ سادت العلاقات . فعلىٰ مستوىٰ الأسرة لا يمكن أن يحدث التفكك ؛ والرحمة سائدة بين الوالدين ، والأبناء ، وبين الإخوة جميعاً ، ما يجعل الرحمة شرطاً رئيساً للُّحمة ، والوحدة ، وتبادل المحبة بين الناس .

---

(1) الروم 47.

حُب الخالق لعباده رحمة ، وحب العباد لخالقهم رحمة . هـٰذا الأمر هو الذي يجعل من الرحمة بين الناس مركزاً لكفتي ميزان ؛ التي لا تتمركز ، وتعتدل إلا بالمساواة بين الكفتين .

وعليه : إن الرحمـٰن هو مصدر الرحمة ، وإن الرحمة هي المسبب في تكوين العلاقات ، وقوة روابطها ، وإن الرحيم هو الذي به تتم أفعال الرحمة . ولهـٰذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ (1) بطبيعة الحال لو لم يكن ٱلله واحداً ؛ ما كان رحمـٰناً ، ورحيماً ، وما كانت هناك رحمة ، ولهـٰذا وحدانية ٱلله تعالىٰ هي الرحمة الكبرىٰ ، فالحمد لله ربِّ العالمين .

وقد يتساءل البعض : لماذا الرحمة ؟

الرحمة ليست حاجة كما يظن البعض ، بل الرحمة مشبع حاجة ، ولو لم تكن مشبعة للحاجة ؛ ما كنَّا جميعاً نسعىٰ لنيلها . الحاجة هي الراحة ، والسكينة ، والطمأنينة ، وبما أن هـٰذه حاجات ، إذاً هناك أسباب تكمن ورائها ، والسبب الرئيس وراء هـٰذه الحاجات هو الألم ، الذي كلما ألمّ بالإنسان ؛ كان في حاجة للراحة ، والسكينة ، وهـٰذه لا يمكن أن تتحقق بدون رحمة ، ولهـٰذا فالرحمة جاءت لإشباع الحاجة . ولأن الإنسان خُلق ضعيفاً فهو مخلوق ليسعىٰ حتىٰ يتمكن من الإشباع الذي يمدُّه بالقوة ، وإلا سيظل دائماً في حاجة : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (2) التخفيف دائماً للأعباء ، والآلام عمَّن لا يستطيع ، وذلك لمحدودية مقدرته ، ودرجة تحمُّله .

وبما أنَّ الإنسان خُلق ضعيفاً ، إذاً لا يمكن أن يكون خليفة ٱلله تعالىٰ ،

---

(1) البقرة 163 .

(2) النساء 28 .

فٱلله تعالىٰ القوي المتعال ، لا يخلفه أحد ، ولهـٰذا كان المستخلف منه في الأرض ، وليس الخالف له فيها ، أو عليها . فٱلله عزَّ وجل يؤلِم ، ولا يتألم ، ويرحم ، ولا يُرحم ، ويقدر ، ولا يُقدر عليه ، ولذا لا يخلفه أحد ، ولـٰكن بقوته جعل الخلائف من بعده قوة مستخلفة في الأرض ، والخليفة لا يكون في حالة ضعف إلا إذا تأملنا في قوة الخالق المطلق جل جلاله ، فلا مجال للمقارنة ، ويكون الإنسان ضعيفاً إذا ما غلبت عليه الشهوة في غير محلِّها ، ولهـٰذا فهو في حاجة لأن يُرحم . ولذلك يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (1) الألم واحدٌ ، وكل من يحس يتألم ، سواء بأثر لفظي : (كلمة ، إهانة) أو بأثر مادي : (ضربة) وسواء كان مؤمناً ، أو كافراً ، فالألم هو الألم لا فرق فيه . الفرق فيما يترتب عليه ، فالمؤمنون في الآية السابقة يرجون ثواب (رحمة) من ٱلله ، وهـٰذا ما لا يرجوه الكافرون . وما يماثل هـٰذه الآية قوله تعالىٰ : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ (2) يقال : إنها جاءت لتبيان المعنىٰ الدال علىٰ ما أصاب المسلمين يوم أحد من جراح ، وآلام ، وهو بالتمام ما أصاب الكفرة يوم بدر ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، فعلىٰ المؤمنين أن يقبلوا بيوم لنا ، ويوم علينا إلىٰ أن يتحقق لهم النصر بإذن ٱلله ، فلا يقنطوا من رحمة ٱلله ، فهي آتية لا محالة : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (3) وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (4) .

إذاً الرحمة أمل ينبغي أن يسعىٰ الخليفة إلىٰ بلوغه ، ولا ينبغي له أن

(1) النساء 104.
(2) آل عمران 140 .
(3) الحجر 56 .
(4) الروم 36.

ييْئس ، فاليأس هو انقطاع الصلة بين الرحمة ، ومن هو في حاجة إليها ، وبين الرحيم الذي بيده أمر القيام بالفعل ، والأمل هو الصلة التي بها يتم إشباع الحاجة التي هي في نفس الخليفة الراغب في مرضاة من استخلفه في الأرض .

الرحمة ، والأمل أمران مترابطان مثل ترابط المثير ، والاستجابة . فلولا الأمل ؛ ما تحققت الرحمة ، ولولا الرحمة ؛ ما تحقق الأمل . وعليه الرحمة في ذاتها مُعطية بلا فعل ، والأمل في ذاته أيضاً معطية بدون فعل ، ولهـٰذا كان وراء كل رحمة ، رحيم ، ووراء كل أمل مرحوم .

بناء علىٰ ما تقدم فإن أثر الألم يقع في دائرة الممكن (السالب ، والموجب) في ساعة الإنجاب يكون الألم سيداً فيها ، ومع أنه ألم إلا أنه المنتظر بفارغ الصبر ، حيث من بعده ولادة ، التي بها تكون الفرحة ، وتنتشر بين ذوي العلاقات ، وكذلك يوم الختان فرحة في ساعة ألم ، وهـٰكذا يكون الزواج فرحةً في ساعة ألم . وفي مقابل ذلك يكون الموت راحةً من ألم (شفاء دائم من داء) وحتىٰ إن أزداد الألم في يومه ليحسبه البعض ساعة ألم في يوم حُزن ، يكون البعث من بعده فرحةً في يوم الفرحة . ولذا : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [1] . وبمراجعة ما سبق نُلاحظ : أن كل شيء رحمة ، فالحمد لله الرحمـٰن الرحيم !

وهـٰكذا تكون العلاقة بين المرض ، والمصاب به : ألم يجعله في حاجة للشفاء ؛ الذي لا يمكن أن يكون بدون علاج المرض ، وسيظل الألم إلىٰ أن تزال أسبابه ، ما يجعل المريض في حاجة لمقابلة الطبيب المتخصص ؛ حتىٰ يكتشف الأسباب ، والعلل ، ويصف الدواء المقاوم للأسباب ، والعلل ، وسيظل الألم إلىٰ أن تزول الأسباب ، وقد يتبين للطبيب : أنَّ المريض في حاجة ماسة لإجراء عملية جراحية ؛ التي عندما يعرف المريض أن من بعدها

---

(1) الروم 44.

سيشفىٰ ، فيأذن بالإقدام عليها مع معرفته التامة بما يترتب عليها من ألم قد يضاف إلىٰ آلامه السابقة ، ما يجعل إجراء العملية ساعة ألم في يوم فرحة نجاحها .

وفي مقابل ذلك فرحة الظالمين بفوزهم علىٰ المظلومين هو يوم فرحة في يوم ألم . فاليوم الذي يفرح فيه الفائز ظلماً يتألم فيه المظلوم مهزوماً ، إلا أن المترتب علىٰ الفعلين سيكون معكوسهما بالتمام في اليوم الذي لا ينقطع (اليوم الآخر) فالظالم سيظل في يوم ألم (العقاب) والمظلوم سيظل في يوم فرحة (الإثابة) أمام عدالة الرحمـٰن الرحيم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ (1) .

وعند ما يجد الإنسان نفسه إرادياً بين اختيارين : فرحة ، وألم ، فقد يقبل بتقديم ساعة الألم علىٰ ساعة الفرحة ، فالفتاة في عُرسها تجد نفسها بين أن تفارق أسرتها مؤقتاً ، وبين أن تتزوج ، فهي بطبيعة الحال ستُقدِم يوم الألم (يوم الانفصال النسبي) الذي قد يحسُّ به الوالدان ، والإخوة ، أو قد يحس به البعض منهم مثلما هي تحس بألم الرحيل عنهم ، لتعيش أيام فرحة من بعده . وهـٰكذا بعد الزواج إن كان فاشلاً ؛ سيظل ألم إلىٰ أن تأتي ساعة الفراق التي هي ألم لعلاج مشكلة . هـٰذا الألم يتماثل من حيث تقريب المعنىٰ من ألم إجراء العملية الجراحية للمريض التي من بعدها تأتي أيام الفرج فرحةً .

تتعدَّد أفعال الرحمة بتعدُّد ما يُقدّم من أعمال حِسان : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴾ (2) فلننظر إلىٰ هـٰذه الآية الكريمة ، والكيفية التي تتعدَّد الرحمة فيها :

ألا تُعدُّ صلاة ٱلله علىٰ الخليفة رحمة ؟

---

(1) آل عمران 182 .

(2) الأحزاب 43.

ألا تُعدُّ صلاة الملائكة علىٰ الخليفة رحمة ؟

ألا يُعدُّ الإخراج من النار رحمة ؟

ألا يُعدُّ دخول النور رحمة ؟

ألا تُعد رحمته بالمؤمنين رحمة ؟

ألا يُعدُّ وجود الرحمة في ذاته رحمة ؟

ألا يُعدُّ اسم الرحيم الفاعل للرحمة رحمة ؟

بناء علىٰ هـٰذه المعطيات خُلق الإنسان ضعيفاً ، ولأن الأمر كذلك ؛ فهو في حاجة لقوي ، وبيده الرحمة ، وقادر علىٰ فعلها متىٰ ما تعلق الضعيف به ؛ وجده رحمـٰناً رحيماً كريماً عفواً ، فله الحمد ، والشكر .

ولأن رحمة ٱلله واسعة ؛ فهي لم تقتصر علىٰ فئة دون فئة ، بل أبوابها مُفتَّحة لكل من يريد الدخول فيها : ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [1] فلننظر إلىٰ هـٰذه الآية حتىٰ نستبين : ألا تُعد رحمة ٱلله قد جاءت مطلقة دون أي استثناء ، ومطلقة لأن تغفر الذنوب جميعاً ؟ ألا تُعد هـٰذه الآية جامعة لكل الرحمة ، وفاتحة أبوابها لكل الناس ؟ ولأن رحمة ٱلله واسعة لتعم الناس قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ﴾ [2] ويقول : ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ﴾ [3] . بهـٰذه الآيات يتم التأكيد علىٰ أن الرحمة عامة ، وقضاياها جامعة لا مانعة . أمّا أنّ ٱلله بالمؤمنين رؤوف رحيم ؛ فهـٰذه تدل علىٰ التخصيص باعتبار أن الرحمة سبقت إلىٰ البعض الذي آمن ، وبالتالي كانت المترتبة علىٰ الأفعال الإيمانية مصداقاً

---

(1) الزمر 53 .

(2) الأعراف 128 .

(3) العنكبوت 62 .

لقوله : ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [1] .

الرحيم هو ٱلله دائم الرحمة ، في الدنيا والآخرة ، فهو رحيم علىٰ كل من يؤمن به ، ولا يشرك ، فالرسالات السماوية نزلت من الرحمـٰن الرحيم علىٰ الرسل رحمة للعباد . وإنَّ نجاة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن كان معه من قومه في الفلك المشحون كانت رحمة عليهم : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [2] . وكذلك كانت نجاة يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ رحمة : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [3] وكانت نجاة لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ رحمة من رحيم : ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [4] .

الرحيم هو الذي بعزته تصبح الأقوال ، والأفعال آياتٍ شواهد دالةً علىٰ المقدرة في الدارين ، ولذا فالرحيم هو دائم الوجود ، والعطاء ، والرحيم ـ بمد الياء كما سبق أن بيَّنا ـ تحمل في مضمونها مدلولات البقاء ، والاستمرارية المتصلة ، ولأنه رحيم جعل في الأرض خليفة علىٰ حالة تعاقب ، واستمرارية من الخلائف في الحياة الدنيا . ولهـٰذا فإن ٱلله هو الرحيم ، والخلائف هم الرحماء فيما بينهم . ومع أنهم رُحماء إلا أن ٱلله هو أرحم الراحمين : ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [5] وكذلك

---

(1) الأحزاب 43.

(2) الشعراء 117 ـ 122 .

(3) الصافات 143 - 144 .

(4) الصافات 131 ـ 135 .

(5) المؤمنون 118 .

قوله : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [1] .

الرحمة قيمة مترتبة علىٰ فعل سابق : ﴿ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [2] العذاب فعل مترتب علىٰ أفعال سابقة ، وإلا هل هناك من يُعذَّب دون أن يرتكب الخطايا ؟ ! وفي مقابل ذلك : هل هناك من يجازىٰ (يُرحم) إن لم يقم بالأفعال الحسان ؟ ! ولهٰذا كتبت الرحمة ؛ لتبقىٰ ، وكتب العذاب ؛ ليزال بالتصحيح ، والتكفير .

والعلاقة القوية هي التي تربط بين ارتكاب الفعل ، والتكفير عنه : ﴿ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] . في هٰذه الآية نلحظ الأفعال تترتب علىٰ الأفعال ، كما تترتب العلل والأسباب التي تظهرها . ما جعل الفعل السوء يترتب علىٰ مغريات سلبية ، وسابقة عليه ، ومع أنها لم تُذكر في هٰذه الآية إلا أنها تستنبط منها ، ولأنها أسباب وعلل سيئة ترتب عليها فعل سوء . ولأنه فعل سوء جاءت التوبة فعل مترتب عليه ، ومع أن التوبة فعل موجب إلا أنها لا تأتي إلا من بعد فعل سالب ، وهٰذا دليل الرحمة الواسعة ، ولهٰذا لو لم يكن الفعل السوء سابقاً ؛ ما جاءت الرحمة لاحقةً لتصحيحه ، وإصلاحه ، ولذلك جاء فعل الإصلاح مترتباً علىٰ فعل التوبة ، المتضمنة في واسع رحمته ؛ التي رتبت فعل المغفرة علىٰ فعل الإصلاح .

ومع أن المغفرة دائمة بديمومة الرحمة ، إلا أنها لا تتحقق إلا بإرادة ، إرادة من يرغبها ، مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ

---

(1) يوسف 64 .

(2) الأعراف 156 ، 157 .

(3) الأنعام 54 .

حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ (1) . معصية ٱلله تعالىٰ فعل سالب ، ومعصية الرسول ﷺ فعل سالب مترتب علىٰ معصية ٱلله ، وكذلك تعدِّي الحدود فعل سالب مترتب علىٰ فعل سالب . إدخال المتعدي بالأفعال السالبة إلىٰ النار جاء بفعل موجب . ولذا في هـٰذه الآية ترتب الفعل الموجب علىٰ ثلاثة أفعال سالبة ، وهـٰذه رحمة . وعليه ليس دائماً العقاب سالباً ، فالعقاب في أساسه لاستهداف ، أو تحقيق موجب ، ولذلك كان الفعل الموجب بالنسبة لمن هم في رحمة ٱلله : أنَّ المتعدي حدود ٱلله يجب أن يدخل النار ، أمّا الفعل السالب بالنسبة لهم : أن المتعدي لحدود ٱلله يدخل معهم الجنة ، ولهـٰذا قلنا : إنَّ دخول المتعدين حدود ٱلله إلىٰ النار فعل موجب مترتب علىٰ أفعال سالبة .

جاء اسم الرحيم فاعلاً للرحمة المستمدة من اسم الرحمـٰن ، ولهـٰذا فإن الرحمة كنز من الخير الوافر ، فمن أراد أن يخرج من الكنز ما يشاء ؛ فليفعل متىٰ ما يشاء ، وكيفما يشاء ، ومن لم يرد ؛ فلا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي : ﴿ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ (2) . ولذا فمن يرد أن يكون الخليفة للرحيم ؛ فعليه بأفعال الخير الكثيرة ، لا أن يكون مانعاً لها : ﴿ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ (3) . هـٰذا المعتدي لم تتوفر فيه اشتراطات الخليفة ، ولأنه كذلك ؛ فهو المُخلف ، وليس المستخلف .

وبطبيعة الحال بما أنَّ هناك رحيم ؛ يكون هناك من هو في حاجة لأن يُرحم ، وبما أنَّ الإنسان خُلق ضعيفاً من حيث غرائزه ، ومشاعره ، وحواسه تجاه ما يُشبع الشهوات ، إذاً هو في حاجة لرحيم يجود عليه من واسع رحمته .

---

(1) النساء 14 .
(2) فصلت 46 .
(3) القلم 12 .

ولهـٰذا فالرحيم لا يمكن أن يكون ضعيفاً ، ولا يكون منَّاعاً للخير معتدياً أثيماً .

وعليه فالرحيم قوي ، ومن يُرد أن يكتسب هـٰذه الخاصية ؛ ليصبح خليفة ؛ فعليه أن يتخلَّص من أسباب الضعف ، والوهن ؛ حتىٰ يمتلك مقاليد الأمور التي تمكنه من أن يكون رحيماً .

الرحيم لا يمكن أن يكون خصماً ، ولذا من يدخل في خصام مع الناس يفقد خاصيةً من خاصيات الاستخلاف في الأرض . ومع أن ٱلله جعل في الأرض خليفة إلا أنَّ الخليفة مهما امتلك من معطيات الرحمة ، واتصف بأفعال الرحيم ، فهو في ذاته محتاج لرحيم ؛ ليحفظه من كل سوء ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (1) .

الرحمة ، إضافة خيرٍ علىٰ من يستحقه ، ولذا زيادة الخيرات بين الناس رحمة ، ومن يعمل علىٰ ذلك تتجسَّد صفة الرحيم في أفعاله وسلوكه . ومن لا يعمل علىٰ ذلك يُعد من الذين يفتقدون لخاصية من خاصيات الخليفة . ولذا فإن أفعال الخيرات الحِسان هي أفعال رحمة ، وصفات من رحمـٰن رحيم : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ (2) . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ ﴾ (3) . من الآيتين السابقتين يتضح ازدياد الرحمة بالتسابق علىٰ أعمال الخيرات ، والإسراع لأداء أفعالها الحِسان ، وجاءت الخيرات مطلقةً ؛ لتعمَّ كل فعل من ورائه رحمة .

ولهـٰذا يتضمَّن كل اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ أرواحاً فاعلة لإحداث

(1) يوسف 64 .
(2) المؤمنون 61 .
(3) آل عمران 114 .

الاستجابة ، ولذلك كلما دعوت بقلب سليم اسماً من أسمائه الحسنىٰ ؛ جاءتك الاستجابة التي بها تتغير الأحوال من سالب لموجب ، أو من سيىءٍ لحسن ، أو من حسن لأحسن منه ، فالحمد لله ربِّ العالمين !

الرحيم هو العطوف علىٰ كل من هو في حاجة لرحمته ، ممَّا جعل لكل طلب استجابة قابلة للاستدعاء عند الكرب ، وفي كل وجوب ، وكذلك عند الضرورة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [1] من يدع ٱلله لا يخيب له رجاء ، ومن يستجيب لله لا يضل طريق الصواب . لذا جاء خلق الخليفة ليعمر الأرض ، وجاء الإيمان بالخالق فعل خير مترتب علىٰ فعل الخلق والاستخلاف في الأرض ، مما يجعل الاستجابة في حالة مبادلة . فالاستجابة بالإيمان بالخالق ترتب عليها استجابة الخالق لعباده الداعين له : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [2] .

ومن رحمة الرحيم بخلقه : أنه أحسن بلطفه كل شيء بدأه ، وأتقن صنع كل شيء أنشأه ، ودبرت الأحكام بحكمته ، وصرف المحكومات بمشيئته ، فأظهر في الغيب والشهادة لطيف قدرته ، وعمَّ في العاجل والآجل خلقه بنعمه التي أسبغها علىٰ خلقه ظاهرةً وباطنة ، ونشر علىٰ مَن أحبَّ منهم فضله ، وبسط لجميعهم عدله ، وأنعم عليهم بتعريفهم إياه ، سبحانه وتعالىٰ ! وأحسن إليهم باجتبائه إياهم إليه ، وأفضل عليهم بتيسير كلامه لهم ، ومنَّ عليهم ببعثه رسولاً من أنفسهم إليهم يهديهم إلىٰ سواء السبيل ، وقد كانت دعوة إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ رحمة لذريته أن يبعث ٱلله فيهم رسولاً ؛ حيث

---

(1) البقرة 186 .

(2) الشورى 26، 27 .

قال تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) فقد دعا ٱلله الرحيم أن يبعث في ذريته رسولاً منهم يقرأ عليهم آياته ويعلّمهم ما يوحىٰ إليه به من كتاب ، وعلم نافع ، وشريعة محكمة ، ويطهرهم من ذميم الأخلاق ، إنك أنت الرحيم بعبادك فيما تفعل وما تأمر به وما تنهىٰ عنه ، وما فعل ذلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام وما دعا به ربه إلا رحمة ، وشفقة . وقد ثبت : أنه استجيب له كما جاء في حديث رسول ٱلله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إني عند ٱلله في أمِّ الكتاب خاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسوف أنبئكم بتأويل ذلك ، أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسىٰ قومه ، ورؤيا أمي التي رأت : أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » (2) . فهو رحمة مهداة من الرحيم ، يدعو إلىٰ سبيل ربه ، وهو سبيل الخير والصلاح والرحمة بما أوتي من الحكمة ما يكمل به نفوسهم من المعارف الحقة ، والأحكام ، والموعظة الحسنة ؛ التي تهدي إلىٰ الصراط المستقيم ، فكل كلمة فيها عظة للإنسان ، أو تدعوه إلىٰ مكرمة ، أو تنهاه عن قبيح ؛ فهي رحمة له ، ورحمة به ، والتزكية بحسب قوتهم العملية هي تطهيرهم من دنس الشرك ، وأنواع المعاصي ، وهـٰذا رأفة وشفقة من الرحيم علىٰ عباده في إجابة الدعاء من أجل رحمتهم وتراحمهم .

فإنَّ ٱلله المقدس في ذاته ، المنزه عن سمات النقص في صفاته ، لم يخلق الخلق عبثاً ، ولم يتركهم هملاً ؛ حيث أنزل لهم الرحمة التي يرحمهم بها ، ويتراحمون فيما بينهم بها ، فقد أودع في كل مخلوقاته من بديع صنعه ، ولطيف آياته ، ومن الحكم والعبر والرأفة والشفقة والعطف ما لا يدع مجالاً لأن يشك عاقل في رحمة الرحيم ، بما وهب الخلق من هـٰذه المشاعر ، وأثاب

(1) البقرة 129 .
(2) مسند الشاميين للطبراني ، ج 5، ص 11 .

من يفعلها ويعمل بها . لقد غرس الرحيم رحمته في قلوب خلقه وهـٰذا معنىٰ : أنه أنزل عليهم رحمته ، كما قال النبي ﷺ : « إن لله مئة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام ، فبها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش علىٰ ولدها ، وأخر ٱلله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة »[1] .

فهـٰذه الرحمة التي خلقها ٱلله لعباده وجعلها في نفوسهم في الدنيا هي التي يتغافرون بينهم ويرحم بعضهم بعضاً ، ويكون بينهم العفو ، والمغفرة فيما بدر من أحدهم للآخر ، وكذلك يستعمل ٱلله هـٰذه الرحمة فيهم فيرحمهم بها سوىٰ رحمته التي وسعت كل شيء ، وهي التي من صفة ذاته ، ولم يزل موصوفاً بها ، فهي التي يرحمهم بها زائداً علىٰ الرحمة التي خلقها لهم ، ومن رحمته أيضاً : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ لأنه رحيم خصص ملائكةً للاستغفار لمن في الأرض ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2] إن السمـٰوات مع عظمهن ، وتماسكهن يكدن أن يتشققن من فوقهن خشية من ٱلله ، ورهبة وخوفاً ، وتأثراً بعظمته وجلاله ، والملائكة ينزهون ٱلله عما لا يليق به ، مثنين عليه بما هو أهله ، ومع هـٰذه العظمة وهـٰذا الجلال المهيب فإن ٱلله تعالىٰ لأنه رحيم بالعباد فقد أوعز إلىٰ الملائكة بأن يسألوا ٱلله المغفرة والرحمة لأهل الأرض علماً منه أنَّ كثيراً من أهل الأرض لا يستغفرون ، فأذن للملائكة أن تستغفر لهم حتىٰ لا يهلك الصالحون ، وكذلك يرحمهم بأن يرزقهم جنته ، وقربه ، ووصاله ، وبرحمته يأمر الملائكة

---

(1) صحيح مسلم، ج 13، ص 311 .

(2) الشورى 3ـ5 .

بالاستغفار لبني آدم مع كثرة عصيانهم ، وللكافرين الذين يرتكبون الشرك والذنوب العظام بأن لا يقطع رزقهم ، ولا صحتهم ، ويمتعهم من الدنيا وإن كان يريد أن يعذبهم فىٰ الآخرة ، فهو وحده صاحب المغفرة الشاملة والرحمة الواسعة . وهـٰذه الرحمات التي أمسكها عنده ، جعل ملائكته مستغفرين لمن في الأرض ؛ لأن استغفارهم لهم دال علىٰ أن في نفوسهم الرحمة لأهل الأرض بما فطرهم الرحيم عليه . فٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الرحيم المطلق بما رحم به جميع خلقه دون استثناء في الحياة الدنيا ، من مؤمن ، وفاجر ، ومسلم ، وكافر ، وأما في الآخرة فأمرهم إلىٰ ٱلله الرحيم ، يحكم بينهم ، ويحاسب كل واحد علىٰ عمله ، ولذلك فقد جعل الرحمة في قلوب عباده المؤمنين ، وجعلهم خلفاء يرحمون ويأمرون الناس بالتراحم ، فالخليفة الذي أراده الرحيم لإعمار أرضه هو رحيم بالإضافة ، يرحم نفسه من أن يودي بها إلىٰ التهلكة ، ويرحم الآخرين ، ويأمرهم بالرحمة ، فقد جاء في الحديث : « أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه : أن ابناً لي قبض فأئتنا فأرسل يقرئ السلام ، ويقول إن لله ما أخذ ، وله ما أعطىٰ ، وكل عنده بأجل مسمىٰ ، فلتصبر ، ولتحتسب . فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينَّها ! فقام ، ومعه سعد بن عبادة ، ومعاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورجال ، فرفع إلىٰ رسول ٱلله ﷺ الصبي ؛ ونفسه تتقعقع ـ قال : حسبته : أنه قال : كأنها شن ـ ففاضت عيناه ، فقال سعد يا رسول ٱلله ! ما هـٰذا ؟ ! فقال : « هـٰذه رحمة جعلها ٱلله في قلوب عباده ، وإنما يرحم ٱلله من عباده الرحماء » [1] . إن رحمة ٱلله تختص بمن اتصف بالرحمة ، ويدخل في ذلك من فيه أدنىٰ رحمة ، والراحمون يرحمهم الرحيم ، لذلك وجب علىٰ الخليفة أن يكون رحيماً ويتحلَّىٰ بصفات الرحيم ؛ ليكون رحيماً بالإضافة ، فيفعل ذلك ، ويحمل الناس علىٰ التراحم ، ذلك أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ علىٰ الرغم من الحدود

---

(1) صحيح البخاري ، ج 5 ، ص 31 .

والشرائع والنواهي والمحرمات التي وضعها للناس فهو يتجاوز عنهم بالرحمة والمغفرة ؛ لأنه رحيم . وقد ورد ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ، فقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] فمن رحمته : أنه أباح للناس كل حلال خلقه لهم في الأرض ، ونهاهم من أن يتبعوا خطوات الشيطان ، فإنْ فعلوا ذلك ؛ اهتدوا ورحموا ، وإن أبوا ؛ فإنه خص المؤمنين بهدايته وبيَّن لهم الحلال والحرام ، فقد أبيح لكم أن يأكلوا من لذيذ الطعام الطيب وهـٰذا من الرحمة ، وكذلك تحريم الخبيث من الرحمة أيضا ، فاشكروا ٱلله علىٰ ما أولاكم من نعمة التمكين من الطيبات وإباحتها ، ومن نعمة الطاعة والامتثال لأمره لتتم عبادتكم له ؛ حتىٰ يتم رحمته لكم . وإنما المحرم عليكم الميتة التي لم تذبح من الحيوان ، ومن الدم المسفوح ، ومثله فىٰ التحريم لحم الخنزير ، وما ذكر علىٰ ذبحه اسم غير ٱلله من الوثن ونحوه ، علىٰ أن من اضطر إلىٰ تناول شيء من هـٰذه المحظورات لجوعٍ لا يجد ما يدفعه غيرها ، أو لإكراه علىٰ أكله ؛ فلا بأس عليه ، وليتجنب طلب هـٰذه المحرمات والرغبة فيها ، ولا يتجاوز ما يسدُّ الجوع . علىٰ أن من دعته الضرورة إلىٰ أكل شيء من هـٰذه المحرمات غير طالب اللذة بالأكل ، وغير متجاوز قدر الضرورة ؛ فلا حرج عليه ؛ لأن ٱلله تعالىٰ هو أعلم بحاله وحال اضطراره ، لذلك فهو غفور رحيم . ولأنه رحيم فلا يؤاخذه علىٰ ذلك ، لأنه سبحانه وتعالىٰ ، غفور لعباده يغفر لهم ما يقعون فيه من أخطاء لا يصرون عليها ، رحيم بهم حين منعهم مما يضرهم ، وأباح لهم ما يحفظ حياتهم . ولا تقف رحمة الرحيم عند حدّ الإقدام علىٰ ما نهىٰ عنه ٱلله تعالىٰ من الطعام والشراب ، ولـٰكنه تعالىٰ يتجاوز عن كثير مما يرتكبه العباد بحقه تعالىٰ ويرحمهم إذا

(1) البقرة 172ـ 173 .

أخلصوا النية في التوبة والرجوع إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، فقد ذكر ٱلله تعالىٰ الذين تخلفوا عن رسول ٱلله عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] لقد تفضل ٱلله سبحانه علىٰ نبيه ، وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار ؛ الذين خرجوا معه إلىٰ الجهاد فیٰ وقت الشدة فثبتهم وصانهم عن التخلف من بعد ما اشتد الضيق بفريق منهم ، حتىٰ كادت قلوبهم تميل إلىٰ التخلف عن الجهاد ، ثم غفر ٱلله لهم هـٰذا الهمَّ الذي خطر بنفوسهم ، إنه سبحانه كثير الرأفة بهم ، عظيم الرحمة . وتفضل سبحانه بالعفو عن الرجال الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج فیٰ غزوة تبوك ـ لا عن نفاق منهم ـ وكان أمرهم مرجأ إلىٰ أن يبين ٱلله حكمه فيهم ، فلما كانت توبتهم خالصةً ، وندمهم شديداً ، حتىٰ شعروا بأن الأرض قد ضاقت عليهم علىٰ رحبها وسعتها ، وضاقت عليهم نفوسهم همّاً وحزناً ، وعلموا : أنه لا ملجأ من غضب اللَّه إلا باستغفاره والرجوع إليه ، حينئذ هداهم ٱلله إلىٰ التوبة ، وعفا عنهم ؛ ليظلوا عليها ، إن ٱلله كثير القبول لتوبة التائبين ، عظيم الرحمة بعباده .

إن الرحيم بالإضافة يعلم مدىٰ رحمة ٱلله به ، وحجم هـٰذه الرحمة التي أنعم بها عليه وعلىٰ عباده ، لذلك فهو دائم الرحمة للآخرين بوسائل كثيرة مما وهبه الرحيم المطلق من أنواع الرحمة مما أسبغ عليهم من نعم الدنيا ، وما وعدهم به من الرحمة في ما ينعم عليهم في الآخرة ، فالنعم الدنيوية إنما تكون نعمة وسعادة متىٰ ما استعملها علىٰ ما يجب وكما يجب ، ويجري بها علىٰ الوجه الذي لأجله خُلق ، وذلك : أن ٱلله جعل الدنيا عاريةً ليتناول

(1) التوبة 118 .

منها قدر ما يتوصل به إلىٰ النعم الدائمة والسعادة الحقيقية والرحمة الدائمة من الرحيم المطلق . فشرع الرحيم ، في كل منها حكما بيَّن فيه كيف يجب أن يتناول ويتصرف فيها ، لـٰكن الناس في تناولها فريقان : فريق يتناوله علىٰ الوجه الذي جعله ٱلله لهم فانتفعوا به حسب ما أمر الرحيم من التراحم بين الخلق في وجوه الخير لعباد ٱلله من كفالة اليتيم والأرامل وبسط الوجه للفقراء والمساكين وما إلىٰ ذلك من أبواب الرحمة التي يتبعها الرحيم بالإضافة ومن هم جديرون بأن يكونوا خلفاء ، فصار ذلك لهم نعمة وسعادة ، وهم الموصوفون بقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (1) فهـٰؤلاء الذين استحقوا أن يكونوا خلفاء الرحيم بما اتصفوا به من سمات الرحمة النسبيَّة ، وهم الذين وعدهم الرحيم أن يجزيهم أحسن ما عملوا ؛ لأنه عندما مكَّن سلطانهم فىٰ الأرض ؛ حافظوا علىٰ حسن صلتهم بٱلله ، وبالناس بالتواد ، والتراحم ، والعطف ،وكذلك في أداء حق الرحيم عليم من العبادات ، فيؤدون الصلاة علىٰ أتم وجوهها ، وحق الرحمة التي زرعها في قلوبهم ، فيعطون زكاة أموالهم لمستَحقيها ، ويأمرون بكل ما فيه خير ، وينهون عن كل ما فيه شر ، وهـٰذا من أعظم أبواب الرحمة ؛ لأن الرحيم مكن لخليفته في الأرض من أجل إقامة العدل ، وعدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، فأي رحمة للعباد من الخليفة أعظم من رحمة العدل ، والمساواة ، وإعطاء الحقوق إلىٰ أهلها ؟ ! ولذلك فالرحيم المطلق مكن للرحيم بالإضافة في الأرض وبسط له في الدنيا من أجل بسط الرحمة ونشرها ، فالخليفة ومن سار علىٰ نهجه في التراحم والأمر بالمعرف والنهي عن المنكر ، واتباع الإحسان ، فقد قال ٱلله تعالىٰ فيهم : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِي هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (2)

(1) الحج 41 .
(2) النحل 30 .

فهـٰؤلاء الذين اتبعوا أوامر ٱلله الرحيم فيما شاءه من خير لعباده ، والتزموا بأنهم يرحمون الآخرين هم خلفاء ٱلله في أرضه ؛ لأنهم كانوا يسعون إلىٰ ما فيه خير الدنيا والآخرة للناس جميعاً ، فكانوا بذلك من المحسنين . وٱلله الرحيم سبحانه يكافئ المحسنين بحياة طيبة فىٰ هـٰذه الحياة الدنيا ، ويكافئهم فىٰ الآخرة بما هو خير وأحسن مما نالوه فىٰ الدنيا ، ولنعم الدار التي يقيم فيها المتقون فىٰ الآخرة ، فهم مرحومون من الرحيم بما كانوا يرحمون ؛ لأنهم التزموا الأوامر والنواهي بما ينشر الرحمة بين الناس ، فكان ذلك في قلوبهم من الإيمان والصدق والإخلاص فىٰ النية ، فالطاعة بالمال والبدن ولين الجانب وبسط الوجه والقيام بحوائج الناس هو من أبواب الرحمة التي أمر بها الرحيم .

وأما الفريق الثاني ؛ الذين أنعم ٱلله عليهم بنعمة المال والأمن والولد وزينة الحياة الدنيا ، ولم يصرفوا ذلك في الوجه الذي أمر به الرحيم ، وكانوا غليظي القلوب وقد نزعوا من أنفسهم الرحمة والعطف علىٰ الآخرين ، وصرفوا ذلك بغير الوجه الذي يرضىٰ الرحيم عنه ، وركنوا إلىٰ ذلك ، فصار لهم نقمة وشقاوة ، فتعذبوا بها عاجلاً وآجلاً ، وهم الموصوفون بقوله تعالىٰ : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [1] إن الذين لا ترق قلوبهم ، ويحرصون علىٰ ما في أيديهم ، ولا ينفقون في سبيل ٱلله ابتغاء مرضاته ، ولا يرحمون الآخرين ، فإن ٱلله ما أعطاهم هـٰذا إلا ليكابدوا فىٰ سبيله المتاعب والمشقات لحفظه فىٰ الحياة الدنيا دون أن يؤجروا علىٰ ذلك ، ويدركهم الموت ، فيعذبون بسببها فىٰ الآخرة .

إن الرحيم المطلق ـ الذي استخلف الإنسان في الأرض ـ أمره أن يتصف بصفات الرحيم حتىٰ يستحق أن يكون خليفة ، وقد أمر النبي ـ عليه الصلاة

(1) التوبة 55 .

والسلام ، وهو سيد الخلفاء والمشرع لهم ـ أن يكون الإنسان رحيماً في أفعاله وأقواله وتصرفاته ، فقد قال رسول ٱلله ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكىٰ منه عضو ؛ تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ »[1] . ففي هـٰذا تعظيم لحقوق المسلمين بعضهم علىٰ بعض ، وحثهم علىٰ التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثم ولا مكروه ، وأن يرحم بعضهم بعضاً لحلاوة الإيمان لا لشيء آخر ، وبالتواد ، والتواصل الجالب للمحبة كالتهادي وبالتعاطف وإعانة بعضهم بعضاً في قضاء حاجات من له حاجة . وكذلك يظهر من خلال هـٰذا التراحم : أنه يدل علىٰ أن الخليفة ـ وهو المؤمن ـ يسره ما يسر أخاه ، ويريد لأخيه المؤمن ما يريده لنفسه من الخير ، وهـٰذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد ، فإن الحسد يقتضي أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير ، أو يساويه فيه ؛ لأنه يحب أن يمتاز علىٰ الناس بفضائله ، وينفرد بها عنهم ، والخليفة بأخلاقه ورحمته تقتضي تصرفاته وأفعاله وأقواله خلاف ذلك ، وهو أن يشرك الجميع فيما أعطاه ٱلله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شيء وهو تمام التراحم . والخليفة من تمام صفات الرحمة التي تكمن في قلبه وجوارحه أنه مؤمن ، ولولا الإيمان لم يكن رحيماً ، لذلك فإن ٱلله تعالىٰ قال : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴾[2] فهو من أهل الإيمان الذين يتواصون فيما بينهم بالصبر وبالرحمة ، فالخليفة ومن كان علىٰ أخلاقه أوصىٰ بعضهم بعضاً بالصبر علىٰ طاعة ٱلله وعن المعاصي ، وفي المصائب يتواصون بالمرحمة فيما بينهم ، أي : أوصىٰ بعضهم بعضاً بالرحمة علىٰ عباد ٱلله أو بموجبات رحمته تعالىٰ من الخيرات ، والرحمة هي الشفقة لمن يستحقها من العباد يتيماً ، أو فقيراً ، والأمر بالتواصي بالصبر إشارة إلىٰ التعظيم لأمر ٱلله ،

---

(1) صحيح مسلم، ج 12، ص 468 .

(2) البلد 17 .

وكذلك : ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ إشارة إلىٰ الشفقة علىٰ خلق ٱلله ، وإلىٰ التكميل بعد الكمال ، فإن الإيمان كمال فىٰ نفسه وكذا الصبر والمرحمة وغيرهما من الأعمال الصالحة والتواصي من باب تكميل الرحمة ، فعلىٰ سبيل المثال : إن الإطعام ـ خصوصاً وقت شدة الحاجة ـ أفضل أنواع العفة ، والإيمان أجلُّ أنواع الحكمة ، وهو الإيمان العلمي العملي ، والصبر علىٰ الشدائد من أعظم أنواع الشجاعة ، والتراحم والتعاطف من أفضل أنواع العدالة .

ومن رحمة الرحيم ما أوحىٰ ٱلله تعالىٰ إلىٰ أم موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين أوحىٰ إليها أن تقذف ابنها في التابوت ، وتلقيه في اليم ، فتابعه الرحيم برحمته منذ ولادته بالعناية والرعاية والرحمة ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ (1) ومن رحمة ٱلله تعالىٰ أن تفضل عليه بهٰذه الرعاية الإلٰهية وهو طفل رضيع لا يعرف أيَّ شيء ، ولا يعرف ماذا يطلب أو ماذا يريد ، ولٰكن الرحيم الذي قدَّر كل شيء له حكمته فيمن يرعىٰ ، ولمن يرحم ، وإن كانت الرحمة الدنيوية عامة لجميع الخلق ، إنما هناك خصوص لهٰذه الرحمة لبعض عباد الرحيم ، وهٰذا تذكير لموسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما قد منَّ عليه وعلىٰ والدته في طفولته ، فقد سبق أن تفضل عليه بمنة أخرىٰ دون سؤال منه قبل أن يعرف الكلام ، حين ألهم أمه إلهاماً كريماً ما الذي يجب أن تفعله حفاظاً علىٰ حياته .

لقد ألْهمها الرحيم أن تضع هٰذا الطفل الرضيع في التابوت ، وأن تلقي به

(1) طه 37 ـ 41 .

في النيل ، لينجيه من فعل فرعون الذي كان يقتل كل طفل ذكر ولد في ذلك العام لا يشفع له شفيع ، وكان من رحمته أن سخر الماء أن يلقي ذلك التابوت الذي يحمل هـٰذا الطفل في شاطئ قصر فرعون ، وشاءت إرادة الرحيم أن يأخذ فرعون هـٰذا التابوت الذي يحمل هـٰذا الطفل ، وفرعون هو عدوٌّ للرحيم المطلق وعدو للرحيم بالإضافة ، ولـٰكن ٱلله أحب هـٰذا الطفل حب رحمة وولاية ، ليحبه كل من يراه ، وليربىٰ تربية كريمة ملحوظاً برعاية الرحيم وعنايته وحفظه ، ومن تمام الرحمة وسابق العناية به حين مشت أخته ترقب أمره ، فلما صار في قصر فرعون ، ورأتهم يبحثون له عن مُرْضِع ؛ دلَّتهم علىٰ أمه ، وبهـٰذا فقد ردَّه إليها لتفرح بحياته ، وعودته ، ولتكف عن الحزن والبكاء .

وكذلك من رحمة الرحيم به ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد أسبغ ٱلله تعالىٰ علىٰ موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعلىٰ أمه من الأمن والطمأنينة ما يحفظه بها وما تقر عين أمه ، وذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه الرحمة . ولمَّا كبر وقتل خطأ رجلاً من قوم فرعون نجَّاه من الغم الذي لحق به ، وخلَّصه من شرورهم ، فذهب إلىٰ مدين ومكث فيها سنين عدة ، ثم عاد من مدين فىٰ الموعد الذي قدره ٱلله العليم الرحيم ؛ حيث اصطفاه للوحي ، وحمل الرسالة ، فمن تمام رحمة الرحيم بموسىٰ أن : « عمدت أم موسىٰ إلىٰ التابوت فقذفته في النيل ، فانطلق الماء بالتابوت حتىٰ توارىٰ عنها ، فجاء الشيطان فندَّمها وأنساها ما كان ٱلله عز وجل ألهمها ؛ إذ جعلته في التنور ، فجعل ٱلله عليه النار برداً وسلاماً ، وندمت حين جعلته في التابوت ، وقالت : لو ذبح ابني بين يدي ؛ كنت أكفنه وأدفنه في التراب ، وكان أحب إليَّ ، وأسلىٰ لهمي من أن ألقيه في البحر ، فيأكله دواب البحر ، وحيتانه ! ثم ذكرها ٱلله ما أنساها الشيطان ، فقالت : إن الذي خلصه من النار سيحفظه في اليم ، فاحتمل النيل التابوت حتىٰ تعلق بشجرة مما يلي فرعون ، فبينا فرعون في مجلسه ؛ إذ أقبل النيل بالتابوت تضربه الأمواج ، فقال فرعون : إن هـٰذا لشيء في البحر قد تعلق بالشجرة ، ترفعه الأمواج وتضعه ، ائتوني به ! فابتدروه بالسفن من كل

جانب ، حتىٰ وضعوه بين يده ، فعالجوا فتح التابوت فلم يقدروا عليه ، وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فدنت آسية فرأت في جوف التابوت نوراً لم يره غيرها ، للذي أراد ٱلله أن يكرمها ، فعالجته ففتحت التابوت ، فإذا هي بصبي صغير في مهده ، فإذا نور بين عينيه ، وقد جعل ٱلله رزقه في البحر في إبهامه ، وإذا إبهامه في فيه ، يمصُّه لبناً ، وألقىٰ ٱلله لموسىٰ المحبة في قلب آسية ، فلم يبق منها عضو ، ولا شعر ، ولا بشر إلا وقع فيه الاستبشار ، فذلك قوله : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ وأحبه فرعون ، وعطف عليه [1] .

إن رحمة الرحيم واسعة ، لذلك وجب عل كل عبد مؤمن أن يطلب الرحمة من الرحيم ، ذلك أن رحمة ٱلله خير من الدنيا وما فيها وما عليها ، وإنَّ من يطلب الرحيم المطلق هو الرحيم بالإضافة ، لأنه من أولي الألباب وأصحاب الرأي وذلك لقوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [2] ولأنهم علماء عاقلون يعرفون معنىٰ رحمة الرحيم يقولون : ربنا لا تجعل قلوبنا تنحرف عن الحق بعد إذ أرشدتنا إليه ، وامنحنا اللهمَّ رحمة من عندك بالتوفيق والتثبيت إنك أنت المانع المعطي . فهو متفضل بما ينعم به علىٰ عباده من غير أن يجب عليه شيء ، فالراسخون في العلم ، يطلبون من الرحيم رحمة التثبيت علىٰ الإيمان بعدم إزاغة قلوبهم عن الحق والهدىٰ ، وكذلك طلب التوفيق للدين الصحيح والإيمان بأن يهب لهم رحمة من عنده يكون فيها التوفيق والتثبيت لما هم عليه من الإيمان ، وأن يهب لهم تجاوزاً عما بدر منهم بطريق الخطأ ، فهو يهب المغفرة والرحمة ، ولكونه وهاباً فهو رحيم ، والهبة من الرحيم هي العطية الخالية عن الأعواض والأغراض ، والوهاب في صفة ٱلله تعالىٰ : أنه يعطي كل أحد علىٰ قدر

---

(1) مختصر تاريخ دمشق 7، 428.

(2) آل عمران 8 .

استحقاقه وزيادة ، وهـٰذه هي من رحمة الرحيم ، حيث ٱلله تعالىٰ يعطي الحسنة بعشر أمثالها ، وٱلله يضاعف لمن يشاء ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) فالرحيم المطلق أمر الرحيم بالإضافة بأن يرحم الآخرين ، ويأمرهم بالرحمة ، وذلك من أجل سعادة الإنسان ، وأن يساعد الغني الضعيف ، وأن ينصر العزيز من كان ذليلاً ، وان يغني الغني من يجده فقيراً ، وقد وعد الرحيم من يأخذ في هـٰذه الوجه من الخير أن يرحمه رحمةً مضاعفة ، لذلك فقد ضرب لهم المثل في ذلك الذين يسعون في الخيرات لنشر رحمة الرحيم لن يكونوا أرحم من ٱلله تعالىٰ ، فحال الذين يبذلون أموالهم فىٰ طاعة ٱلله ووجوه الخير ، وينالون علىٰ ذلك ثواب ٱلله المضاعف أضعافاً كثيرة كحال من يبذر حبة فىٰ الأرض طيبة ، فتنبت منها شجيرة فيها سبع سنابل فىٰ كل سنبلة مئة حبة ، وهـٰذا تصوير لكثرة ما يعطيه ٱلله من جزاء علىٰ الإنفاق فىٰ الدنيا ، وٱلله يضاعف عطاءه لمن يشاء ، فهو واسع الفضل والرحمة وهو الغني الحميد .

إن ٱلله سبحانه وتعالىٰ رحيم يحب الرحمة والرحماء ، فقد أمر الخليفة بأن يكون رحيماً لين الجانب عطوفاً دمث الأخلاق ، يملأ العين مهابة والقلوب محبة من رحمته علىٰ الآخرين ، وهـٰذه الرحمة التي تسكن قلب الخليفة إنما هي من الرحيم المطلق الذي وهبه إيَّاها ؛ لتحنو عليه القلوب ، وتجله العقول ، فتتبع المعروف الذي يأمر به ، والإحسان الذي يدعو إليه بالحكمة والرحمة والتعاطف والتآزر ، فقد قال تعالىٰ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (2) فهـٰذه رحمة من ٱلله بك وبهم أن

---

(1) البقرة 261 .

(2) آل عمران 159 .

جعلك لهم لين الجانب بما أودع في قلبك من الرحمة ، ولم تغلظ فىٰ القول بسبب خطئهم ، ولو كنت جافي المعاملة قاسي القلب ؛ لتفرقوا من حولك ، فتجاوز عن خطئهم ، واطلب المغفرة لهم ، واستشرهم فىٰ الأمر متعرفاً آراءهم بما يحبون ، وبما لا يحبون ، فإذا عقدت عزمك علىٰ أمر بعد المشاروة ؛ فامض فيه متوكلاً علىٰ ٱلله ؛ لأن ٱلله رحيم يحب الرحماء .

اللهمَّ أنت الرحيم وأمرتنا بالرحمة ، فنسألك اللهمَّ أن تجعلنا من الرحماء المرحومين ! ونسألك وأنت الرحمـٰن في السمـٰوات والأرض ورحيمهما أن تنزل علينا وعلىٰ والدينا وأزواجنا وذريتنا ومن علمنا ومن أحسن إلينا ومن أسأنا إليه شآبيب رحمتك عدد القطر والندىٰ ! اللهمَّ أجعلنا برحمتك من الرحماء الذين تلين قلوبهم ، وتقشعر جلودهم رحمة للآخرين ! ونسألك بالرحمة المهداة محمد ﷺ أن تدخلنا في رحمتك ، إنك أنت الغفور الرحيم ! اللهمَّ آتنا كفلين من رحمتك ، واجعل لنا نوراً نمشي به ، وارحمـٰنا رحمة من عندك ننال بها رضوانك ، وتدخلنا بها الفردوس الأعلىٰ من الجنة ، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين !

اللهمَّ يا الرحيم أنت ربنا إنا ندعوك كما أمرتنا ، فاستجب لنا كما وعدتنا ، إنك لا تخلف الميعاد ! ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) !

اللهمَّ يا الرحيم يسر لنا من أمرنا رشداً ، ولا تعسره تعسيراً ! اللهمَّ يا رحيم إنك بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ الرَحِيمٌ فارحم عبادك المؤمنين بالهداية ، ولا تجعلهم علىٰ معصية ! اللهمَّ إنك الغفور الرحيم ، فاغفر لنا ذنوبنا وخطايانا وتجاوز عن سيئاتنا ، واهدنا إلىٰ الحق ، ولا تجعلنا من المستضعفين ! اللهمَّ

(1) البقرة 286 .

يا الرحيم ارحمنا بالأعمال الصالحات ؛ التي ترضيك حتىٰ ترضىٰ عنا !

اللهمَّ يا الرحيم اجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأرْضِ وهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ !

اللهمَّ يا الرحيم يا من سبقت رحمته عقابه اجعلنا سبَّاقين إلىٰ الخير والرحمة ! اللهمَّ اجعلنا رحماء بأنفسنا ، فلا نقودها إلىٰ الهلاك ، فنكون رحماء بأمانتك ، ومحافظين عليها ! اللهمَّ اجعل من اسمك الرحيم باب استجابة لدعائنا كما أجبت به من قبل نبيك أيوب في قولك : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ (1) ! ربنا اكشف عنا الغم والهم واجعلنا ممن تستمع لدعاهم ، فتستجيب لهم !

اللهمَّ إننا ندعوك باسمك الرحيم الذي يملأ الفؤاد بالأمل والرجاء ، فالحمد لك علىٰ رحمتك يا الرحيم !

✍ ✍ ✍

---

(1) الأنبياء 83، 84 .

الملك جل جلاله

المَلِك هو الذي له المُلك ، وله السيطرة الكاملة عليه . والمَلِك الحق ، هو الملك القاهر القادر : ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [1] فرب العرش الكريم هو الملك الذي لا إلـه إلا هو جل جلاله ، والعرش الكريم هو عرش الملك المطلق ـ جل جلاله ـ الذي به يهيمن ويسيطر ويتولي كل أمر ، ولذا فهو الغني في ذاته وصفاته ، ويحتاج له كل أحد وهو لا يحتاج لأحدٍ : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [2] . ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ ﴾ ، تعني بما تعنيه : أن ملكية الخلق والأمر تعود له وحده ، ﴿ وَٱلْأَمْرُ ﴾ جاءت مطلقة فهي تعني أيَّ أمر ، سواء الحياة ، أم الممات ، أم البعث ، والثواب ، والعقاب ، وله أمر الحركة والزمان ، فتبارك ٱلله ربُّ العالمين !

فله الخلق والأمر : إنه مالكهم ، ومالك أمرهم ، فالشعوب التي من بينها سادة وعبيد ـ أي : المالك والمملوك ـ هم ملك الملك الحق ، جل جلاله ، وبناء علىٰ الآية السابقة فإن الملك الحق هو الذي يملك المالك والمملوك ، وأمر التصرف فيهم ، كجزئية من مُلكٍ عام لكل ما في السمـٰوات والأرض ، ولهـٰذا فإن المَلِك يملك الخليفة ، وما يمتلكه الخليفة من مال وثروة وقوة

---

(1) المؤمنون 116 .

(2) الأعراف 54.

ومنافع ومغانم وعلوم ومعارف ، ويملك ما لم يتمكن الخليفة من معرفته : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [1] . إنه المُلك الواسع الذي وسع كل شيء خلقه سواء تمكَّن الخليفة من معرفته أم لم يتمكَّن ، إنه عالم الغيب والشهادة ، إنه الرحمٰن الرحيم ، الذي له من المُلك ما يرحم مخلوقاته دون استثناء ، وله من المُلك ما يعاقب به جميع مخلوقاته بدون استثناء ، وله الحمد يعاقب من يشاء ، ويعفو ، ويتوب علىٰ من يشاء من عباده ، إنه المَلِك الرحمٰن الرحيم ، ولذلك وسع كرسيه السمٰوات والأرض ، فلك الحمد ربِّ ، لا إلٰه إلا أنت الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر فسبحان ٱلله عما يشركون .

الملك الحقيقي لله وحده لا يشركه فيه أحد ، وكلُّ من مَلكَ شيئاً فإنما بتمليك ٱلله تعالىٰ ، ولذا لا ملك إلا لله .

ولأن الملك المطلق لله تعالىٰ وحده لا شريك له ؛ فالطاعة التامة بالمطلق إنما هي لله وحده ، ولذا فاسم ملك الملوك لا يطلق إلا علىٰ ٱلله ، جل جلاله . قال رسول ٱلله ﷺ : « اشتدَّ غضب ٱلله علىٰ من زعم : أنه ملك الأملاك ، فلا ملك إلا ٱلله ! » [2] .

وعليه فحقيقة الملك إنما تتم بالعطاء والمنع والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والعزل . قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [3] .

ولأن الأمر بيد الملك ـ جل جلاله ـ فهو يؤتي الحكم لمن يشاء ، ويعز

---

(1) البقرة 255 .
(2) أخرجه أحمد ج 1 ص 492 .
(3) آل عمران 26 .

من يشاء ، ويذل من يشاء ، ولذا فهو يذل عزيزاً ، ويشفي مريضاً ، ويستر عورةً ، وهٰكذا يداول الأيام بين الناس سبحانه جل جلاله !

ولأن المَلِك هو الذي بيده أمر المُلك : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (1) بما أنه هو مالك المُلك الحق ، إذاً له الحق في أن يتصرف فيه كيفما يشاء ومتىٰ يشاء دون أي اعتراض علىٰ مشيئته . وعليه فإن المَلِك الحق هو الذي يملك ويتصرف ، والتصريف هو حُسن التسيير للحركة والسكون عبر الزمن ما جعله يخلق كل شيء بميزان : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (2) هٰذه الآية موجهة للخليفة لكي يعدل فيما يملك بالحق ، هٰذا ما يراد له أن يكون أما ما هو كائن فالمفسدون في الأرض كثيرون ، ولو لم يكن الإفساد في الأرض ما نزلت الآيات الدالة علىٰ العدل والوزن بالقسط والتراحم بين الناس وقول الحق وفعل الحق .

فمن العدل إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، وإذا لم تحكموا فالأمر لا يتعلق بكم إلا من حيث عدم كتمان الشهادة إن كنتم شهوداً .

المَلِك في الحكم البشري نسبي ، فمن يقول الحق ، ويعدل يكون ملكاً ، ومن يقول زوراً وبهتاناً فلن يكون ملكاً ، فعلىٰ سبيل المثال : إذا شهَّدوا شهوداً أمام قاضٍ بمحكمة عدل ، فمن يكتم الشهادة لن يكون ملكاً ، ومن يقول شهادة زور لن يكون ملكاً ، فالملك في ذلك الموقف هو الشاهد الحق . ولذا فالمَلِك لا يقتصر فقط علىٰ من يمتلك من الثروات ، بل من يريد أن يتصف بصفة المَلِك الحق ، فعليه أن يقول الحق ، ولا يقدم إلا علىٰ فعل الحق ، أمّا من يمتلك ثرواتٍ كثيرةً ، ويمتلك أمر السياسة في البلاد ، ولا يقول الحق ؛

---

(1) الشورى 49، 50.

(2) الرحمن 9.

فلن ينال من الصفة إلا المسمىٰ ، أمّا من حيث الدلالة والمعنىٰ سيظل فاقداً له .

المَلِك في الأرض هو المواطن الحق ، الذي لا يُسهم في تزوير الانتخابات ، ولا يأكل أموال الناس بالباطل ، ولا يشهد شهادة زور ، ولا يقتل النفس التي حرَّم ٱلله ، ولا يعمل الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا يزني ، ولا يكذب ، ولا يغش ، ولا يُفسد في الأرض ، ولا يحاجج بباطل ، وهو الذي لا ينسىٰ نصيبه من الدنيا ، ويؤمن بأنه المخلوق الذي من ورائه خالق يملك الخلق والأمر : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (1) . وعليه لا يمكن أن يكون في الأرض من يملك المطلق ، فالأرض ومن عليها وما فيها والسمـٰوات وكل ما خلق ملك لله تعالىٰ ، ولأنَّ الأمر كذلك فإن قانون النسبية كفيل بإثبات القصور فينا ، مما يجعلنا نؤمن من غير شك بأن الكمال للمَلِك الحق وحده . وعندما نصل إلىٰ هـٰذه النتيجة الموضوعية ؛ نعرف الحق ، ولا نقول غيره ، ولا نفعل غيره ما حيينا . وهـٰذا الأمر هو الذي يُمكنَّا من أن نكون ملوكاً .

المَلِك الحق هو الذي يملك المُشَاهد ، والمُجرد ، يملك الكائنات والمادة القابلة للمشاهدة ، ويملك فوق ذلك السمع والأبصار غير القابلة للمشاهدة . قال تعالىٰ : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (2) ﴿ لَهُ ٱلْخَلْقُ ﴾ الذي صدرت عنه جميع المخلوقات : علويها ، وسفليها ، أعيانها ، وأوصافها ، وأفعالها . ﴿ وَٱلْأَمْرُ ﴾ المتضمن للشرائع والنبوات ، فالخلق

(1) البقرة 258 .
(2) الأعراف 54 .

يتضمن أحكامه الكونية القدرية ، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية ، وثم أحكام الجزاء ، وذلك يكون في دار القرار ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (1) وإلا هل هناك من يرىٰ السمع والبصر ؟ ! نحن بني الإنسان الذين خُلقنا في أحسن تقويم ، لا نرىٰ ذلك ، مع أننا نرىٰ العيون المبصرة والآذان المُنصتة ، والفرق كبير بين السمع ، وبين الحاسة السمعية ، وبين البصر ، والعيون المبصرة ، فالحواس تشاهد ووظائفها لا يمكن أن تشاهد ، ولهـٰذا من حيث التقريب فالذي يمتلك الحواس هو من خلقت له ، والذي يملك السمع والأبصار هو خالقها ، ولهـٰذا فأمر مشاهدتها لم يكن علىٰ المستوىٰ الحسي الذي عليه خُلقنا . ومن هنا بدأ القصور يُرافقنا حتىٰ النهاية ، ولذا فمن الممكن لنا أن نكون ملوكاً ، ولـٰكن من الصعب علينا أن نكون ملوك الحق . فالملك الحق هو الذي لا يرافقه القصور ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يأخذه خوف ولا طمع .

المُلكُ خير ، والمَلِك مالك الخير ، وجاء علىٰ رأس المُلك الخير : الحياة ، والممات ، والجنة ، والنار ، ويوم البعث العظيم . وجاء داخل الحياة والممات خيرات حِسان ، وجاء داخل الجنَّة والنار خيرات كثيرة ، وجاء يوم البعث خير سرمدي . وبما أنّ المَلِك هو مالك الخير ، إذاً هو الذي بيده المُلك ، ومع أنَّ المُلك بيده ، ولا تصرف فيه إلا بأمره ، إلا أنه جَعَلنا الوارثين ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (2) . العاقبة هي الأفعال المترتبة علىٰ ما تم فعله علىٰ الأرض ، فإن كان عمل خير تكون العاقبة ثواباً ، وإن كان عمل شر تكون العاقبة عقاباً .

---

(1) يونس 31 .

(2) الأعراف 128 .

ولأن كل فعل يترتب علىٰ فعلٍ ؛ جاء التوريث مترتباً علىٰ وجود الخليفة ، ومن هـٰذه الآية الكريمة ندرك وجود غاية واحدة من وراء جعل الخليفة في الأرض ، وفعل التوريث فيها .

والسؤال الذي يُطرح مترتباً علىٰ ما سبق : كيف يكون الإنسان مَلِكاً في الوقت الذي هو فيه عبد المَلِكِ ؟

في اعتقادنا : أنَّ عبد المَلِك الحق ملك ، وعبدَ العبدِ عبدُ . وذلك لأن عبد الملك هو الذي لا يقبل أن يكون عبداً لعبد ، ولأنه لم يكن ولن يكون عبداً لعبد ، إذاً فهو الملك ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] . من هـٰذه الآية نلاحظ : أنَّ للملك رزقاً حسناً (المُلك) وله حق التصرف فيه ، وهـٰذا يدل علىٰ أنّ الرزق غير الحسن لن يكون رزقاً لملك ، بل ربما يكون لمفسد في الأرض ، وعندما يكون كذلك فبطبيعة الحال لن يكون مَلِكاً : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [2] .

إذاً من يريد أن يكون خليفة للملك الحق ؛ فعليه أن يكون حراً ، ومُصلِحاً ، أما من يقبل بأن يكون عبداً ، ولا يُسهم في الإصلاح ؛ فلن يكون ملكاً حتىٰ وإن استولىٰ علىٰ مقاليد البلاد ، والعباد فيها بالقوة . ولذلك فالمُلك لم يكن عنواناً ، ومراسيم وتشريعات لإرهاب المواطنين ، والتصرف في شؤونهم دون رضاهم ، ولم يكن المُلك بيع كلامٍ كما يقول البعض ، وإظهار

---

(1) النحل 75 .

(2) البقرة 206 - 206 .

ما لم يكن بالحق باطنا ، بل المُلك قول حق وفعل حق . ولهٰذا ينطبق مفهوم الآية السابقة علىٰ المنافقين كما هو حال الأخنس بن شريق الثقفي ، واسمه : (أبيٌّ) كما جاء في تفسير الشعراوي الذي قال : « إنَّ اسمه أبيّ ولقبه : الأخنس ، حيث خنس ورجع يوم بدر ، فلم يقاتل المسلمين مع قريش ، واعتذر لهم بأن العير قد نجت من المسلمين ، وعادت إليهم ، وكان ساعة يقابل رسول ٱلله ﷺ ليظهر إسلامه يلين القول للرسول ، ويدَّعي أنه يحبه ، وبعد أن خرج من عند رسول ٱلله ﷺ مرَّ بزرع وحُمُر لقوم من المسلمين ، فأحرق الزرع ، وقتل الحُمُر »[1] . إن هٰذا الأمر وما هو في مثله مخالف لأمر ٱلله للخليفة حيث قال : ﴿ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٦٠ ﴾[2] وقال تعالىٰ : ؟﴿ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[3] .

من هٰذه الآية نستنبط : أنه لا طاعة من مؤمن لعاصٍ ، والعاصون هم الذين بإسرافهم يُفسدون في الأرض ، ولا يُقدِمون علىٰ أفعال الإصلاح ، فهٰؤلاء كيف يكونون ملوكاً ؟ ! وكيف يكونون هم الوارثون ؟ ! وكيف يكونون خلفاء في الأرض ؟ ! لذا فالقول الصريح من المستنبط لا مَلِك ، ولا وارِثَ ، ولا خليفة ممن يسرفون ، ويُفسدون في الأرض ، بل المَلِك ، والوارث ، والخليفة هو : من يعمل علىٰ إصلاحها .

المَلِك الحق هو من لا يزول ، ولا يزول ملكه ، وهٰذا يدل علىٰ واسع الفضل ، ولهٰذا من يُراد له أن يكون ملكاً فعليه بالجُود من واسع فضله : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ

(1) تفسير الشعراوي المجلد الثاني أخبار اليوم قطاع الثقافة ص 865.
(2) البقرة 60.
(3) الشعراء 151 ـ 152.

لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (1) كأنه يقول الفقر فقر النفس أمّا المال فيأتي ، ولهٰذا زاده بسطة في العلم الذي به يتعرف علىٰ مكامن المال ، وبه يستثمر ما يتم كشفه والتعرف عليه ، وبه دائماً يُنقب عن المزيد المفيد ، والنافع للعباد ، وزاده بسطة في الجسم حتىٰ يُظهر القوة فيه ، ويظهر مقدرة ٱلله تعالىٰ في سند من يبعثه ملكاً للإصلاح .

وقد يتساءل البعض : بما أنّ المَلِك هو من لا يزول ، ولا يزول مُلكه ، فكيف يجعل ٱلله طالوت ملكاً ؟ ! ٱلله عز وجل هو الذي بيده المُلك (بيده الأمر والنهي وهو علىٰ كل شيء قدير) ولهٰذا فهو فعَّال لما يريد ، ولأنه كذلك قال : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (2) . هٰذه اعترافات المؤمن أمام مالك المُلك كله ، فسبحانه إنه علىٰ كل شيء قدير !

والملوك في الأرض هم الذين يقع ملكهم في دائرة النسبية ، ولا يدخل دائرة المطلق التي يتعلق أمرها بالملك المطلق جل جلاله ، ومع ذلك هناك ملوك انحرفوا عن منهج ٱلله تعالىٰ كفرعون ، وغيره ، وهناك ملوك استقاموا علىٰ منهج ٱلله ، كداود ، وسليمان ، وذي القرنين ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾ (3) فٱلله الملك المتعال هو الذي مكن له في الأرض وآتاه من كل شيء ، ولهٰذا يُعَدُّ ذو القرنين نموذجاً للحاكم الذي اظهر في حياته آثار اسم ٱلله الملك ، ومن معالم الملك والتمكين عن ذي القرنين الآتي :

---

(1) البقرة 247 .

(2) آل عمران 26 .

(3) الكهف 84 .

1 ـ دستوره العادل : قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [1] .

2 ـ منهجه التربوي في إحياء الشعوب .

3 ـ اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير .

4 ـ أخلاقه القيادية : العبر ، المهابة ، الشجاعة ، التوازن ، كثير الشكر ، العفة عن أموال الضعفاء .

5 ـ المساهمة في تفجير طاقات الشعوب المستخلفة .

وبما أن ٱلله هو المَلِك الحق ، وٱلله حي لا يموت ، وفي مقابل ذلك خلق الحياة والموت من ملكه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [2] . إذاً هناك سر يتم الإعلان عنه في هٰذه الآية الكريمة ، وهو أنَّ من أسرار خلق الحياة والموت هو لأجل أن نختبر : هل حقاً كنا نحن الوارثين ، والخلفاء ، أم أننا يمكن أن لا نكون كذلك . فالمشيئة تود لنا أن نكون الوارثين ، والخلائف في الأرض ؛ حتىٰ نورث من بعدها الجنة ، ولا يمكن لنا أن ندخل الجنة ما لم نكن في حياتنا خلفاء فيما استخلفنا ٱلله فيه في الأرض ، ولهٰذا من لا يكون خليفةً ، ووارثاً في الأرض فلن يكون له إرثٌ في الجنة : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3] .

---

(1) الكهف 87، 88 .

(2) المُلك 1 2 .

(3) الأعراف 43، 44 .

المَلِك منزَّهٌ ، وملوك الأرض بشرٌ معرضون للخطأ والصواب : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (1) فالملوك هم الذين يقتدون بما أمر المَلِك الحق ، ولهٰذا كل الذين بايعوا رسول ٱلله ﷺ ، وأوفوا بما عاهدوا ٱلله عليه هم ملوك ، والذين نكثوا ليسوا بملوك ، وهٰكذا كل من يريد أن يكون ملكاً بإمكانه أن يكون ، وكل من لا يريد فبإمكانه أيضاً : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (2) نلحظ من هٰذه الآية : أن البشر غير منزهين ، ولذا لا يمكن أن يكون المُلك بيد من لا يكون منزهاً .

ولأن الإنسان خلقه ٱلله في أحسن تقويم ، فبإمكانه المعرفة ، وبإمكانه أن يفعل خيراً ، وأن لا يُفسد في الأرض ، وأن يعمل علىٰ إصلاحها ، ولذا فبإمكانه أن يكون ملكاً لإحقاق الحق ، وإزهاق الباطل . ومع ذلك لن يكون الملك الحق ، فسبحان ٱلله عمّا يصفون !

وعليه فإن استعباد المَلِك الحق للعباد ؛ لأنه خالقهم ورازقهم وبما يجود به عليهم من رحمة وفضل ومغفرة ، وعدل وتيسير عند كل حاجة وشدة ، وحفظٍ من كل شر ، وبما خلقه لهم من خيرات حِسان في البر والبحر والسماء ، فقد جعل لهم الليل سباتاً والنهار معاشاً وخلق لهم من كل الثمرات : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ

---

(1) الفتح 10 .
(2) البقرة 256 ـ 257 .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1] إنه المَلِك الحق الذي خَلقَ وأعطىٰ ، والذي قدَّر فهدىٰ ، فله الحمد والشكر علىٰ كل ما أعطىٰ ، ورزق من الثمرات !

إنَّ الذي يعطيك من كل الثمرات ألا يستحق أن يُعبد ؟ ! فبعض الناس الذين لا يجحدون إذا ما قُدِّم لهم خيرٌ من بعض الناس الخيرين ؛ تراهم ينظرون إليهم بعين العرفان بالجميل ، وتراهم يَدعون لهم بالدعاء الصالح ، وإذا ما قصدوهم في شيء ؛ وجدوهم أنصارا معهم في كل حق ، وتراهم يدينون لهم بالعرفان ، والتقدير . فإذا كان الأمر بين الناس الذين هم في حاجة والذين يعملون الخير كلما فُتِّحت أمامهم أبوابه الواسعة ، فإذا كان الأمر بينهم مؤسساً علىٰ التقدير والاحترام والعرفان بالجميل والعمل علىٰ رده كلما تهيأت ظروفهم لذلك فما بالك بمن خلقك فسواك فعدلك ؟ ! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [2] ألا يستحق أن يُعبد ويُعترف له بالربوبية والعبودية ؟ ! والعبودية هنا هي عبودية اعتراف وتقدير وشكر دائم لمَلِك دائم . ولهٰذا فالفرق كبير بين أن تكون عبداً لله تعالىٰ وبين أن تكون عبداً لعبدٍ . فإن رضيت أن تكون عبداً لعبدٍ ؛ فإنك

(1) النحل 10 ـ 18 .
(2) الانفطار 6 ـ 8 .

ترضىٰ بأن تُقدِّم له الخدمات وتقبل منه العقاب الذي لا يغنيك عن عقاب ٱلله تعالىٰ إذا لم تكن عبداً له دون غيره ، وأن تعمل علىٰ إرضائه حتىٰ وإن لم يكن في مرضات ٱلله . أمَّا إذا رضيت بأن تكون عبدا لله تعالىٰ ؛ فٱلله لم يستعبدك لتقدم له الخدمات فهو الغني عنك وعن خدماتك ، فالذي تُقدِّم له الخدمات أنت مدانٌ له وهو مدين لك ، أمَّا ٱلله عز وجل فليس كذلك ، فٱلله تعالىٰ يبتغيك من أجل نفسك ، ولا يبتغيك من أجله هو ، وهـٰذا ما لا يبتغيك فيه من استعبدك ، فمن استعبدك يريدك أن تخدمه ، أمَّا ٱلله فيريدك لنفسك ، ولا يريدك لسواك . وبما أنَّ الأمر كذلك ألا يستحق العبادة والعرفان له بالعبودية ؛ التي كما بينَّا ليست لها علاقة بالمفهوم السائد للعبودية بين البشر . بل هي الإيمان به واحداً أحداً ، له المُلك لا شريك له ، مع الالتزام بقول الحق وفعل الحق ، وأن لا تركع لأحد سواه ، وأن تعمل صالحاً ، ولا تفسد في الأرض ، وهـٰذه الأفعال جميعها لم يترتب عليها أفعال العبودية من إكراه ومذلة ، وعقاب بغير حق ، وتحكُّم وسيطرة من المالك وأبنائه وزوجاته حيث في معظم الأحيان يكون لمن يمتلك العبيد عدد من الزوجات ، مع القبول بالخصي إذا ما ارتأىٰ المالك ذلك ضرورة .

المَلِك الحق هو الذي يتم التوكل عليه ، فهو الذي بيده الأمر ، وذلك لمقدرته وقوته وعطائه غير المحدود ، وغفرانه للخطايا ، وإحاطته بكل علم ، إنه ٱلله الذي لم يكن في حاجة لأحد ، والكل يحتاجون إليه ، وهو النافع والضار ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، ولذا فإن الاعتماد عليه واجب وضرورة ، واجب لأنه الحق ، وضرورة لأن الخليفة في حاجة دائمة إليه ، فلا يمكنه الاستغناء عنه في شيء ، ولهـٰذا فالاعتماد عليه هو الذي به تُحل الكُرب ، ويعم الفرج ، وتطمئنُّ القلوب . ولذا إذا أراد الخليفة أن يكون ملكاً فعليه أن يكون ، إنه من الممكن وليس من المستحيل ، فمن يقدر ذلك فهو من حقه ، ومن لم يستطع فليس من حقه . ومن يرتضي أن يكون ملكاً ، لا يمكن أن يقبل

بالاعتماد علىٰ غيره ، ولهٰذا من يعتمد علىٰ المحتاج لا يمكن أن يكون ملكاً ، ومن يعتمد علىٰ الغني سيكون ملكاً ، فالمَلِك بيده المُلك . ولذا ينبغي أن يكون للخليفة مُلك لفعل الخير ، ولذلك عليه أن يؤمن بأن وجوده مؤقت ، ومُلكه مؤقت ، وأن مُلك المَلِك الحق دائم بديمومة مالك الملك .

ومع أنَّ المَلِك الدائم مُلكه دائم ، والمَلِك الزائل مُلكه زائل ، إلا أنَّ من يريد أن يكون ملكاً للحق فبإمكانه أن يكون ، ذلك إن لم يدخل دوائر السوء ، ويرتكب المظالم . فالمَلِك الحق هو من يقول الحق ، ويسلك الحق ، ولا يفعل شيئاً غير الحق . وإن لم يفعل ذلك فتكون مملكته هي مملكة المظالم .

ومهما فعلنا فلن تكون مملكة الخليفة متطابقةً مع مملكة خالق الخليفة ، فخالق الخليفة هو الرحمٰن الرحيم المَلِك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، مما يجعل مُلكه مُطلقاً ، تملؤه الرحمة ، بفعل رحيم ، ويُسيطر عليه ملك ، وتملؤه الصفات الحِسان ، ويعمُّه السلام دون نقيصة والطمأنينة دون خوف ، وتحيطه القوة والعزة ، التي تعم الجميع بدون استثناء ، وهو الملك العظيم الذي لا يماثله شيء فسبحان ٱلله عمّا يُشركون . ولهٰذا يُسبح لله ما في السمٰوات والأرض : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ (2) . فسَّر القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن ما أوردناه من سورة الناس ؛ أي : مالكهم ، ومصلح أمورهم (3) .

نعم إنه مالكهم وحافظهم ، فهم يلتجئون إليه ويعودون له خوفاً من كل شر ، وطمعاً في كل خير .

---

(1) الجمعة 1 .

(2) الناس 1 ـ 2 .

(3) القرطبي الجامع لأحكام القرآن مجلد رقم 20 ص 260 .

ولأن المَلِك هو مالك المُلك ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (1) ولأنه كذلك فهو المَلِك الكريم الذي دائماً يعطي ما شاء لِمن يشاء دون أن يأخذ منه شيئاً ، فالمُلك كله لله ، ولهٰذا لم يكن العبد قادراً علىٰ أن يأتي بشيء منه ليعطيه لله ، ولهٰذا لم يكن ٱلله في حاجة للعبد ، والعبد دائماً هو في حاجة إليه . ولذا فالمَلِك الحق دائماً هو المُعطي ، والعبد دائماً في حالة طلب وأخذ ، يتوسل ويسعىٰ ويكد ويجد ويجتهد حتىٰ ينال الاستجابة التي بها يتم إشباع الحاجات البشرية المتطورة والمتنوعة .

وفي مقابل ذلك تجد البعض لا يكد ولا يجد ، وتجده كسولاً ، أو سارقاً ، أو منحرفاً عن القول الحق ، والسلوك الحق ، مما يجعله في خانة المعتدين الآثمين . فالسارق عندما يرتكب أفعال السرقة ، فبالضرورة سيسرق من مال من يمتلك رزقاً ، ولذا فهو السارق من رزق ٱلله الذي منَّ به علىٰ عباده حلالاً ، وأمّا أن يسرق من مالٍ مسروق ، أو من مال أهله ؛ فهنا حالتان مختلفتان :

الحالة الأولىٰ : فإن سرق من مال مسروق ؛ فإنه قد أضاف جريمة أخرىٰ ، وساهم مع السارق الأول بتعزيز الفساد في الأرض ؛ إذ انه ليس من حقه كفرد أن يتصرف بما يتنافىٰ مع الشرع . ولا أن يقابل الخطأ بخطأ آخر ، ويكافح الجريمة بالجريمة ، وإنما إذا أراد أن يصل إلىٰ درجة الخليفة ؛ فعليه أن يأخذ بالإصلاح .

الحالة الثانية : أن السارق الذي يسرق من الناس ، ووصل حدَّ النصاب والشروط في بلوغ حدِّ القطع من الحرز المحصن للمال ، وجب عليه الحد شرعاً ؛ لأن ٱلله تعالىٰ جعل الحدود مكفراتٍ للذنوب ، ومطهرةً للنفس .

---

(1) آل عمران 26، 27 .

أما إن كان المال المسروق من حلال أهله وهو أحد الورثة فإن شبهة الوراثة تدفع عنه الحدَّ ؛ لأن له حق في هـٰذا المال .

ولأن ٱلله هو مُعطي الأرزاق ، وهو الذي يؤتي الحكم لِمن يشاء من عباده ، لذا فعباده هم الذين يعترفون له بالفضل : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) . وإنه لَمِن الغرابة أن يعبد البعض من لا يملك رزقاً ، ومن الغرابة أن يعبد البعض أيضاً من لا يكون رحيماً ! ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (2) . وفي ذلك أيضاً قال تعالىٰ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (3) . ﴿ تَبَارَكَ ﴾ كلمة استبشار ، وجاء في « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي : تبارك بمعنىٰ تفاعل من البركة وهي الكثرة والاتساع . وقيل : إنَّ باسمه يُتَـبَرَّك ، ويُتَـيَمَّن (4) .

فالمَلِك الذي له مُلك السمـٰوات والأرض ، ولم يكن له ولد ، ولا شريك له في المُلك ، وهو خالق كل شيء ، هو العادل في مُلكه ، فلو كان له ولد ؛ لكان لدىٰ البعض تهمة الانحياز له ، ولو كان له أب ، وأم لكانت التهمة أكثر انتشاراً ، ولهـٰذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (5) . إنه المَلِك الذي

---

(1) المُلك 1 .

(2) النحل 73 .

(3) الفرقان 1 ـ 3 .

(4) القرطبي الجامع لأحكام القرآن المجلد 7 ص 223 .

(5) الإخلاص 1 ـ 4 .

لا ينحاز لعاطفة الأبوة والأمومة والأخوة ، ولا ينحاز لأحدٍ علىٰ حساب أحد ، فالآباء يُضعفهم الأبناء ، وكذلك الأبناء يضعفون أمام آبائهم وما يتعلق بهم من أمر ، ولذا فإن ٱلله لم يلد ولم يولد ، مما يجعل انعدام أثر العواطف علىٰ أفعال العدل التي يتصف بها المَلِك الحق . واقتصارها علىٰ من وُرِّثَ في الأرض وجُعل فيها خليفة ، ولهٰذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [1] .

وعليه فإن المَلِك هو الخالق ، والخليفة هو المُنجِب ، والفرق كبير بين خالق لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ومخلوق يُنجب ، فالخالق هو المَلِك الحق ، الذي لا يخلق الشيء إلا لوظيفة ، ولهٰذا لم يخلق الأشياء هٰكذا عبثاً . أمّا المُنجب فليس له سُلطان علىٰ ما يُنجب ، ولذا فقد ظَهَرَ ، ويظهر بين أبناء الأسر الكريمة من هو ليس منهم في شيء ، وأيضاً هناك من يظهر من أبناء الأسر غير الكريمة من يعلو به نسبهم ، ويشرفهم ، وقصة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليست ببعيدة ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [2] . ولذا فلو كان نوحٌ خالقاً ؛ لكان محيطاً بكل أمر ، ولكان مهيمناً عليه ، ولٰكن لأنه مخلوق مُنجب ، ونبي من أنبياء ٱلله ـ صلاة ٱلله وسلامه عليهم ـ فلم تكن له هٰذه الخاصية ، مما جعله غير مُلمٍّ بأمر ابنه ، وحقيقة أمره إلىٰ أن نبهه ٱلله بذلك . ولأن نوحاً عليه الصلاة والسلام بشر مخلوق ، فكانت العاطفة تشده نحو ابنه ، ولذلك لا كمال إلا للمَلِك الحق الذي لم يكن له والد ، ولا ولد ، وله الخلق جميعاً ، وله الحمد الكثير .

---

(1) الإسراء 23 .

(2) هود 45 ـ 46 .

والحمد لله تعالىٰ الذي لم يكن له شريك في الأمر ، فالشريك بطبيعة الحال سيكون له رأي فيما يجري من أمر ، والآراء عندما تتعدد قد لا يكون الاتفاق ، وإن لم يكن ، سيكون الاختلاف ، أو الخصام ، أو الصدام ، وعندما يحدث ذلك يحدث الفساد ، ولذا فإن ٱلله وحده لا شريك له : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ (1) . في المُلك البشري الأبناء يرثون الآباء ، وعند قسمة الإرث ، قد تحدث المظالم في غير طاعة ٱلله ، مما يجعل الخصام يسود بين الإخوة الراغبين في الحياة الدنيا علىٰ حساب الحياة الآخرة . لذلك فالخليفة لا يمكن أن يكون نسخة مطابقة للأصل الذي استخلفه . ولأن الأمر هـٰكذا ، جاء الخليفة علىٰ حالة من التخيير ، والتسيير ، وكان ٱلله عليماً حكيماً ، فالخليفة مخيَّر فيما يملك ، ومسيَّر فيما لا يملك . مخيرٌ في أن يتعلم ، أو أن يعمل ، أو أن يبيع أو يشتري ما يشاء متىٰ يشاء . ومسيرٌ في الحركة والزمان : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ (2) .

ولأن الحق هو اليقين ؛ لذا فإن المَلِك الحق هو الذي لا شك فيه ، ولأن الاسم الأعظم هو اسم ٱلله الذي يحتوي جميع صفاته ، فكذلك كلُّ صفة من صفاته تحتوي الصفات الأخرىٰ (3) .

وبما أنَّ ٱلله يحتوي جميع صفاته ، وأنَّ المَلِك الحق هو ٱلله . إذاً المَلِك الحق يحتوي جميع صفات ٱلله تعالىٰ . وهـٰكذا بما أن الرحمـٰن هو ٱلله ،

(1) الإسراء 111 .
(2) البقرة 258 .
(3) علىٰ محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين . بيروت : دار المعارف الطبعة الأولى 2005 ص 114 .

وكذلك الرحيم هو ٱلله ، وأنَّ ٱلله واحد أحد . إذاً فاسم الرحمـٰن ، والرحيم يحتويان علىٰ جميع صفات ٱلله تعالىٰ . وهـٰكذا حال كل اسم من أسمائه ، بما أنه لو سألك أحد بقوله من هو القهَّار ؟ أو من هو المُقيت ؟ أو من هو العزيز ، أو مالك المُلك ؟ . أو من هو أيُّ اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، فبماذا ستجيب؟ . بالتأكيد ستكون الإجابة من أيِّ مؤمن : هو ٱلله جل جلاله . إذاً كل اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ يحمل صفاته . وما الفارق إلا من حيث إنَّ اسم ٱلله لا يوصف به أحد سواه ، وبقية الصفات إذا ما استثنينا اسم الرَّحمـٰن فيمكن الاتصاف بها .

عندما تأتي خصوصية اسم من أسمائه الحُسنىٰ في قضية من القضايا ، أو قصة من القصص ، أو في إعجاز من إعجاز ٱلله تكون صدارة المعنىٰ للاسم الدال علىٰ القضية المعينة ، أو القصة ، أو الإعجاز الإلـٰهي . ففي قوله تعالىٰ : ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [(1)] وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [(2)] نلحظ في الآية الأولىٰ جاء تقديم عالم الغيب والشهادة وهو ٱلله ، و ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أيضاً هو ٱلله ، إلا أن إظهار اسمه تعالىٰ بالرحمـٰن الرحيم جاء لتقديم قيم الرحمة وفاعلها وإبرازها فيما يود إظهاره في هـٰذه الآية ، وهـٰذا لا يعني : أنه قَصر اسمه تعالىٰ علىٰ صفة واحدة ، بل هـٰذا يعني : أن للرحمة خصوصية تستوجب الإظهار ، وهي محاطة بالصفات الإلـٰهية الأخرىٰ . وكذلك في الآية الثانية ظهر اسم العزيز ، وهو اسم ٱلله تعالىٰ لإعطاء العزة مكانة الصدارة فيما يود له أن يكون في هـٰذه الآية ، ولا يريد أن يقصر الأمر علىٰ هـٰذه الصفة فقط ، بل يريد لها أن تأخذ الخصوصية في هـٰذا الموقف وفي غيره من المواقف المتشابهة ، ولهـٰذا فهي المحاطة بقوة الصفات الأخرىٰ لله ربِّ العالمين .

---

(1) الحشر 22 .
(2) البقرة 129 .

وعليه لو لم يكن الرحمـٰن الرحيم هو ٱلله ما آمن به أحد ، ولو لم يكن الغفور الودود ما عبده من أحد ، ولو لم يكن المَلِك ، ومالك المُلك ، والقوي ، والجبار ، والقهار ، والرؤوف ما آمن به أحد ، ولهـٰذا كل الصفات تتوحد في اسم ٱلله تعالىٰ ، وكذلك في كل صفة من صفات ٱلله تعالىٰ تتوحد بقية الصفات الأخر . فالحمد لله ربّ العالمين ! ولهـٰذا لو راجعنا ما كتبنا عن أسماء ٱلله الحسنىٰ نلحظ مع أننا نُعطي خصوصيةً لكل اسم نتناوله بالبحث والتحليل والتفسير ؛ إلا أننا لم نغفل عن تداخله مع بقية صفات ٱلله تعالىٰ . ولهـٰذا عندما تظهر صفة الرحمة في الصدارة ، تكون صفة الجبار من ورائها ، وعندما تظهر صفة المُعز للصدارة تكون صفة المُذل من خلفها ، وإلا هل هناك من يعتقد بأن الذي يُعزُّ لا يَقدِر علىٰ أن يُذل : ﴿ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ (1) .

فالمَلِك هو القادر علىٰ أن يُعِزَّ من يشاء بملكه ، والقادر علىٰ أن يُذل من يشاء بملكه ، ولهـٰذا فمن يكون طامعاً في الحياة الدنيا المال يذلُّه ، ومن يكون حامداً وشاكراً فالمال يعزُّهُ . ومع ذلك فبالمال تتم المناصرة ، والمؤازرة ، والمغالبة ، وبه يتم البناء والعمار ، فالمال الذي به يُحق الحق هو المال الحلال ، والمال الذي به تتم مغالبة الحق فهو المال الحرام .

من لا يملك لا يستحق العبادة ، ولهـٰذا تخلىٰ المؤمنون عن عبادة الأصنام ؛ لأنهم عرفوا : أنها لا تملك لهم نفعاً ، ولا ضرّاً ، وبما أنها لا تملك شيئاً فلا تستحق أن تُعبد ، ولا أن تُتخذ إلـٰهاً ، فالإلـٰه الذي يُعبد هو مالك الملك ، وهو الغني الودود الذي يحيي ويُميت ، وهو الرحمـٰن الرحيم . ولذا فهو الفعّال لِما يُريد مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (2) .

---

(1) آل عمران 26 .

(2) البروج 15 ، 16 .

المَلِك الحق هو الذي يملك ما خلق ، أمَّا الملك الخليفة ؛ فلا يملك إلا ما أُتي له من مُلك الخالق ، وهو لا يستطيع أن يتصرف في شيء خارج مُلك الخالق سبحانه وتعالىٰ ، ولذا فهو المُتصرف في كل ما يؤتىٰ له ، مما جعله صانعاً ، وفناناً ، وتاجراً ، ومهندساً ، ومفكراً ، ومتذكراً ، وعالماً يخطط للمستقبل ويعمل من أجل بلوغه . ومع أنَّ الخليفة عالم ؛ إلا أنه لم يؤت من العلم إلا قليلا .

فإذا نظرنا إلىٰ المَلِك عالم الغيب والشهادة ، وإلىٰ المَلِك الخليفة ؛ نعرف الفارق الكبير بين السمـٰوات العلىٰ وبين الأرض وما بينهما ، فالمَلِك الحق هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمـٰن الرحيم ، إنه الذي يعرف خلقه قبل أن يعرف خلقه أنفسهم ، فسبحان ٱلله العظيم ! أمَّا المخلوقات بما فيها الخليفة تولد قاصرةً ، وعاجزةً ، وجهولةً ، مما يجعلها في حاجة للعناية والرعاية ، وفي حاجة لمن يُعرِّفها ، فكان ٱلله بعباده رؤوفاً رحيماً ، فبعث فيهم الرسل ، والأنبياء مرشدين ومبشرين ومنذرين ومحرضين علىٰ قول الحق ، وفعل الحق . فالحمد لله ربُّ العالمين ! ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (1) .

هـٰذه الآيات قضاياها جامعة لا مانعة ، فهي جامعة لفترات الرسل ، وفاتحة الأبواب للذين سيأتون من بعدهم ، ولهـٰذا فالقرآن الكريم صالحٌ لكل زمان ومكان ، فالحمد لله ربِّ العالمين ! فالذين من قبلهم من قبل الرسل كانوا في ضلال مبين ، ولمَّا جاؤوهم بالآيات العظام ؛ ليزكوهم ، ويعلموهم الكتاب والحكمة كانت الهداية تسود بين الناس حتىٰ وإن كان من بينهم من لا يؤمن بذلك .

(1) الجمعة 1 ـ 3 .

فإذا عُدنا لنعرف الفارق الكبير بين السمـٰوات والأرض وما بينهما نعرف أنَّ ٱلله وحده يعلم الغيب : ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (1) وقال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾ (2) . فمـن المسلمـات الإيمانية : أنَّ ٱلله المَلِك الحق وحده الذي يعلم علم الغيب ، أمَّا الخليفة فلا علم له بعلم الغيب ، ولـٰكنه يعلم مِنْ علمه تعالىٰ علم المستقبل ، وإلا هل هناك من يظن أنَّ الإنسان لا يعلم علم المستقبل! . فلو لم يعلم علم المستقبل ما حدد أهدافاً لحياته ، وما رسم الخطط من أجل مستقبله ، وما أدخله وليه إلىٰ المدرسة وهو يعرف مسبقاً : أنَّ دخوله للمدرسة يؤهله لحياة أفضل في المستقبل ، ولو لم يعلم المستقبل ما بنىٰ مسكناً له لأجل أن يتزوج ، ولولا معرفته وعلمه بالمستقبل ما وجَّه أبناءه من بعده للتخصصات المتنوعة والمتعددة . وهـٰكذا علىٰ مستوىٰ الدول من لا يخطط للمستقبل لا يعيش حياة أفضل في هـٰذه الحياة الدنيا . ومن لم يعمل علىٰ صناعة المستقبل لن يجد له مكاناً لائقاً له ولأبنائه أو مواطنيه بين سكان القرية الصغيرة .

ولذا جميعنا يعلم : أنَّ غدا الجمعة بما أن اليوم هو يوم الخميس ، وجميعنا بإمكانه أن يعلم بالتحديد ، متىٰ سيكون الخسوف في الأعوام المقبلة ، ويعلم أين يكون بالتحديد ، فهـٰذا علم مكننا العليم الحكيم المَلِك الحق من الاطلاع عليه ومعرفته ، فمثل هـٰذه الأمور لا تُعد من المستحيلات ، وليس بعلم غيب . علم الغيب هو الذي لا نعلمه ، بما أنَّ اليوم الخميس إذاً بطبيعة الحال سيكون غداً الجمعة وبعد غدٍ السبت ، إلا أن في علم الغيب قد

(1) البقرة 33 .
(2) آل عمران 44 .

لا تـأتـي الجمعـة ولا السبـت مـن بعـدهـا إذا أحـدث عـالـم الغيـب أمـراً . وباستقراءاتنا لحركة الرياح والسحب نعلم معرفةً تامة متىٰ سيسقط المطر وأين سيسقط قبل أن يسقط بأيام معدودات ، ومع ذلك إذا أراد عالم الغيب أن يحدث أمراً فلن تأتي الرياح أو يتغير اتجاهها ، أو تقوم الساعة . وما كُنَّا نعتقد : أنه سيأتي بالضرورة ، فلن يأتي بالقوة .

وختاماً سأطرح السؤال الذي طُرح مع إجابته في القرآن الكريم في سورة غافر ، ولم يُطرح بعد في مكانه وزمانه اللذين نعلم : أنهما سيأتيان في المستقبل ، دون أن نعلم متىٰ ، حيث إنَّ أمر (متىٰ علم الساعة) ، و(أمر الساعة) علم غيب . والسؤال هو : ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [1] . سؤال وإجابة ، بالنسبة للمؤمن هـٰذا السؤال سؤاله وهـٰذه الإجابة إجابته ، وبالنسبة لغير المؤمن سيكون أمام هـٰذا السؤال في وقتٍ لن يجد فيه إجابة غير هـٰذه الإجابة الكريمة .

هـٰذا السؤال لن يُطرح وكائن من كان غائباً : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴾ [2] . أين الطغاة والجبابرة ؟ وأين الملوك من الورق ؟ وأين الكفرة وما يملكون ؟ وأين الجيوش والأسلحة النووية ؟ وأين كل من أعطيت له الفرصة الكاملة ولم يستجب ؟ فهل هناك من يستطيع أن يفعل شيئاً ؟ فإن يظن أنه يستطيع ؛ فليرني ، ولأنه لا أحد بإمكانه أن يفعل شيئاً ؛ إذاً ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ بطبيعة الحال لن يكون إلا ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ فالحمد لله ربِّ العالمين !

وعلىٰ الرغم مما تقدَّم من القول فلا بدَّ من التطرق إلىٰ الفرق بين الملك ،

---

(1) غافر 16، 17 .

(2) مريم 93ـ 96.

والملكوت حتىٰ لا يلتبس الأمر علىٰ القارئ الكريم وإن كان من المسلم به : أن ٱلله تعالىٰ هو مالكهما جميعاً ، إلا أن المُلْك مختص بالعالم المادي ، والمسيطر عليه ، وعلىٰ من سيطر علىٰ جزء منه ، سواء أكان هـٰذا الجزء هو من الوهاب بسبب طاعته للملك المطلق ، فكان هـٰذا المسيطر ، أو المالك هو المالك بالإضافة ، فهو الخليفة الذي اختاره ٱلله تعالىٰ لهـٰذا الملك ، أو المالك عنوة بقهر خلق ٱلله ، وأخذ ما بأيديهم دون رضاهم ، لذلك قال تعالىٰ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) فهـٰذا تنزيه عما لا يليق بجلاله ، وكل ما في السمـٰوات وما في الأرض له ملكه التام المطلق ، وله الثناء الجميل ، وهو أيضا تام القدرة علىٰ كل شيء . وإضافة إلىٰ ذلك فإن مسألة التسبيح في مستهل الآية أعطت الدلالة المطلقة علىٰ مُلك المُلك ، والملكوت من الروحانيات ومن الجسمانيات ، أي ينزهه سبحانه جميع ما في السمـٰوات وما في الأرض من المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه تنزيهاً مستمراً ، وهـٰذا لا يكون إلا للملك الذي يملك الأرواح ، والأبدان ، والأجسام ، والأعيان .

والتسبيح نوعان : إما تسبيح إشارة ، وهو الذي يعطي الدلالة العامة علىٰ كل ما هو حي ، أو جماد بأنه مُلك لله تعالىٰ ، أو تسبيح عبارة وهو باللسان والجنان من اللفظ واليقين ، ومن هنا كان له الملك الدائم الذي لا يزول ، وهو كمال القدرة ونفاذ الأمر ، لذلك وجب حمد الحامدين له وهو الثناء بذكر الأوصاف الجميلة والأفعال الجزيلة ، فله الملك ، وله الحمد لا لغيره ، إذ إنه هو المبديء لكل شيء ، وهو القائم به والمهيمن عليه والمتصرف فيه كيف يشاء ، وهو المُولي لأصول النعم وفروعها ، ولولا أنه أنعم بها علىٰ عباده ؛ لما قدر أحد علىٰ أدنىٰ شيء منها ، لذلك فهو الملك جل جلاله . فالخلق

---

(1) التغابن 1 .

يحمدونه علىٰ نعمه ، وله الحمد فىٰ الأولىٰ والآخرة ، وأما ملك غيره فاسترعاء من الملك جل جلاله ، وهو تسليط وتسخير منه لمن يجب أن يكون خليفة ، فحمد غيره اعتداد بأن نعمة ٱلله جرت علىٰ يديه من المَلك المالك ، فللخلق ملك وحمد ، ولـٰكن من حيث الصورة لا من حيث الحقيقة بما استخلف ٱلله في هـٰذه الأرض من خلفاء .

وأما الملكوت فمختص بعالم النفوس ، والأرواح بالإضافة إلىٰ المُلك المادي ، وعلىٰ هـٰذا فالمُلك جزء من الملكوت الذي هو أعظم من الملك مادياً ، وأفخم منه لفظياً ، ومعنوياً ، فالملكوت علىٰ هـٰذا مبالغة في الملك ، وهو الملك التام المطلق للموجودات . وفيه إيماء إلىٰ أن كونه تعالىٰ مالكاً للملك كله فهو قادرٌ علىٰ كل شيء . والملكوت أيضا يضم علم الأمر الواقع المشاهد ، وكذلك الغيب الخفي الذي اطَّلع عليه بعض خلق ٱلله بأمر ٱلله كالملائكة الذين يعلمون ما لا يعلمه بقية الخلق من الجن والإنس بما أعلمهم ٱلله به ، أو الغيب المطلق الذي هو واقع في العلم ولم يقع في الواقع فاختص به سبحانه وتعالىٰ لنفسه مثل قوله تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [1] فتخصيصه بالذكر هو لاختصاص التصرف به من ٱلله تعالىٰ دون واسطة ، بخلاف علم الشهادة الذي هو من اختصاص الملك المطلق الذي يعلِّم بعضه للملك بالإضافة ، وبعضه لا يعلمه ، فالخليفة يعلم بعد أن تحمل الأنثىٰ بما امتلك من وسائل مادية هل هي حامل بذكر ، أو أنثىٰ ، أو توأم ، فهـٰذا من علم المشاهدة بالملك ، وهو من الصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق ، وأما أن هـٰذه الطفلة أنها ستكون امرأة كاملة ، وتنطبق عليها مواصفات الأنثىٰ التي سوف تحمل ، وتلد ، وتنجب ذكوراً ، وإناثاً ، أو إناثاً دون الذكور ، أو ذكوراً دون

(1) الرعد8.

الإناث ، أو أنها ستصبح امرأة كاملة الاستعداد للإنجاب ، أو أنها ستكون عقيماً ، أو أنها لن تعيش أصلاً لأن تصل إلىٰ هـٰذه المرحلة ، فهـٰذا يدخل في باب الملكوت ؛ لأنه ليس من ملك المشاهدة ، وإنما هو من ملك الغيب الخاضع للملكوت ، ولدفع لبس المتوهم (بما تحمل كل أنثىٰ الآن) أي خروج فعل الحمل إلىٰ الواقع بقوله : تحمل ، باستخدام الفعل المضارع هي تحمل الآن ، وأنا أشاهد هـٰذا الحمل ، فأقول : ما ينبغي لهـٰذا أن يكون هـٰكذا ، بدليل قوله تعالىٰ علىٰ لسان نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (1) فاستخدم الفعل المضارع علىٰ اعتبار ما سيكون مستقبلاً ، أي : إنك إن تذرهم أحياء ؛ فلن يلدوا مستقبلاً إلا من سيكون فاجراً كافراً ، وهـٰذا معنىٰ ﴿ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ ، فهو يعلمها قبل أن تحمل ، وتغيض ، وتزداد ، لذلك دخل في علم الملكوت الذي يملكه الملك المطلق جل جلاله ، لذلك جاءت الآية التالية توكيداً للتصرف في الأمرين معاً بقوله تعالىٰ : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ (2) فهو الذي يعلم ما يغيب عن حسِّنا ، ويعلم ما نشاهده علماً مطلقاً ، لا كما نشاهده نسبياً ، فالذي نشاهده هو أعظم مما نشاهد وأعظم مما نرىٰ ، فهو سبحانه العظيم الشأن الذي يعلم كل ما في وجود ملكه ، وكذلك يعلم كل ما نطلق عليه اسم الغيب ، وهو ما غاب عن الحسِّ فيدخل فيه المعلومات ، والأسرار الخفية في الآخرة ، والأولىٰ .

ومن جهة أخرىٰ فإسناد علم الغيب إلىٰ ٱلله تعالىٰ إنما هو بالنسبة إلينا نحن المخلوقين ؛ إذ لا غيب بالنسبة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، حيث يستحيل علىٰ

---

(1) نوح 26 ـ 27 .

(2) الرعد 9 .

الملك الخالق أن يغيب عنه شيء من خلقه في ملكه ، وأما بالنسبة للشهادة فهو ما حضر للحسِّ من إدراك الجوارح ، فيدخل في ذلك الموجودات المدركة والعلانية الظاهرة ، ولعظم ملك الملك جل جلاله فقد جمع علم الغيب والشهادة بالنسبة للمخلوقين ، وذلك لعظم شأنه الذي لا يخرج عن علمه شيء بما استعلىٰ علىٰ كل شيء بقدرته ، وإحاطة علمه بالموجودات بما غاب عن حسِّنا وما حضر ؛ لأنه متعالٍ في صفاته متفرد في قدرته ، ومن هنا تتضح صفة الملك المطلق الذي يعلم الغيب والشهادة ، ويتصف بالكبرياء الذي هو كمال الذات الإلـٰهية الذي يعود إلىٰ كمال الوجود ، وكمال الوجود يدل عليه أمران :

أولهما : أنه دائم أزلاً وأبداً ، لأن كل موجود حُدّ بجانبين فهو مقطوع ، وكل مقطوع فهو ناقص ، وكل ناقص في الذات فهو بالضرورة ناقص في الملك ، وهـٰذا محال علىٰ ٱلله تعالىٰ ، فكمال الوجود هو كمال الملك ؛ فٱلله تعالىٰ هو الملك ؛ لأنه الدائم ، والدائم الأزلي الأبدي الذي يستحيل عليه الزوال أو العدم فهو الملك المطلق .

وثانيهما : أن وجوده هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كل موجود ، فان كان الذي تم وجوده في نفسه كاملاً بما أوجد من موجودات ملكه فهو الملك جل جلاله ، وعلىٰ هـٰذا فٱلله تعالىٰ هو الملك الحق المبين ، وإن كان هناك ملوكٌ من ملوك الأرض فهم داخلون في خلق ٱلله وعبوديته شاؤوا أم أبوا ، لأن نواصي الخلق بيديه ، يصرفها كيف يشاء ، ولأن الملوك من الخلق ، فالملك الحق آخذ بناصيتهم لا محالة ، وعلىٰ هـٰذا فهم خاضعون لقانون العدل الإلـٰهي ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [1] فأرفع الناس منزلةً

---

(1) الحجرات 13 .

عند ٱلله في الدنيا والآخرة أتقاهم له ، فهـٰذا مقياس الكرامة في عدالة الملك الحق وإن كان يملك العفو ، و يملك الأشياء جميعاً ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، بيده الملك والملكوت ، وهو الذي بيده مقاليد السمـٰوات والأرض ، وبيده خزائن كل شيء : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [1] وما من شيء من الخير إلا عند الملك الحق خزائنه المملوءة ، من حيث تهيئته ، وتقديمه فىٰ وقته ، وما ينزله للعباد إلا بقدر معلوم حددته حكمته فىٰ الكون ، فما من شيء من الأشياء الممكنة في تقدير الإنسان والملوك من بني الإنسان إلا وعند ٱلله خزائنه . وهو تقريب لما يخزنه الملوك ، وما يحفظون فيه نفائس الأموال ، وهو تحدٍ لما عرف ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس ، ولـٰكن هـٰذه الخزائن التي هي في مقدوراته تعالىٰ إنما متعلقة بالإرادة في كونها مستورةً عن علوم العالمين ، ومصونةً من وصول أيديهم إليها مع كمال افتقارهم لها ، ورغبتهم فيها ، وكونها مهيأة متأتية لإيجادها وتكوينها ؛ بحيث متىٰ تعلقت المشيئة بوجودها وجدت بلا تأخير ، وهـٰذا ما يفسره لنا قوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [2] وهو نوع من التحدي لمن سمىٰ نفسه ملكاً ؛ إذ يحتاج هـٰذا الملك ، أو ذاك إلىٰ العساكر ، والجنود ، والخزائن المحكمة لحفظ هـٰذا الأموال والأرزاق خوفاً عليها وصوناً لها من الطامعين علىٰ الرغم من كونهم ملوكاً ، ولـٰكن الملك الحق لا يخاف ، ولا يخشىٰ ، ولا يضل ، ولا ينسىٰ ، حتىٰ إنه يرزق الجاحد والفاسق والكافر ؛ لأنه الملك ، والبشر خلقه وعباده وهو ملكهم ومليكهم ، فالعباد هم المحتاجون إلىٰ ٱلله ، وشأن ٱلله أعظم من أن يمنع عباده من الرزق كما يفعل ملوك الأرض ؛ إذ

---

(1) الحجر 21.

(2) الأعراف 188.

المخلوق حقير وضيع بالنسبة إلىٰ الملك الحق المبين جل جلاله .

ومن ناحية أخرىٰ : فإن الملك المطلق يملك أصول الأموال ، والأرزاق ، أما الملك بالإضافة ؛ فهو يملك فروعاً من تلك الأصول ، حيث إن الملك المطلق يملك أسباب الرزق ومسبباته ووسائله ، من إنزال الماء ، وهو المطر ، وبث الحياة في الكائنات الحية التي تكون أسباباً لرزق الإنسان والحيوان والطير والنبات ، أما الملك بالإضافة فيملك وسائل مسخرة له بعد أن تأذن بها مشيئة الملك المطلق ، ولهٰذا فهو السبب للأرزاق ، ولمعايش بني آدم ، وغيرهم من الطيور والوحوش ، فلما ذكر تعالىٰ أنه يعطيهم المعايش بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعايش عنده ، أي في أمره وحكمه وتدبيره .

فإذا كان الملك بالإضافة يهدي إلىٰ طرق المُلك ووسائله ، وملوك الأرض وسلاطينها تهب وتمنع وتعطي وتقمع ، فنحن نعمد إلىٰ ذكر ما بسببه يعطون ويهبون ويملكون ، ألا وهو الماء دون غيره مما يهبه الملك المطلق جل شأنه ؛ لأنه أصل العطايا والهبات والأرزاق ، بل هو أصل الحياة حيث قال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1] فالملك المطلق جل جلاله ، جعل كل شيء حيٍّ من الماء ، وربط أصل عطاء الملوك بهٰذا الماء ؛ إذ لولاه لما يستطيع أحد أن يعطي ، أو يأخذ ، أو يمنح ، فالملك المطلق هو الذي بيده ملكوت كل شيء .

وهٰذا أيضاً دليل إذعان الخلق لملكه ؛ لأنه يتحكم بمقادير أرزاق خلقه وأقواتهم ، أي بأسباب حياتهم لكونه الملك لقوله : ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ حسب حاجة الخلق ووفق مشيئة الخالق في التقدير لما يعلم ما خفي عنا نحن المخلوقين ، وهو تحكم بدليل علم المعرفة لقدر الحاجة ، لا علىٰ سبيل الإفراط والفوضىٰ ، ولا علىٰ قدر الطاعة والمعصية ، وإنما علىٰ سبيل

(1) الأنبياء 30 .

التوازن والتنظيم ، وحق الخلق علىٰ الخالق بتأمين أسباب الحياة ، فمن قصر في واجباته اتجاه الخالق فأمره إلىٰ ٱلله في الآخرة ، ولأن الملك جل جلاله ملكه ملك عدل ، فقد ساوىٰ بين خلقه في الحياة الدنيا عبادهم وعبيدهم بأسباب الحياة ، وعلىٰ هـٰذا دخل فيه الجزئي والكلي ؛ إذ إن الخلق كلهم عبيد له ، وجزء منهم ، هم عباده كما قال تعالىٰ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ (1) فهـٰؤلاء عباد للملك داخلون ضمن عبيده ولـٰكن لهم خاصية التميز بأنهم أدوا ما عليهم من واجب للملك الحق في الحياة الدنيا ، فميزهم في الآخرة بهـٰذه السمة عن بقية العبيد وإن كانوا من ضمنهم لقوله تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ (2) وهـٰذا دليل قاطع علىٰ أن كل من في السمـٰوات والأرض إلا سيأتي ٱلله سبحانه يوم القيامة عبداً خاضعاً لألوهيته وخاضعاً لملكه ، ولكونه الملك الحق المبين فقد أحاط علمه بهم جميعا وبأعمالهم ، فلا يخفىٰ عليه أحدٌ منهم ولا شيءٌ من أعمالهم ، ولكونه الملك الخالق ، فإذاً لا يستحق العبادة إلا ٱلله الذي له ملك السمـٰوات والأرض ، لأن الإنسان يتقرب إلىٰ الإلـٰه الذي يجلب له النفع ، ويدفع عنه الضر ، ويصرف عنه الشر والفتن ، وهـٰذه الأمور لا يستطيعها إلا من ملك السمـٰوات والأرض وما بينهما ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (3) وهـٰذه دعوة تحدٍّ من الملك الحق لما يزعمه الذين ادَّعوا باطلاً : أن لله شركاء يجلبون لهم نفعاً أو يدفعون عنهم ضراً ، وهـٰذا منافٍ لمنطق الأشياء في فهم مسألة المُلك المطلق للملك الحق ؛ إذ أن المُلك المطلق للملك الحق المبين

(1) الفرقان 63.
(2) مريم 93ـ94.
(3) سبأ 22.

إضافة لملكه الأشياء المادية فهو أيضاً ملك إرادة ومشيئة وتقدير بعلم مسبق ، فالذين يدعون شركة ٱلله تعالىٰ في ملكه لا يجيبون من يدعوهم ؛ لأنهم لا يملكون مقدار ذرة في السمـٰوات ولا في الأرض ، فليس لله شريك في خلقٍ ، أو ملك ، وليس لله من يُعينه علىٰ تدبير شؤون خلقه .

ولأنه سبحانه هو الملك الحق المبين ، والملك هو الذي يأمر وينهىٰ ويثيب ويعاقب ، ويهين ويكرم ، ويعز ويذل ، فاقتضىٰ ملكه وحكمته سبحانه أن أنزل آدم وذريته إلىٰ دار تجري عليهم فيها أحكام الملك ، ثم ينقلهم إلىٰ دار يتمّ فيها جزاؤهم علىٰ أعمالهم كونه مليكهم ، ولما كان مطلق الملك ، للملك الحق وحده ، كان أقبح اسم عند ٱلله وأبغضه إليه اسم ملك الملوك ، وسلطان السلاطين ، فإن ذلك ليس لأحد غير ٱلله عز وجل ، فتسمية غيره بهـٰذا باطل ؛ وٱلله لا يحب الباطل ؛ لأنه تكبر وتجبر ، فالملك المطلق لطيف رزاق غفور رحيم ، حيث قال رسول ٱلله ﷺ : « ينزل ٱلله إلىٰ السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول ، فيقول : أنا الملك ، أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟ من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ؟ فلا يزال كذلك حتىٰ يضيء الفجر » (1) وهو دليل الحق علىٰ عدم حاجته لأحد من خلقه ، وعلىٰ امتداد وقت الرحمة واللطف التام إلىٰ طلوع الفجر ، فالملوك لا يعطون ويمنحون إلا أصحاب الحظوة لديهم ، والمقربين منهم بالتوسُّل ، والطلب ، إلا أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الذي يعرض علىٰ خلقه من العباد المنحة والعطاء والرحمة والمغفرة دون حراس ولا حجّاب ، ولا أسوار ولا أبواب ، ودون مناسبة ولا وقت محدود .

ومن لطف ٱلله الملك المطلق في خلقه وعباده أن عطاءه وعفوه ومغفرته لم يقترن بوقت مخصوص لأناس مخصوصين في أيام خاصة ، كما هو حال

(1) صحيح مسلم، ج 4، ص 139 .

ملوك الأرض ، وإنما كان طلب الحاجة من الرزق والعفو والغفران بطريقة الدعاء والاستغفار في جميع الوقت المذكور إلىٰ إضاءة الفجر ، ولـٰكن جاء التخصيص لجميع الخلق علىٰ أن آخر الليل للصلاة والدعاء والاستغفار وطلب الحاجات وغيرها من الطاعات أفضل من أوله علىٰ العموم .

أما تجلي الملك جل جلاله يوم القيامة لخلقه فهو انتزاع كل ملك من أي مالك ؛ حيث قال رسول ٱلله ﷺ : « يطوي ٱلله عز وجل السمـٰوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنىٰ ، ثم يقول أنا الملك ! أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ، ثم يطوي الأرضين بشماله ، ثم يقول أنا الملك ! أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ » [1] فهو يومئذٍ الملك ـ وهو الملك أزلاً وأبداً ـ ولـٰكن في يوم القيامة فكل ملك منزوع عن ملكه ، إلا ملك السمـٰوات والأرض الواحد القهار ، الملك يومئذٍ هو المالك وهو الخاص المُلك ، ومعناه في حق ٱلله تعالىٰ : أنه القادر علىٰ الإيجاد ، وهي صفة يستحقها لذاته ، والملك المتصف بالأمر والنهي ، وذلك يختص بالناطقين ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [2] ولم يقل رب الأشياء وملكها وإلـٰهها . وربَّ سائل يسأل : لماذا قال تعالىٰ : ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [3] فتقديره الملك في يوم الدين لله تعالىٰ وهو الملك ، وذلك لقوله تعالىٰ : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [4] وأما أنه خص الناس بالذكر دون المخلوقات الأخرىٰ في قوله تعالىٰ : ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ ؛ لأن المخلوقات جماد ، ونامٍ ، والنامي صامت ، وناطق ، والناطق متكلم ، وغير متكلم ، فأشرف جميع المتكلمين هم ثلاثة : الإنس ، والجن ، والملائكة ،

(1) صحيح مسلم، ج 13، ص 373 .
(2) الناس 1ـ 3 .
(3) الفاتحة 4 .
(4) غافر 16 .

وكل من عداهم جائز دخوله تحت قبضتهم ، وتصرفهم ، وإذا كان المراد بالناس في الآية هم المتكلمون فما ملكوه هو بالضرورة في ملك من ملكهم كما قال رسول ٱلله ﷺ حين جاءه رجل يشكو أباه في مالٍ نازعه إياه ، فقال : يا رسول ٱلله ! إن لي مالاً ، ولأبي مال . قال : « أنت ومالك لأبيك » (1) فأنت تملك المال وأبوك يملكك ، فبالضرورة أبوك يملك مالك ، وبما أن أبوك داخل في ملك ٱلله الملك المطلق ، فأنت ومالك وأبوك مُلكٌ لله ، فكان ملك الناس في حكم ما لو قال هو ملكهم وملك كل شيء ملكوه ، ولهـٰذا كانت الآية التي قبلها رب الناس ؛ لأن : « الرب هو ٱلله عز وجل ، وهو رب كل شيء ؛ أي : مالكه ، له الربوبية علىٰ جميع الخلق لا شريك له ، وهو رب الأرباب ، ومالك الملوك والأملاك ، والرب يطلق في اللغة علىٰ المالك ، والسيد ، والمدبر ، والمربي ، والمتمم » (2) ، وملك الناس هو مالكهم ملكاً تاماً حاكمين أو محكومين ؛ لأنه هو خالقهم ومربيهم ، ولأن تربيته تعالىٰ إياهم ليست بطريق تربية سائر الملوك لما تحت أيديهم من مماليكهم ، بل بطريق الملك الكامل ، والتصرف الشامل ، والسلطان القاهر ، أي : إنه مطلق التصرف ، وأنه يملك من جميع الوجوه ، فلا تقاس ملكية غيره عليه ، ولا تضاف النعوت والأسماء إليه إلا من حيث أكمل الوجوه وأتمها من ناحية الربوبية ، والملك ، والأُلوهية .

و ﴿ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ هو لبيان أن ملكه تعالىٰ ليس بمجرد الاستيلاء عليهم ، والقيام بتدبير أمور سياستهم ، والتولي لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم ، كما هو قصارىٰ جهد الملوك ، بل هو بطريق المعبودية المؤسسة علىٰ الأُلوهية المقتضية للقدرة التامة علىٰ التصرف الكلي فيهم إحياءً ، وإماتةً ،

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة ، ج 8 ، ص 390 .
(2) تاج العروس ، ج 1 ، ص 305 .

وإيجاداً ، ورزقاً ، وعناية ، وهدياً إلىٰ أن يفضي ذلك إلىٰ الحساب .

و ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ من حيث الأُلوهية هو إشارة إلىٰ حال القدرة علىٰ الإماتة مثل ما أوجد الخلق ، والقدرة علىٰ البعث والنشور وصولاً إلىٰ الحساب أمام الملك الحق المبين . وأما من جهة أخرىٰ فقوله تعالىٰ : ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ « داخل في معنىٰ التحيات لله ؛ أي : الملك لله ، وكأنه ﷺ أمرهم بأن يقولوا التحيات لله امتثالاً لأمر ربه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ . ووصفه بأنه ملك الناس يحتمل وجهين ، أحدهما : أن يكون بمعنىٰ القدرة ، فيكون صفة ذات ، أو أن يكون بمعنىٰ القهر ، والصرف عما يريدون ، فيكون صفة فعل »[1] .

ومن العجائب : أن سورة الناس هي آخر سورة في القرآن الكريم ، بمعنىٰ : أنه ينتهي كل شيء ، ويبقىٰ رب الناس وملك الناس وإلـٰه الناس الذي يعود إليه الأمر كله كما بدأه جل جلاله . وكأنما هي هـٰذه الخاتمة بحيث لم يبقَ إلا الرب الملك الإلـٰه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾[2] .

ولأن ٱلله تعالىٰ هو الملك المطلق ـ جل شأنه ـ ، خلق الخلق ، وأمرهم بالعبادة والطاعة وصولاً إلىٰ مرضاته عز وجل ، فكان لا بدَّ من واسطة تبلغ الخلق ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، فكان الملك المطلق أن اختار رسلاً يبلغون رسالات الملك الحق المبين ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3] غير أن هـٰذا الرسول هو الخليفة الذي استخلفه ٱلله

---

(1) فتح الباري ، ج 20 ، ص 452 .

(2) الأنبياء 104 .

(3) الجمعة 2 .

تعالىٰ في أرضه ، ورسالة الملك المطلق إلىٰ الملك بالإضافة تختلف عن رسائل الملوك التي تحمل كتبها ، وتؤديها إلىٰ أصحابها ، وتوضح لهم ما هو مطلوب منهم علىٰ وجه الجبايات ، وجمع الضرائب ، واستحواذ الأملاك ، وما إلىٰ ذلك مما تطلبه الملوك من ولاتها ووكلائها في أرض ممالكهم من أشياء مادية وعينية من أموال وأرزاق وتجييش الجيوش وتسخير العمال والصناع والزراع حفظاً علىٰ ممالكهم وصوناً لها ، إلا أن رسائل الملك المطلق إلىٰ خلفائه تختلف كل الاختلاف عن رسائل ملوك الأرض ، فهي تحمل الهداية والتقوىٰ والنصيحة والإرشاد خوفاً عليهم ورحمة بهم ، فهو لم يطلب منهم إلا ما فيه خيرهم وصلاحهم من خلال هـٰذه الرسائل التي يتلوها عليهم كي تزكيهم وتعلمهم الحكمة التي تخرجهم من ظلمات الضلال إلىٰ نور الهدىٰ والإيمان ، وقد تكفل لهم بأسباب حياتهم ومعايشهم وأرزاقهم ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (1) فٱلله تعالىٰ هو الملك الخلاق ، فما خلق الجن ، والإنس إلا لشيء يعود عليهم بالنفع ، ألا وهي العبادة ، والعبادة نفع لهم ، وما يريد منهم من رزق لأنه غني عن العالمين ، وما يريد أن يطعموه لأنه تعالىٰ يُطْعِم ولا يطْعَم ، فالملك وحده هو المتكفل برزق عباده ، وهو ذو القوة الشديد الذي لا يعجز عن شيء ، وإنما رسله تبلغ خلقه ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة .

فالإرسال من ٱلله إنما أرسلهم لكونه ملكاً إلىٰ النفوس الناطقة من عباده لكون هـٰذه النفوس ملوكاً مدبرين ما يملكون من هياكلهم الأبدان ورعايا الجوارح الظاهرة وقواهم الباطنة ، فما تجيء رسالة من الملك إلا بلسان من أرسل إليهم . قال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ

(1) الذاريات 56 ـ 58 .

فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [1] وما أرسل الملك الحق رسولاً إلا متكلماً بلغة قومه الذين بعثه فيهم ؛ ليفهمهم ما أتىٰ به ، فيفقهوه عنه ، ويدركوه بسهولة ، وليس علىٰ رسول الملك الحق هدايتهم ، فٱلله يضل من يشاء لعدم استعداده لطلب الحق ، ويهدي من يشاء لحسن استعداده له ، وهو الملك القوي الذي لا يُغلب علىٰ مشيئته ، والذي يضع الأمور فىٰ مواضعها ، فلا يهدي ولا يضل إلا لحكمة . فيبعث ٱلله رسله إلىٰ هٰذه النفوس الناطقة ، وهي التي تنفِّذ في الجوارح ما تنفِّذ من طاعة ومخالفة كونها مملوكة لها ، ولهٰذا فلها قبول الرسالة والإقبال علىٰ الرسول أو الإعراض ، وقد يكون الرد بحسب ما أعطاها ٱلله من الاستعداد من توفيق أو خذلان ، فجعل النفوس ملوكا علىٰ أبدانها ، وآتاها ما لم يؤت أحداً من العالمين ، وهو طاعة رعاياها لها ، فالجوارح والقوىٰ لا تعصي لها أمراً بوجه من الوجوه ؛ لأنها متصلة بها ، وسائر الملوك الذين رعاياهم غير متصلين بهم قد يعصون أوامر ملوكهم ، كما أن من هٰؤلاء الملوك قد يعصون ما أمرهم به الملك الحق سبحانه وتعالىٰ علىٰ لسان رسوله إليهم وقد يطيع ، فتوجيه الرسل وبعث ٱلله إليهم أثبت لهم كونهم ملوكاً ، فلما أنزلهم منزلته في الملك ؛ علمنا أنه لولا وجود مناسبة تقتضيه ما كان هٰذا ، فإذاً المناسبة في أصل الخلقة وهي قوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [2] فهو ولاَّه ، وملَّكه ، وجعله خليفة ، فمنهم من خرج عليه كفرعون وأمثاله ، ومنهم من لم يخرج عليه ، فما كانت الرسل إلا إلىٰ ولاته ، ثم إن هٰؤلاء الملوك من النواب وجهوا أيضا منهم إليه تعالىٰ رسلهم يطلبون منه ما يؤيدهم به في تدبير ما ولاَّهم ، فأرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين ومرشدين ، فصار المَلك مُلك المَلك المطلق لهٰذا السبب ، فهو الذي خلقهم ، وإليه مرجعهم ، لذلك

---

(1) إبراهيم 4 .

(2) الحجر 29 .

حباهم بالرحمة عن طريق الرسل ؛ ليبينوا لهم : ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (1) فالذي كفر فقد خرج علىٰ الملك الحق المطلق ، كما يخرج الولد من أبناء ملوك الأرض علىٰ والده ، إذا ملكه يسعىٰ في هلاكه مع إحسانه إليه وبايع علىٰ قتله لينفرد هو بالملك ، ولـٰكن ملوك الأرض العصاة لا يستطيعون أن يخرجوا عن قبضة الملك الحق المطلق ، فيقعون في دائرة الملكوت ، فيكون الملك لله الواحد القهار .

وملوك الأرض نوعان :

نوع استولىٰ علىٰ الملك بالقوة والبطش والجبروت يسوم الناس سوء العذاب ، مثل فرعون ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (2) فهـٰذا النوع من الملوك لا يمكن أن يكون خليفةً ، ولا يصلح لهـٰذا الأمر من قريب أو بعيد ، حيث طغىٰ وتجبر وتجاوز حدَّه في حق الملك المطلق وادعاء الأُلوهية ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (3) فعندما عجز هـٰذا الملك الذي هو فرعون عن محاجة موسىٰ ؛ تمادىٰ في طغيانه بادعائه الأُلوهية ، حيث خاطب قومه بأنه ليس له علم بوجود إلـٰه لهم غيره ، ولذلك أمر وزيره هامان أن يصنع له

---

(1) البقرة 253 .

(2) البقرة 49 .

(3) القصص 38 .

برجاً ، ويُشيد له صرحاً شامخاً عالياً ليصعد عليه ، وينظر إلىٰ الإلـٰه الذي يدعو إليه موسىٰ ، عليه الصلاة والسلام ، فمُلك القوة دائماً يقوم علىٰ الظلم ، والبطش ، والاضطهاد .

النوع الثاني عادل : وهو علىٰ عكس الملك السابق فهـٰذا النوع أساسه العدل والرحمة ونصرة الحق ، وأعلىٰ مراتب ملوك الأرض هم الخلفاء الذين يختارهم ٱلله تعالىٰ لا علىٰ أساس ما يملكون من متاع الدنيا ، وإنما لما يحملون من العلم والحلم والحكمة والعدل ، لذلك كان تملك الملك علىٰ الخلق حاجة ضرورية لبني البشر من أجل سياسة أمورهم وتدبير شؤونهم بما يصلح أحوالهم بجلب المنافع بإعمار الأرض ودفع الأضرار بمقاتلة العدو كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [1] وهـٰذا يعني : أن الملك الذي يتملَّك علىٰ القوم هو حاجة اجتماعية ؛ لأنه يجمع شملهم ويوحد كلمتهم ، وهم يصدرون عن رأيه في أمورهم بالإضافة إلىٰ أنه يكون بالنسبة لهم رمزاً يلتفون حوله في النوائب والمعضلات ، ولذلك فإن هـٰؤلاء طلبوا من نبيهم في ذلك الوقت أن يجعل عليهم حاكماً يتملك عليهم و يجمع شملهم بعد تفرق ، ويقودهم تحت لوائه إعلاء لكلمة ٱلله ، واسترداداً لعزتهم ، فمن أجل ذلك أجابهم نبيهم إلىٰ ما طلبوا وفق اختيار الملك المطلق ، وليس وفق ما يشتهون ؛ إذ إنَّ صفات الملك بالإضافة هي أساساً مستمدة من صفات الملك المطلق بصرف النظر عن رضا البعض وعدم رضا البعض الآخر كما اعترض بنو إسرائيل علىٰ الصفات

(1) البقرة 246 .

التي يحملها الملك بالإضافة ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1] . إن ٱلله استجاب دعاءهم ، فاختار لهم خليفة وملكاً يكون حاكماً عليهم ، وآمراً فيهم ، تنتظم به كلمتهم ويجتمع به أمرهم ويستقيم حالهم رغم اعتراض كبرائهم علىٰ اختيار ٱلله قائلين : كيف يكون ملكاً علينا ونحن أولىٰ منه بالملك ؛ لأنه ليس بذي نسب ولا مال ؟ ! لـٰكن اختيار ٱلله ملكاً لهم ليس وفق ما تشتهي أنفسهم ، وإنما اختاره ٱلله حاكماً عليهم لتوافر صفات الخليفة ، والقيادة في شخص الخليفة ، وهي سعة الخبرة بشؤون الحرب ، وسياسة الحكم مع قوة الجسم والحكمة ، والملك بيد ٱلله يعطيه من يشاء من عباده ولا يعتمد علىٰ وراثةٍ ، أو مال ، وفضل ٱلله وعلمه شامل ، يختار ما فيه مصالح عباده .

فالملك بالإضافة يكون وفق مشيئة الملك المطلق ، فهو الذي يختاره ويمنحه من الملك ما تقتضيه الحكمة الإلـٰهية لمصلحة الإنسان ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [2] ونحن هنا نرىٰ : أن الملك العظيم بعد الكتاب والحكمة الذي آتاه ٱلله تعالىٰ لإبراهيم وآله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ هي النبوة التي كانوا بها خلفاء ٱلله بأرضه ، وهم أدلاء لخلفائه عليهم ، بمعنىٰ : أنهم هم الملوك بالإضافة الذين يتصفون بصفات الملك المطلق ، وينقلون هـٰذه الصفات للآخرين ؛ كي يكونوا خلفاء ٱلله في أرضه ، لذلك

---

(1) البقرة 247 .
(2) النساء 54 .

فإن ٱلله تعالىٰ هو أعلم بمن يكون أهلاً لهـٰذا المُلك .

وكذلك مقدار ما يمنح الملك المطلق للملك بالإضافة وفق ما تقتضيه حكمته ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (1) ففي هـٰذه الآية الكريمة نرىٰ الخليفة يطلب من الملك المطلق أن يخوله الملك ليكون مَلكاً بالإضافة ، وهـٰذا المُلك الممنوح للخليفة وهو نبي ٱلله سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ من المَلك الوهاب قد تعدىٰ في سلطانه وبسط نفوذه ما لم يملكه أحد من خلق ٱلله بعده ، إضافة إلىٰ تخويله في التصرف في هـٰذا المُلك ، وذلك لأن الخليفة بعلم ٱلله تعالىٰ قد وصل إلىٰ درجة اليقين الذي هو الإخلاص التام والتسليم بالقدرة والمشيئة دون مراودة شك في أن ٱلله تعالىٰ يفعل ما يريد متىٰ يريد ، وعلىٰ هـٰذا فالخليفة صاحب يقين متىٰ توجه إلىٰ الملك المطلق فيما تمنىٰ كان له ذلك حقيقاً بإذن ٱلله تعالىٰ ، فقد جاء في الحديث الصحيح : أن رجلاً مصاباً مُرَّ به علىٰ ابن مسعود ، فقرأ في أذنه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ حتىٰ ختم السورة فبرئ ، فقال رسول ٱلله ﷺ : بماذا قرأت في أذنه ؟ فأخبره ، فقال رسول ٱلله ﷺ : « والذي نفسي بيده لو أن رجلا موقنا قرأها علىٰ جبل لزال ! » (2) ذلك : أن اليقين هو الإيمان كله ، فلا يستطاع العمل إلا باليقين ، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ، ولا يقصر عامل إلا بمقدار ما ينقص من يقينه ، والهبة لا تطلب إلا من الملوك ، وملك الملوك هو خالق الخلق ،

---

(1) ص 35 ـ 39 .
(2) تفسير ابن أبي حاتم، ج 43، ص 474 .

فلذلك قال : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ فكانت الهبة من العظمة في المُلك بحيث لا تمنح إلا لمن يعرف حقها ويوجهها فيما أراده الملك المطلق من الخير ، فلذلك كان التفويض الإلـٰهي بحرية التصرف للخليفة في هـٰذا المُلك الموهوب ﴿ فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فلما علم ٱلله تعالىٰ وهو العليم : أن الخليفة سيتصرف في هـٰذا المُلك علىٰ الوجه الذي يرضي المَلك المطلق بما أنعم عليه من عطائه وتمليكه ملكاً ما ينبغي لأحد من بعده ؛ فقد فوضه بإعطاء من يشاء وحرمان من يشاء ، ولا حساب عليه لا في المنع ولا في الإعطاء ؛ لأن المنع والإعطاء من الخليفة كلاهما من أجل إعمار الأرض ، وإصلاح الخلق .

اللهمَّ يا الملك يا رب العرش العظيم نسألك الفردوس الأعلىٰ من الجنة مع الأنبياء والصّدّيقين والشهداء والصالحين ، وحَسُن أولـٰئك رفيقا يا رب العالمين ، لنا ولوالدينا وذرياتنا وللمؤمنين والمسلمين ! اللهمَّ ملك السمـٰوات والأرض ومليكهما نسألك بملكك الكبير واسمك العظيم وسلطانك القدير ، وأنت المجير ، أن تجيرنا من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، وأن تظلنا بظلك يوم النشور ! اللهمَّ يا الملك يا الوهاب يا الغفور يا التواب ، ويا رب الأرباب ، نسألك أن تجعل بيننا وبين النار حجاباً ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ! اللهمَّ إنا نعوذ بسلطانك ، ونلوذ بإحسانك ، فلا إحسان إلا وأنت جابره ، ولا سلطان إلا وأنت قاهره ، ولا جبار إلا وأنت داحره ، عنت الوجوه لعزتك ، وخشعت القلوب لهيبتك ! اللهمَّ إنا نعوذ بعفوك من انتقامك ، وبرضاك من سخطك ، وبغفرانك من معصيتنا ، إنك أنت التواب ! اللهمَّ أنت الملك الذي لا تضره معصية خلقه ، ولا تنفعه طاعتهم ، فتجاوز عنا اللهمَّ إنك أنت الملك الوهاب !

القُدُّوس جلّ جلاله

أول ما سنتناول في الاسم القدوس المعنىٰ من حيث دلالة اللغة ، ثم ندلي بتصورنا موافقةً ، أو رفضاً ، أو تعديلاً بما يتماشىٰ مع رؤيتنا في أسماء ٱلله وما ينبغي للحديث عنها وما يتوجب فعله ممن أراد أن يكون خليفة لله يقدسه ويعبده ويعمر الأرض التي استخلفه فيها .

القدوس : من أسماء ٱلله تعالىٰ . وهو الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص [1] .

والتَّقْدِيسُ : تنزيه الله عز وجل ، وهو سبحانه المتَقَدَّس القُدُّوس المُقَدَّس .

والقُدُّوس فَعُّول من القُدْس وهو الطهارة [2] .

ولنا هنا وقفة قبل أن ننطلق مع أنوار هـٰذا الاسم العظيم نقف وقفةً أمام هـٰذا التعريف . نعم فهو الطاهر المنزه الذي له الجمال والكمال والجلال ذاتاً ، واسماً ، وصفةً ، فله الأسماء الحسنىٰ التي لا ينبغي أن نقرنها بنقائضها مثل : (المنزه عن العيوب والنقائص) فكيف يرقىٰ إلينا أن نقرن بتعريف القدوس ولو بحسن النية (العيوب والنقائص) حتىٰ لو كان هـٰذا الاقتران في

---

(1) القاموس الفقهي-ج 1، ص 297 .

(2) لسان العرب، ج6، ص168 .

مثل التعريف السابق ، وهو القدوس الكامل في ذاته ، وصفاته ، وأسمائه ، وأفعاله ، ثم إن الطهارة منه ، وليس هو منها ، والتقديس منه ، وليس هو منها ؛ لأنه خالق اللغة ؛ فكيف نقول : القدوس من القدس ، و نقول هنا لمن يقول لنا : إنها اللغة واشتقاقاتها ، فنقول له : إنه ٱلله الخالق لكل شيء فلا تشتق أسماؤه من مصادر اللغة ؛ لأنه خالقها ، فهو الذي خلق الطهر ؛ لأنه الطاهر ، فالطهر منه خلقاً ، وله وصفاً ، ويؤيد ذلك ما قلناه في الاسم العدل فقد سمىٰ نفسه العدل ؛ فكيف نقول ؟ ! ! هل نقول العدل مشتق ؟ إذا كان كذلك فمن أي شيءٍ هو مشتق ؟ !!! .

القدُّوس اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، والقداسة تعني : الطهارة ، والتقديس يعني : التطهير : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) يُفهم من هـٰذه الآية الكريمة الاستغراب الملائكي علىٰ جعل الإنسان خليفة في الأرض ، ولهـٰذا قال الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ ، جاءت هـٰذه الآية علىٰ لسان الملائكة بأسلوب تساؤلي ، استغرابي ، وذلك لِما أدهشهم من المفاجأة . كيف يمكن أن يكون خليفة ليقدِّس ٱلله تعالىٰ ، ومن أعماله وأفعاله الفساد في الأرض التي يود له أن يكون خليفة فيها . وذلك لأن الملائكة يؤمنون بالإصلاح في الأرض ولا يُفسدون فيها . ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ هـٰذه لم تكن الإجابة ، بل إنها تحمل في مضمونها : أنَّ هناك ما يبرر ذلك ، وهو علم الغيب الذي لا تعلمه الملائكة ، وهـٰذا المبرر هو الذي يستوجب استخلاف الإنسان في الأرض . علىٰ ضوء ذلك علَّم آدم الأسماء كلها ، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا

(1) البقرة 30 .

عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (1) . فالذي كان عِلمَ غيب هو الذي أصبح معرفة تامة بعد أن تعلَّمه آدم من ٱلله العليم الحكيم ، الذي بدوره أنبأ به الملائكة الذين كانوا به يجهلون ، ولأن الملائكة يُسبِّحون ٱلله ، ويقدسونه ، فلمَّا أنبأهم به آدم ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هٰذه الآية دليل مباشر للتسبيح ، والتقديس لله تعالىٰ .

والتقدُّس في اللغة يعني : التطهُّر . والتطهُّر يعني : التخلُّص من الشوائب التي تعلق بما ينبغي أن يكون نظيفاً . ولذا من خُلِقَ ليكون نظيفاً يجب أن يحافظ علىٰ نظافته ، حتىٰ لا يتعارض مع ما يراد له أن يكون عليه من قبل خالقه ، وإذا لم يحافظ علىٰ ذلك ؛ فسيجد نفسه أمام مخالفات ليس له بدٌّ من المساءلة عليها ، والمحاسبة علىٰ الأعمال والأفعال التي تستوجب تصنيف السالب مع السالب مع العقاب أو العفو ، والموجب مع الموجب مع الثواب والجزاء الأوفر .

إنَّ تقديس الملائكة لله تعالىٰ دليل إثبات قوة الارتباط الروحي والتعلُّق بصفاء مع الخالق ، ولهٰذا فالتقديس تعبُّد وعبادة ، تعبُّد بما يرضي ٱلله ، وعبادة لله وحده .

جاء في لسان العرب ، قدُّوس علىٰ وزن فعول ، وهو من أبنية المبالغة ، ويعني : الطهارة .

وفي معجم مقاييس اللغة لابن فارس : القدس : البركة ، والأرض المقدسة أي : المباركة . ولذلك عندما يقال البيت المقدس ، والأرض المقدسة ، يعني بذلك الأماكن المباركة التي خصها ٱلله تعالىٰ بهٰذه الصفة .

---

(1) البقرة 31ـ33 .

ولأنها كذلك تهوي أفئدة الناس إليها ، وتلتقي فيها لتسبِّح ٱلله ، وتقدسه ، وهي تتبرك في أماكن التخصيص بالبركة . ولأجل ذلك فالذين تهوىٰ قلوبهم لهـٰذه الأماكن المطهرة هم الذين يسارعون في إعلان الطاعة ، وإظهار أفعال التقديس في القول والفعل ؛ ليكون المكان المقدس شاهداً عليهم إلىٰ الأبد .

ويقول الدكتور علي الصلاَّبي : « القدوس كالسلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه ؛ ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه ؛ لأن النقص إذا انتفىٰ ؛ ثبت الكمال كله » (1) .

القدُّوس ، هو الدائم الذي لا يدوم مع دوامه دائم ، ولذا فالقدُّوس ما ليس بمادة ، وما ليس بروح ، وذلك لعدم بقائهما دائمين ، ولأن الأرض مكوَّن ماديٌّ والإنسان منها ، لذا كان الخليفة هو المخلوق من التراب المادي ، ولهـٰذا فالمادة لا تأتي إلا بمادة ، ولا يمكن أن تأتي بروح . فأمر الروح من علم ربِّي ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا ﴾ (2) .

إذاً من المسلمات : أنَّ الخليفة والروح هما من مخلوقات ٱلله تعالىٰ ، والفارق بينهما ، هو أننا نعرف كيف خلق الخليفة ، ولم نعلم كيف خلق الروح ، ولهـٰذا نكون جازمين بقولنا : إنَّ القدوس تعالىٰ لم يكن مادة ولا روحاً . ولأننا لم نؤت من العلم إلا قليلاً فلن نعلم أمر الروح ، وبما أننا لن نعرف أمر الروح ، التي هي مخلوق من المخلوقات ؛ فكيف لا يؤمن البعض بالقوة العظمىٰ التي من وراء خلقنا ، وخلقها . ولماذا لا يُقدِّس الجميع مَنْ خلقهم جمعاً وفرادىٰ ؟ !

---

(1) علي محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين. بيروت: دار المعرفة الطبعة الأولى 2005 ص 188 .

(2) الإسراء 85 .

ومع أن الخليفة خُلق من صلصال من حمإٍ مسنون (من مادة) إلا أنه لم يكن مجرداً من الروح ، فلو كان مجرداً منها ؛ ما كُتِبَ مع الأحياء ، ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [1] من هٰذه الآية يُلحظ : أن الخليفة مادةٌ ، وروح ، وذلك لوجود فعل اشتراطي ، يستوجب السجود له بعد التسوية ، ونفخ الروح فيه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ وهٰذا يدل علىٰ أن السجود ليس لآدم ، بل السجود لِمن سواه ، ونفخ فيه من روحه ؛ أي : لِمن بَعَثَ فيه الحياة . الحياة التي لم تكن قابلة للملاحظة الإدراكية إلا بوجود الروح في الجسد الذي تمَّت تسويته . وبناء علىٰ ذلك بإمكاننا أن نميز بين الروح المخلوق المجرد من المادة ، وبين الإنسان المادة الممزوجة بالروح فيها .

فالإنسان لو لم تُنفخ الروح فيه من روح ٱلله ؛ ما كان الخليفة ، وهنا يكمن السر في اختياره . والسؤال المترتب علىٰ ذلك : هل كل من خُلق ، ونُفِخت فيه الروح هو مُقدِّرٍ لِمن سوَّاه ، ونفخ فيه من روحه ؟ بالتأكيد من لا يُقدِّرَ خالقه لا يُقدَّر . والإنسان غير المُقدَّر لا يمكن أن يكون خليفة . وذلك لأنَّ جعل الإنسان خليفة هو في أساسه تقدير من خالق لمخلوق . ولهٰذا فإن قاعدة التقدير ؛ هي قاعدة الاستخلاف ، ومن لا يُقدِّر من خَلَقَهُ بالتقدير ؛ يفتقد القاعدة التي علىٰ أساسها أريد له أن يكون مستخلفاً في الأرض . وحتىٰ علىٰ المستوىٰ البشري ، لا خليفة إلا بشروط ، كالعدل ، والمساواة في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات ، وحمْل المسؤوليات ، مع الالتزام بالدستور ، والقوانين والنظم والتشريعات الصادرة ممن استخلفه ، فإذا لم يتم التقيد والالتزام بكل ذلك ؛ يتم سحب الثقة ، وإعلان عدم الأهلية ، واختيار

(1) الحِجر 29 ـ 31 .

البديل بكل إرادة . وبما أنَّ أساس العمل الطيب هو غرس الثقة ، فإن أساس سحبها يترتب علىٰ ارتكاب العمل غير الطيب . فإذا كان الأمر علىٰ هـٰذا الحال علىٰ المستوىٰ البشري ؛ فكيف لا يكون علىٰ مستوىٰ القدُّوس الذي خلقك ، فسواك ، فعدلك .

وبما أنَّ المُقدَّس هو المنزه ، فهل الذي لا يطيع خالقه يحق لنا أن نصفه بالمُنزَّه ؟ أي : هل الذي لا يُحِقُّ الحق ، ولا يعمل عليه ، ويشوه الحقائق ، ويَقلِبُ أوجهها يمكن أن يوصف بالمنزَّه ؟ ! بالتأكيد تكون الإجابة الموضوعية بـ : « لا » ، وبما أنَّ الأمر كذلك ؛ فلا يمكن أن يكون الخليفة .

من يريد أن يكون الخليفة عليه باستمداد صفة النزاهة ممَّن استخلفه في الأرض ، وإن لم يستمد النزاهة منه ؛ فلن يخلفه في شيء ، ولأن ٱلله هو القدوس (المنزه) خلق الخليفة علىٰ النزاهة ، ولهـٰذا من لا يكون نزيهاً ؛ لن يكون له في الاستخلاف من شيءٍ .

ومن آثار الإيمان بالاسم : القدُّوس جل جلاله :

1 ـ تقديس ٱلله عز وجل وتنزيهه عن النقائص ، وأنه موصوف بكل كمال . وصفات الكمال هي ما وصف به نفسه سبحانه وتعالىٰ في كتابه ، أو ما وصفه به الرسول الكريم ، صلوات ٱلله وسلامه عليه .

2 ـ وكما أنَّه منزه عن النقائص في صفاته وأسمائه الحسنىٰ ؛ فهو أيضاً منزه عن النقائص في أقواله وأفعاله ، فقوله الصدق ، وخبره الحق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [2] ، وفعله منزه عن النسيان والخطأ وغيرها من الآفات . قال تعالىٰ : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ

(1) النساء 87 .
(2) النساء 122 .

﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (1) أي : صدقاً فيما قال ، وأخبر ، ووعد ، وعدل فيما حكم من أحكام . قال تعالىٰ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (2) أي : تعالىٰ ، وتقدس ، وتنزَّه ، عن أن يخلق شيئاً عبثاً ، أو سفهاً .

3 ـ كان النبي ﷺ يكثر من ذكر هٰذا الاسم في ركوعه وسجوده ، فعن عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ : أن رسول ٱلله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده : « سبوح قدوس ربُّ الملائكة والروح » (3) .

وكان يسبح ٱلله بعد فراغه ، من الوتر ، كما جاء في حديث أبي بن كعب قال : « كان رسول ٱلله ﷺ يقرأ في الوتر : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ و ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فإن سلَّم ؛ قال : « سبحان الملك القدوس » ثلاث مرات (4) .

4 ـ وفي اسم القدوس جل جلاله قال الشاعر :

هٰذا ومن أوصافه القدُّوس ذو التنزيه بالتعظيم للرَّحمات

5 ـ من آثار هٰذا الاسم علىٰ المؤمن حرصه علىٰ أن يكون شغله الشاغل أن يطهِّر نفسه ؛ كي يسمح له أن يكون مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين يوم القيامة ، وحسن أولٰئك رفيقا ! وهٰذا يجعله في مجاهدة ، واتقاء ٱلله تعالىٰ .

6 ـ الذي عرف اسم القدُّوس ، ومن هو ؛ لن يتذلل بهٰذه النفس التي

---

(1) الأنعام 115 .
(2) المؤمنون 115 ـ 116 .
(3) رواه مسلم رقم 487 .
(4) أخرجه الإمام احمد في مسنده ج 5 ص 123 .

تقدست بمعرفة ٱلله تعالىٰ ، فمن المستحيل أن يذل نفسه إلا لله جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (2) .

7 ـ من آداب من عرف هـٰذا الاسم الكريم أن تسمو همَّته إلىٰ أن يُطَهِّره ٱلله من عيوبه .

وعليه : القدُّوس : اسم ٱلله المُطلق ، وجاءت مطلقية الصفة التي تتصدر هـٰذا الاسم الكريم من احتوائها لجميع صفات ٱلله تعالىٰ ، فالقداسة لا تتم إلا لعظيم ، والعظيم لا يُمكن أن يكون فاقداً لصفة من الصفات الحميدة ، ولا فاعلاً لصفة من الصفات الرذيلة . ولأن هـٰذه صفات كمال ، والكمال لله تعالىٰ ، لذا فالقدوس هو الذي يستوجب التقديس دون غيره . ومن لا يمتلك صفات الكمال ؛ فهو المنقوص ، والمنقوص لا يمكن أن يُقدَّس .

ولأن القدوس هو ٱلله الملك المتعال ، فلا يتماثل في صفاته مع خلقه ، فالخلق بعضهم يسعىٰ لأن يقتدي بما أمر ٱلله به ، ولأن كل أوامر ٱلله تشتق من أسمائه الحسنىٰ ، فالاقتداء بها هو الذي جعل الخلائف يُقدِّسون خالقهم . أمَّا التماثل في الصفات مع الخالق ؛ فليس له محل في العقول ، ولهـٰذا جاء اسم القدوس مطلقاً ومجرداً من المادة والروح ، أي : إنَّ القدوس خالق ، والمادة والروح هما المخلوقتان ، ولهـٰذا مع أنَّ لله تعالىٰ صفات عديدة إلا أنه لا يوصف بها بما يماثل أوصاف المادة والروح . ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ (3) سبحان ٱلله ما أجمل الإعجاز في هـٰذه الآية

(1) الأنبياء 87 .

(2) الأنبياء 88 .

(3) الشورىٰ 11 .

الكريمة ، ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ ، جاءت مطلقة ، ثم جاء من بعدها ﴿ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ ، الذي للكائنات المخلوقة منه حواس تمكنها من أن تنصت لتسمع ، وتنظر لتبصر ، مما جعل البعض يتهيأ تفكيره بوجود حاسة سمع وبصر من مادة للخالق ، ولٰكن هل يحق لمؤمن أن يفكر في مستوىٰ التدني العقلي عن خالقه القدوس ، الذي لم يكن مادة ولا روحاً . ولأنه كذلك فهو القدُّوس . ولهٰذا عندما ترد مثل هٰذه الآيات لإظهار قوة الإعجاز فيها لا ينبغي إضعافها بالتفسير المادي أو الروحي ، بل يجب أن يتم التأمل الذي يُمَكِّن المتأمل من تقديس من لا يمكن وصفه بما هو قابل للمشاهدة أو الملاحظة . فهاتان الوسيلتان تتعلقان بمخلوق وليس بخالق . فعندما ما يقول تعالىٰ : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [1] فـ : ﴿ بِيَدَيَّۖ ﴾ هنا لا تعني لا من قريب ولا من بعيد اليد المادة ، ولا اليد الروح ، بل تعني لنفسه يد تطول كل شيء متىٰ شاء وكيف شاء وأينما شاء سبحانه جل جلاله ، ولذا يده لا توصف إلا بصفاته الحسان . وهٰكذا حال السمع والبصر الإلٰهي ، فالسمع والبصر مصدران للإدراك الحسي ، الذي به يتم التبيُّن دون شك أو لبس أو غموض ، ولهٰذا فالسمع والبصر ليس بمادة ، ولا روح ، بل هما قوة تثبيت الأشياء بأدلة قياسية . وإلا هل هناك من يرىٰ البصر أو السمع ! ؟ بالتأكيد لا . وإن أحدٌ قال : أنا أرىٰ أحدهما ، أو كلاهما ؛ فلنقل له : أرسمهما ، أو صورهما ؛ إن استطعت ! ونقول له إنّ القابلتين للمشاهدة هما العينين المبصرتين ، والأذنين المنصتتين ، فالسمع لا يقاس ، والبصر لا يقاس ، فاللذان يقاسان هما الرؤية أو النظر ، والاستماع أو الإنصات .

قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ ﴾ [2] يقول

---

(1) ص 75.

(2) البقرة 87.

القرطبي : ﴿ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ : هي الحُجج والدلالات التي ذكرها ٱلله في (آل عمران ، والمائدة) ، ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ أي : قويناه . وقال النحَّاس : سُمي جبريل روحاً ، وأضيف إلىٰ القدس ؛ لأنه كان بتكوين ٱلله عز وجل له روح من غير ولادة ؛ وكذلك كان عيسىٰ روحاً ؛ لأنه مولود من غير والدٍ ولده . وقال الحسن : القدوس هو ٱلله ، والروح هو جبريل [1] . ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [2] .

روح القدس ، كلمتان متكونتان من « روح » وهو المخلوق الذي لم يلده مخلوق ، و« القدس » وهو التنزيه من ٱلله تعالىٰ . ولهٰذا فإن « روح القدس » هو جبريل المنزه من ٱلله تعالىٰ ، ولأنه المنزه من ٱلله تعالىٰ جاء مناصراً لعيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي اصطفاه ٱلله تعالىٰ ، وذلك لأجل تنفيذ الأمر القدُّوُس .

فروح القدس ، تدل مباشرة علىٰ الارتباط الوثيق بين القداسة والروح المقدسة . فالقداسة تعبُّد إيماني ، وتعني : الطهارة ، ولهٰذا فالروح القدس هي الروح الطاهرة المنزهة عن الأخطاء ، والعاملة علىٰ تنفيذ الأمر الحق ، ولذا فكانت هي المناصرة والداعمة والساندة لعيسىٰ في كلِّ أمرٍ يراد له أن يسود أو أن يدمغ باطلاً .

وروح جبريل قدسية ؛ لأنها مخلوقة خلقاً ، ولم تولد ولادةً من أيِّ روح ، فهي لم تكن من روح الملائكة ، ولا من روح الجن ، ولا من روح الخليفة ، إنها الروح المستمدة من القدوس مباشرة ، ولهٰذا فهي الروح المطهرة ، والمنزهة التي لا تنطق إلا بالحق ، ولا تفعل ما يخالف أمراً من

(1) القرطبي الجامع لأحكام القرآن مجلد رقم 2 ص 24 .
(2) النحل 102 .

الملك القدوس ، وهي التي لا تضيف ، ولا تنقص لما تُؤمر به ، وهي التي لا يوسوس لها موسوس . إنها روح القدس . فالحمد لله ربِّ العالمين !

قال تعالىٰ : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [1] تُثبت هـٰذه الآية : أن كل شيء يُسبح لله تعالىٰ ، والتسبيح : هو ذكر الحق ، والتقديس : هو التمسك بالحق ، ولهـٰذا دائماً لا تقديس إلا لمنزه ، والمنزه هو ٱلله الملك القدوس ، ولذلك فالكل يحمد ٱلله ، ويشكره ، ويصلي إليه (يُسبّحه) : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [2] فـ : ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ : لا تفهمونه حتىٰ وإن تمكنت حواسكم المنصتة من استماعه ، وإلا هل منكم من يفهم لغة الطير ؛ التي فُهِّمت لسليمان ، عليه الصلاة والسلام ، وفُهِّم من خلالها المنطق الذي تحمله ، أو تؤسس عليه لغة الطير ؟ ! وهل منكم من يفهم لغة النمل التي ابتسم لها سليمان عندما فهمها بكل وضوح ؟ ! وهـٰكذا بقية الكائنات التي جعل لها ٱلله تعالىٰ لغةً مسموعة .

وبما أن كل شيء يُسبِّح بحمد ٱلله تعالىٰ ؛ إذاً لكل شيء لغة ، ولـٰكن جميعها لا تُفقهُ من قبل الإنسان ، وكلمة : ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ ، تعني : لا تفهمون ، ولن تبلغوا فهمها ، وتتضمن عدم المقدرة السماعية أيضاً ، ولهـٰذا حاسَّة السمع ليس بإمكانها أن تسمع كل شيء ، وهـٰذا لا يعني أنَّ الشيء ليس له لغة ، بل بما أنه يُسبِّح فبطبيعة الحال الصوت الذي يُسبِّح به في متناول التيسير المسموع ، وإلا لِمن يُسبح ؟ إنه يُسبِّح للسميع ، والسميع هو الذي يسمع كل شيء يُسبِّح بحمده . وأيضاً : بما أن كل شيء يُسبِّح بحمد ٱلله ، وٱلله هو السميع البصير الملك القدوس ؛ إذاً لا يُخلق شيء يُسبح

---

(1) الجمعة 1 .

(2) الإسراء 44 .

إلا والذي خلقه يريد أن يسمع تسبيحه ، فالتسبيح يتعلق بمن يُسبِّح له ، ولا يتعلق بآخر ، فالإنسان عندما يُسبِّح لا يُطلب منه أن يرفع صوته ، بل من المُفضل أن لا يسمعه أحد لا يتعلق الأمر به (لا يتعلق أمر التسبيح به) ونحن بنو الإنسان الذين خلقهم ٱلله تعالىٰ في أحسن تقويم لم يكن من بيننا واحد سميع ، بل كلنا نستمع ، والاستماع هنا ، لِما يُمكن أن يتم سماعه ، أمّا الذي ليس بالإمكان سماعه ؛ فلا يتم الالتفات إليه .

وعليه : نُقدِّسك : نتمسك بك وحدك لا شريك لك ، بيدك الخير ، ونعترف : أنك المُنزه عن النقيصة والولد ، وأنك أنت المختص بالصفات المطلقة ، ونحن الذين لنا الصفات النسبية ، فأنت ولينا الذي يحفظنا من كل شر ، فسبحانك لا إلـٰه إلا أنت الرحمـٰن الرحيم الملك القدُّوس !

القدُّوس : هو الذي لا يتأثر برغبة أو حاجة أو غريزة ، مما جعله منزه عن كل ما يؤثر في القول والفعل بأثرٍ عاطفي . فأفعال العاطفة تمتد لتحتوي من بين ما تحتوي المظالم ، ولأن ٱلله هو العادل في ملكه قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [(1)] . ولذلك يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل : « القدوس : اسم جَمعَ كل صفات الجلال ، والكمال ، والجمال ، وكل أسماء ٱلله الحسنىٰ ، تدور مع هـٰذه الأمور الثلاثة ، فهو جل شأنه كامل في ذاته وصفاته وأفعاله ، وهو الجميل ، وهو الجليل الذي تنزه عن الشريك والمثيل » [(2)] .

ويقول الإمام الغزالي : « القدُّوس : هو المُنزِّه عن كل وصف يدركه

---

(1) طه 111 ـ 112 .

(2) محمد بكر إسماعيل أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها . القاهرة : دار المنار الطبعة الأولى 2000 ص 26 .

حسٌّ ، أو يتصوره خيال ، أو يسبق له وهم ، أو يختلج به ضمير ، أو يقضي به تفكير »[1] . إنه ٱلله تعالىٰ ، الذي لا يتصف إلا بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في أسمائه الحسنىٰ . ولأن له الكمال وما دونه منقوص ؛ لذا فهو الذي يُعبد دون غيره ، وهو المُنزَّه الذي لا يقارن مع أحدٍ . ولأنه هو كما هو ، وليس هو كما غيره ، لذلك لا يمكن أن يسمىٰ أحد بأسمائه ، ولا يتصف أحد بصفاته ، إنه هو الذي لا يتطابق ، ولا يتماثل معه أحد في شيء ، ولأنه كذلك يُسبِّح له ما في السمـٰوات وما في الأرض سبحانه الملك القدوس : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ﴾[2] ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ ﴾ تعني : يعترف له بالوحدانية ، ويُقدس لكماله وصفاته التي يتصف بها ، ويُحمد ويُشكر علىٰ عطائه غير المحدود وبقائه غير المنتهي ، ولذلك فهو يُقدَّس .

التقديس يتم وفقاً لحالتين :

الحالة الأولىٰ : التقديس الفطري : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[3] هـٰذه الآية الكريمة جاءت مطلقة ولم يتم استثناء شيء من التسبيح الحمدي لله تعالىٰ . ولهـٰذا مهما عددَّنا وذكرنا من هـٰذا الشيء المطلق لن نتمكن من حصره ، ولذا فهي تشمل كل شيء : الطيور ، والأسماك ، والحيوانات ، والنباتات ، والجماد ، والملائكة ، والرعد ، والبرق : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾[4] .

---

(1) أبو حامد الغزالي المقصد الأسنى في أسماء الله الحسنى . بيروت : دار الكتب العلمية ص 46 .
(2) الجمعة 1 .
(3) الإسراء 44 .
(4) الرعد 13 .

والحالة الثانية : التقديس الواعي : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [1] . ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا ﴾ هم الذين يتفكرون في خلق السمٰوات والأرض ، أي : أن ذكرهم لله في كل حين هو الذي جعلهم يتبيَّنوا الحق من الباطل ، بمعنىٰ : يُدركون عن وعي الفارق الكبير بين ما يجب وما لا يجب ، وهم الذين يُقدِمون بإرادة علىٰ تأدية ما يجب ، ويبتعدون عن فعل ما لا يجب ، وذلك لأنهم يعرفون المترتب علىٰ الفعلين : (المترتب الموجب ، والمترتب السالب) .

ولأنهم يمتلكون المقدرة العقلية ، والحاسة العاقلة فهم الذين يميزون بعد مقارنة ، ويعترفون دون أدنىٰ ظن بأن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو الذي خلق ما في السمٰوات وما في الأرض ، وبإدراكهم الواعي يؤمنون به ، ويقدسونه ويسبحونه في كل حين ، وفي أي مكان ، وعلىٰ أي وضع من الأوضاع التي يكونون عليها ، وهم في حالة حركة أو في حالة سكون . وبذلك يعترفون بأنه الحق ، الذي لم يخلق شيئاً باطلاً . ولأنهم يعرفون ، ويؤمنون ، فهم يعلمون علم اليقين بأن من يُدخل النار فقد خُزي ، أي : التصقت به اللعنات التي تلاحق الذين يعرفون الحق ويغضُّون النظر عنه .

إنهم الذين سمعوا الصوت المنادي بالحق ، فأدركوا ثم آمنوا : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ﴾ بطبيعة الحال الذي ينادي بالإيمان هم الرسل قبل غيرهم ، والرسالات السماوية من صحائف وألواح ومصاحف

(1) آل عمران 191 ـ 194 .

وكتب . التي بعد معرفتها عرف الواعون بها : أن ٱلله تعالىٰ لم يخلق شيء باطلاً سبحانه جلَّ شأنه !

ولأنهم عرفوا الحقيقة استطاعوا أن يميزوا بين ما كانوا عليه من كفر ومعصية ، وبين ما هم عليه الآن من إيمان ، ومع أنهم أمنوا فهم يعرفون أنهم لن يقعوا في الخطيئة ثانية ، إلا أنهم لا زالوا خائفين مما عملوا قبل الإيمان . فلذلك طلبوا المغفرة من ٱلله تعالىٰ ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ في هـٰذا الدعاء الإيماني هناك ما يتعلق بالماضي وهو الأمر المتعلق بالسيئات التي تم ارتكابها ، وهناك ما يتعلق بالحاضر وهو زمن الإيمان الذي فيه يتم التيقن والتبيُّن عن وعي ومعرفة تامة . وهناك ما يتعلق بالمستقبل وهو طلب المغفرة والوفاة مع الأبرار الشرفاء ، ثم المطالبة بالجنة التي وعدهم بها ٱلله علىٰ لسان رُسله : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (1) .

وعليه : فإن التقديس إيمان فطري ، وعلاقة طبيعية بين خالق ومخلوق . والوعي بالتقديس ، ثبات علىٰ يقين بعد معرفة وتبيُّن تام لا محل فيه للظن .

ولنلحظ الفارق الإيماني بين ما نتذكر ، وبين ما نفكر فيه : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾ (2) ما أجمل البلاغة القرآنية ! ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ . ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ﴾ يعني : في المستقبل دون أدنىٰ شك ستكون القيامة يومها ؛ أي : في ذلك المستقبل سيتذكر الإنسان ذلك الماضي الذي عاشه شاهداً عليه ، يومها يتذكر ؛ أي : يعرف ما عَمِلَ من عملٍ ،

(1) آل عمران 195 .

(2) النازعات 34، 35 .

ويعرف الحقيقة كاملة بين يديه . ولهـٰذا فإن التذكر يرتبط بالماضي ، والتفكر يرتبط بالمستقبل ، ومعنىٰ « يرتبط » : أنَّ الحلقة الوسط التي تربط بين ماضٍ ، وحاضر هي الزمن الآن (الزمن الحاضر) .

والسؤال الذي يطرح نفسه ـ كما يقولون ـ هو : لماذا التذكر ؟ ولماذا التفكر؟ .

التذكر للاتعاظ ، الذي يُخرج المُتعظ من البقاء علىٰ ما هو عليه من أعمال منقوصة . والتفكر تأملي ، لأجل معرفة الظاهر والكامن ، ومعرفة الأسرار التي عليها حالات ما خلق الخالق عزَّ وجل حتىٰ بلوغ التسليم بأنها المُعجزة التي تستوجب تقديس من كان وراء خلقها : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [1] بدأت هـٰذه الآيات الكريمة بالاستغراب في قوله ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ إنه لَمِن الغرابة ألا ينظر صاحب بصيرة إلىٰ ما يحيط به ، ومن الغرابة ألا يفكر فيما يرىٰ بأم عينيه ، فلو رأىٰ ما حوله عن وعي ؛ لأدرك أنه الحقيقة الدالة علىٰ إثبات الحقيقة ، فلو نظر الخليفة إلىٰ الإبل ؛ لرأىٰ الإعجاز في خلقها . وهـٰذه حقيقة . ولو نظر إلىٰ ما هو أكبر منها : إلىٰ السماء ؛ لعرف الإعجاز الأكبر . ولو نظر إلىٰ الجبال التي تُسبِّح لله ؛ لعرف السر الذي هو من وراء خلقها ، ومن وراء تسبيحها ، ولو نظر إلىٰ الأرض التي خُلق منها وله منها معاشه ؛ لأدرك الحقيقة .

وقد يتساءل البعض : ما هي هـٰذه الحقيقة ؟

الحقيقة : أنه وراء كل مخلوق خالق . ووراء كل ظاهر باطن ، ووراء كل علة معلول ، ووراء كل قدرة قادر ، ووراء كل بداية نهاية ، وأن أمر كل ذلك بيد الملك القدوس ؛ الذي يملك أمر كل شيء ، سبحانه إنه ربِّي ! ولذلك جاء

---

(1) الغاشية 17 ـ 21 .

التقديس دليل عرفان بالفضل من واسع الفضل ، الذي لولاه ما كُنَّا ، وما كان معاشنا ، ولولاه ما تذكرنا حتىٰ اتعظنا ، وما تفكرنا حتىٰ تيقنَّا . سبحانه لا إلـٰه إلا هو ربُّ العرش العظيم !

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر : « إنه المستحق للتسبيح لكمال ذاته ، وكمال صفاته كمالاً يستحقه تنزهاً له وتقديساً عمَّا ينسبه إليه الظالمون من صفات النقص ، كدعوىٰ من نسب إليه الولد ، والبنات ، والشريك »[1] .

وبناء علىٰ ما تقدم ، فمن هم الذين يتذكرون ، ويتفكرون ؟

إنهم أولي الألباب ، وهم المُقدسين لله تعالىٰ . ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾[2] .

أولو الألباب هم الذين يميزون بعد مقارنة موضوعية ما يجب ، ويُقدِمون علىٰ فعله ، وبين ما لا يجب ، ويبتعدون عنه ، إنهم أصحاب الضمائر والقلوب المؤمنة . وهم كما جاء في قوله تعالىٰ هم : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ وٱلله تعالىٰ أمر بكل معروف وخصَّ الصلة بين ذوي القربىٰ بدم أو نسب ومصاهرة أو عيش وانتماء علىٰ مستوىٰ الوطن أو الأمة بكاملها أو علىٰ المستوىٰ القيمي الإنساني ، وذلك لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل . وهم الذين يخشون ربهم ، في قطع الرحم ، أي : لا يقدموا علىٰ فعل من شأنه أن يؤدي إلىٰ قطع صلةٍ مع ذوي الأرحام .

---

(1) عمر سليمان الأشقر أسماء الله الحسنى الهادية إلى الله والمعرِّفة به . عمَّان : دار النفائس الطبعة الأولى 2004 ص 54 .

(2) الرعد 19 ـ 22 .

وجاء في تفسير القرطبي : « قول ابن عباس ، وسعيد ابن جُبير : معنىٰ : ﴿يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾ هو الإيمان بجميع الكتب ، والرسل كلهم . وفي ذلك يقول الحسن : هو صلة محمد ﷺ ، وهناك من يقول في هـٰذا الأمر تكون الصلة بين الإيمان بالعمل الصالح »[1] .

ولهـٰذا فهم الذين يخافون أن يُقصِّروا ، أو يُنقصوا من أداء المهام الإيمانية التي تستوجب عدم الكلل والملل من أدائها . وسوء الحساب هو المترتب علىٰ نتائج الأعمال السالبة ، وهـٰذا يدل علىٰ الاعتراف الإيماني بالحساب ، ولـٰكن جاء الخوف مما يتوقعون من النتائج المترتبة علىٰ ذلك الحساب ، ولأنهم يخافون ٱلله في ذلك فهم أُولو الألباب الذين خصَّهم ٱلله بالمغفرة ، والرحمة ، وذلك بما استفادوا منه بالتذكر والتفكر ، حتىٰ كانوا من المُصلين والمُنفقين مما رزقهم ٱلله تعالىٰ سراً وعلانيةً ؛ أي : جهاراً ونهاراً دون خوف . ولذا فهم الذين يذكرون ٱلله قياماً وقعوداً وعلىٰ جنوبهم ، وهم يتفكرون في خلق السمـٰوات والأرض ؛ حتىٰ وصلهم اليقين بقولهم : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ .

وبما أنَّ الأمر يتعلق بأولي الألباب الذين لهم الصفات الحسان السابقة الذكر ، وتلك الصفات هي المستمدة من صفات خالقهم ؛ إذاً هـٰؤلاء هم الذين تتوفر فيهم صفات الخليفة الذي يود له أن يَعمُر الأرض ولا يُفسد فيها ولا يُسفك الدماء بغير حق . ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ ، أي : لهم الجنة التي وعد بها ٱلله عباده الصالحين ، وعباده الصالحين هم الخلائف في الأرض الذين يُطيعونه ، ولا يعصون له أمراً .

قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ

---

(1) القرطبي الجامع لأحكام القرآن . دار الكتاب العربي المجلد رقم 9 ص 310 .

ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1] جاءت هـٰذه الصفات الحسان منتظمة ومتلاحقة واحدة تِلْوَ الأخرىٰ لتؤكد كل صفة الصفة التي سبقتها ، وبذلك يتم التأكيد علىٰ أن ٱلله واحد لا شريك له ، ولهـٰذا جاءت صفة (المَلِك) تأكيد علىٰ أنها صفة لله تعالىٰ ، وصفة (القدُّوس) تؤكد صفة الملك المتعال ، وتلتها صفة (السَّلام) لتؤكد صفة (القدُّوس) ، ثم جاءت صفة (المؤمن) لتؤكد صفة (السلام) ، وصفة (المهيمن) تؤكد صفة (المؤمن) ، و(الجبار) هو صاحب الصفة السابقة وهو (العزيز) المؤكد لصفة (المهيمن) ، وفي نهاية هـٰذه الآية الكريمة جاءت صفة (المتكبر) لتدل علىٰ أنها صفة للجبار ، وبهـٰذا تكون جميع الصفات المتلاحقة في انتظام هي صفات لله ربِّ العالمين . ولذا فمن حق كل متتبع لِما سبق أن يقول وهو مؤمن سبحان ٱلله عمّا يشركون !

فـ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تحمل في مفهومها الاستغراب ؛ أي : بعد كل هـٰذه الشواهد والمعجزات العظام ، والبعض لم يؤمن بعد ! فلا أدري كيف يكون حال هـٰؤلاء ومن هم علىٰ أمثالهم ؟! ولهـٰذا يقول المؤمن المستغرب من حال هـٰؤلاء : سبحان ٱلله عمَّا يُشركون ! حتىٰ لا تدخل نفسه في حظيرة أولـٰئك المشركين الذين لم يؤمنوا بالواحد القهار . ولذا جاء في قول المؤمن : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ اعترافاً صريحاً بوحدانية ٱلله ، وتعجباً ، واستغراباً مِنْ أولـٰئك المشركين ، مما جعل المؤمن في الوقت الذي ينفي فيه ضمناً أن يكون لله شريك يعترف صراحة بعلو المكانة الإلـٰهية . وفي الوقت الذي يستغرب فيه شركهم ؛ وكأنه في نفسه يتأسف ألا يؤمنوا بوحدانية خالقهم .

فـ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ تحمل في مفهومها معنىٰ الاستغفار ، وذلك بما تدل

(1) الحشر 23 .

عليه من إيمان . ولهٰذا لا يقولها وعياً وإرادة إلا مؤمنٌ ؛ لذا قال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ ﴾ [2] قال سبحانك ، تنزيهاً لله تعالىٰ واستغفاراً له من ارتكاب أي تُهمة تؤدي إلىٰ الشرك به ، ولهٰذا فإن كلمة ﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ تعني الاعتراف اليقيني بأنه المُنزَّه الذي لم يكن له كفواً أحد . وفي هٰذا الأمر روىٰ البيهقي عن طلحة بن عُبيد ٱلله ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : سألت رسول ٱلله ﷺ عن تفسير ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ ﴾ فقال : « هو تنزيه ٱلله ـ عز وجل ـ عن كل سوء » [3] . وروىٰ مُسلم في الصحيح : أنَّ عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ قالت : إنَّ رسول ٱلله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده : « سبُّوح قدوس ربُّ الملائكة والروح » [4] . المقصود بالسبُّوح هو الذي لا عيب فيه ، وهو المنزه من النقائص ، والمعائب . ولذلك فبذكره تطمئنُّ القلوب ، وتتطهَّر .

والقدوس هو الممدوح بالفضائل ، والمحاسن ، والمكارم . ولهٰذا فإن التسبيح في مضمونه التقديس ، وفي مقابل ذلك أيضاً : في مضمون التقديس التسبيح . وفي هٰذا الأمر يقول محمد حسين في كتابة شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ : لقد جمع ٱلله تبارك وتعالىٰ بين التقديس ، والتسبيح في سورة الإخلاص : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ فهٰذا تقديس . وقوله ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ فهٰذا تسبيح .

---

(1) النساء 171 .

(2) المائدة 116 .

(3) محمد حسين شرح أسماء الله الحسنى . الإسكندرية : المدائن للنشر والتوزيع 1996 ص 22 .

(4) المرجع السابق ص 22 .

وبما أنَّ كلًّا من السبُّوح، والقدوس يحملان في مضمونهما ما يشير إليه كلٌّ منهما من دلالة ومعنىٰ فإذاً كلاهما يوحدانه ، وينفيان الشرك عنه . ولذا فإن التقديس هو إجلال وتعظيم وتمسك إيماني بالملك القدوس . والقدوس : هو الذي لا ندَّ ، ولا مضاد له ، وهو الذي له صفات الكمال والتنزيه . إنه ٱلله الرحمـٰن الرحيم .

وإنه لمن الاستغراب أن يظن البعض ممن يراد لهم أن يكونوا خلائف في الأرض ظنَّ السوء بخالقهم ومستخلفهم في الأرض . هـٰؤلاء هم الذين قال فيهم تعالىٰ : ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (1) .

وعليه فإن الخليفة بإمكانه أن يستمد من خالقه القداسة ، وذلك بتقديس خالقه دون شرك ، وإذا ما بلغ هـٰذا الأمر ؛ فبإمكانه التزكية ، ولذلك فإن التزكية ممكنة لكل من يريد أن يكون خليفة في الأرض ، حتىٰ ولو كان غير مؤمن : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ (2) . ما أعظمك يا ٱلله ! أنت القادر علىٰ كل شيء ، وأنت القاهر فوق عبادك ومع ذلك تعطي الفرصة تلي الفرصة لِمن يُريد أن يُكفِّر عن سيئاته ، ما أعظمك ! جل جلالك ما أعظمك !

ادع ٱلله تعالىٰ بقوله : ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (3) .

---

(1) الفتح 6 .

(2) النازعات 15 ـ 19 .

(3) يونس 10 .

وعليه : القدوس هو الطاهر المنزه ، خالق القدس والتقديس ومن يقدس له ، ونقول : (يقدس له) لا (يقدسه) لأنه قدوس في ذاته سبُّوحٌ قدوس رب الملائكة والروح ، له الكمال ، والجلال ، والجمال .

ألم تسمع قول ٱلله علىٰ لسان الملائكة : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ نقدس لك . . . نقدس لك . . . . بتطهير أنفسنا .

ولم تقل الملائكة : ونحن نقدسك . لماذا ؟ الإجابة قد أسلفناها ونعيدها حباً فيك أيها القارئ : لأنه قدوس في ذاته ، طاهر في ذاته .

كما وصف نفسه في قوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) فهـٰذا هو القدوس مقترناً بما يليق به من أسماء وصفات حسان ، وجاء في تفسيرها : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يعني : لا خالق ، ولا رازق غيره . ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ يعني : عالم السر ، والعلانية . ويقال : الغيب : ما غاب عن العباد ، والشهادة : ما شاهدوه ، وعاينوه . ويقال : ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ بما كان وبما يكون . ويقال : ﴿ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ بأمر الآخرة ، وبأمر الدنيا . ثم قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يعني : العاطف علىٰ جميع الخلق بالرزق و﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بالمؤمنين ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾ يعني : مالك كل شيء ، وهو الملك الدائم الذي لا يزول ملكه أبداً . ثم قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾ يعني : الطاهر عما وصفه الكفار ، ولهـٰذا سمي بيت المقدس ، يعني : المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب . ثم قال تعالىٰ : ﴿ ٱلسَّلَٰمُ ﴾

(1) الحشر 22 ـ 24 .

يعني : يسلم عباده من ظلمه . ويقال : سمىٰ نفسه سلاماً لسلامته مما يلحق الخلق من العيب ، والنقص ، والفناء ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ يعني : يؤمِّن أولياؤه من عذابه . ويقال : ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ أي : يصدق في وعده ، ووعيده . ويقال : ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ يعني : قابل إيمان المؤمنين . ثم قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ يعني : الشهيد علىٰ عباده بأعمالهم . ويقال : ﴿ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾ يعني : المويمن فقلبت الواو هاء وهو بمعنىٰ الأمين . ثم قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ يعني : الذي لا يعجزه شيء عما أراد . ويقال : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يوجد مثله . ثم قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْجَبَّارُ ﴾ يعني : القاهر لخلقه علىٰ ما أراده . ويقال : الغالب علىٰ خلقه ومعناهما واحد ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ يعني : المتعظم علىٰ كل شيء . ويقال : ﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ الذي تكبر عن ظلم عباده . ثم قال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ يعني : تنزيهاً لله تعالىٰ . ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يعني : عما وصفه الكفار من الشريك والولد . ويقال : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ بمعنىٰ التعجب ؛ يعني : عجباً عما وصفه الكفار من الشريك . وقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ﴾ يعني الخالق الخلق في أرحام النساء . ويقال : خالق النطف في أصلاب الآباء . ﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ للولد في أرحام الأمهات . ويقال : ﴿ ٱلْخَٰلِقُ ﴾ يعني : المقدر ﴿ ٱلْبَارِئُ ﴾ الذي يجعل الروح في الجسد . ويقال : ﴿ ٱلْبَارِئُ ﴾ يعني : خالق الأشياء ابتداءً ، ثم قال : ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ يعني : الصفات العلىٰ . ويقال : ﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ وهي تسعة وتسعون اسماً . وروىٰ أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مئةً غير واحد ، من أحصاها دخل الجنة » . ثم قال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يعني : يخضع له ما في السمٰوات والأرض . يعني : جميع الأشياء كقوله : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [1] ،

(1) الإسراء 44.

ثم قال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ يعني : العزيز في ملكه . ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أمره . فإن قال قائل : قد قال ٱلله تعالىٰ : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (1) ، فما الحكمة في أنه نهىٰ عباده عن مدح أنفسهم ، ومدح نفسه ؟

وعن هـٰذا السؤال جوابان أحدهما : إن العبد وإن كان فيه خصال الخير فهو ناقص ، وإن كان ناقصاً لا يجوز له أن يمدح نفسه ، وٱلله سبحانه وتعالىٰ تام الملك والقدرة فيستوجب به المدح ، فمدح نفسه ليعلم عباده ، فيمدحوه .

وجواب آخر : إن العبد وإن كان فيه خصال الخير ؛ فتلك الخصال إفضال من ٱلله تعالىٰ ولم يكن ذلك بقدرة العبد ، فلهـٰذا لا يجوز له أن يمدح نفسه ، وٱلله سبحانه وتعالىٰ إنما قدرته وملكه له ليس لغيره ، فيستوجب فيه المدح ، ومثال هـٰذا : أن ٱلله تعالىٰ نهىٰ عباده أن يمنوا علىٰ أحد بالمعروف ، وقد منَّ ٱلله تعالىٰ علىٰ عباده للمعنىٰ الذي ذكرناه في المدح . وٱلله أعلم ! وصلىٰ ٱللهُ علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وسلم (2) .

وتقديس ٱلله يكون بتقديس الإنسان لنفسه ؛ لأن ٱلله قدوس طاهر فالتقديس يكون واقعاً علىٰ النفس والروح والجسد البشري الذي يعتريه النقص والأذىٰ الذي يلحق ما هو ضد التقديس ، أمّا ٱلله فهو قدوس بذاته ، وعلىٰ ذلك فمن أراد أن يناجي القدوس فيجب أن يقدس نفسه ليكون أهلاً لمناجاته ، وعبادته . ألا ترىٰ يا أخي : أن الصلاة لا تصح إلا بطهارة ، والزكاة لا تكون إلا في مال حلال ، والحج لا يكون إلا بمال حلال مع تطهير النفس من الكِبْر ، والجسد من النجاسة ؟! وقس علىٰ ذلك كل العبادات ، والمعاملات ، والأحكام ؛ فستجد : أن القصد منها التطهير للنفس والروح والجسد ، ليكون الإنسان أهلاً لأن يقدس ٱلله القدوس ؛ الذي ينزه ويقدسه كل المخلوقات ،

---

(1) النجم 32 .

(2) بحر العلوم للسمرقندي، ج 4، ص 273 .

وهو في غنىٰ عنهم . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [1] ولا تقديس إلا باتباع النبي الأمي الذي أرسله ٱلله لتعليم البشرية كيف يقدسون أنفسهم ؛ ليكونوا أهلاً لعبادة ٱلله ، واتباع النبي الأمي فضل عظيم من ٱلله لا يوفق إليه إلا من فهم واجتهد ورضي ٱلله عنه .

ولذا نقول : إن التعريفات اللغوية يجب أن يعاد فيها النظر مع اعترافنا بفضل السابقين علينا ، ولٰكن في مجال البحث في أسماء ٱلله فيجب أن نطوع اللغة التي هي خلق من خلق ٱلله للخالق ، فلا نعتقد : أنها توفي بالغرض المطلوب ، فنسأل ٱلله العفو والعافية والسلامة من الخطأ والزلل ! وعليه فالنقص والعيب يلحق بمن يتوهم باقترانهما بتعريف له ولو علىٰ المستوىٰ المكاني في اللغة .

وقيل للجنَّة حَظِيرة القُدْس ، والتَقْدِيس : التَّطْهِير والتَّبْرِيك [2] وهٰذا ما يؤكد رؤيتنا فالجنة هي دار الطهر المادي والمعنوي ؛ لأنها صنع ٱلله القدوس وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر علىٰ قلب بشر ، وعليه فقدسية ٱلله أعلىٰ من أن نرصف الكلمات غثها وثمينها لنلحق به ما هو سبحانه أجل وأعلىٰ شأناً مما نتوهم : أنه صحيح .

وفي التنزيل : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ [3] قال

---

(1) الجمعة 1 ـ 5 .
(2) لسان العرب ، ج 6 ، ص 168 .
(3) البقرة 30 .

الزجاج : « معنىٰ نُقدس لك ، أَي : نُطهِّر أَنفسنا لك وكذلك نفعل بمن أَطاعك نُقَدِّسه . أَي : نطهِّره »[1] ومن هـٰذا قيل للسَّطْل : القَدَس ؛ لأَنه يُتَقدَّس منه . أَي : يُتَطَّهر . والقَدَس بالتحريك السَّطْل بلغة أَهل الحجاز ؛ لأَنه يتطهر فيه . قال : ومن هـٰذا بيت المَقْدِس . أَي : البيت المُطَّهَّر ؛ أَي : المكان الذي يُتطهَّر به من الذنوب . والقُدُّوس : الطاهر ، وقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ﴾[2] : الطَّاهِر في صفة ٱلله عز وجل . وقيل : قَدُّوس بفتح القاف ، وجاءَ في التفسير : أَنه المبارك . والقُدُّوس هو الله عز وجل ، والقُدْسُ : البركة . والأَرض المُقَدَّسة : الشام ، ورُوحُ القُدُس : جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ . وفي الحديث : « إِن رُوحَ القُدُس نَفَث في رُوعِي » يعني : جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأَنه خُلِق من طهارة . وقال ٱلله ـ عز وجل ـ في صفة عيسىٰ ـ علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾[3] هو جبريل ، ومعناه : رُوحُ الطهارة . أَي : خُلِق من طهارة . وقول الشاعر :

لا نَومَ حتىٰ تَهْبِطِي أَرضَ القُدُسْ   وتَشْرَبِي من خير ماءٍ بِقُدُسْ

أَراد الأَرض المقدَّسة . وفي الحديث : « لا قُدِّستْ أُمَّةٌ لا يُؤْخَذ لضَعِيفها من قَوِيِّها ! » . أَي : لا طُهِّرت[4] . والحديث كما ورد في الصحاح : عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ دَيْنًا كَانَ عَلَيْهِ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ حَتَّىٰ قَالَ لَهُ : أُحَرِّجُ عَلَيْكَ إِلاَّ قَضَيْتَنِي ! فَانْتَهَرَهُ أَصْحَابُهُ ، وَقَالُوا : وَيْحَكَ تَدْرِي مَنْ تُكَلِّمُ ؟ ! قَالَ : إِنِّي أَطْلُبُ حَقِّي ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « هَلاَّ مَعَ صَاحِبِ الْحَقِّ كُنْتُمْ ! » . ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ ، فَقَالَ لَهَا : « إِنْ كَانَ عِنْدَكِ تَمْرٌ فَأَقْرِضِينَا حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا تَمْرُنَا

---

(1) لسان العرب ، ج 6 ، ص 169 .
(2) الحشر 23 .
(3) البقرة 87 .
(4) لسان العرب ، ج 6 ، ص 168 .

فَنَقْضِيَكِ » . فَقَالَتْ : نَعَمْ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ ٱللهِ ! قَالَ : فَأَقْرَضَتْهُ فَقَضَىٰ الأَعْرَابِيَّ ، وَأَطْعَمَهُ ، فَقَالَ : أَوْفَيْتَ أَوْفَىٰ ٱللهُ لَكَ . فَقَالَ : « أُولَـٰئِكَ خِيَارُ النَّاسِ إِنَّهُ لاَ قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لاَ يَأْخُذُ الضَّعِيفُ فِيهَا حَقَّهُ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ » [1] وفي رواية أخرىٰ : عَنْ رَبِيعَةَ بن يَزِيدَ : أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَىٰ مَسْلَمَةَ بن مَخْلَدٍ : أَنْ سَلْ عَبْدَ ٱللهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ ، هَلْ سَمِعَ رَسُولَ ٱللهِ ﷺ ، يَقُولُ : « لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لا يَأْخُذُ ضَعِيفُهَا حَقَّهُ مِنْ قَوِيِّهَا وَهُوَ غَيْرُ مُضْطَهَدٍ » ، فَإِنْ قَالَ : نَعَمْ ؛ فَاحْمِلْهُ إِلَيَّ عَلَىٰ الْبَرِيدِ ، فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : نَعَمْ ؛ فَحَمَلَهُ عَلَىٰ الْبَرِيدِ مِنْ مِصْرَ إِلَىٰ الشَّامِ ، فَسَأَلَهُ مُعَاوِيَةُ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ ، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَثَّبَتَ » [2] .

والشيء الطاهر هو الطيب ، و ٱلله طيب لا يقبل إلا طيباً ، والطيب : الأفضل من كل شيء ، كل ما يتطيب به من عطر ، ونحوه [3] ، كما أنَّ الطيب هو الحلال ، ولا شك أنه طاهر .

فالحلال هو الطيب : وكل ما تستلذه الحواس ، أو النفس ، وكل ما خلا من الأذىٰ والخبث ، وفي الحديث الشريف : « جعلت لي الأرض طيبةً طهوراً » .

أي : نظيفة غير خبيثة [4] . أمَّا ما وقفنا عليه في الصِّحاح ؛ فهو : قال النَّبِيِّ ﷺ : « جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً » [5] وعن النبي ﷺ قال : « جعلت لي الأَرضُ طيبةً طهوراً ، ومسجداً ، وأيُّما رجل أدركته الصلاة صلَّىٰ حيث كان » [6] .

---

(1) سنن ابن ماجه ج 7، ص 269 .
(2) المعجم الكبير للطبراني ج 14، ص 315 .
(3) القاموس الفقهي ج 1، ص 236 .
(4) هـٰذا ما ورد في كتب اللغة .
(5) صحيح البخاري ج 2، ص 217 .
(6) السنن الكبرى للبيهقي ج 2، ص 435 .

والقدوس من الناس هو من تخلَّىٰ عن الرذائل ، وتحلَّىٰ بالفضائل ، وفي القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ﴾ (1) أي : الأعمال السيئة بالأعمال الصالحة ، وفي الكتاب المجيد : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ (2) أي : الحلال من الرزق . وذلك لأن ٱلله طاهر طيب قدوس منزه عن النقائص وهو القدوس ، وفي الحديث الشريف : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ ٱللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ ٱللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ! » (3) . والطيب من الكلام : أفضله ، وأحسنه . والطيب من الأعمال الصدقة ولو بشق تمرة . وفي الحديث الشريف : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » فإن الكلمة التي فيها تطييب قلب إنسان تكون سبباً للنجاة من النار إذا كانت مباحة (4) .

والتقديس للنفس بالطهارة ، ولله بالتسبيح ؛ لأنه طاهر فنسبحه باسمه القدوس بشرط الطهارة المادية والمعنوية .

فالتَّسبيح هو التنزيه ، وسبحان ٱلله معناه : تنزيهاً لله من الصاحبة والولد . وقيل : تنزيه ٱلله تعالىٰ عن كل ما لا ينبغي له أَن يوصف به (5) . وهو

---

(1) النساء 2 .

(2) المائدة 4 .

(3) صحيح مسلم ج 5، ص 192 .

(4) القاموس الفقهي ج 1، 236 .

(5) السابق 236 .

سبحانه طاهر منزه لا يحتاج للولد ، ولا للزوجة ، والاحتياج في حقه سبحانه محال .

ومن صفات ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ السُّبُّوحُ القُدُّوسُ ، فالسُّبُّوح : الذي يُنَزَّه عن كل سُوء ، والقُدُّوسُ : المُبارَك ، وقيل : الطاهر . وقال ابن سيده : سُبُّوحٌ قُدُّوس من صفة ٱلله عز وجل ؛ لأَنه يُسَبَّحُ ويُقَدَّسُ [1] .

وقدس ٱلله تعالىٰ ذاتيٌّ ، فلا العقول تتوهمه ، ولا العيون تبصره ، ولا يقف لنوره مخلوق ، فأنوار وجهه المبارك مهلكة ، وهي الأنوار التي أُخبرنا عنها ، فما بالنا بالتي لم نخبر بها ؟ !

وسُبُحاتُ وجهِ ٱلله ـ بضم السين والباء ـ : أَنوارُه وجلالُه وعظمته . وقال جبريل عليه السلام : إِن لله دون العرش سبعين حجاباً لو دنونا من أَحدها ؛ لأَحرقتنا سُبُحاتُ وجه ربنا . قال ابن شميل : سُبُحاتُ وجهه نُورُ وجهه وفي حديث آخر حجابُه النورُ ، والنارُ ، لو كشفه لأَحْرقت سُبُحاتُ وجهه كلَّ شيء أَدركه بصَرُه . سُبُحاتُ وجه ٱلله : جلالُه وعظمته وهي في الأَصل جمع : سُبْحة . وقيل : أَضواء وجهه . وقيل : سُبْحاتُ الوجه محاسنُه ؛ لأَنك إِذا رأَيت الحَسَنَ الوجهِ ؛ قلت : سبحان ٱلله . وقيل : معناه : تنزيهٌ له . أَي : سبحان وجهه . وقيل : سُبْحاتُ وجهه كلام معترض بين الفعل والمفعول . أَي : لو كشفها ؛ لأَحرقت كل شيء أَدركه بصره ، فكأَنه قال : لأَحرقتُ سُبُحاتُ ٱلله كل شيء أَبصره . كما تقول لو دخل المَلِكُ البلدَ لقتل ـ والعِياذُ بٱلله ـ كلَّ من فيه . قال : وأَقرب من هـٰذا كله : أَن المعنىٰ : لو انكشف من أَنوار ٱلله ـ التي تحجب العباد عنه ـ شيء ؛ لأَهلك كلَّ من وقع عليه ذلك النورُ ، كما خَرَّ موسىٰ ـ علىٰ نبينا وعليه السلام ـ صَعِقاً ، وتَقَطَّعَ

(1) السابق 236 .

الجبلُ دَكّاً لمَّا تجلىٰ ٱلله ، سبحانه وتعالىٰ [1] !

فالتقديس تطهير للنفس حتىٰ تليق أن تقف أمام خالقها ، ومن وسائل التقديس التسبيح . « وقد يكون التسبيح بمعنىٰ الصلاة ، والذِّكر . تقول : قَضَيْتُ سُبْحَتي . وروي : أَن عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ جَلَدَ رجلين سَبَّحا بعد العصر . أَي : صَلَّيا ، قال الأَعشىٰ :

وسَبِّحْ علىٰ حين العَشِيَّاتِ والضُّحَىٰ ولا تَعْبُـدِ الشيطـانَ واللـهَ فـاعْبُـدا [2]

يعني : الصلاة بالصَّباح ، والمَساء . وعليه فسر قوله تعالىٰ : ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [3] يأْمرهم بالصلاة في هـٰذين الوَقتين . وقال : الفراء ﴿ حِينَ تُمْسُونَ ﴾ المغرب ، والعشاء . و﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ صلاة الفجر . و﴿وَعَشِيًّا ﴾ العصر . و﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ الظهر . وقوله : ﴿ وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴾ أَي : وصَلِّ . وقوله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أَراد من المصلين قبل ذلك . وقيل : إنما ذلك لأَنه قال : في بطن الحوت : لا إلـٰه إلاَّ أَنت سبحانك إني كنت من الظالمين . وقوله : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ يقال : إن مَجْرَىٰ التسبيح فيهم كمَجرىٰ النَّفَسِ منا لا يَشْغَلُنا عن النَّفَسِ شيء . وقوله : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ أَي : تستثنون . وفي الاستثناء تعظيمُ ٱلله ، والإِقرارُ بأَنه لا يشاء أَحدٌ إلاَّ أَن يشاء ٱلله ، فوضع تنزيه ٱلله موضع الاستثناء ، والسُّبْحةُ : الدعاء ، وصلاةُ التطوع ، والنافلةُ . يقال : فرغ فلانٌ من سُبْحَته ؛ أَي : من صلاته النافلة ، سمِّيت الصلاة تسبيحاً ؛ لأَن التسبيح تعظيم ٱلله وتنزيهه من كلِّ سوء . قال ابن الأَثير : وإنما خُصت النافلة بالسُّبْحة وإن شاركتها الفريضة في معنىٰ

(1) السابق 237 .
(2) السابق 238.
(3) الروم 17 .

التسبيح ؛ لأَن التسبيحات في الفرائض نوافلُ فقيل لصلاة النافلة : سُبْحة ؛ لأَنها نافلة كالتسبيحات والأَذكار في أَنها غير واجبة . وقد تكرر ذكر السُّبْحة في الحديث كثيراً ، فمنها : « اجعلوا صلاتكم معهم سُبْحَةً » . أَي : نافلة . ومنها : كنا إِذا نزلنا منزلاً لا نُسَبِّحُ حتىٰ نَحُلَّ الرِّحال . أَراد صلاة الضحىٰ . بمعنىٰ : أَنهم كانوا مع اهتمامهم بالصلاة لا يباشرونها حتىٰ يَحُطُّوا الرحال ، ويُريحوا الجمالَ رفقاً بها ، وإِحساناً . والسُّبْحَة : التطوُّع من الذِّكر والصلاة . قال ابن الأَثير : وقد يطلق التسبيح علىٰ غيره من أَنواع الذكر مجازاً كالتحميد والتمجيد وغيرهما . وسُبُحَةُ ٱلله : جلالُه . وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ﴾ أي : فراغاً للنوم . وقد يكون السَّبْحُ بالليل ، والسَّبْحُ أَيضاً : النوم نفسه . وقال ابن عرفة في قوله تعالىٰ : ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أَي : سبحه بأسمائه ، ونزهه عن التسمية بغير ما سمَّىٰ به نفسه . قال : ومن سمىٰ ٱلله تعالىٰ بغير ما سمىٰ به نفسه فهو مُلْحِدٌ في أسمائه ، وكلُّ من دعاه بأسمائه ، فَمُسَبِّح له بها ؛ إِذ كانت أسماؤه مدائح له ، وأَوصافاً . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ ﴾ وهي صفاته التي وصف بها نفسه وكل من دعا ٱلله بأسمائه فقد أَطاعه ومدحه ولَحِقَه ثوابُه . وروي عن رسول ٱلله ﷺ : أَنه قال : « ما أَحدٌ أَغْيَرَ من ٱلله ، ولذلك حَرَّمَ الفواحشَ ، وليس أَحدٌ أَحبَّ إِليه المَدْحُ من ٱلله تعالىٰ » . والسَّبْحُ أَيضاً : السكون . والسَّبْحُ : التقَلُّبُ ، والانتشار في الأَرض ، والتَّصَرُّفُ في المعاش ، فكأَنه ضِدٌّ . وفي حديث الوضوء : فأَدخل أَصْبُعَيْه السَّبَّاحَتَيْنِ في أُذنيه » . السَّبَّاحةُ ، والمُسَبِّحةُ : الإِصبع التي تلي الإِبهام ، سميت بذلك ؛ لأَنها يشار بها عند التسبيح [1] .

فالقدوس هو ٱلله في ذاته . وهو طاهر طيب . لا يقبل إلا طيب ونرىٰ من

(1) لسان العرب ج 2، ص 470 .

أثر هـٰذا الاسم العظيم علىٰ العباد الآتي :

الطُّهر المعنوي :

وهو الإقرار لله بالوحدانية ، وللنبي ﷺ بالرسالة ، وبتصديق جميع الأنبياء والمرسلين ، ومن لم يفعل ذلك لا يكون طاهراً مقدساً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] فالشرك بٱلله نجاسة ، والمشرك نجس غير طاهر وإن اغتسل بماء البحار جميعها . « فالمشرك عين النجس ، والنجس مصدر بمعنىٰ النجاسة . وقد وصفوا بالمصدر مبالغة كأنهم عين النجاسة فيجب الاجتناب عنهم ، والتبري منهم ، وقطع مودتهم . وسمىٰ المشرك نجساً ؛ لأن الشرك أقوىٰ من القذر المؤدي للنجاسة ، فيجب تجنبه كما يجب تجنب النجاسات ، ولأنهم لا يتطهرون من الجنابة والحدث ، ولا يبتعدون عن النجاسة الحقيقية ، فهم معايشون لها غالباً فحكم عليهم بأنهم نجس بمعنىٰ أصحاب نجاسة حكمية وحقيقية في أعضائهم الظاهرة ، وأنهم نجس بمعنىٰ ذوي نجاسة في باطنهم ؛ حيث تنجسوا بالشرك ، والاعتقاد الباطل . ولهـٰذا حرم عليهم دخول المسجد الحرام مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ فلا يقربوه بسبب أنهم عين النجاسة فضلاً عن أن يدخلوه فإن نهيهم عن اقترابه للمبالغة في نهيهم عن دخوله .

فالمتخلق بالاسم القدوس طاهر معنوياً ؛ لأنه تحلَّىٰ بالطهر المعنوي الباطني ، ولبُّ ذلك الطهر : (لا إلـٰه إلا ٱلله محمد رسول ٱلله) والتصديق بما جاء به الأنبياء السابقون ، والإيمان به وفي ذلك عين الطهر والتقديس للنفس ولله . وأول من فعل هـٰذا في الأمة الرسول ﷺ القدوة الحسنة لكل من

(1) التوبة 28 .

أراد الطهر . قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (1) .

وقد بدأ في سورة البقرة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقهم سبحانه وتعالىٰ ينفقون ، وبيّن في آخر السورة : أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة الحبيب محمد ﷺ ، فقال : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ ﴾ وهـٰذا هو المراد بقوله في أول السورة ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ (2) وهم هـٰؤلاء الطاهرون الذين يتطهرون لله من الشرك والكفر ، وهم متبعون للقدوة وللمثل الأعلىٰ ﴿ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ ﴾ وقولهم يتوافق مع أمروا به في أول السورة : ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ ، فيجمعون بين التقديس المعنوي والمادي في آن واحد بقولهم : ﴿ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ وهو ما يتوافق مع ما جاء في أول السورة : ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ (3) مع تضرعهم إلىٰ ربهم في قولهم : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (4) وهو صفتهم الإيمانية في أول السورة التي قال ٱلله فيها : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (5) وهنا قمة التقديس لله من المتقين الذين طهروا الظاهر والباطن لله حتىٰ يكون تقديسهم له

(1) البقرة 285 .

(2) البقرة 3 .

(3) البقرة 4 .

(4) البقرة 286 .

(5) البقرة 5 .

سبحانه وتعالىٰ علىٰ الوجه الذي أراد منهم ، فيكونوا من المستحقين للخلافة ، وينتفي سؤال الملائكة : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (1) فالحقيقة : أن الخليفة الذي قدر ٱلله أن يكون في الأرض سيقدس لله ، وسيسبحه مع كونه مكلفاً بأمانة أخرىٰ وهي تعمير الأرض ومغالبة النفس والهوىٰ والشيطان والدنيا ، وهي التي لم يتحملها أقوىٰ المخلوقات : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (2) فالمؤمنون الذين يؤمنون بٱلله رباً واحداً منزهاً عن الشريك والزوجة والولد ، ومن يدعي ذلك فهو ليس بمؤمن ، وإن ادعىٰ الإيمان ؛ فهو كافر منافق لن يقبل ٱلله منه ، أما المؤمن الحق الذي يتوب إلىٰ ٱلله (3) ، وٱلله يقبل توبته ؛ لأنه طاهر الباطن ، وطاهر الظاهر ، وٱلله يحبه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ فيطهره ٱلله ؛ لأنه القدوس الطاهر الطيب جل جلاله .

والتقديس لله بالمحبة الخالصة فيكون العبد محبّاً لله مقبلاً عليه ، فيحبه ٱلله ، و محبة ٱلله لعبده حين يقبل عليه هو تقريبه لحضرته ، وهدايته لمحبته من غير نفع له في ذلك ؛ إذ لا تنفعه طاعة من أقبل عليه ، ولا تضره معصية من أدبر عنه ؛ إذ هو غنيٌّ عن الكل ، فٱلله لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وإنما أمر بالطهر المعنوي والمادي ، ونهىٰ عن غير ذلك ؛ لما يعود إلىٰ منفعة العبد ، فلا يزيد في عزِّه إقبال من أقبل عليه ، ولا ينقص من قدره

---

(1) البقرة 30 .
(2) الأحزاب 72 - 73 .
(3) البقرة 222 .

إدبار من أدبر عنه ، فٱلله القدوس الطاهر الطيب سبحانه غنيٌّ عن كل شيء ، ومفتقر إليه كل شيء ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ، فلا تنفعه أيها العبد طاعتك ، فيكون محتاجاً إليك ، تعالىٰ ٱلله عن ذلك ! ولا تضره معصيتك ، فيكون مقهوراً بها ، وهو القاهر فوق عباده . فإنما أمرك بالطاعة ليقربك إليه ، ورحمة ٱلله قريب من المحسنين ، وإنما نهاك عن المعاصي ؛ لما جعل فيها من علامة البعد عن رضاه ، فما أمرك ٱلله بشيء إلا وفيه تقريب ورحمة ، وما نهىٰ ٱلله عن شيء إلا وفيه ضرر في الدنيا قبل الآخرة ، فعلىٰ العاقل قبول ما أمر ٱلله به ؛ لأنه سبحانه لا يُسأل عما يفعل ، وهم يسألون . فلا يزيد في ملكه إقبال من أقبل عليه ، ولا يزيد في تقديسه ؛ لأن قدسيته أزلية قديمة ، ولا ينقص من تقديسه إدبار من أدبر عنه ؛ لأنه غنيٌّ عن العالمين . وفي الحديث القدسي ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ ؛ قَالَ : قَالَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « إِنَّ ٱللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ : يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلاَّ مَنْ عَافَيْتُ فَسَلُونِي الْمَغْفِرَةَ فَأَغْفِرَ لَكُمْ وَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَىٰ الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي بِقُدْرَتِي غَفَرْتُ لَهُ . وَكُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُ فَسَلُونِي الْهُدَىٰ أَهْدِكُمْ ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلاَّ مَنْ أَغْنَيْتُ ، فَسَلُونِي أَرْزُقْكُمْ . وَلَوْ أَنَّ حَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَأَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فَكَانُوا عَلَىٰ قَلْبِ أَتْقَىٰ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي ؛ لَمْ يَزِدْ فِي مُلْكِي جَنَاحُ بَعُوضَةٍ . وَلَوْ اجْتَمَعُوا فَكَانُوا عَلَىٰ قَلْبِ أَشْقَىٰ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي لَمْ يَنْقُصْ مِنْ مُلْكِي جَنَاحُ بَعُوضَةٍ . وَلَوْ أَنَّ حَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَأَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا ، فَسَأَلَ كُلُّ سَائِلٍ مِنْهُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ ؛ مَا نَقَصَ مِنْ مُلْكِي إِلاَّ كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِشَفَةِ الْبَحْرِ ، فَغَمَسَ فِيهَا إِبْرَةً ، ثُمَّ نَزَعَهَا . ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ عَطَائِي كَلاَمٌ ؛ إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا ؛ فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ : كُنْ ، فَيَكُونُ » (1) .

---

(1) سنن ابن ماجه، ج 12، ص 308 .

فالقدوس سبحانه منزه عن كل كمال لا يليق بذاته . ولا نقول : إنه منزه عن النقائص ؛ إذ لا تصح نسبتها إليه حتىٰ ينزه عنها ؛ إذ لا ينفىٰ عن الشيء إلا ما يصح إثباته له فإن نفيت مالا يصح إثباته فربما يكون ، ولذلك روي عن أمنا السيدة أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ : أنها قَالَتْ : « كُنْتُ نَائِمَةً إِلَىٰ جَنْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَفَقَدْتُهُ مِنْ اللَّيْلِ ، فَلَمَسْتُهُ بِيَدِي فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَىٰ قَدَمَيْهِ وَهُوَ سَاجِدٌ يَقُولُ : « أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَبِكَ مِنْكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ » [1] .

ومن التقديس المادي :

الوضوء :

فالوضوء سلاح المؤمن وهو مفتاح كل عمل صالح من صلاة وحج وقراءة للقرآن علىٰ المستحب ، فقال رَسُولُ ٱللهِ ﷺ : « اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْمَلُوا وَخَيْرُ أَعْمَالِكُمْ الصَّلاَةُ ، وَلاَ يُحَافِظُ عَلَىٰ الْوُضُوءِ إِلاَّ مُؤْمِنٌ » [2] . وعَنْ خَالِدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلاَلٍ عَنْ نُعَيْمٍ الْمُجْمِرِ ؛ قَالَ : رَقِيتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَىٰ ظَهْرِ الْمَسْجِدِ ، فَتَوَضَّأَ ، فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ ؛ فَلْيَفْعَلْ » [3] . وعن صفة الوضوء وفضله :

عَنْ حُمْرَانَ مَوْلَىٰ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ : أَنَّهُ رَأَىٰ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَعَا بِوَضُوءٍ ، فَأَفْرَغَ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنْ إِنَائِهِ ، فَغَسَلَهُمَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الْوَضُوءِ ثُمَّ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ وَاسْتَنْثَرَ ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاَثًا وَيَدَيْهِ إِلَىٰ الْمِرْفَقَيْنِ ثَلاَثًا ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ ثُمَّ غَسَلَ كُلَّ رِجْلٍ ثَلاَثًا ثُمَّ قَالَ : رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَوَضَّأُ نَحْوَ

---

(1) موطأ مالك ج 2، ص 149 .

(2) موطأ مالك ج 1، ص 86 .

(3) صحيح البخاري ج 1، ص 234 .

وُضُوئِي هَـٰذَا ، وَقَالَ : « مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَـٰذَا ، ثُمَّ صَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ ؛ غَفَرَ ٱللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[1] .

اختلف العلماء في الوضوء لقراءة القرآن فمن قائل : إنَّه تجوز قراءة القرآن لمن هو علىٰ غير طهارة . ومن قائلٍ غير ذلك ، ولأنه من صفاته سبحانه القدّوس ومعناه الطاهر فينبغي للعبد إذا ناب مناب الحق في كلامه بتلاوته أن يكون مقدَّساً ، أي : طاهراً في ظاهره بالوضوء المشروع ، وفي باطنه بالإيمان ، والحضور ، والتدبر .

الصلاة :

ومن الأعمال المادية التي تطهر الباطن ، وتحتاج إلىٰ الوضوء أو نية الطهارة في حال عدم وجود الماء « الصلاة » . قال ٱلله تعالىٰ لموسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾[2] .

وهـٰذا يدل علىٰ أن علم الأصول « التوحيد » مقدم علىٰ علم الفروع« العبادات » ؛ لأن التوحيد في علم الأصول ، والعبادة من علم الفروع وقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ تدل علىٰ أن عبادته تعالىٰ لازمة وذلك لأن ٱلله هو المستحق للعبادة ، وقد أمر سبحانه أولا بالتوحيد ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ ثم أمر بالعبادة ثانياً ﴿ فَٱعۡبُدۡنِي ﴾ ، ثم أمره بالصلاة ثالثاً فقال : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ . ﴿ لِذِكۡرِيٓ ﴾ يعني : لتذكرني . فذكر ٱلله أن يعبد ويصلي له ويقدس ، قال ٱلله تعالىٰ في فضل من يقوم بالصلاة علىٰ الوجه الأكمل : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا

(1) صحيح البخاري ج 1 ، ص 285 .
(2) طه 14 .

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [(1)] .

وصفات هـٰؤلاء القديسين الطاهرين المتحققين بقدسية الاسم القدوس :

ـ الفلاح .

ـ الإيمان

ـ أداء الصلاة .

ـ الخشوع .

ـ الإعراض عن اللغو .

ـ للزكاة فاعلون .

ـ لفروجهم حافظون .

ـ لأمانتهم وعهدهم راعون .

ـ علىٰ صلاتهم يحافظون .

ـ هم الوارثون للفردوس ؛ لأنهم يقدسون أنفسهم لله .

ومن أسباب التقديس والتطهير إخراج الزكاة ، واتفق العلماء علىٰ أن الزكاة تجب في ثمانية أشياء محصورة في المولدات من معدن ، ونبات ، وحيوان . فالمعدن : الذهب ، والفضة . والنباتات : الحنطة ، والشعير ، والتمر . والحيوان : الإبل ، والبقر ، والغنم . هـٰذا هو المتفق عليه ، وهو الصحيح عندنا ، وأما الزبيب ففيه خلاف . والاعتبار في ذلك : أن الزكاة تجب علىٰ الإنسان في ثمانية أعضاء : البصر ، والسمع ، واللسان ، واليد ،

---

(1) المؤمنون 1 ـ 11 .

والبطن ، والفرج ، والرِّجل ، والقلب . ففي كل عضو نوع من الزكاة ، وفي كل عضو من هـٰذه الأعضاء صدقة واجبة يطلب ٱلله بها العبد في الدار الآخرة .
وأما صدقة التطوع فعلىٰ كل عرق في الإنسان صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكذلك التحميد ، والتكبير . فالزكاة التي في هـٰذه الأعضاء هي حق ٱلله تعالىٰ الذي أوجبها علىٰ الإنسان من هـٰذه الأعضاء الثمانية كما أوجبها في هـٰذه الثمانية من الذهب ، والوَرِق ، وسائر ما ذكرنا مما تجب فيه الزكاة بالاتفاق فتعين علىٰ المؤمن أداء حق ٱلله تعالىٰ في كل عضو : فزكاة البصر ما يجب لله تعالىٰ فيه من الحق كالغضِّ عن المحرّمات ، والنظر فيما يؤدي النظر إليه من القربة عند ٱلله كالنظر في المصحف ، وفي وجه العالم ، وفي وجه من يُسَرُّ بنظرك إليه من أهلٍ ، وولدٍ ، وأمثالهم ، وكالنظر إلىٰ الكعبة ، وكذلك في جميع الأعضاء المكلفة في الإنسان من تصرفها فيما ينبغي ، وكفها عما لا ينبغي بيان وإيضاح . واعلم أن هـٰذه الأصناف قد أحاطت بمولدات الأركان كما قلنا ، وهي : المعدن ، والنبات ، والحيوان ، وما ثم رابع .
ففرض ٱلله الزكاة في أنواع مخصوصة من كل جنس من المولدات لطهارة الجنس ، فتطهر النوع بلا شك من الدعوىٰ التي حصلت فيه من الإنسان بالملك ، فإن الأصل فيه الطهارة من حيث إنه ملك لله مطلقاً ، وذلك : أن الأصل الذي ظهرت عنه الأشياء من أسمائه القدوس ، وهو الطاهر لذاته من دنس المحدثات ، فلما ظهرت الأشياء في أعيانها ، وحصلت فيها دعاوىٰ الملاك بالملكية طرأ عليها هـٰذا الدنس العرضي بملك الغير لها . وكفىٰ بالحدث حدثاً وهـٰذه الأجناس لا تصرف لها في أنفسها ، فأوجب ٱلله علىٰ مالكها فيها الزكاة ، وجعل ذلك طهارتها ، فعين ٱلله فيها نصيباً يرجع إلىٰ ٱلله عن أمر ٱلله لينسبها إلىٰ مالكها الأصلي فتكتسب الطهارة ، فإن الزكاة إنما جعلها ٱلله طهارة الأموال وكذلك في الاعتبار فإن هـٰذه الأعضاء المكلفة هي طاهرة بحكم الأصل فإنها علىٰ الفطرة الأولىٰ ، ولا تزول عنها تلك الطهارة والعدالة . ألا تراها تشهد يوم القيامة ، وتقبل شهادتها لزكاتها الأصلية

وعدالتها . فإن الأصل في الأشياء العدالة لأنها عن أصل طاهر . والجارحة طارئة قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ وقال ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم ﴾ وقال تعالىٰ ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ فهٰذا كله إعلام من ٱلله لنا أن كل جزء فينا شاهد عدل زكي مرضي . قال رسول ٱلله ﷺ في تطهير الإنسان من الجهل : « من عرف نفسه عرف ربه » فبمعرفته صحت طهارته لمعرفته بربه . فالحق هو القدّوس المطلق ، وتقديس العبد معرفته بنفسه ، فما طهر إلا بمعرفة نفسه [1] [2] .

ومن تطهير النفس الصدقة التي تردُّ جوع الجائع ، وتكسو جسد الفقير الذي لا يجد ما يستر به نفسه ، لذا فثوابها عظيم ، فقد قال رَسُولَ ٱللهِ ﷺ : « الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ » [3] وصدقة السر أعظم في الأجر لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [4] وكلٌّ مقبول إذا كانت النية صادقة ، والصدقة في السر أفضل . ويقال : إن الصدقة تطفئ الخطيئة ، كما يطفئ الماء النار » [5] .

وعن أثر الصدقة في تطهير النفس ، وما يناله المتصدق من أثر طيب لها : حسن الخاتمة ، فعن أنس قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « الصدقة تطفئ

---

(1) الفتوحات المكية ج 2، ص 187 .

(2) كشف الخفاء ج 2، ص 262 وللحافظ السيوطي فيه تأليف لطيف سماه القول الأشبه في حديث من عرف نفسه فقد عرف ربه . وقال النجم : قلت : وقع في أدب الدين والدنيا للماوردي عن عائشة سئل النبي ﷺ : من أعرف الناس بربه ؟ قال : « أعرفهم بنفسه » .

(3) المعجم الكبير للطبراني ج 19، ص10 .

(4) البقرة 271 .

(5) تفسير ابن أبي حاتم ج 10، ص 331 .

غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء » [1] . ومن وسائل تطهير النفس ما رويَ عن النبي ﷺ فعن الحارث الأشعري : أن رسول ٱلله ﷺ ، قال : « أُمِرَ يحيىٰ بن زكريا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بخمس كلمات يتعلمهن ، ويعلمهن بني إسرائيل ، ويعمل بهن ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن ، فكأنه أبطأ ، فقيل لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُرْ يحيىٰ أن يأمر بهٰذه الكلمات ، وإلا فاؤمر بهن أنت ، فقال عيسىٰ ليحيىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : ذلك ، فقال يحيىٰ : لا تفعل فإني أخاف إن أمرت بهن أن أعذب ، أو يخسف ٱلله بي الأرض . قال : فجمع يحيىٰ بني إسرائيل في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد ، ثم جلس علىٰ شرفة ، فقال : إن ٱلله أمرني بخمس كلمات أن أعلمكموهنَّ ، وآمركم أن تعلموهنَّ ، ثم قال : أولهن أن لا تشركوا بٱلله شيئاً فإن مثل من يشرك بٱلله كمثل رجل اشترىٰ عبداً ، فجعله في داره ، فقال العبد : هٰذه داري ، وهٰذا عملي ، فجعل يعمل ، ويؤدي عمله إلىٰ غير سيده . فأيكم يحب أن يكون له عبد كذلك ؟ ! وإن ٱلله هو الذي خلقكم ورزقكم فلا تشركوا به شيئاً . وآمركم بالصلاة ، فإذا صليتم ، فلا تلتفتوا في صلاتكم فإن ٱلله ينصب وجهه لعبده ما دام في صلاته ما لم يلتفت . وآمركم بالصدقة فإن مثل الصدقة كمثل رجل أخذه العدو ، فقدموه ؛ ليضربوا عنقه ، فقال : ما تصنعون بضرب عنقي ؟ ، أنا أفدي نفسي منكم بكذا ، قالوا : بلىٰ ، فافتدىٰ نفسه منهم . فكذلك الصدقة تطفئ الخطيئة . قال : وآمركم بالصيام ، فإن مثل الصيام كمثل رجل من قوم معه صرة مسك ، وليس مع أحد من القوم مسك غيره ، فكلهم يحب أن يجد ريحه ، فكذلك الصيام أطيب عند ٱلله من ريح المسك . قال : وآمركم بذكر ٱلله ، فإن مثل ذكر ٱلله كمثل رجل انطلق فارًّا من العدو ؛ وهم يطلبونه حتىٰ جاء إلىٰ حصن حصين ، فأفلت منهم . فكذلك الشيطان لا يحترز منه إلا من ذكر ٱلله » . وقال رسول ٱلله ﷺ : « وأنا آمركم بخمس : بالجماعة ، وبالسمع ، والطاعة ،

(1) شعب الإيمان للبيهقي ج 7، ص 354.

والهجرة ، والجهاد في سبيل ٱلله ، فمن خرج من الجماعة قيد شبر ؛ فقد خلع ربقة الإسلام حتىٰ يراجع ، ومن دعا دعوة جاهلية ؛ فإنه من جثاء جهنم » . فقال رجل : يا رسول ٱلله ! وإن صلىٰ وصام ؟ ! قال : « نعم وإن صلىٰ وصام ، ولـٰكن تسموا باسم ٱلله الذي سماكم عباد ٱلله المسلمين المؤمنين » .

وعن أنس ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، وإن الصدقة تطفئ الخطيئة كما تطفئ الماء النار ، والصلاة نور المؤمن ، والصوم جُنَّته من النار »[1] . وعن أبي ذرٍّ ؛ قال : قلت يَا رسول ٱلله ! مَا تقول فِي الصلاة ؟ قال : « تمام العمل » . قلت : يَا رسول ٱلله ! أسألك عن فضل الصدقة شيء عجب . قلت : يَا رسول ٱلله ! تركت أفضل عمل فِي نفسي ، أو خيره ؟ قال : مَا هو ؟ قلت : الصوم . قال : خير ، وَلَيْسَ هناك . قال : يَا رسول ٱلله ! وأي الصدقة ـ وذكر كلمة ـ قلت : فإن لَمْ أقدر أفعل ؟ قال : بفضل طعامك . قلت : فإن لَمْ أفعل ؟ قال : بشق تمرة . قلت : فإن لَمْ أفعل ؟ قال : بكلمة طيبة . قلت : فإن لَمْ أفعل ؟ قال : دع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدق بِهَا عَلَىٰ نفسك . قلت : فإن لَمْ أفعل ؟ قال : تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً ؟ ! »[2] .

وما سبق قليل من كثير في معنىٰ الاسم القدوس ، وأثره في عمل المؤمن المتخلق بهـٰذا الاسم الشريف الكريم ، فهو يشمل كافة الجوانب الإيجابية في حياتنا من عقائد ، ومعاملات ، وعبادات ، وأحكام ، نرجو ٱلله أن يوفقنا لها علىٰ الوجه الذي يريد .

اللهمَّ يا القدوس اجعلنا ممن يقدسون قولك ، ويطيعونك ، واجعلنا من

(1) الإيمان لابن منده ج 1 ، ص 260 .
(2) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ـ ج 2 ، ص 11 .

الطاهرين المقدسين ! ويا القدوس طهر أعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب ، وقلوبنا من النفاق ، وأنفسنا من الشح والبخل ، واختم لنا بخاتمة السعادة ، واجعلنا يا القدوس مع الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين في الفردوس الأعلىٰ !

اللهمَّ إننا نقدسك طاعة تامة فاجعل أقوالنا ، وأعمالنا مقدسة بصلاتنا وسلامنا علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام ، ومقدسة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبتجنب ما أمرتنا اجتنابه ، واتباع ما أمرتنا اتباعه .

✍ ✍ ✍

السَّلامُ جلّ جلاله

السلام اسم من أسماء ٱلله الحُسنىٰ ، وفي اللغة يعني : « البراءة من العيوب والنقائص ، ويشمل في ثناياه معاني متعددة ، كالسكينة ، والأمان ، والاستقرار ، والهدوء » [1] .

والسلام « هو الذي سلمت ذاته وصفاته وأفعاله من كل ما لا يليق بكماله . وكذلك من اسم السلام اشتق الإسلام ، وهو دين ٱلله » [2] مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [3] .

ويقــول الإمــام ابــن القيــم : فــي اســم (الســلام) جــل جــلالــه قولان : « أحدهما : أنه مصدر ، وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه ، والمعنىٰ : أنه ذو السلام ، وذو العدل علىٰ حذف المضاف . والثاني : أن المصدر بمعنىٰ الفاعل ؛ أي : السالم كما سمِّيت ليلة القدر : سلاماً أي : سالمة من كل شر ، بل هي الخير لا شرَّ فيه » [4] .

(1) محمد متولي الشعراوي ، أسماء ٱلله الحسنى . القاهرة ـ أخبار اليوم قطاع الثقافة ص 149 .

(2) أحمد عبد الجواد، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها . الدار البيضاء ـ دار الثقافة ص 37 .

(3) آل عمران 19 .

(4) مشرف علي عبد ٱلله ، منهج ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى . الدمام ـ دار ابن الجوزية الطبعة الأولى 2005 ص 279 .

قال تعالىٰ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ (1) في هٰذه الآية كل اسم من أسمائه الحُسنىٰ يؤكد علىٰ الصفة التي تسبقه ويحتويها ، فالمَلِك هو ٱلله ، والقدوس هو ٱلله ، والسلام هو ٱلله ، ولذا فإن جميع الأسماء الحُسنىٰ هي ٱلله جلا جلاله ؛ ولأنها هي ٱلله تعالىٰ فهي بطبيعة الحال تحتوي كل صفات الكمال فيها . ولذلك فإن اسم ٱلله تعالىٰ يحتويها .

ومع أنَّ هٰذه الآية ثلاثية الأبعاد إلا أنها نزلت وحدة واحدة متماسكة بنياناً مرصوصاً .

فالبعد الأول : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ . في هٰذا البعد ينفي وجود إلٰه غيره ، ويتم التأكيد علىٰ أنه ٱلله الذي لا شريك له في الأمر ، إنه ٱلله واحد أحد ، ولا وجود لغيره . وهٰذا يعني : إذا كان هناك من يعتقد بوجود لغير ٱلله تعالىٰ ؛ فلن يجده ، ولن يجد له مكاناً ، ولن يجد له صفات . ولذلك كفر الذين قالوا : إنَّ ٱلله ثالث ثلاثة . قال تعالىٰ : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (2) .

والبعد الثاني : ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ . هٰذه الأسماء جميعها هي ٱلله الذي تم التأكيد عليه بالبعد الأول ، بأنه لا إلٰه إلا هو . وهٰذا يعني : أن هٰذه الأسماء وغيرها من الأسماء الحُسنىٰ هي غير متعددة ، بل هي صفات تتعدد ، أي أنها صفات لواحد لا يتعدد . ولذلك فإن القاعدة هي : تتعدد الصفات للواحد ولا يتعدد الواحد في صفاته . فالكريم عندما يكون صادقاً ، وعادلاً ، يظل هو مفردة

---

(1) الحشر 23 .

(2) المائدة 73 .

واحدة ، وصفاته متعددة ، ولهـٰذا فإن ٱلله واحد أحد ، وصفاته متعددة فالحمد لله الواحد المتعدد الصفات الحسان !

والبعد الثالث : ﴿ سُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ هـٰذا البعد يؤكد بالتمام مقاصد البعدين السابقين بأن ٱلله واحد أحد ، وهو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . أي : هو الذي له الأسماء الحُسنىٰ ، ولذلك جاء قوله تعالىٰ : ﴿ سُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ لينفي وجود الشريك ويؤكد علىٰ الواحد الأحد متعدد الصفات .

السلام : هو الكامل غير المنقوص ، الدائم علىٰ البقاء حيّاً لا يموت ، وهو الذي بذكره تطمئن القلوب .

السلام الحق هو ٱلله تعالىٰ ، والسلام بالإضافة هو الخليفة . ولذا فإنه السلام الحق لكمال صفاته ، أمَّا السلام بالإضافة (الخليفة) فيرتبط بدرجة الالتزام بما يأمر السلام الحق به . ولذلك السلام الحق جاء مطلقاً بلا شروط ، والسلام بالإضافة لا يتم إلا بالتزام شرطي وفقاً لنص من السلام الحق ، وهي (الشرعة) . التي إن التزم بها قولاً وفعلاً ؛ كان الخليفة في الأرض ، وإن لم يلتزم قولاً ، وفعلاً ؛ فلن يكون الخليفة ، وذلك لنقصه عمَّا يراد له أن يكون عليه من شِرعة . ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [1] . ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم ﴾ تعني : بيَّن لكم كل شيء في الدين ، والدين عند ٱلله هو الإسلام ، والإسلام لا يعني الرسالة المحمدية فقط ، بل كل الدين من عند ٱلله واحد ، وهو الإسلام الذي كان خاتم أنبيائه محمد رسول ٱلله ﷺ . ولهـٰذا لا نفرق بين أحدٍ من رسله : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا

(1) الشورى 13 .

وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (1) . وقال خير قائل : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

ومن آثار الإيمان بهٰذا الاسم الآتي :

1 ـ ٱلله تعالىٰ هو السلام ، السالم من كل نقص وآفة وعيب وهو اسم عظيم ، وفي معناه قريب من القدوس جلَّ جلاله .

2 ـ ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو المسلِّم علىٰ عباده وأوليائه في الجنة . قال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (3) .

3 ـ ٱلله تعالىٰ هو المسلِّم علىٰ أنبيائه ورسله لإيمانهم وإحسانهم وطاعتهم التامة له ، وتحملهم في سبيل الطاعة الشدائد ، فيؤمنهم في الآخرة فلا يخافون ولا يفزعون . قال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (4) ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (5) ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ (6) ، وقال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (7) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (8) .

4 ـ الأمر بإفشاء هٰذا الاسم ، وأنه سبب في دخول الجنة ، قال رسول ٱلله ﷺ : « لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتىٰ

(1) البقرة 285 .
(2) الجاثية 18 .
(3) ياسين 58 .
(4) الصافات 79 .
(5) الصافات 109 .
(6) الصافات 120 .
(7) الصافات 130 .
(8) الصافات 181 .

تحابوا ، ألا أدلكم علىٰ شيءٍ إذا فعلتموه تحابيتم ؟ أفشوا السلام بينكم »[1] .

ـ قال الشاعر :

وهـو السـلام علـىٰ الحقيقـة سـالـمٌ   مـن كـل تمثيـلٍ ومِـنْ نقصـانِ

بناء علىٰ ما تقدم فإن السلام الحق شرَّع شريعة تستوجب الاتباع من قبل من يراد له أن يكون الخليفة ، ولهٰذا التزم رسول ٱلله ﷺ كما التزم مِنْ قبله الرسل الذين اصطفاهم ٱلله لِيُبلغوا رسالاته ، والذين برسالاتهم أسلم المسلمون ، وآمنوا ، حتىٰ أصبحوا هم السلام بالإضافة . وفي مقابل ذلك كان غيرهم خوالف ، ولهٰذا أصبح المؤمنون هم الخليفة ، وأصبح غيرهم ، هم الخوالف .

في سورة الحشر الآية (٢٣) سابقة الذكر جاء اسم السَّلام مرتباً في الموضع السادس ، هٰذا الأمر جعله في وضع التأكيد علىٰ ما سبقه من صفات ، ويجعله في وضع الاحتواء لِما يأتي من بعده من صفاته تعالىٰ ، وهي التي بدورها لا تأتي إلا لتؤكد علىٰ كل صفة سابقة عليها .

ولأن ٱلله تعالىٰ واحد أحد لا شريك له في المُلك ؛ لذا كان السَّلام صفة ومسمىٰ من أسمائه الحُسنىٰ ، أي : لو لم يكن السلام صفة لله تعالىٰ ؛ لفسدت الأرض ، ولذلك لو لم يكن ٱلله واحداً أحداً ؛ ما كان السلام قاعدة للاستقرار والطمأنينة ، بمعنىٰ : لو كان ـ مع الاستغفار ـ كما يدَّعي البعض بأن ٱلله ثالث ثلاثة لفسدت السمٰوات والأرض بين اختلاف وغضب الآلهة المتعددة ، ولو كان في الوجود أكثر من إلـٰه واحد ؛ ما جاء اسم السلام صفة مطلقة لله تعالىٰ الذي بسلامه كان الوجود في حالة حركة ذاتية ، وجميع الكواكب دوارة حول ذاتها وحول بعضها البعض ، وهٰكذا ما بينها المجرَّات التي يُحيط كلٌّ منها في

---

(1) مسلم 45 .

دوائر متداخلة دون أن يحدث التقاطع والاصطدام . فمع أن الأرض تدور حول نفسها في حركة دائرية وتدور حول الشمس في حركة دائرية ، إلا أن ما عليها من كائنات هي في حالة استقرار وثبات وسلام وكأن الأرض ثابتةٌ لا تتحرك برغم السرعة التي هي عليها ، الأرض تدور دون توقف ، ومنازلنا وأبوابها ثابتة بين المشارق والمغارب هي كما هي . ومع أن الأرض علىٰ سرعتها الكروية فنحن لم نشاهد ونلحظ أنفسنا نتقلب مع حركة دورانها الكروية ، ولم يحسَّ أحدنا بالدوران ، الحركة شديدة ونومنا عميق . ولذا لولا السلام ؛ ما كُنَّا في سلام آمنين : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ (1) .

ولأن ٱلله واحد أحد لا شريك له ؛ فإن جميع صفاته صفات سلام ، مما يجعلنا نقول : في الرحمة السلام ، وفي البر الرحيم السلام ، وفي العدل السلام ، وفي الحق السلام ، وفي الكيد السلام ، وفي العزة السلام ، وهٰكذا في كل صفة من صفات ٱلله تعالىٰ السلام . وهٰذا لا يعني أنَّ لله تعالىٰ صفةً واحدةً هي صفة السلام ، بل له الصفات الحسان المتعددة .

ولذا فالسَّلام هو الذي بيده أمور الحياة والممات ، والبعث والثواب والعقاب ، وكل أمرٍ هو بيديه . ولهٰذا فالمؤمن ليس لديه مجهولاً يخشاه ، بل كل شيء بالنسبة له معلوم ، فالجنة معلومة ، وطرقها ممهدة معلومة ، والنار معلومة ، والطرق المؤدية إليها معلومة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (2) . كيف يخاف المؤمن وهو ينظر بأم عينيه طريق الخير مفتوحاً أمام من يريد أن يعمل صالحاً ، وطريق الشر مفتوحاً أمام من يريد أن يخشىٰ ٱلله ، ويُكفِّر عن سيئاته .

---

(1) الإسراء 111 .

(2) الزلزلة 7، 8 .

إذاً بدون شك السلام بالإضافة (الخليفة) هو الذي يختار بإرادة حرة طريق الجنَّة ، ويتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي به إلىٰ النار . أمَّا أولـٰئك الذين لم ينتهوا فهم الضالون الذين لن يُستخلفوا في الأرض : ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [1] . وقوله تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ [2] .

وقد يتساءل البعض : لماذا الانتهاء ؟

من أجل أن يعمَّ السلام . ولذلك جميع المفسدات منهي عنها ، وجميع المفسدين مطلوب منهم الانتهاء عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلىٰ الفتنة ، وجميع المسلمين مطلوب منهم قول الحق وفعل الحق طاعة للسَّلام الحق .

السلام أمر يعمُّ الناس ، ويخصُّ البعض : يعم الناس باعتباره حق عام من السَّلام الحق . ويخص البعض باعتباره لن يكون إلا للذين يعملون عليه . ولهـٰذا فالسلام قوة لا يُمكن أن يحققه الضعفاء . ولذلك فإن الذين لم ينتهوا هم الضعفاء ، والذين استجابوا هم الأقوياء . وعليه : فالسلام قوة تحقيق الاستقرار والأمن والعدل : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [3] . ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ ﴾ تعني : إن جنح الخصم أو العدو إلىٰ القبول بإحقاق الحق ؛ فلا ينبغي المكابرة ، وعلىٰ المسلم أن يقبل بذلك قبل غيره ، وفي مضمون : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا ﴾ أن يكون المسلمون في حالة قوة ، فالقوة هي التي تجعل العدو يجنح إلىٰ ما يبتغيه المسلم ، وهو السلام .

السلام اسم لله تعالىٰ ، يحفظ من كل سوء ، سواء كان مصدره إنسٌ ، أو جنٌّ ، فبسم ٱلله الرحمـٰن الرحيم تفتح أبواب النجاح ، وتحفظ من كل شر ،

---

(1) المائدة 73 .

(2) العلق 15 .

(3) الأنفال 61 .

ولذلك فهي الآية المفتاح ، التي بها يتم التمكن من الدخول إلىٰ ، والخروج من . ولهـٰذا جاءت استجابتها بالآية ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ، الدالة علىٰ ضمان النجاح للعمل الذي يؤسس علىٰ اسمه تعالىٰ ، مما يستوجب الحمد لمن كان اسمه فاتحاً لكل خير ، وغلقاً لكل شر ، فالحمد لله ربِّ العالمين الحافظ من شر ما خلق : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [1] و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [2] .

قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [3] . قال قتادة ، والحسن : « السلام هو ٱلله وداره الجنة ، وسميت الجنة دار السلام ؛ لأن من دخلها سلم من الآفات » [4] . وقال ابن عباس : « الجنان سبع : دار الجلال ، ودار السلام ، وجنة عدن ، وجنة المأوىٰ ، وجنة الخلد ، وجنة الفردوس ، وجنة النعيم » [5] .

وفي كتاب القول الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحُسنىٰ : سميت الجنة بدار السلام ، وفي إضافتها إلىٰ السلام ثلاثة أقوال : « الأول : إنها إضافة إلىٰ مالكها السلام سبحانه .

الثاني : إنها إضافة إلىٰ تحية أهلها ، فإن تحيتهم فيها سلام .

(1) الفلق 1 ـ 5 .
(2) الناس 1 ـ 6 .
(3) يونس 25 .
(4) القرطبي الجامع لأحكام القرآن . الجزء الثامن ص 328 .
(5) المصدر السابق ، ص 329 .

الثالث : إنها إضافة إلىٰ معنىٰ السلامة ، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر .

والثلاثة متلازمة ، وإن كان الثالث أظهرها » [(1)] .

ٱلله يدعو إلىٰ دار السلام ، فهو يدعو إلىٰ دار الحق ، ولأن الجنة لا ظالم ومظلوم فيها ، ولا سيد وعبد ، ولا حاكم ومحكوم ، ولا خائف ومخيف ، ولا فقير وغني ، بل أصحاب الجنة هم أصحابها الذين لهم الحق فيها ، لذا فهي دار السلام وذلك لانعدام معطيات الخصام والاختلاف والصراع والاقتتال والفرقة والحسد والغيرة . إنها دار المحبة التي فيها تُشبع الحاجات . ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [(2)] السلام : الحُجَّة . أي : لهم الحُجَّة من ربهم تعالىٰ التي بها يتمكنون من دخول الجنة ، وها هم اليوم يعيشونها وأزواجهم حقيقة فيها يتلذذون من كل طيب ، مع الوصف البديع لاستجمامهم تحت الظلال ، وهم علىٰ الأرائك متكئون في سلام ولذة دائمين لا ينقطعان . وهم في هٰذا السلام الدائم يدخل الملائكة عليهم من كل باب : ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [(3)] ودخول الدار كان مترتباً علىٰ أربعة رضاءات :

1 ـ رضاء ٱلله علىٰ عباده الذين استخلفهم في الأرض : ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [(4)] وقوله تعالىٰ : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [(5)] .

---

(1) مجدي كمنصور الشورى القول الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ . القاهرة ـ مكتبة العلم 1999 ص 116 .

(2) ياسين 58 .

(3) الرعد 23، 24 .

(4) آل عمران 15 .

(5) المائدة 119 .

2 ـ رضاء الرسل والأنبياء الذين كانت دار السلام استجابة بما دعوا به لله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] .

3 ـ رضاء الداخلين من عباده علىٰ أنفسهم بما جازاهم ٱلله به من جنة وسلام دائم : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2] .

4 ـ رضاء الملائكة وتقديرها للصابرين ، هو الذي جعلهم يدخلون عليهم من كل باب مهنئين لهم دخولهم الجنة .

فالدار كبناء يمكن أن يتصوره عقل الإنسان ، وهـٰذه الدار المتصورة بالتأكيد لن تكون هي دار السلام ، فالجنة واسعة عرضها عرض السماء والأرض ، وللمقارنة بين الدارين يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [3] .

الفرق كبير بين دار دنيا (سُفلىٰ) وبين دار جنة (عليا) فالدار الأولىٰ مادة تعيش فيها الحسنات جنباً إلىٰ جنب مع السيئات : (الطيب مع العفونة ، والإنسان مع الديدان) إنها دار المخاوف . أما دار السلام فهي دار الجنة التي بُنيت بالفضل لا بالتراب كما هو حال دار الدنيا ، فالتراب عمره الزمني منتهي ، أمّا فضل ٱلله الذي من أجله بنيت دار السلام ؛ فلا نهاية له . فدار

(1) الأنفال 64 .
(2) الأعراف 44 .
(3) الحديد 20 ، 21 .

السلام لا عداوة فيها ولا فساد ولا مظالم ولا خوف ولا جوع ولا مرض ولا ألم ، ولهـٰذا : فالدار التي تخلوا من النقائص والمخاوف هي بحق دار سلام .

ولأنها دار سلام فٱلله يدعو إليها : ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ (1) يدعو ٱلله عباده أن يعملوا صالحاً في دنياهم حتىٰ يتمكنوا من دخول دار السلام ، ودعوته إليها صريحة لعلمه بما فيها من نعيم ، ودعوته صريحة ؛ لأنها جزاء منه للعاملين عليها ، ومع أن أبواب الجنة مُفتَّحة للجميع إلا أن بلوغها سيكون متعذراً علىٰ من لم يعمل عليها .

اللهمَّ يا ٱلله يا رحمـٰن يا رحيم يا مَلِكُ يا قدوس يا سلام متّعني برضاك في الدارين ، واحفظني من شياطين الإنس والجن أجمعين ، واجعلني من ورثة جنة النعيم ! بك آمنت وعليك توكلت وأوليت أمري وأسرتي وما أملك إليك ، سبحانك فالحمد لك والشكر لك لا شريك لك ربّ العرش العظيم !

ولأن السلام هو المُنزَّه عن كل نقص وعيب ، والمنزه عن الشرك في المُلك ، والمُنزّه عن الوالد والولد ، والمُنزَّهُ عن الحاجة والعوز ، وهو المالك لكل الملك ، وهو الذي بيده الخير ، وهو الفعَّال لِما يُريد ، وهو الغفور الودود ؛ لذا فجميع الكائنات تسبح بحمده : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (2) .

التنزيه إيمان يقيني بأن ٱلله تعالىٰ هو الحق ، وهو بالمطلق علىٰ كل شيء قدير ، ولهـٰذا فإن التنزيه براءة من النار ، وعبادة لأهل الجنة .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا

---

(1) يونس 25 .
(2) التغابن 1 ، 2 .

رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [1] . ولأن الدار الدنيا مكانٌ لالتقاء الأضّداد ، فهي معرضة لمغالبة الضُّدِّ علىٰ الضّدِ ، ولأنها كذلك ضرب ٱلله لنا الأمثال العديدة التي من بينها مثال القرية التي كانت آمنة وأهلها يعيشون السلام ، وكيف أصبحت شقية بعد أن كفر أهلها .

بناء علىٰ المثال الذي تضمنته الآية الكريمة السابقة نستنتج : أن في الأساس القاعدي : أن اختيار ٱلله لعباده السلام أولا ، ثم يترك لهم بعد ذلك ما يختارون كيفما يشاؤون ، فإن اعتمدوا ما اختاره لهم ٱلله تعالىٰ واتبعوه ؛ كانت لهم دار السلام ، وإن غيروا الاختيار ؛ فلن يبلغوا إلىٰ ما هو أفضل وأجود وأحسن وأمتع وأجود مما اختاره ٱلله لهم ، فإن استبدلوا ذلك ؛ فليس لهم إلا البديل ، والبديل لا حول ولا قوة إلا بٱلله . فٱلله جعل لهم قريتهم داراً آمنة مطمئنة (دار سلام) يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، رزقاً وافراً ميسراً براً وبحراً ، فكفروا بهـٰذه النعم والمكارم ، فأذاقهم ٱلله لباس الجوع المُدقع والخوف الشديد بما كسبت أيديهم من أعمال وأفعال .

وعليه فٱلله تعالىٰ جعل في الأرض خليفة بعد أن جعل له الرزق الرغد ؛ حتىٰ إن البعض يرىٰ بأن الجنة التي كان فيها أبونا آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هي الأرض النعيم ، ولـٰكن لعدم اتباعه أوامر ٱلله تعالىٰ تغير حال الأرض إلىٰ ما هي عليه . وهـٰذه آية لمن يريد أن يعتبر . فاعتبروا يا أولي الألباب !

(السلام) هو الذي منه جاءت السلامة ، ولذا فإن السلامة تابعة للسلام السابق عليها ، فهو تعالىٰ السابق علىٰ كل سابق ، وتحتوي السلامة البراءة من كل شرٍ وسوء ، ومن كل مرض وألم ، ومن كل جهل وفقر ، ومن كل حسد وعلة . وفي مقابل ذلك فهي القوة التي تتضمن المقدرة والاستطاعة والسيطرة

---

(1) النحل 112 .

والعطاء . وفي هـٰذا الأمر يقول الأستاذ مجدي منصور الشورىٰ : « فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذىٰ . وقال علىٰ لسان أهل العلم : ٱلله جل ثناؤه هو السلام لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء » [1] . ويقول ابن قتيبة : « إنه الباقي الدائم ؛ الذي يفنىٰ الخلق ولا يفنىٰ ، وهو علىٰ كل شيء قدير » [2] .

السلام في الدار الدنيا أمل ، والسلام في الدار الآخرة واقع ، ولهـٰذا اتخذه البعض شعاراً يناضلون من أجل إحقاقه ، وقبلوا في سبيله أن يدفعوا الثمن ، وثمنه المجاهدة في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ورفع راية الخليفة علىٰ الأرض تحت شعار (لا إلـٰه إلا ٱلله محمد رسول ٱلله) .

ولأن ٱلله جعلنا شعوباً وقبائل تعددت رؤانا وآراؤنا ، مما جعل وجهات نظرنا هي الأخرىٰ تتعدد ، ولهـٰذا تجادلنا وتخاصمنا وتنازعنا وغلظت قلوب بعضنا علىٰ بعضٍ ؛ حتىٰ تقاتلنا وكل فئة منَّا تعتقد أنها علىٰ الحق ومن أجله . وهي في حقيقتها تقاتل الآخرين لتنتزع منهم السلطة ، وتفرض رؤاها علىٰ حساب رؤىٰ الآخرين . هـٰكذا أصبحت العلاقة بين قوي يمتلك السلطة والثروة والسلاح ، وبين ضعيف يفتقد للإرادة التي تمكنه من ممارسة الحرية . ولهـٰذا أصبح السلام شعار لإشعال نار الفتنة ، عوضاً عن إطفائها . ومن ورائها أصبحت الديمقراطية للمغالبة بدلاً من تعميمها عدلاً علىٰ كل من يتعلق الأمر بهم (أمر السلطة والثروة والسلاح ، وأمر السلم وأمر الحرب ، وأمر ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمْل المسؤوليات) .

ولأن تحت شعار ما سبق تُزوّر الحقائق ، لذا فالسلام الحق ، هو إحقاق

---

(1) مجدي منصور الشورىٰ ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنى. القاهرة ـ دار العلم 1999 ص 113 .

(2) المصدر السابق ص 113 .

الحق سواء في الدار الدنيا أو في الدار الآخرة ، وعلىٰ من يريد أن يكون الخليفة عليه بقبول الآخر الذي له علاقة بالأمر المشترك ، واستيعابه هو كما هو ، ومشاركته ، والإحسان إليه ، ومبادلته الحب بالمحبة ، والقصاص منه إذا أراد أن يُفسد في الأرض ، أو يسفك فيها الدماء ، والعمل معه علىٰ إحداث النقلة ؛ التي من خلالها يتمكن من إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

في باطن الأرض تركن البراكين ، وفي باطنها النار ونحن منها خُلقنا وعليها نعيش بسلام .

الشمس كتلة من النار ، ونحن كل يوم ننام مع غروبها ، ونصحو مع شروقها آمنين بسلام ، وهٰكذا ينمو النبات ، وتتفتق الأزهار مع كل ضياء شمس .

ركبنا الطائرات ، وغزونا الفضاء بسلام ، ولم يصبنا إلا ما كُتب لنا . والحروب نارها لم تُطفأْ بعد والقتال والعداء والمكائد والدسائس والفتن ، وهٰكذا بقدر ما يحيط بنا من مخاطر فنحن آمنين برعاية من السلام : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [1] .

الخليفة هو المؤمن الذي يعرف عن يقين : أنه لن يموت قبل أن يتم يومه ، ولهٰذا فالمؤمن لا يخاف الموت . وإذا مرض لا يذهب للطبيب ليعالج من الموت ، بل يذهب للطبيب ليعالج من المرض ، وذلك لإيمانه بأنه إذا مرض لابد أن يُشفىٰ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [2] أمَّا إذا انتهىٰ يومه فليس له إلا أن يموت علىٰ الطاعة والشهادة وهو واثق من أنه سيحيا من

---

(1) التوبة 51.
(2) الشعراء 80.

جديد : ﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴾ [1] .

وقـد يتسـاءل البعـض : عمـا هـي مُخِـلات تحقيـق السـلام ؟ ومـا هـي مُحقِّقاته ؟

فتكون الإجابة : المُخِلاَّت هي : ارتكاب المحرمات .

والمحقِّقـات هـي : الالتـزام بحـدود ٱلله ، فـي إحقـاق الحـق وإزهـاق الباطل .

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي : « لن يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وكيف يوصف به من لا يسلم هو من نفسه ؟ ! » [2] يتم الاتفاق مع هـٰذا الاقتباس الذي تتضح فيه صفة السلام بالإضافة ، وهو الذي لا يلحق أحداً من بني جنسه بسوء ، سواء كان هـٰذا السوء قولاً أو فعلاً . ولأن البعض لم تسلم حتىٰ أنفسهم منهم ، فكيف يمكن أن يسلم منهم الآخرون . وبما أن الأمر في بعض الأحيان علىٰ مثل هـٰذا الحال ، فهل يُعتقد : أن مثل هـٰؤلاء هم المراد بهم الخليفة ؟ كلا . ٱلله بصفاته الحسنىٰ لا يستخلف إلا حُسناً . فمن بين الذين يراد لهم أن يكونوا الخليفة هم أولـٰئـك الـذيـن ارتبطـت أرواحهـم وأنفسهـم وأقـوالهـم وأعمـالهـم بالسلام : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [3] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾ [4] .

---

(1) الشعراء 81 .

(2) محمد متولي الشعراوي ، أسماء ٱلله الحسنىٰ . القاهرة ـ أخبار اليوم قطاع الورق ص 155 .

(3) مريم 15 .

(4) مريم 33 .

وقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (1) .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ (2) .

وقال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (3) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (4) .

وقال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (5) .

وقال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ (6) .

وقال تعالىٰ : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (7) .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (8) .

هـٰؤلاء ومن هم علىٰ أمثالهم من الصالحين والذين اتبعوهم بالإيمان هم الذين يريد بهم ٱلله تعالىٰ أن يكونوا الخلفاء في الأرض ، هـٰؤلاء هم أصحاب رسالات السلام الذين يراد لهم أن يعمروا الأرض ولا يُفسدوا فيها ولا يسفكوا الدماء ، وأن يُسبِّحوا بحمد ٱلله ويقدسوه . ولهـٰذا نزل قوله عزَّ وجل : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ

(1) مريم 47 .
(2) النمل 59 .
(3) القصص 55 .
(4) الصافات 78 ـ 79 .
(5) الصافات 109 .
(6) الصافات 120 .
(7) الصافات 130 .
(8) الصافات 181 .

وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [1] .

السلام مصدر للسلامة ، والسلامة مصدر للإسلام ، أي : خلق السَّلام جل جلاله السلامة أولاً ، ثم اشتق منها الدين الذي ارتضىٰ وأسلم له من في السمـٰوات والأرض طوعاً اختيارياً ، وكرهاً ؛ حيث جعل الخلق مُسيَّرين بالقوة في كل ما ليس لهم سلطان عليه ، كالحركة والزمان وما يترتب عليهما من فعل ورد فعل . ولذا فإن الإسلام يعني : أنه الحق ، ولهـٰذا عندما يكون الإسلام قول حق وفعل حق ؛ ألا يكون السلام هو المصدر لكل سلام .

وقد يتساءل البعض : كيف يكون هو السلام جل جلاله ، الذي جعل في الأرض خليفة ، واصطفىٰ منهم الأنبياء والرسل ، وجعل فيهم الصالحين والأبرار ، ولم يعمَّ السلام الأرض التي أراد لهم أن يكونوا الخلفاء فيها ؟ !

تكمن حقيقة هـٰذا التساؤل في الآية السابقة وبالتحديد فيما يتعلق (بالطوع والكره) ، وما يحملانه من معنىٰ (الاختيار ، والتسيير) . فبطبيعة الحال الإنسان الذي يريده ٱلله خليفة له في الأرض هو الذي بإرادته الحرة وعن وعي ويقين يستمد صفاته من صفات خالقه ، أي : لا يمكن أن يكون الإنسان حراً ما لم يعرف حقيقة أمره ، من هو؟ ومن خلقه ؟ وكيف خلقه ؟ ولماذا خلقه؟ وما العلاقة التي ينبغي أن يكون عليها مع من خلقه ؟

المخيَّر هو الذي يتمكَّن من الإجابة بإرادة علىٰ الأسئلة السابقة بعد معرفة تامة ، ووعي يقيني ، هـٰذا الوعي هو الذي يجعله مُدركاً لما يجب ، ولما لا يجيب ، وبمعرفته هـٰذه يستطيع أن يقرر ما ينبغي الإقدام عليه ، وما يجب

---

(1) آل عمران 83 - 85 .

تجنبه ، وما ينبغي الابتعاد عنه . وبناء علىٰ ذلك تترتب أفعال الإثابة وأفعال المعاقبة ، وما بين الاثنين فهو المخيَّر .

والمُكره (المُجبر) هو الذي لم يطرح علىٰ نفسه هـٰذه الأسئلة ، وإن طُرحت عليه ؛ فقد يتجنب الغوص فيها ، وقد يدَّعي : أن هـٰذه الأسئلة لا تخرج إجاباتها عن الطبيعة . وفي هـٰذه الحالة يلحظ عليه الغفلة عن التساؤل : بما أن الطبيعة مخلوقة وليست بخالقة ألا يكون من ورائها خالق ؟ وإلا هل يمكن أن تكون الأشياء لو لم يكن من ورائها من يصدر الأمر لخلقها ويقوم به ؟ ومع أنه الجاحد والناكر لذلك إلا أنه لن يستطيع أن يغير أمراً من ألأمور التي عليها خُلقت الطبيعة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) .

القاعدة الطبيعية : (وراء كل مخلوق خالق) ، قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (2) .

---

(1) البقرة 258، 259 .

(2) الطور 35ـ 43 .

وبما أنَّ الطبيعة مخلوقة إذاً لابد وأن يكون من ورائها خالق .

والقاعدة الثانية : (الخالق خير من المخلوق) ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) .

وبما أنَّ الخالق أفضل من المخلوق وخيراً منه إذاً ألا يكون وجوباً أن يتم التعرف علىٰ الخالق ، والاستماع إلىٰ ما يقوله ، وجعله المصدر لكل شيء بدلاً من الطبيعة التي هي أقل شأناً ؟ ! نحن بنو الإنسان الذين خلقهم ٱلله في أحسن تقويم وجعلهم السلام بالإضافة ، والخليفة في الأرض قد صنعنا بأيدينا القلم والمسطرة ؛ لأجل أن نكون علىٰ الصراط المستقيم كما يريدنا خالقنا أن نكون عليه ، ومع أننا عرفنا القلم والمسطرة إلا أننا حِدنا عن القلم والمسطرة ؛ حتىٰ اعوججنا ، ومع ذلك بعضنا يعرف : أنه المعوجُّ عندما ينظر إلىٰ اعوجاج ظله ويتظاهر بإصلاحه دون أن يفكر في تصحيح اعوجاج ظهره ، ولذا لن يستقيم الظلُّ ؛ والعود أعوج .

وعليه : لقد صنعنا المقعد والتلفاز والطائرة والصاروخ ، وجميع وسائل المواصلات ، وصنعنا بأيدينا أدواتٍ كثيرةً لتوفر لنا الراحة والاستجمام ، ومع ذلك نحن الصَّانعون أفضل من كل ما صنعنا ، وفقا للقاعدة : (الخالق خير من المخلوق) .

نحن الذين صنعنا الجرة من الفُخَّار ، ونحن بإرادتنا إذا أردنا كسرها ؛ كسرناها ، وإذا أردنا تجبيرها ؛ جبّرناها ، وإذا أردنا البديل الأفضل ؛ استطعنا والحمد لله ربِّ العالمين ! ولأن العلاقة نسبة وتناسب ، فكما نحن نفعل بالجرة وبما خلقنا ، هٰكذا خالقنا يفعل بنا وبما خلق متىٰ ما يشاء وكيفما يشاء ، ولأننا نعي ذلك فليس لنا إلا أن نقول : اللهمَّ يا ٱلله بيدك الخير

(1) الروم 27 .

فارحمـٰنا يا رحمـٰن يا رحيم ! ولا حول ولا قوة إلا بك سبحانك ما أعظم شأنك نقدِّسُك ولا نُشرِك بك !

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [1] . أي : إن الدين عند ٱلله هو الاعتراف بالحق ، والتسليم به ، ويبدأ الحق بوجودنا الذي لو لم يكن حق ؛ ما كنَّا ، والأرض التي نحن عليها لو لم تكن حق ؛ ما كنَّا نحن عليها ، وإلا نحن الآن أين نكون؟ . ولو لم تكن الكواكب حقيقة ماثلة أمام أبصارنا ؛ ما رأيناها ، ولو لم يكن الخوف فينا ما أَحْسَسْنا به ، ولو لم يكن الموت حقاً ؛ ما سلمنا أمرنا إليه ، ولو لم يكن الدين حقاً ؛ ما اصطفىٰ ٱلله الرسل والأنبياء ، وكنَّا من المتعظين . ولهـٰذا أصبحت السلامة للخليفة مطلب حق من كل سوء ، ونجاةً من العذاب ، ومن النار والعار ، ومن الفاقة والحاجة ، ومن النقيصة والعيب ، ولهـٰذا فهي المشتقة من السلام الذي هو سلام من كل نقص ، ومن الخطيئة ، ومن الوالد والوالدة والولد والسلامة من الشريك . ولذا فالسلامة بالنسبة للخليفة هي : البراءة والنجاة والسترة والأمن والطمأنينة والمخافة من العذاب . والسلام جلَّ جلاله معناه : « هو الذي سلمت ذاته وصفاته وأفعاله من كل ما لا يليق بكماله » [2] .

قال تعالىٰ : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [3] . السلام عنوان عام لكل من يريد أن يكون مسلماً ، وخاص بالذين أسلموا وجههم لله تعالىٰ . ولذا في أساس السلام التعميم دون التخصيص ، وبالإرادة يكون التخصيص سابقاً علىٰ التعميم .

---

(1) آل عمران 19 .

(2) أحمد عبد الجواد ، ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها . الدار البيضاء ـ دار الثقافة ص 37 .

(3) الأحزاب 44 .

السلام اسم الله تعالىٰ ، ومصدرٌ للسلامة ، ومبعثٌ للإسلام ، وشعارٌ للمسالمة ، وتحيةٌ للمسلمين ، ومفتاح آمان لأهل الجنة : ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [1] . أي : ادخلوا الجنة وأنتم مطمئنون فلن يصاحبكم بعد اليوم حزنٌ ولا خوفٌ ولا ألم ولا مخمصة ولا يرهقكم ذلٌ . (فادخلوها بسلام آمنين) تحمل في مدلولها مصاحبة السلام للداخلين إلىٰ الجنة ، أي : ادخلوها بقوة السلام جل جلاله ، فهي لكم وأنتم لها . اللهمَّ اجعلنا من الداخلين إليها بسلام آمنين !

قال تعالىٰ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [2] .

السلام في هـٰذه الآية سلام استقبال لأهل الجنة ، فخزنة الجنة هم الذين قالوا : السلام علىٰ أهلها ، وذلك وفقا للقاعدة : (السلام المطلق لغة أهل الجنة) ولذا فإن الجنة مملوءة بالسلام الكامل ، ولا حيز للفراغ في غير ذلك .

وتتضمن الآيتان السابقتان مدلولاً قيميّاً يربط دخول الجنة بالسلام مع من ورثوا الأرض ، ولهـٰذا فكانت الوراثة مرتين :

الأولىٰ : ورثة الأرض بقول الحق وفعل الحق فيها ، أي بأقوال وأفعال الخير في الحياة الدنيا .

والثانية : بالجزاء الأوفر لِمن فعل الخير في حياته الدنيا . ولذا فمن يريد أن يكون من ورثة جنَّة النعيم فعليه بأفعال الخير في الحياة الدنيا .

---

(1) الحجر 46.

(2) الزمر 73، 74.

روىٰ مسلم عن أبي هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ : أنه قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « لا تدخلوا الجنة حتىٰ تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا ، ألا أدلكم علىٰ شيءٍ إذا فعلتموه ؛ تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »[1] . فأفشوا السلام بينكم أي : تمسكوا بالقاعدة ، وهي : (مطلقية السلام) وهي كما سبق أنْ بيَّنا : أن السلام جاء للعامة ، ولا تخصيص فيه ، وعلىٰ ذلك يترتب أمران :

الأمر الأول : بما أنَّ القاعدة : السلام عام ، إذاً كل من يريد أن يعمل عليه فهو في دائرة الممكن ، وهـٰذا الأمر هو الذي يجعله وكأنه في دائرة التخصيص . وفي ذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[2] .

الأمر الثاني : وفقاً لقاعدة مطلقية السلام فالاستثناء لا يلحق أحداً إلا إذا هـٰذا الأحد استثنىٰ نفسه من الأخذ بمعطيات السلام . وفي ذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[3] .

السلام صفة سرمدية خصَّ بها ٱلله ذاته العلية ، التي لم يكن من بين صفاتها ما يؤدي إلىٰ ظلمٍ ، ولهـٰذا وصف نفسه بالسلام والعدل ، وبما أنه لا وجود لأيِّ صفة من صفات الظلم في ذاته ، لذا فالسلام هو الصفة الباقية بين الراغبين فيها وصفة دائمة لأصحاب الجنة : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[4] .

قال الإمام الغزالي : « السلام : هو الذي تسلم ذاته من العيوب ،

---

(1) صحيح مسلم مجلد 1 ص 53 .
(2) الأنعام 54 .
(3) النساء 173 .
(4) النحل 118 .

وصفاته من النقص ، وأفعاله من الشر ؛ حتىٰ إذا كان كذلك ؛ لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت معزيةً إليه ، صادرةً منه . وقال : لقد فهمت : أن أفعاله تعالىٰ سالمةٌ من الشر » ولأن أفعاله سالمة من الشر ؛ فهو لم يظلم أحداً ، ولأن الظلم لم يكن صفةً من صفاته جاء السلام والعدل صفتين مطلقتين . فالحمد لله الرحمـٰن الرحيم الملك القدوس السلام !

ولأنه السلام الحق ؛ فإن رسول ٱلله ﷺ إذا أراد أن ينصرف من صلاته استغفر ثلاثة مرات ، ثم قال : « اللهمَّ أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » [(1)] .

ولأن السلام في أسامه المطلقية قال رسول ٱلله ﷺ : اللهمَّ أنت السلام ومنك السلام ، ولم يقل : أنت السلام ومنك السلامة ، ولذا فهو استمد مضمون الشيء كما هو عليه ، ولم يستمد ما يُشتق منه . وذلك لأن الرسول ﷺ جاء بالرسالة الخاتمة للناس كافة . ولأنه في مخاطبة مع ٱلله تعالىٰ ، فقال له : أنت السلام جل جلاله . (ومنك السلام) في اعتقادي : أنها تدل علىٰ الدين . ولهـٰذا فإن الدين الحق هو عند ٱلله الإسلام : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [(2)] وقال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [(3)] ولأن الرسول ﷺ اصطفاه ٱلله تعالىٰ ، وكلَّفه بالرسالة الخاتمة للناس كافة ، فبعد أن عرف مهمته الإلـٰهية ؛ عرف أن مهمته هي السلام أي : (إحقاق الحق وإزهاق الباطل) . ولذا فمن خلال قوله : « أنت السلام ومنك السلام » عرفنا : أنه المُلم بالأمر الذي أُنزل عليه ، والذي فهمناه من خلال المخاطبة : (منك السلام) بأنه يعني الدين الخاتم للناس كافة .

---

(1) صحيح مسلم مجلد 2 ص 94 .

(2) آل عمران 19 .

(3) الصف 9 .

وعليه : فإن السَّلام في الدار الدنيا يرتكز علىٰ الآتي :

1 ـ التوحيد وعدم الشرك به تعالىٰ : ولأن ٱلله واحد أحد إذاً لماذا الادعاء بأنه ثالث ثلاثة ؟ ألا يُعد هـٰذا القول هو إشعال نار فتنة ؟ ! ولأنه كذلك فإنه المُخِلَّ بمحققات السلام . ولذا قال تعالىٰ : ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (1) .

2 ـ الإيمان بأنبيائه ورسله دون أن نفرِّق بينهم : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (2) وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (3) اللهمَّ صلِّ وسلم علىٰ سيدنا محمد صلاة تامة تجمع الصلاة والتسليم علىٰ جميع أنبيائك ورسلك من قصصت علينا ومن لم تقصص . لذا لو لم يكن التفريق بين رُسُله ؛ ما كان الاختلاف بين الذين بُعث فيهم الأنبياء والرسل ، ولو كان الإيمان بهم ؛ لكان السلام هو القيمة السائدة بين الناس ، ولم يكن السلام ثالث ثلاثة كما يدعي الجاهلون .

3 ـ التسليم بأوامره ونواهيه : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (4) فلو كان التسليم بالحق ما كان الاختلاف سائداً بين مؤمن وكافر ، فسيادة الخلاف بين من يراد لهم أن يكونوا هم خلفاء في الأرض هو الذي أوجد الفساد فيها بدلاً من سيادة السلام بين من يتعلق الأمر بهم .

(1) آل عمران 117 .
(2) البقرة 285 .
(3) الأحزاب 56 .
(4) الحشر 7 .

4 ـ طاعة الوالدين في غير معصية ٱلله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [1] . السلام يبدأ أول ما يبدأ بسيادة المحبة بين أفراد الأسرة ، التي فيها تُقدَّر الزيجة ، والأبوة ، والأمومة ، والأخوة ، والعمومة ، وذوُو القربىٰ ، وعندما تنعدم هـٰذه القيم أو تضعف يحل الشقاق والانفصال والطلاق محلها ، وهـٰذه الأمور هي التي تجعل السلام نسبياً بين المستخلفين في الأرض الذين منهم من غفل عنه ومنهم من يتغافل مما جعلهم من الظالمين لأنفسهم ولذي العلاقة بهم .

5 ـ العمل علىٰ إحقاق الحق وقوله ومناصرة أصحابه : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [2] وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ [3] . إن انعدام قول الحق وفعل الحق هو الذي جعل الشقاق والفراق بين من ينبغي أن تكون بينهم المحبة والوحدة .

6 ـ تجنب النواهي : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [4] وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [5] وقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ

(1) الإسراء 23، 24.
(2) آل عمران 104، 105.
(3) الأنفال 72.
(4) النساء 31.
(5) النحل 36.

مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (2) . القرب من المفسدات فعل تخريبي ، وغير إنساني ، ويؤدي إلىٰ الضرر ، وهـٰذه أسباب لتفشي الفساد علىٰ حساب سيادة السلام بين الناس . ولهـٰذا لا يمكن أن يسود السلام إلا بتجنب ما نهىٰ عنه ٱلله تعالىٰ .

7 ـ الابتعاد عن المحرمات : ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣٢ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (4) . كل المحرمات التي حرمها ٱلله تعالىٰ هي التي فيها تكمن العلل المفسدة لتحقيق السلام ، ولذلك الالتزام بما أمر ٱلله بالإقدام عليه حلالاً طيباً ، أو بتحريمه قطعاً هو الذي يحقق السلام بين بني آدم ، عليه الصلاة والسلام .

8 ـ العدل بين المحتكمين : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ﴾ (5) قال إذا حكمتم بين الناس ، ولم يقل إذا حكمتم الناس ، فالفرق كبير بين حُكم الناس ، وبين الحكم بينهم عدلاً فيما هم فيه يختلفون ؛ فإذا ارتضوا الناس من يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ؛ فيجب أن يحكم بينهم من اختاروه حكماً عدلاً ، وإذا انحاز لطائفة ، أو فئة ، أو جماعة ؛

(1) الحج 30

(2) الحجرات 12 .

(3) المائدة 72 .

(4) الأعراف 32 ـ 33 .

(5) النساء 58 .

فإنه سيكون من الذين يوقدون نار الفتن ، وله عذاب أليم من ربِّ العالمين .

أمَّا أولـٰئك الذين يحكمون الناس فهـٰؤلاء لا تعنيهم هـٰذه الآية في شيء ، ولم نجد نصاً يستوجب حكمهم للناس .

إنَّ الذين يعتقدون في تفسيرات البعض ، فهـٰذه التفسيرات لم تكن مطلقة ، فقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (1) . الطاعة جاءت طاعتين :

أ ـ طاعة مطلقة لله والرسول .

ب ـ طاعة نسبية لأولي الأمر من الذين يتعلق الأمر بهم . ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ ولهـٰذا تم استثناء أولي الأمر منكم .

﴿ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ لم يكونوا هم أولي أمرنا ، ولذلك لم يقل عزَّ وجل : أولي أمركم ، بل قال : (أولي الأمر منكم) . ويقصد بذلك الذين تختاروهم لأن يسيروا أموركم التي تتعلق بممارسة حقوقكم ، وتأدية واجباتكم ، وحمْل مسؤوليتكم ، ولذا فإن أولي الأمر منكم هم الذين يتم اختيارهم إرادياً من قبل الذين يتعلق الأمر بهم ، سواء كان هـٰذا الأمر سياسة داخلية ، أو خارجية ، أو أمر سلم أو حرب ، أو ما كان متعلقاً بالحاجات ، ومشعباتها المحققة للسلام لهم ، ولمن تربطه بهم علاقة .

والسبب الداعي لطاعة أولي الأمر منكم واعتبارها واجبةً هو فيما يتعلق بالتزامهم بالأمر الموكل إليهم ، ولا طاعة لهم إن خالفوا الأمر الذي يستوجب طاعته من قبل الذي قرر واختار من يرىٰ : أنه مناسباً لأن يتولىٰ المسؤوليات الجسام المتعلقة بهـٰذا الأمر .

---

(1) النساء 59 .

9 ـ المعاملة بالمثل : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) وقال تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (2) . المعاملة بالمثل ، أو المعاملة بما هو أفضل تؤدي إلىٰ نيل الاحترام والتقدير من قبل المعنيين بالأمر إن كانوا يعتبرون ، وكذلك من قبل المحايدين الذين ليس لهم في الانحياز .

10 ـ العفو عند المقدرة : ﴿ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (3) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (4) . العفو ، والصفح والغفران تُعد قيم رحمة بين الناس ، وهي التي كلما سادت بينهم ؛ ساد السلام . وكلما انعدمت ؛ حل محلها الطغيان والفساد وسفك الدماء بغير حق . ولذلك فمن يريد العفو والصفح والمغفرة من ٱلله تعالىٰ فعليه بها مع من تستوجب في الدار الدنيا ، وعليه بالعمل علىٰ تعميم الفضل وتقديمه لمن هم في حاجة إليه .

ولو لم يكن السلام صفة من صفات ٱلله تعالىٰ لكانت الشقاوة فينا إلىٰ يوم يبعثون ، فالحمد له تعالىٰ الذي جعل في أنفسنا الرحمة ، وجعل بيننا المحبة والألفة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (5) .

---

(1) البقرة 194 ـ 195 .
(2) النساء 86 .
(3) التغابن 14 .
(4) البقرة 237 .
(5) الحُجُرات 13 .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [1] . جاء الكيد في هاتين الآيتين الكريمتين علىٰ صفتين :

الصفة الأولىٰ للفساد في الأرض . ولذا فهي تتعلق بكيد البعض من أهل مكة لإطفاء نوره تعالىٰ ، وهـٰذا كيد ضعيف أمام كيد القوي .

الصفة الثانية للسلام في الأرض ، هي كيد ٱلله تعالىٰ لكيد الكفرة من أهل مكة الذي به يريد ٱلله أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ولهـٰذا فكيد الكفرة يتمركز علىٰ ما يقوموا به من عراقيل في سبيل منع إعلاء كلمة الحق ، من خصومات وصدامات وتزوير للحقائق مع المسلمين في فجر الإسلام . أمّا كيد ٱلله فكان لكيد الكفرة الذي به يتم إبطال كل ما من شأنه أن يعيق تقدم انتشار الإسلام . وفي هـٰذا الأمر قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [2] .

وبناء علىٰ ما تقدم فإننا نتفق مع ما قاله الدكتور الصلاَّبي في تماثل (السلام) و(القدُّوس) وذلك بتضمنهما للكمال المطلق « القدوس كالسلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه ، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه ، لأن النقص إذا انتفىٰ ، ثبت الكمال كله » [3] وصدق ٱلله تعالىٰ ، وهو خير قائل : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ [4] .

وقوله تعالىٰ : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [5] .

---

(1) الطارق 15 ـ 16 .
(2) التوبة 32 .
(3) علي محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين . بيروت ـ دار المعرفة الطبعة الأولىٰ 2005 ص 188 .
(4) الأنعام 125 .
(5) الصافات 181 ـ 182 .

وعليه : (السلام) اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ ، وصفة من صفاته ، وهو من الأسماء التي تعود إلىٰ تنزيه الخالق سبحانه عن مشابهة الحوادث ، وهي : (السلام ، القدوس ، الغني ، الصمد ،الأول ، الآخر ، الباقي) فـ : (السلام) ذو السلامة من كل نقص في ذاته وصفاته وأفعاله ، فهو سالم سبحانه من كل مالا يجتمع عقلاً مع معنىٰ الإلوهية والربوبية ، كمشابهة الحوادث ومعلوم : أن كل ماعدا ٱلله تعالىٰ ناقص في ذاته وصفاته وأفعاله ، لذا : فلا يمكن أن يكون بينه وبين ٱلله تعالىٰ مشابهةٌ حقيقية ، ولو في وجه من الوجوه ، أو جزء من الأجزاء ، ومخالفة الحوادث معناها : أن ٱلله تعالىٰ ليس مماثلاً لشيء من الحوادث الموجودة والمعدومة مطلقاً ، فهي عبارة عن سلب الجرمية ، والعرضية ، والكلية ، والجزئية ، ولوازمها عنه تعالىٰ فلازم الجرمية هو التحيز ، ولازم العرضية هو القيام بالغير ، ولازم الكلية هو الكبر ، ولازم الجزئية هو الصغر . وضدها : المماثلة للحوادث .

أما الدليل العقلي علىٰ ذلك فهو :

1 ـ إنَّه تعالىٰ لو لم يكن مخالفاً للحوادث ؛ لكان مماثلاً لها ، ولو كان مماثلاً للحوادث ؛ لكان حادثاً مثلها ، ولو كان حادثاً ؛ لاحتاج إلىٰ محدث ، ومحدث يحتاج إلىٰ محدث ، وهٰكذا ، فيلزم الدور و التسلسل ، وكلاهما باطل فتثبت مخالفته للحوادث .

2 ـ كل من وجب له القدم استحال عليه العدم ، ولا شيء من الحوادث يستحيل عليه العدم ، فلا شيء منها بقديم ، فثبتت المخالفة .

قال تعالىٰ : ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (1)

(1) الشورى 11 .

فٱلله تعالىٰ لا يشبهه ، ولا يماثله شيء من مخلوقاته ، لا في ذاته ، ولا في أسمائه ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ؛ لأن أسماءه كلها حسنىٰ ، وصفاته صفة كمال وعظمة ، وأفعاله تعالىٰ أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك ، فليس كمثله شيء ، لانفراده وتوحُّده بالكمال من كل وجه [1] .

اسم ٱلله تعالىٰ (السلام) يحمل في ثنياته كل ما ينزه ٱلله تبارك وتعالىٰ ، ويفرد له صفات الكمال ، فكل صفة هي سلامٌ مما يضاد كمالها . فمن خلال الثنائيات المتحققة للبشر يتبين من خلالها خاصية اسم (السلام) كثنائية الحياة والموت والعلم وعدمه والصدق والكذب والعدل والظلم وغيرها من الثنائيات ، هـٰذه الثنائيات وغيرها خلقها ٱلله تبارك وتعالىٰ وجعلها تشكلاً من تشكلات خلقه ، لتمثل دلالة تشير إلىٰ قدرته وعظمته .

فمن بين هـٰذه الثنائيات :

الموت ـ الحياة :

تحدث النص القرآني عنها في مختلف المجالات الفكرية ، ومن خلال أشكال تعبيرية متنوعة . فٱلله تعالىٰ هو الذي خلق الموت والحياة ، يقول تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [2] ، وٱلله تعالىٰ بحكم إلوهيته للكون كله ، وخلقه للحياة والموت ، هو الذي بيده وهب الحياة ، وعدمها بالموت ، يقول تعالىٰ : ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [3] ولا أحد من خلق ٱلله تعالىٰ يملك قدرة الإحياء والإماتة ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ

(1) أصول الدين الإسلامي د رشدي عليان ود قحطان عبد الرحمن الدوري ج 1 ص 106 ـ 107 .

(2) الملك 2 .

(3) النجم 44 .

لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (1) فكل السياقات التي وردت تشير إلىٰ أن خالق الحياة والموت هو ٱلله تعالىٰ ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (2) فالموت هو النهاية الطبيعية لكل حي ، فالخالق هو المالك لهما في الوقت نفسه ، فضلا عن ذلك أن ثنائية الحياة والموت تنزه ٱلله تعالىٰ عن الموت وتثبت له صفة الحياة ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (3) كلكم لا بد أن يموت ، فهي النهاية الحتمية لكل البشر ، فليس هنا أحد خالداً . يقول تعالىٰ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (4) فالآية هنا جاءت في إثبات البعث ، فجمعت الآية الموت ، والحياة ، والنشور . وكلها تقلبات كل واحدة تحيل علىٰ الأخرىٰ للوصول إلىٰ يوم القيامة المتحققة فيه صورة الخلود الدائم لله تعالىٰ ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ (5) والسؤال هنا يرد ومعه الإجابة ، والإجابة هي من ٱلله تعالىٰ ، وليس هناك من أحد مجيب ؛ لأن الجميع أموات ، فلا يصدر عنهم شيء . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (6) هـٰذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق ـ رضي ٱلله عنه ـ عند موت الرسول ﷺ ، حتىٰ تحقق الناس موته ، مع قوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا

---

(1) الفرقان 3 .
(2) أل عمران 185 .
(3) الزمر 30 ـ 31 .
(4) الأنبياء 34، 35 .
(5) غافر 16 .
(6) الزمر 30 .

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (1) فسياقات الموت كلها تشير إلىٰ ثبات صفة الحي لله تعالىٰ ، فضلاً عن ذلك : إن القران الكريم صور لنا صورتين متقابلتين للموت ، إحداهما تمثل موتاً للمؤمنين بٱلله ورسوله ، عليه الصلاة والسلام ، حينها يكون الموت أجمل من الحياة الدنيا ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ (2) فالموت وإن كان هنا قتلاً فهو حياة أخرىٰ لا نعلم حقيقتها ؛ لذا قال تعالىٰ في موضع آخر : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (3) أي : إنها حياة خاصة ؛ لذا قال : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ تأكيداً علىٰ أنها غير حياتنا الدنيا . وليس هناك من سبيل للوصول إلىٰ الحياة الأخرىٰ عند ٱلله تعالىٰ إلا بالموت ، الذي يعني في ظاهره الفناء ، وفي دلالاته القرآنية الخلود والبقاء ، ولهـٰذا مَنّ ٱلله تعالىٰ به علىٰ عباده كما مَنّ بالحياة والرزق ، فقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (4) .

أما غير المؤمنين ؛ فقد رسم لنا القرآن الكريم صورة مخيفة لموتهم وما يلقونه في هـٰذا الموت من عذاب وشدائد ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (5) والمشهد الذي يرسمه السياق في جزاء هـٰؤلاء الظالمين ؟

---

(1) آل عمران 144 .
(2) البقرة 154 .
(3) ال عمران 169 .
(4) الروم 40 .
(5) الأنعام 93 .

(أي : المشركين) مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب . الظالمون في غمرات الموت وسكراته ـ ولفظ (غمرات) يلقي ظله المكروب ـ والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب ، وهم يطلبون أرواحهم للخروج ، وكله مما يضفي علىٰ المشهد ظلالاً مكروبة ، تأخذ بالخناق من الهول ، والكآبة ، والضيق [1] ! هـٰذا الموت هو الذي هدد به القرآن المشركين والكافرين من العرب ؛ لأنهم كانوا يرهبونه . وما فكرة الطلل البالي إلا تعبير دقيق عن إدراك مفهوم الموت لديهم من خلال متغيرات الزمان والمكان . قال تعالىٰ مشخصا الموت : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [2] . إن القرآن يضفي سمة الحياة علىٰ الموت فيجعله كائناً حيَّاً يفر منه الظالمون ظنَّاً منهم : أنهم ناجون منه ، فيصدمهم القرآن بالحقيقة الواقعة : إنه ـ ملاقيكم ـ أينما كنتم !!!

العلم وعدمه :

هـٰذه الثنائية ارتسمت بدايتها من خلق آدم ، عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [3] فسياق الآية ارتكز علىٰ (أعلم) التي رسمت صورة العلم المطلق لله تعالىٰ الذي لا يصل إليه أحد مهما كانت منزلته حتىٰ الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، يقول تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [4] فضلاً عن ذلك : إن من الخطابات التي وردت علىٰ لسان

---

(1) في ظلال القرآن ، ج 3 ، ص 100 .
(2) الجمعة 8 .
(3) البقرة 30 .
(4) الأعراف 188 .

الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، تحيل إلىٰ بيان علم ٱلله الواسع الذي لا يعرفه أحد إلا ٱلله تعالىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [1] وقوله تعالىٰ : ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [2] ويتجلىٰ علم ٱلله في الإتقان العجيب ، والإحكام الغريب في هـٰذا الكون الكبير ، كما أن ما يجري فيه بالتسلسل والتتابع يجري وفق تنظيم رائع لا ارتجال فيه ، ولا مصادفة ، والنظرة إلىٰ النفس الإنسانية نجد فيها قابلية للعلم والمعرفة ، وهي مخلوقة من ضعف ، عرفنا : أن صفة العلم فيها من صفات الكمال ، وأن صفة الجهل وعدم المعرفة من صفات النقص . والخالق العظيم الذي أتقن خلق الكون وأحكمه ، وخلق هـٰذا الإنسان القابل للعلم والمعرفة لا بد أن يكون هو بذاته عليماً خبيراً ، لا تخفىٰ عليه خافيه ، ولذلك صدر عنه هـٰذا الإتقان البديع ، والإحكام الكامل ، والدقة البالغة في كل مخلوق من مخلوقاته ، يقول تعالىٰ : ﴿ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ [3] . وٱلله تعالىٰ وصف نفسه في القران الكريم بأنه عليم خبير ، وبأنه محيط بكل شيء علماً ؛ إذ يقول عز وجل : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [4] وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ

---

(1) الأنعام 50 .

(2) يونس 49 .

(3) النمل 65 ـ 66 .

(4) الأنعام 59 .

مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ (1) كما ارتسمت إحاطة ٱلله تعالىٰ بالعلم في آية الكرسي ، وهي آية عظيمة ، اشتملت علىٰ عشر جمل مستقلة ، يقول تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ (2) ففي قوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ أي : لاَ يَطَّلِعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ عَلَىٰ شَيءٍ مِنْ عِلْمِ ٱللهِ إِلاَّ مَا عَلَّمَهُ ٱلله ، وَأَطْلَعَهُ عَلَيهِ ، وَأَذِنَ لَهُ بِهِ . وَلا يُعرف إِذْنُهُ تَعَالَىٰ إِلاَّ بِوَحْيٍ مِنْهُ .

العدل ـ الظلم :

العدل في اللغة : أنه ما قام في النفوس : أنه مُسْتقيم . وهو ضِدُّ الجَوْر ، و في أسماء ٱلله سبحانه (العَدْل) هو الذي لا يَمِيلُ به الهوىٰ ، فيَجورَ في الحكم (3) . وورد في القران الكريم بصيغ الأمر الدالة علىٰ وجوب تحققه ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴾ (4) يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض ، القليل من ذلك والكثير ، علىٰ القريب والبعيد ، والبر والفاجر ، والولي والعدو . والمراد بالعدل الذي أمر ٱلله بالحكم به هو ما شرعه ٱلله علىٰ لسان رسوله من الحدود والأحكام ، وهـٰذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به ، وهنا الإحالة تكون إلىٰ العلم ، فلا يكون هناك عدل دون وجود معرفة واضحة بأحكام ٱلله تعالىٰ التي أرادها لعباده ، فالمعرفة واجبة كي يتحقق العدل المطلوب . وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ

---

(1) سبأ 3 .

(2) البقرة 255 .

(3) لسان العرب ، ج 11 ص ، 430 .

(4) النساء 58 .

وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (1) فالعدل المتحقق يكون أولاً في ذات المسلم . يقول تعالىٰ : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (2) فضلاً عن ذلك يكون أيضاً مع بقية الخلق ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (3) .

أما يوم القيامة فهو بطبيعة الحال يمثل عملية حساب للكل دون تفريق ، وأن الإنسان لا بد أن يأخذ جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، لتجزىٰ كل نفس بما تسعىٰ ، ويتحقق العدل الإلـٰهي ، قال تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ (4) وتتجلىٰ العدالة الإلـٰهية يوم القيامة بالفصل بين الخلائق ، فالمحاسبة تكون من قبل ٱلله تعالىٰ ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (5) .

السياق هنا يستعرض عدالة ٱلله تعالىٰ للخلق أجمعين ، وٱلله تعالىٰ يضع الموازين العادلة ، التي توزن بها الحسنات والسيئات ، فلا ظلم بينهم سواء أكانت النفس مؤمنةً أم كافرة ، فلا تنقص الحسنات ، ولا تزاد السيئات ، كلاًّ حسب عمله واستحقاقه . ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة فكفىٰ به حاسباً . أي : عالماً بأعمال العباد ، حافظاً لها ، مثبتاً لها في الكتاب

(1) النحل 90 .
(2) البقرة 195 .
(3) الأنعام 152 .
(4) الزلزلة 7 ـ 8 .
(5) الأنبياء 47 .

عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها ، موصلاً للعمال جزاءها ، فكل عمل ، وكل كلام مدون أمام الكل ، يجدونه أمامهم ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (1) فضلاً عن ذلك : إن المحاسبة يوم القيامة تطلب من الإنسان نفسه ، مما يحيل ذلك علىٰ العدالة المطلقة لرب العالمين ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (2) .

حقيقية لفظ السلام :

قال ابن القيم : حقيقتها : البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب . وعلىٰ هٰذا المعنىٰ تدور تصاريفها فمن ذلك ، قولك : سلمك ٱلله ، وسلم فلان من الشر . ومنه دعاء المؤمنين علىٰ الصراط : رب سلِّم ، اللهمَّ سلِّم (3) . ومنه سلم الشيء لفلان . أي : خلص له وحده ، فخلص من ضرر الشركة فيها ، قال تعالىٰ : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (4) أي : خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره .

ومنه : السَّلْم ضد الحرب ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (5) لأن كلاًّ من المتحاربين يخلص ويسلم من

---

(1) الكهف 49 .
(2) الإسراء 13 ـ 14 .
(3) صحيح البخاري جزء من الحديث ، ج 20 ، ص 238 .
(4) الزمر 29 .
(5) الأنفال 61 .

أذىٰ الأخـر ، ولهـٰـذا يبنـىٰ منـه علـىٰ المفـاعلـة . فيقـال : المسـالمـة مثـل المشاركة .

ومنه : القلب السليم ، وهو النقي من الغلِّ . وحقيقته : الذي قد سلم لله وحده ، فخلص من دغل الشرك وغله ، ودغل الذنوب والمخلفات . بل وهو المستقيم علىٰ صدق حبه ، وحسن معاملته . فهـٰذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه ، والفوز بكرامته .

ومنه أُخذ الإسلام ، فإنه من هـٰذه المادة ؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله ، والتخلص من شوائب الشرك فسلم لربه ، وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون ؛ ولهـٰذا ضرب سبحانه هـٰذين المثلين للمسلم والمخلص الخالص لربه ، والمؤمن به .

ودور الخليفة في تجليات اسم (السلام) إفشاء السلام بين عباد ٱلله ، فهو من الخصال الحميدة ، فمن خلال استذكار أهم الأحداث التي كان للسلام فيها حضور واضح نذكر قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ (1) . إن طريقة السلام هنا جاءت في حالة حركة من الملائكة ، فما أجدر أن يأتي سلامهم بصورة تنبئ بالفعلية التي تعكس الحركة! أما سلام إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقد جاء مبتدأ محذوف الخبر ، فهو بالصورة الاسمية التي توحي بالثبات الذي هو فيه أثناء دخولهم عليه . فضلاً عن ذلك : إن الرّفع فيه تناسي معنىٰ الفعل فهو أدلُّ علىٰ الدَّوام والثّبات . ولذلك خالف بينهما للدّلالة علىٰ أنّ إبراهيم عليه الصلاة

(1) هود 69 ـ 71 .

والسّلام ردَّ السّلام بعبارة أحسن من عبارة الرسل زيادةً في الإكرام [1] .

للحديث عن اسم ٱلله تعالىٰ (السلام) يحيلنا إلىٰ قصة إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وتحديداً في قوله تعالىٰ : ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [2] إن اقتراح قتل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ جاء عارضاً لـٰكن الإصرار كان علىٰ تحريقه ، رغم أن القتل لا يحتاج من الجهد ما يحتاج إليه التحريق ! ولـٰكن لماذا بنىٰ له قومه بنياناً ليحرقوه فيه ؛ هـٰذا التساؤل يحيلنا إلىٰ أمرين : الأمر الأول : أن فعل إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يكن صغيراً بالنسبة إلىٰ قومه ، فتكسير الأصنام يعد أمراً عظيماً وخرقاً لعبادة الآباء والأجداد ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [3] .

الأمر الثاني : فهو بيان عظمة ٱلله تعالىٰ وسلامه الدائم لعباده المطيعين المتشبثين بدينه مع كل الصعوبات والمحن التي يتعرضون لها ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4] وصورة الحرق غير المتحققة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، والمتحققة في هيئتها لمن يرمىٰ فيها ترسم عظمة الباري جلَّ جلاله وحفظه لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فضلاً عن ذلك : إن النجاة المتحققة هنا رسمت أبعاداً معرفية للنص ، وخاصةً في لفظة : (سلاماً) التي تعد المركز في عملية

(1) التحرير والتنوير، ج 7، ص 168 .
(2) الأنبياء 68ـ72 .
(3) الأنبياء 52ـ54 .
(4) يونس 103 .

النجاة . وذِكر : (سلاماً) بعد ذكر البرد كالاحتراس ؛ لأن البرد مؤذٍ بدوامه ربما إذا اشتد ، فعُقب ذكره بذكر السلام لذلك . وعن ابن عباس : لو لم يقل ذلك لأهلكته ببَردها . وإنما ذكر (برداً) ثمّ أتبع بـ : (سلاماً) ولم يقتصر علىٰ (برداً) لإظهار عجيب صنع القدرة ؛ إذ صيّر النار برداً [(1)] .

أما قصة يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ فهي صورة من صور السلام المتحقق ، الدال علىٰ الحفظ الرباني في مكان يتسم بظروف غريبة غير متوقعة ولا تدرك حتىٰ التفكير فيها مستبعد ، يقول تعالىٰ : ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [(2)] وهنا النص يرتكز علىٰ لفظة (الظلمات) ، والظلام هنا متعدد : بطن الحوت ظلمه ، والبحر ظلمه ، والظلام في ذاته صورة مرعبة يرافقها صوت بطن الحوت ، وصوت البحر بما فيه ، تشكلات مختلفة ، وكلها تحيل إلىٰ هلاك متحقق إلا أن قدرة ٱلله تعالىٰ ، وعظمته تحيل الهلاك المتحقق إلىٰ صورة تخيلية فقط عند ذكر بطن الحوت مع وجود إنسان بداخلها ، وتحققت النجاة وخرج يونس ـ عليه الصلاة والسلام ـ من بطن الحوت ، إلا أن وضعه بعد الخروج اختلف اختلافاً جذرياً نتيجة ما حصل له داخل بطن الحوت ، فكان كالفرخ المنتوف ، ليس عليه شعر ، ولا جلد ، ومع ذلك كان فضله عليه كبيراً ، وصورته هـٰذه يتبين منها التحول الموصل إلىٰ الموت في حالة البقاء في بطن الحوت ، إلا أن حفظ ٱلله تعالىٰ كان سباقاً له ، وتلك رحمة من ٱلله تعالىٰ يمن بها علىٰ عباده الصالحين المستخلفين في الأرض ، يقول تعالىٰ : ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [(3)] .

---

(1) التحرير والتنوير ، ج 9 ، ص182 .

(2) الأنبياء 87 ـ 88 .

(3) الأنبياء 88 .

يرتبط اسم ٱلله تعالىٰ (السلام) بأمر مهم تجلَّت فيه رحمة ٱلله تعالىٰ ؛ ألا وهو إرسال الرسل ، وإرسال الرسل كان بحكمة من ٱلله تعالىٰ لما آل إليه الخلق من معاصي وذنوب وتجاوز علىٰ ٱلله تعالىٰ ، ومهمة الرسل اقتضت تعريف الناس بمعبودهم الحق ، ودعوتهم إلىٰ عبادة ٱلله وحده لا شريك له ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (2) هنا كانت بداية الدعوة إلىٰ ٱلله تعالىٰ مع نوح ، عليه الصلاة والسلام ، لا بد من التغيير ، لابد من الوقوف علىٰ الخطأ كي يصحح ، لابد من تغيير العقول وردم الهوة الفاصلة بينها وبين الحق ، لابد من التحذير حتىٰ لا يقع المحذور . ويتبع عبادة ٱلله تعالىٰ إقامة الدين والنهي عن التفرق فيه . يقول تعالىٰ : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (3) ثم يتبعه التبشير والإنذار ، يقول تعالىٰ : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (4) وتبشير الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي ، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة ، يقول تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(1) الأعراف 59 .

(2) الأعراف 65 .

(3) الشورى 13 .

(4) البقرة 213 .

فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي . يقول تعالىٰ : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [2] . وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها يقول تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [3] . وكل هٰذه الخطوات المتحققة غايتها السلامة للخلق أجمعين ، للفوز بالجنة والنجاة من النار ، يقول تعالىٰ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [4] .

وعليه الفوز بالجنة والنجاة من النار سلام ، وفي حفظ ٱلله ورعايته السلام ، وفي هيمنته ورزقه السلام ، وفي ملكه ورحمته السلام ، وفي عدله وحكمه وحكمته السلام ، وفي إحيائه وإماتته وبعثه السلام .

اللهمَّ يا السلام اجعلنا علىٰ السلام بالإسلام ، وسلمنا من الأقوال والأفعال والأعمال التي لا ترضاها وارضَ عنا وعن زوجاتنا وأولادنا وآبائنا وإخوتنا وصحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول ٱلله وأمهاتنا زوجات الرسول اللهمَّ صل وسلم عليه كما صليت وسلمت وباركت علىٰ سيدنا إبراهيم إنك سميع مجيب !

اللهمَّ يا السلام سلم عقولنا من بعض الظن فإن بعضه إثم ! اللهمَّ سلم أبصارنا من رؤية مالا ترضاه ، وسلم أسماعنا من الإنصات إلىٰ ما لا ترضاه ،

(1) النحل 97 .
(2) فصلت 13 .
(3) النساء 13 .
(4) آل عمران 185 .

وسلم أفكارنا من كل ضلالة ، وأبداننا سلمها يا سلام من عذاب جهنم إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا !

اللهمَّ يا السلام عُمَّنا بسلامك في الدنيا وفي الآخرة ، وأملأ قلوبنا ونفوسنا بالسلام والطمأنينة ، فأنت السلام الذي نحبه ونحتاجه ونرجوه ! اللهمَّ إنك جعلت تحيتك السلام فاجعلنا علىٰ الإسلام في سلام دائمين ! اللهمَّ سلّمنا من كل سوء ورذيلة وذنب ، واجعلنا يا السلام من الذين إذا حُيوا بتحية ؛ حَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ يرُدُّونهَا !

اللهمَّ يا السلام اجعلنا في حياتنا آمنين بالسلام وفي آخرتنا متنعمين بالسلام ! اللهمَّ اجعلنا من الذين دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ! اللهمَّ يا السلام أهدنا الصراط المستقيم واجعلنا عندك في دار السلام آمنين ، أنت ولينا يا نعم المولىٰ ونعم الوكيل !

اللهمَّ سلمنا من كل داء وكل بلاء وابتلاء ، وسلمنا في حياتنا ومماتنا ويوم بعثنا ، وسلمنا من الحساب واجعلنا من الفائزين في جنة النعيم ، إنك السلام يا ٱلله !

✍ ✍ ✍

المُؤمِنُ جلّ جلاله

المؤمن : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وصفة من صفاته ، وقوة مطلقة من قوته الدائمة . ومنه كما يؤكد لسان العرب استمد الأمن الذي هو ضد الخوف ، والأمانة التي ضد الخيانة ، والإيمان ضد الكفر ، ويعني أيضاً التصديق الذي ضده التكذيب [1] .

فالمؤمن هو الواثق الذي لا حيِّز للظن فيه ، ولهٰذا فالوثوق فعل يقيني : ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا ﴾ جعل ٱلله تعالىٰ الكعبة قِبلة للمسلمين يحجُّون إليها . و(يحجُّون إليها) تعني : يبلغون فيها الأمن والسلام ، ويبلوغهم إياها يوثقون عهدهم طاعة وطواعية علىٰ الإيمان وهم آمنون . ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴾ [2] . أي : في مكانٍ أمين لا وجود للضرر ولا مكان للخوف فيه .

قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ [3] روي عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير : أنهما قالا : « الأمانة هي الفرائض التي افترضها ٱلله علىٰ عباده » [4] .

---

(1) ابن منظور لسان العرب . بيروت ، دار لسان العرب ، المجلد الأول ، ص 107 .

(2) الدخان 51 .

(3) الأحزاب 72 .

(4) لسان العرب المحيط ، ج 1 ، ص 108 .

قال الزجاج : صفة المؤمن بٱلله أن يكون راجياً ثوابه ، خاشياً عقابه . وعن ابن عمر قال أتىٰ رجل إلىٰ رسول ٱلله ﷺ وقال : من المهاجر ؟ فقال : « من هجر السيئات » . وقال : من المؤمن ؟ قال : « من أئتمنه الناس علىٰ أموالهم وأنفسهم »[1] .

والأمانة التي عرضها ٱلله تعالىٰ علىٰ السمـٰوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفق منها هي المسؤولية التي حملها الإنسان ، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية ، طاعة ٱلله الواحد الأحد لا شريك له ، ولذا فإن الأمانة عبءٌ كبير ومن ورائها منافع أكبر فمن كان أميناً وحريصاً عليها كانت له الخلافة ، ومن لم يستطع فلن يكون خليفة علىٰ الأمانة .

ولثقل عبء الأمانة التي التزم الإنسان أمام ربه تعالىٰ بحمْلها لم يُوفَّق في حمْلها بالتمام ، فكان التقصير من بعضه ، وكان الشرك من بعضه ، وكان الظلم وقتل النفس التي حرَّم ٱلله ، وكان الفساد في الأرض ، وكان أكل أموال الناس بالباطل ، وكان قول الزور متمشياً مع شهادة الزور ، وكان الزنىٰ مع المحرمات ، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام . وهـٰذا لا يعني : أن الكل علىٰ هـٰذه الشاكلة ، بل هناك الأنبياء ، والرسل ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، وهناك الصالحون ـ رضي ٱلله عنهم ـ الذين يعملون علىٰ إصلاح ما يُفسده المخالفون ، وهناك المجاهدون الطائعون ، وهناك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، وهناك المتصدِّقون ، والمزكُّون ، والقائمون بأعمال الخير والإحسان ، وهـٰؤلاء هم الذين إذا أقسموا علىٰ ٱلله لأبرَّهم ، فالحمد لله ربِّ العالمين ! ولهـٰذا كان الانقسام والخلاف بين الذين ثقلت موازينهم والذين موازينهم خفَّت . ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ

---

(1) المصدر السابق، ص 108 .

رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ (1) .

ولأن الميزان هو أساس القسط ، فكان الاستخلاف هو الأمانة التي بها ثقلت الموازين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (2) .

تؤكد هٰذه الآية الكريمة علىٰ أن الاستخلاف في الأرض هو للذين آمنوا ، ولهٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ فـ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ﴾ لا تعني الذين لم يؤمنوا منكم . ولذا كان الاستثناء في استخلاف الأرض يخص الذين آمنوا ، ولا يعمُّ الذين كفروا ، ولا يخصُّ الذين لم يعملوا الصالحات . ولذلك فالاستخلاف خاصية ترتبط بالمؤمن وبالذين يعملون الصالحات ، والعمل الصالح بطبيعته عمل المؤمنين ، فهٰؤلاء هم الذين أراد ٱلله تعالىٰ استخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) . وعليه فكلمة منكم ، تعني : بعضكم ، وليس عمومكم ، ولأن الناس لم يؤمنوا بعد جميعاً ، فلن يكونوا بالعموم خلائف .

قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (3) فبعد أن رأىٰ موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ آية دك الجبل صُعِقَ موسىٰ ﷺ ، ولمَّا آفاق ، ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فـ : ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ﴾ تعني : أول

---

(1) القارعة 6ـ9 .
(2) النور 55 .
(3) الأعراف 143 .

المصدقين الذين نُزِعَ الشك ، والظن من صدورهم ، تسليماً بما يقوله ٱلله تعالىٰ ، وإيماناً تاماً بأنه هو ٱلله ، وقوله الحق سبحانه لا شريك له .

ولهٰذا فقول موسىٰ ﷺ : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعني : أنا أول خليفة بعد أولـٰئك الذين سبقوني بالإيمان مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ . وبما أنَّ ٱلله قد استخلف سابقين ، فهو بطبيعة الحال يستخلف حاضرين ، وسيستخلف من بعدهم لاحقين حتىٰ النهاية ، ولهٰذا جعل ٱلله تعالىٰ في الأرض الخلائف في حالة اتصال وتعاقب عبر الزمن ، أي : إنَّ أبواب الاستخلاف مفتوحة دائماً لمن يهتدي ، ولأن أبواب الاستخلاف مفتوحة عبر الزمن ؛ لذا فإن عدد المؤمنين دائماً في حالة ازدياد دائم حتىٰ النهاية . فالحمد لله ربِّ العالمين !

ومن عرف : أن ٱلله سبحانه وتعالىٰ هو المؤمن لم يطلب الأمن ، والاستقرار للناس في حياتهم الدنيا إلا في شرع ٱلله ، وعلم أن أهواء البشر ونظراتهم العاجلة القاصرة لا تنتج إلا فساداً وخللاً واضطراباً . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ (1) فلا أمن في العالم إلا وهو مستفاد بأسباب تفرد ٱلله تعالىٰ بخلقها ، والهداية التي استظل بها . قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (2) .

وحظ العبد من اسم ربه (المؤمن جل جلاله) أن يكون أميناً علىٰ نفسه ، وماله ، وأن يتخلق بالأمانة والصدق ، فالمؤمن لا يكذب ولا يسرق ولا يزني ولا يرتكب شيئاً من الفواحش ، بل يتقي ٱلله ربه في كل شيء يقوله أو يفعله ، ويهدي للتي هي أحسن : ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (3) .

---

(1) المؤمنون 71 .

(2) طه 50 .

(3) الإسراء 53 .

واسم (المؤمن) جل جلاله في الشرع : « فالعلماء قد عبَّروا عن هـٰذا الاسم بعبارات مختلفة ، فمنهم من ذهب إلىٰ أن المؤمن يعني : الذي يؤمِّن خلقه من ظلمه . كابن جرير ، بينما ذهب الزجاجي ، وابن كثير ، والشوكاني إلىٰ الجمع بين معنيان :

أحدهما : أنه الذي يأمن عباده من بأسه وعذابه .

وثانيهما : أنه المصدق عباده المؤمنين » [1] .

قال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [2] تنص هـٰذه الآية صراحة علىٰ أن المؤمن اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وجاء في هـٰذه الآية اسمه مرتباً بعد صفة : الملك ، والقدوس ، والسلام ، وهـٰذا الترتيب المنظم يدل علىٰ :

أولاً : تأكيد صفة (المؤمن) علىٰ ما سبقها من صفات لله تعالىٰ .

ثانياً : احتوت صفة المؤمن علىٰ ما سبقها من الصفات الحِسان .

ثالثاً : تفتح صفة المؤمن آفاقاً واسعة أمام الصفات التي تليها .

ولهـٰذا اسم ٱلله تعالىٰ لا يتعدد ، وصفاته متعددة .

ويقول الدكتور محمد بكر إسماعيل : « لاسم (المؤمن) جل جلاله معنيان :

المعنىٰ الأول : « أنه الذي آمن بنفسه ، وشهد بأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، وثنىٰ بشهادة ملائكته ، فكانت شهادتهم عبادةً له وتنزيهاً لذاته ، وهي شهادة مبنية علىٰ شهادة ٱلله تعالىٰ ، ثم تلا ذلك شهادة أولي العلم ، وهم

---

(1) مشرف الغامدي منهج الإمام ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى . الرياض ـ دار ابن الجوزية الطبعة الأولى 2005، ص 283 .

(2) الحشر 23 .

المؤمنون بالوحدانية الإلـٰهية يقيناً » [1] وذلك مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [2] .

والمعنىٰ الثاني للمؤمن : « هو الذي يؤمن للمؤمنين . أعني : يستجيب لهم إذا استجابوا له » [3] . وفي ذلك قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [4] . (فليستجيبوا لي) تعني : أن لا يعصوا أمري الذي هو من أجلهم ، وليس من أجلي ، فٱلله عز وجل لم يكن في حاجة لأحد ، بل هو الذي كل أحدٍ في حاجة إليه ، فكل قول من ٱلله تعالىٰ هو من أجل من قيل له القول . فٱلله تعالىٰ لم يكن في حاجة ، بل الذي في حاجة هو الذي يجوع ، ويظمأ ، ولأنه مالك كل شيء ، فهو الذي لم يكن في حاجة لأي شيء ، بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير .

قال رسول ٱلله ﷺ : « وٱلله لا يؤمن ! وٱلله لا يؤمن ! وٱلله لا يؤمن ! » قيل : ومن يا رسول ٱلله ؟ ! قال : « الذي لا يأمن جاره بوائقه » [5] .

وقال أبو حامد الغزالي : « أحقُّ العباد باسم المؤمن من كان سبباً لأمن الخلق من عذاب ٱلله بالهداية إلىٰ طريق ٱلله ، والإرشاد إلىٰ سبيل النجاة . وهـٰذه حرفة الأنبياء والعلماء » [6] .

---

(1) محمد بكر إسماعيل أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها . القاهرة ، دار المنار الطبعة الأولى 2000 ص 31 .

(2) ال عمران 18 .

(3) أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها . المصدر السابق ، ص31 .

(4) البقرة 186 .

(5) أبو حامد الغزالي المقصد الأسنىٰ في أسماء الله الحسنىٰ . بيروت ـ دار الكتب العلمية ، ص 49 .

(6) المصدر السابق ، ص49 .

بناء علىٰ ما تقدَّم نجد علاقة قوية بين اسم (المؤمن) والفعل الإيماني ، وذلك من حيث إنَّ اسم (المؤمن) هو المصدر للفعل الإيماني ، أي : لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعلٌ ، وبما أنَّ للإيمان فعل ، إذاً فمن يعمل علىٰ الأخذ به وتأكيده فهو المؤمن ، وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن ؟ ! ولذلك من يتخذ من الصفة أفعالها يتصف بها .

وبما أنَّ الأمانة عبء ، والعبء ثقل ليس هَيِّناً ، ومن ورائه مسؤوليات جسام ، فمن الذي يتطوع لحمْله ؟ . الواثق هو الذي يتقدم متطوعاً لحمْله ، أمَّا غير الواثق فلا يتقدم ، ولهٰذا عبء الأمانة لا يحمله إلا الواثقون ، الذين هم يتصفون بالخلائف .

المؤمن هو المصدق ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾ (1) ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ تعني : وما أنت بمصدق لنا ، وجاءها التأكيد عليها بقولهم : ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾ التي تحمل في مضمونها الاعتراف من قبلهم بعدم صدقهم فيما يقولون . ولهٰذا قالوا : ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾ولو كنا صادقين ، ولم يقولوا : ونحن صادقين .

وعليه : فالمؤمن هو الصادق ؛ الذي لم يدخل قاموسه الكذب من قريب ولا من بعيد . ولهٰذا ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ تدل أيضاً علىٰ انعدام الثقة فيهم في أمر يوسف . وهٰذا الأمر هو الذي يجعل من أمر المؤمن أمر وثوق . ولذلك قلنا : إنَّ المؤمن هو : الواثق . ولذا فهو الصادق فيما يقول ، ولأنه كذلك فالمؤمن كلما استمع أو قرأ قولاً من قول ٱلله تعالىٰ ؛ قال : صدق ٱلله العظيم ؛ وهٰذا القول هو التصديق من (المؤمن بالإضافة) للمؤمن الحق جل جلاله . ولأن المؤمن هو الواثق ، قال جلا جلاله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟

---

(1) يوسف 17 .

إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (1) .

والمؤمن الحق هو المُسلَّم بأمره ، والمؤمن بالإضافة هو المسلِّم بالمؤمن الحق . والإيمان هو التسليم : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ (2) . فـ : ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ ﴾ تعني : سلَّمنا به وصدقناه ، ولهٰذا فالمؤمن لا يخاف في الحق أحداً . وبما أنَّ المؤمن لا يخاف في الحق أحداً ، إذاً أمر التسليم حق ، ولأن أمر التسليم بالحق حق ؛ لذا فالإيمان بالحق أمر تسليم ، ولهٰذا جاء قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ ﴾ أي : أصبح فعل الإيمان أمراً نافذاً في زمن الاستماع للهدىٰ دون انتظار أو طلب استشارة من أحدٍ . ولذلك لمَّا يدخل الإيمان في القلوب تصبح الحقيقة هي البينة : ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ (3) . يقول القرطبي : « نزلت هٰذه الآية الكريمة في أعراب بني أسد بن خُزيمة قدموا علىٰ رسول ٱلله ﷺ ، في سنة جَدْبة ، وأظهروا الشهادتين ، ولم يكونوا مؤمنين في السر ، فكانوا يقولون للرسول ﷺ : أتيناك بالأثقال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة ؛ وجعلوا يمنُّون عليه ، فأنزل ٱلله تعالىٰ فيهم هٰذه الآية . وقال ابن عباس : نزلت في أعراب أرادوا أن يتسمَّوا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلم ٱلله : أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين » (4) .

بناء علىٰ هٰذه الآراء فإن مكمن الحقيقة هو القلب ، أمَّا اللسان فإنه يقول كل شيء ، فهو يقول الحق كما يقول الباطل ، أمَّا القلب فهو المكين للحقيقة . والمكين هو الحافظ للحقيقة سواء كانت سالبةً أم موجبةً . ولٰكن

---

(1) الأنعام 82 .
(2) الجن 13 .
(3) الحجرات 14 .
(4) القرطبي الجامع لأحكام القرآن . دار الكتاب العربي ، ج16 ، ص 348 .

إظهار الحقيقة ليس بالأمر الهين ، فهو دائماً في حاجة للتقصي الدقيق ، والمتابعة الواعية ، ولذا يستند البحث العلمي علىٰ التقصي في إظهار الحقائق من الباطن إلىٰ الظاهر ، وهـٰذا التقصي هو الذي يُمكِّن البَحَّاثة من بلوغ الحقيقة هي كما هي ، لا هي كما ينبغي أن تكون من وجهة النظر الخاصة .

قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [1] وقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ [2] . في الآيتين السابقتين كانت المخاطبة مباشرة للمؤمنين ، إلا أن الآية الأولىٰ حددت بمن يكون الإيمان ، وهو : الإيمان بٱلله ، والرسُول محمد ﷺ ، والكتاب القرآن الكريم ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، وهو الذي يستوجب التصديق بالكتب التي نزلت علىٰ الرُسُل الذين كان محمد ورسالته الخاتمين لكل رسول ، ولكلِّ رسالة . ولهـٰذا نحن لا نفرق بين أحدٍ من رسله صلوات ٱلله وسلامه عليهم ، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

وفي الآية الثانية جاء الأمر للمؤمنين كافة أن يدخلوا السلم ، وجاء النهي أيضاً لهم كافة ألا يتبعوا خطوات الشيطان . ولذلك فالعلاقة قوية بين المؤمنين والسلم الذي كما سبق أن بينا هو المستمد من اسمه السلام جل جلاله . ولأن المؤمن هو الذي يؤمن بالسلام عزَّ وجل ، فبطبيعة الحال أن يكون داخلاً في السلم ، والسلم خير .

المؤمن جل جلاله هو : الموثوق فيه ، أي : إنه محل الثقة المطلقة ، والمؤمن بالإضافة هو المُتَّبع التزاماً لكل ما جاء به المؤمن الحق ، تسليماً بالقول ، وتسليماً بالفعل ، حتىٰ يتماثل الباطن مع الظاهر : (السر مع

(1) النساء 136 .

(2) البقرة 208 .

العلانية) . ولذلك تغرس الثقة في المؤمن بالإضافة بعد المعايشة والمرافقة والتجريب معه في القول والفعل اللذين بتطابقهما مع الصدق ينالان الثقة . ولذلك يُعَدُّ المُجرَّب هو الذي عُرِف عنه قول الحق ، وفعل الحق مما يجعله محل ثقة بين الناس .

وعليه فالمؤمن المطلق هو الذي جاء بالإيمان بدين الحق الذي آمن به المؤمن المضاف حتىٰ اتصف به قولاً وسلوكاً .

(آمن به) تعني : وثق به ، وصدَّقه ، حتىٰ اعتقده حقيقة ، ولذا فالإيمان هو الوثوق والتصديق والتسليم . وفي ذلك يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي : « من آمن بٱلله اعتقده حقيقة ، فآمن بوجوده وبصفاته التي وصف بها نفسه في كتابه ، وعلىٰ لسان نبيه عليه الصلاة وأتم التسليم » (1) .

ويتساءل الشعراوي بقوله : « ما المقصود (بالمؤمن) حين يكون اسماً ووصفاً للحق تبارك وتعالىٰ ؟

ويجيب : (المؤمن) كوصف من أوصاف ٱلله عز وجل له معانٍ متعددة . منها : أنه تبارك وتعالىٰ مؤمن بكل ما دعانا إلىٰ الإيمان به ، فهو مؤمن بأنه موجود ، ومؤمن : بأنه موصوف بصفات الكمال المطلق ، ومؤمن : بأنه واحد أحد ، ومؤمن : أنه لا إلـٰه سواه » (2) . وفي ذلك قال تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (3) .

الإيمان خير ، والمؤمن هو الخيِّر ، ولذا فمن يُريد خيراً فعليه بالإيمان ،

---

(1) محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى . القاهرة، أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص 159 .

(2) المرجع السابق، ص 160 .

(3) آل عمران 18 .

ومن يريد شراً ـ عافانا ٱلله ـ فليس له من خير ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [(1)] فقوله تعالىٰ ﴿ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ دليل إثبات : أن الإيمان هو الخير في ذاته ولهٰذا ارتبط بذات ٱلله العلية ، وفي مقابل ذلك ينفصل الشر عن ذاته ، ويرتبط بفاعله .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [(2)] . هٰذه الآية رسالة من ٱلله تعالىٰ إلىٰ الناس جميعاً ، يُطلب فيها الإيمان به وبرسوله محمد النبي الأمي ، الذي آمن بٱلله وكلماته ، وهو الذي له ملك السمٰوات والأرض وحده لا شريك له ، يحيي ويميت وهو علىٰ كل شيء قدير .

وقد يظن البعض متسائلاً كيف يكون هو الرسول من عند ٱلله تعالىٰ ، ويقول : ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ﴾ وفي هٰذا النص يشير مباشرة لنفسه ﴿ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ﴾ ؟

هٰذه الآية نصٌّ تامٌ من عند ٱلله تعالىٰ ، وما الرسول إلا مكلفاً بتبليغها هي كما هي دون زيادة ولا نقصان ، فٱلله تعالىٰ هو الذي قال النص التام لهٰذه الآية الكريمة ، وهو الذي وصفه بالنبي الأمي ولم يصف نفسه بذلك ، وبهٰذا الوصف الرباني يُبَرِّئ ٱلله سيدنا ونبينا محمداً ﷺ من أي اتهام أو ظن ، مؤكداً : أنَّ الرسالة التامة هي من عند ٱلله ، وليس للرسول فيها من شيء إلا البلاغ ، وبهٰذا أكَّد ٱلله تعالىٰ علىٰ أنَّ الرسول أميٌّ ؛ أي : لا علم له بأمر الرسالة لو لم يُعلِمه ٱلله بها ، ويُعلِّمه علمها ، ويُكلِّفه بالتبليغ .

---

(1) النساء 170 .

(2) الأعراف 158 .

ولذا فإن الرسول من بعد الرسالة لم يكن أميَّاً ، فهو الذي يُبيِّن ويفسِّر ما علَّمه ٱلله ، فالرسول قبل الرسالة بحق كان أميَّاً بأمرها ، أمَّا من بعدها فقد علَّمه ٱلله عز وجل بعلم الرسالة ، فالرسول ﷺ لو لم يعلم : أنَّ ٱلله علىٰ كل شيء قدير ما آمن به ، ولو لم يعلم علم اليقين بأنه الحق ومنه الحق ما اصطفاه ٱلله رسولاً له ، ولو لم يكن كذلك قادراً علىٰ حمْل ما كلَّفه بحمله ما حمِلَ الرسالة ، وبشَّر بها ، ودعا إليها ، وحرَّض علىٰ ما تأمر به ، ولو لم يكن كذلك ما كان المرجعية التي يعود إليها جميع المسلمين : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ﴾ [1] وقوله تعالىٰ : ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [2] فأنزله بعلمه الذي عَلِمهُ محمد أولاً ، وبشر به ثانياً ، ولأنه قادر علىٰ ذلك ﷺ وطلب منَّا الصلاة والتسليم عليه فالحمد لك ، والشكر لك ، لا شريك لك ، والصلاة والسلام علىٰ من أمرتنا بالصلاة والسلام عليه سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة وأتم التسليم !

وورد في الآية الكريمة بلاغان : بلاغ عن الرسول ، وبلاغ به : فالبلاغ عنه : أنه آمن بٱلله وكلماته . والبلاغ به : أنه المكلف بإبلاغ الناس أن يؤمنوا بٱلله وبرسوله النبي الأمي ، وإتباعه مع أفضل التمنيات بالهداية .

وعليه ، فالإيمان في هـٰذه الآية جاء رباعي الأبعاد :

البعد الأول : إيمان الرسول ﷺ بٱلله تعالىٰ .

والبعد الثاني : طلبٌ في صيغة أمر بأن يتمَّ الإيمان بمن آمن الرسول به وهو المؤمن جل جلاله .

---

(1) الحشر 7 .

(2) النساء 166 .

البعد الثالث : أن يتم التسليم والإيمان بالرسول الأمي محمدٍ رسول ٱلله عليه الصلاة وأتم التسليم .

البعد الرابع : إتباع الرسول . أي : الأخذ بسنته ؛ حتىٰ تتم الهداية لِما يأمر الرسول به .

وعليه من يؤمن ؛ كان الخليفة ، ومن يكفر ؛ فلن يكون من الخليفة في شيء .

قال أحمد عبد الجواد في كتابه : « ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها » : « المؤمن جل جلاله هو الذي يفزع إليه الخائف فيؤمِّنه ، فلا أمن ، ولا آمان إلا منه جل جلاله . وقال : من اسم المؤمن اشتق الأمن والأمانة ، واشتق اسم العبد المؤمن » [1] .

ولذا فإن اسم المؤمن هو الأصل ، وما يشتق منه تابع له ، فالمؤمن بالإضافة مشتق من المؤمن الحق ، وهو في هـٰذه الحالة متماثل في اشتقاقه مع اشتقاق الأمانة ، والأمن ، والأمان من اسمه جل جلاله .

والأمان عهد علىٰ حق ، ولذا فالحق هو الذي جعل عهد ٱلله هو العروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها . ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ [2] .

والمؤمن هو الذي لا تردد في أمره ، فإذا أراد شيئاً ؛ قال له كن ، فيكون .

قال تعالىٰ : ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا۟

---

(1) أحمد عبد الجواد، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. الدار البيضاء، دار الثقافة ص 40.

(2) القصص 31.

ﭐلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ ﴾ [1] جاء الخير من الإيمان ، وهو عدم الخيانة ، ولذا فبمقارنة خائن ولو أعجبك بمؤمن لا يخون حتىٰ ولو كان عبداً فإن الاختيار يقع في حالة الأمر الجد علىٰ من لا يخون . ولهٰذا فالخائن لا أمانة له ، ولا ثقة فيه ، ولا سكنَ معه ، ولا طمأنينة .

قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [2] . لمَّا سمع صحابة رسول ٱلله هٰذه الآية الكريمة ؛ قالوا للرسول ﷺ : « أيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول ٱلله ﷺ : « ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] .

فالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، هم المؤمنون حقاً الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فهم الذين لم يصاحبهم ظنٌّ بما آمنوا به ، وهم الذين لا يقولون إلا ما يفعلون ، ولذلك فهم المؤمنون ، ولأن المؤمنين هم جمع مؤمن ، لذا فهم القوة المجمَّعة بقوة الإيمان التي بها يضمنون الأمن ، وهم مطمئنون مهتدون بمعرفة تامة إلىٰ ما يجب اتباعه ، وإلىٰ ما يجب اجتنابه ، وهٰؤلاء هم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وهٰذا الحال هو بالتمام حال أمر الخليفة ، الذي آمن بٱلله ورُسُله وكُتبه وملائكته ، أمَّا حال أولٰئك البعض من الذين لم يؤمنوا بالوحدانية الإلٰهية ولم يؤمنوا بجميع الرسل والكتب والملائكة ، وخانوا ٱلله والرسول وأماناتهم ؛ فهم لم يكونوا من الخليفة في شيء ، والأمر الذي جعلهم من المستثنيين هو عدم إيمانهم ، ولذا لو لم يؤمن الناس ما جعل ٱلله في الأرض خليفة .

---

(1) البقرة 221 .

(2) الأنعام 82 .

(3) القرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم ، الجزء السابع ، ص 30 .

قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ ﴾ [1] قيل : إنها نزلت في أبي لُبابة بن عبد المنذر حين أشار إلىٰ بني قريظة بالذبح . قال أبو لُبابة : « وٱلله ما زالت قدماي حتىٰ علمت أني قد خنت ٱلله ورسوله ، فنزلت هـٰذه الآية . فلما نزلت شدَّ نفسه إلىٰ سارية من سواري المسجد ، وقال : وٱلله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتىٰ أموت ، أو يتوب ٱلله عليَّ ، وبقي علىٰ هـٰذا الحال سبعة أيام حتىٰ خر مغشيّاً عليه ، فجاءه رسول ٱلله ﷺ فحلَّه بيده » [2] .

في هـٰذه الآية الكريمة نهىٰ ٱلله تعالىٰ عن ثلاث خيانات : خيانة ٱلله تعالىٰ ، وخيانة رسول ٱلله ﷺ ، وخيانة الأمانات . والنهي عن الخيانة هو نهي عن ارتكاب الأفعال الفاقدة لمعاني الصدق ، ولذلك فالقاعدة هي الصدق (قول الحق وفعل الحق) ، والشذوذ الكذب (خيانة قول الحق وفعل الحق واستبداله بالقول الزور والفعل الزور) .

الأمانات في هـٰذه الآية جاءت غير محددة ، مما يستوجب تعددها إلىٰ النهاية ، فالأبوة أمانة ، والأمومة أمانة ، والأخوة أمانة ، والعمومة ، وذوو القربىٰ أمانة ، والجيرة أمانة ، وممارسة الحقوق ، وأداء الواجبات ، وحمْل المسؤوليات أمانات ، التعلم والتعليم أمانة ، العمل والإخلاص فيه أمانة . العهد أمانة ، الإيمان أمانة ، الفرائض أمانة ، قول الحق وفعل الحق أمانة ، وغيرها من الأمانات كثير ، وفي مقابلها الكثير من الخيانات ، فالزنىٰ خيانة ، وشهادة الزور خيانة ، الشك بٱلله خيانة ، بيع الوطن خيانة ، هتك العرض خيانة ، أكل أموال الناس بالباطل خيانة ، اتباع المنهي عنه خيانة ، وهـٰكذا تتعدد الأمانات والخيانات علىٰ كفتي العدل إلىٰ النهاية .

---

(1) الأنفال 27.

(2) مواهب الجليل من تفسير البيضاوي، ص230.

ولذلك فإن اسم المؤمن جل جلاله اسم الوثوق ؛ الذي لو لم يكن اسمه المؤمن ما كان لنا الدليل علىٰ صدق ما يُقال ، فالمؤمن اسم عهد علىٰ الإيمان ، ولذا فالإيمان هو دليل وثوق المؤمن من ذاته ونفسه وقوله وفعله . فالإيمان عهد لا ينفصم ، وقَسَمٌ لا يحنث ، إنه الرسوخ والثبوت علىٰ الحق بقوة الحُجَّة .

اسم المؤمن اسم يقيني : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (1) . هـٰذه الآية الكريمة دليل إثبات أمام الأبصار والعقول ، ولقد جاءت شاهداً علىٰ الإيمان ، (قال بلىٰ ولـٰكن ليطمئن قلبي) أي : بلىٰ آمنت ؛ ولـٰكن لأرىٰ الحقيقة ، وليرىٰ غيري ومن يتم استخلافه من بعدي أنَّ الإيمان حق . فالعلاقة قوية بين ما تراه الأبصار وبين ما يَستقرُّ في القلوب ليُعمَّر . ولذلك فمن يريد أن يرىٰ ٱلله فعليه بملاحظة امتداد قوته بين الحركة والسكون . فالطيور الأربعة التي تم أخذها هي في حالة حركة ، وبعد أن قُطِعت إلىٰ أجزاء متفرقة أصبحت ساكنة لفقدانها الحياة التي بانعدامها تنعدم الحركة بالنسبة للميت ، ولأن خالق الحياة والموت حيٌّ لا يموت وبيده الأمر ، أعيدت الطيور الأربعة إلىٰ الحركة الحية آية بين أيدي الخليفة الذي عندما سُئل : أولم تؤمن قال : بلىٰ . وبما أنه أجاب ببلىٰ ، فهو المؤمن بدون ظن . وبما أنه المؤمن بدون ظن ، إذاً فلماذا إبراهيم يسأل ربه تعالىٰ ؟

تتلخص هـٰذه الآية الكريمة في دعوة إبراهيم ربه تعالىٰ ، واستجابته له كانت القوة الماثلة أمامه ، وبين يديه ، فاطمأن قلب إبراهيم ﷺ باستجابة ربه تعالىٰ حتىٰ أزيل الشك عنه . وبهـٰذه الاستجابة (الشاهد عيان) انقطع الشك

(1) البقرة 260 .

من قلب إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، وعرف : أن ربه سيكون مجيباً دعاءه كلما دعاه . وفي الوقت ذاته كانت الاستجابة قوة حُجَّة ، وستظل شاهداً عبر الزمن لمن يُؤمن بٱلله ، والرُسُل ، والأنبياء .

ولأن المؤمن الحق هو الذي يُصدِّق عباده ووعده ، جاء تصديقه بالاستجابة لدعوة إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ؛ حتىٰ اطمأن قلبه بالإيمان .

أولم تؤمن جاءت استغرابية استفهامية . فٱلله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وجعل الليل لباساً ، والنهار معاشاً ، هو الذي تساءل بقوله تعالىٰ : (أولم تؤمن) أي : أولم تؤمن وأنت تعرف أنك تجوع ، وأنا الذي أطعمك من الجوع ، وأنت الذي تظمأ ، وأنا الذي أروي ظمأك بالماء الذي جعلت منه كل شيء حيَّاً ، وأنت الذي في حاجة للجنس ، وأنا الذي شرَّعت لك الحلال منه ، وأنت الذي تخاف ، وأنا الذي آمنتك من الخوف ، وأنت الذي تغضب ، وأنا الذي جعلت الفرحة تملأ صدرك ، أنت الذي تظلم ، وأنا الذي جعلت العدل فيك حبَّاً وغرست الكره في كل المظالم ، وأنت الذي تقتل وأنا الذي حرَّمت قتل النفس بغير حق ، وأنت الذي من بينك كفرة وأنا الذي جعلت الإيمان حق لمن يريد أن يكون الخليفة .

وبناء علىٰ ما ورد في هـٰذه الآية علينا أن نفرِّق بين الظن والشك : فالظن ضعف ، وذلك بمصاحبة الإثم له في بعض الأحيان ، والشك قوة تفكير من أجل الإدراك الواعي . ولذا فبالشك يتم التفكُّر والتذكُّر ، وبه يتم تصحيح المعلومة الخاطئة بالمعلومة الصائبة . ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (1) . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ

(1) الانفطار 6 ـ 8 .

أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (1) . ٱلله عزَّ وجل لم يكن له شكلٌ أو جسمٌ ليُنظر إليه ، أو تراه الأبصار ، فهـٰذا الأمر في غير محله .

ٱلله واحد أحد في ذاته ، والإنسان صورة في جسد ، ولهـٰذا ليس لذات ٱلله شكلٌ ولا صورة حتىٰ يكون قابلاً للمشاهدة ، أو الرؤية العينية ، بل هو الكل الواحد الأحد الذي لا يمكن أن يتمكن أحد من رؤيته ، مع انه يتمكن بكل يسر من إدراكه . ولذا عندما قال موسىٰ ﷺ ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ . قال : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ . أي لن تراني كما يتهيأ للبعض بأني في صورة ، أو شكلٍ مما يعرفون ، بل إذا أردت أن تراني قوة فانظر إلىٰ الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، ولأن الجبل بقوة ٱلله لم يستقر في مكانه ، إذاً فبطبيعة الحال لن يرىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام ربه تعالىٰ ، ولـٰكنه يدرك حقيقة : أنه هو الذي بيده القوة التي جعلت الجبل دكاً ، وجعلت موسىٰ يخر صعقاً . وهـٰذه الآية هي القوة التي جعلت موسىٰ بعد أن آفاق يقول : ﴿ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وعليه يقول الشيخ سعيد بن علي بن وهف : « المؤمن هو الذي أثنىٰ علىٰ نفسه بصفات الكمال ، وبكمال الجلال والجمال ، الذي أرسل رسله ، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين ، . وصدَّق رسله بكل آية وبرهان » (2) .

المؤمن الحق هو مصدر القوة المطلقة ، والمؤمن بالإضافة هو الذي يستمد قوته من المؤمن الحق ، وهو الذي يُسلِّم به تسليماً تاماً لا ظن فيه . ولذا فإن اسم المؤمن بالإضافة هو اسم تسليمي ، يؤمن بما أنزل ، ولا يعصي لله أمراً .

(1) الأعراف 143 .

(2) سعيد بن علي بن وهف شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ . في ضوء الكتاب والسنة . بيروت ، دار ابن حزم 2003 . ص 92 .

واسم المؤمن بالإضافة اسم تعبدي ، بعد أن يتم التسليم بٱلله ورُسُله وكتبه ، وبكل ما أمر به ، ونهىٰ عنه يصبح الإيمان فعل إضافة لفعل التسليم ، ويصبح المؤمن في هـٰذه الحالة هو الذي يملؤه اليقين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [1] .

والأمن نقيض الخوف ، فمتىٰ ما حلَّ الأمن ؛ نُزِعَ الخوف ، وهـٰذا يعني أن الإيمان هو بيت الاستقرار والسكينة الذي به تطمئنَّ القلوب . وبما أنَّ الإيمان هو بيت السكينة والاطمئنان ؛ إذاً إذا أريد للأمن أن يستقر في القرية الصغيرة فلا مفر من المؤمن الحق إلا المفرُّ إليه وحده لا شريك له بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير . وإن لم يتم ذلك لا يمكن للفتن أن تزول ، ولا يمكن للحقد والمكائد أن تزول ، وبما أن الأمر كذلك فستظل الفتن والمكائد والصدامات والحروب إلىٰ أن تتم العودة إليه بدلاً من المفرِّ منه مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [2] .

وبما أنَّ الإيمان هو المشتق من اسم المؤمن جل جلاله ، وهو بيت السكينة والاطمئنان ؛ إذاً فمن آمَنَ بالمؤمن آمَنَ نفسه من الجوع والخوف : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [3] . وعليه فمن أراد ألا يكون من الخائفين فعليه بالإيمان . ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [4] .

وبما أنه لا أمان إلا منه ؛ إذاً فالإيمان به هو المُمَكِّن من الإيمان منه .

---

(1) الحجرات 14 .
(2) آل عمران 85 .
(3) قريش 4 .
(4) الرعد 28 .

ولذا فمن أراد أمانه فعليه بالإيمان به واحداً أحداً لا شريك له . والإيمان في هـٰذه الحالة هو عهد قطعي لا رجعة من بعده مما يستوجب اللجوء إليه دون غيره ، حيث لا أحد غيره يطعم من الجوع ، ويُؤمن من الخوف . وإلا هل هناك من يضمن ذلك ويؤتمن جانبه إلىٰ الأبد غيره ؟ الإجابة تكمن في قوله تعالىٰ : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [1] .

بالرغم من وضوح القوة والمقدرة الإلـٰهية علىٰ الفعل المطلق ؛ إلا أن المؤمن ـ جل جلاله ـ رؤوف بالذين يرثون الأرض ، فلم يصبهم بذنوبهم التي بها يفسدون في الأرض التي استخلفهم ٱلله فيها ليصلحوا . والفرق كبير بين وراثة الأرض ، وبين الاستخلاف فيها : فوراثة الأرض حق معيشة عامٌّ لا استثناء فيه . والاستخلاف في الأرض بابه مفتوح للجميع ولـٰكن لا يدخله إلا مؤمن (مصلح) . ولذا قال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [2] دائماً الفساد يؤدي إلىٰ النهاية غير الحسنة ، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ تعني : بما عملوا من مفاسد في الأرض . فالأرض التي خلقها ٱلله ، وجعلها كنز وافر في الحياة الدنيا ، العيش فيها حق للجميع (المؤمن وغير المؤمن) وبالتالي لا يحق الإفساد فيها حتىٰ لا يحرم أحد من ورثتها من العيش الآمن ، ولذا فمن يُفسد فيها يكون العذاب جزاءه في الدار الآخرة . ولأن مَن يملك الكل يملك الجزء ، فٱلله خلق الأرض ؛ ليرثها

(1) الأعراف 97ـ100 .

(2) الأعراف 96.

الجميع ، ولٰكن إذا أراد أن يُملِّكها لعباده الصالحين فهو القادر متىٰ ما يشاء وكيفما يشاء ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ (1) .

فالعذاب والعقاب لا يأتيان إلا لملاحقة خيانة ، ولهٰذا فالقاعدة : الإباحة هي الحلال ، والاستثناء هو التحريم والنهي ، ولذا فكل ما يقع من خيانة هو خروج من دائرة الإباحة الحلال ، ودخول إلىٰ دائرة الاستثناء (الممنوع والحرام) . فالفساد في الأرض منهي عنه ، وهٰذه قاعدة تستوجب الاتباع ، فمن يُفسد فيها يُخِلَّ بالقاعدة ويدخل دائرة الاستثناء ، وبناء علىٰ القاعدة والاستثناء فإن المصلحين فيها هم الخلفاء ، والذين يعيشون عليها هم الورثة .

وعليه : قد يتساءل البعض : بما أنَّ الإباحة هي القاعدة ، والتحريم هو الاستثناء من القاعدة ، وأن الوجود مؤسس علىٰ القاعدة والاستثناء ، فهل هٰذا دليل إثبات انعدام المطلقية ؟ . لا مطلق إلا من عند ٱلله . وهٰذه قاعدة . ولا استثناء إلا من عند المخلوق . وهٰذه قاعدة .

وقد يتساءل آخر : بما أنَّ المخلوق هو في دائرة الاستثناء ، فكيف لنا بالمطالبة أن يكون متمسكاً بالقواعد ؟

الإنسان مع أنه خُلق في أحسن تقويم إذا ما قورن بغيره من المخلوقات الأخرىٰ ، إلا أنه لم يُخلق علىٰ الكمال ، فهو الذي يُفكِّر ويتذكر في وقتٍ واحد (يُفكر في مستقبله ، ويتذكر ماضيه) ومع ذلك لن يستطيع أن يفكر في كل شيء مهما فكَّر ، فأي شيء يقع في دائرة المطلق ، ولن يستطيع أن يستدعي كل ماضيه مهما تذكَّر ، فالماضي بالتمام مثل المستقبل يقع في دائرة المطلق وهٰذه لم تكن دائرته .

(1) الأنبياء 105 .

وبما أنَّ هـٰذا حاله ؛ فكيف يكون الخليفة في الأرض ؟

بمقارنته بكل المخلوقات فهو الأقدر الذي خُلِقَ في أحسن تقويم ، وبمقارنته بالخالق فهو الضعيف الذي في حاجة لقوة من خالقه تمده بإمكانات السيادة علىٰ الأرض التي يراد له الاستخلاف فيها . والقوة بإمكانه أن يستمدها بتمسكه بقواعد الإباحة الحلال ، التي منها أن يعمل علىٰ الإصلاح في الأرض ، واستثمار خيراتها ، وأن يشرب حلالاً ، ويأكل حلالاً ، ويجامع حلالاً ، ويقول الحق ، ويفعل الحق ، ويتعلم إلىٰ النهاية حتىٰ يتمكن من الغوص في كل آية من آياته العظام ، وألا يشغل عقله بإلـٰه آخر غيره ، فيكون انشغاله به علىٰ حساب إيمانه بالوحدانية ، التي يتعلَّق أمرها بإحداث المطلق ، وأن يمارس حقوقه بإرادة ، ويؤدي واجباته بإرادة ، وأن يحمل مسؤولياته بكل حرية ، وأن يُقدِّر بني جنسه أحسن تقدير ، وأن يعدل إذا طُلب منه أن يحكم بين الناس ، وأن لا يكتم شهادته . وعليه فإن التزم بالقواعد ، وابتعد عن الاستثناءات ؛ فقد آمن ، وإن لم يفعل ؛ فقد كفر .

ولذا يكون الإنسان مؤمناً إذا التزم بالقواعد ، ويكون منحرفاً إذا حاد عنها ، ولهـٰذا : السُّكر استثناء ، وأكل أموال الناس بالباطل استثناء ، والزنىٰ استثناء ، والإفساد في الأرض استثناء ، والظلم استثناء ، وجميع هـٰذه الاستثناءات ـ وغيرها كثير وللأسف الشديد ـ هي من عمل من يُرَاد له أن يكون الخليفة . ولأن أمر الإرادة بيد الإنسان ، فإذا أراد أن يكون من بين الخلائف في الأرض فبإمكانه أن يكون ، وإذا لم يرد فالأمر أمر إرادة . ولهـٰذا فنحن مثلما سلمنا بقاعدة : لا مطلق إلا من عند الخالق تعالىٰ ؛ سلمنا أيضاً بقاعدة : أنَّه لا استثناء إلا من عند المخلوق .

فالمخلوق إن آمن ؛ اطمأنَّ ، وتخلَّص من مسببات الضعف والوهن ، وامتلك مقاليد القوة ، وساد في الأرض خليفة مصداقا لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ

وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [1] فنحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فالمؤمن جل جلاله هو ولي المؤمنين بأسباب إيمانهم الذي تمَّ استخلافهم به في الأرض فكانوا نعم الوارثين : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [2] . ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ ﴾ تعني : إنَّ أخصَّ الناس بخلافة إبراهيم هم الذين اتبعوه بالإيمان ، والذين آمنوا بمحمد واتبعوا رسالته هم الوارثون للاستخلاف في الأرض كما سبق وأن ورثها مِنْ قبلهم الذين آمنوا بالأنبياء والرسل السابقين .

وعليه فمن يُؤمن بمحمد يصلِّي عليه ويسلم تسليماً تاماً كما يصلِّي ويسلِّم علىٰ إبراهيم وكل الرسل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [3] وقوله تعالىٰ : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [4] .

تؤكد هٰذه الآيات الكريمة علىٰ الاستخلاف المتصل ، ولا تؤكد علىٰ الاستخلاف المنفصل . فالاستخلاف المتصل هو استخلاف تماثل ، فمثلما نصلي ونسلم علىٰ الأنبياء والرسل السابقين بالتمام نُصلي ونسلم علىٰ محمد . أمَّا الاستخلاف المنفصل أن يؤمن مسلمٌ بنبيٍّ أو رسول من عند ٱلله ولا يؤمن بنبي أو رسول آخر من عنده .

---

(1) فصلت 30، 31.

(2) آل عمران 68.

(3) البقرة 136.

(4) البقرة 285.

وعليه فالمؤمن الحق : هو الذي بيده اليقين .

والمؤمن بالوراثة : هو الذي يؤمن بالمؤمن الحق وحده لا شريك له بيده الملك يحيي ويميت وهو علىٰ كل شيء قدير .

أمَّا الأمانة : فهي المتداولة بين الطرفين ، ويستشهد بها ويُشهد عليها بين مالك ومُملَّك ، وهي إرث يُورَّث . ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [1] .

والأمن : فعل استقراري من فاعل أعظم إلىٰ فاعل بالإضافة : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ [2] .

والأمان : عهد يُقطع ممَّا يجعل أمان ٱلله باقٍ ببقائه ، وأمان العبد زائل بزواله .

والإيمان : اعتراف إرادي بفعل جلل : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [3] .

(المؤمن) اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ ، وصفة من صفاته ، يوضع اسم ٱلله تعالىٰ (المؤمن) ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة العلم الواسع الكامل لله تعالىٰ ، وهي : (العليم ، اللطيف ، الخبير ، الشهيد ، الحسيب ، المحصي ، الواجد ، السميع ، البصير ، الرقيب ، المهيمن ، الواسع ،

---

(1) الأحزاب 72 .
(2) الأنعام 82 .
(3) المجادلة 22 .

المؤمن) . واسم ٱلله تعالىٰ (المؤمن) هو المؤمن عباده بما عرفهم من عدله ورحمته من أن يظلمهم ويجور عليهم . وأصل الإيمان في اللغة : التصديق ، ويحتمل ذلك وجوهاً :

أحدها : أنه يصدق عباده وعده ، ويفي بما ضمنه لهم من رزق في الدنيا ، وثواب علىٰ أعمالهم الحسنة في الآخرة ، والآخر : أنه يصدق ظنون عباده المؤمنين ، ولا يخيب آمالهم ، كقول النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه ـ عز وجل ـ : « أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء » . وقيل : بل المؤمن الموحد نفسه لقوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ ﴾ [1] . وقيل : بل (المؤمن) الذي آمن عباده المؤمنين من عذابه يوم القيامة . وقيل : هو الذي آمن خلقه من ظلمه . وقد مرَّت أكثر هـٰذه الوجوه [2] .

واسم المؤمن من الأسماء الحسنىٰ التي وردت مرة واحدة في القرآن الكريم ، يقول تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [3] إلا أن هـٰذا الورود يرسم تشكلاً معرفياً كبيراً ، ويحيل إلىٰ دلالات عظيمة تكمن أهميتها في أنها ترتسم ضمن خصائص تتعلق بصلب التكوين البشري ، وتساعده في إدراك أبعاد مهمة تساهم في الاستقرار النفسي الذي سبقه تخبط مستمرٌّ بين القلق الدائم ، وعدم الإدراك لمعطيات الرؤىٰ المتكررة التي تتكرر مراراً دون الوصول إلىٰ حقيقة مطلقة يستشف من خلالها كنه ما هو متحقق ، والوقوف علىٰ حقيقته للتبصر ، والتمعُّن والإدراك ، فهو

---

(1) آل عمران 18 .

(2) الأسماء والصفات ، ج 1 ، ص 166 .

(3) الحشر 23 .

يعطي صورة مغايرة تماماً لما يتردد في النفس الإنسانية ، وهـٰذا يحيلنا للحديث عن ثنائية (الخوف ـ الأمن) التي من خلالها نبين عظمة هـٰذا الاسم (المؤمن) .

فالخوف من المفردات التي صاحبت البشرية منذ ولادتها وتشكل معها ، ورسم صورة من الصور التي يتبين من خلالها خصلة من الخصال التي جبل عليها البشر عامة ، والخوف تشكل مع الإنسان من البداية ، وصار جزءاً لا يتجزأ من شخصيته القلقة التي تنظر إلىٰ كل شيء بقلق ، كالنظر إلىٰ البرق ، أو إلىٰ المطر ، أو إلىٰ الرياح . فهـٰذه الصور وغيرها تشكل في داخله الخوف المتكرر ، هـٰذه البداية التي صاحبت الإنسان كان للخوف فيها نصيب كبير جعلته يتساءل كثيراً عن السر العجيب وراء كل هـٰذه المظاهر التي شغلته ، وأخذت منه حيزاً كبيراً ، فهو دائم التفكر ، ينظر إلىٰ هـٰذا العالم الواسع وما فيه من صور مختلفة ، وكل واحدة من هـٰذه الصور تختلف عن الأخرىٰ إلا أنها تصب في بوتقة واحدة وهي : إن هناك من يقف وراء هـٰذه المظاهر العظيمة التي يتشكل العجز حين التفكير بمن يقف وراء هـٰذه المظاهر المختلفة . وسياق الكلام هنا تدرج بوتيرة زمنية تشكلت وفق معطيات الإدراك البشري وطبيعته الخلقية ، فلم تتضح له الصورة التي يحلم بتحققها للوقوف علىٰ حقيقة ما يريد معرفته إلا بإرسال الرسل .

وهنا بدأ الاتصال الرباني مع بني البشر لتوضيح الرسالة التي يراد تبليغها للناس كافة ، والتي تتضمن أجوبة لكل التساؤلات التي شغلت الفكر الإنساني ردحا طويلا من الزمن ، فكان إرسال الرسل . قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (1)

(1) الحديد 25 .

وإرسال الرسل استمر بالتتابع فلم ينقطع إلا بالرسالة الخالدة التي جاءت علىٰ يد النبي محمد ، عليه الصلاة والسلام ، يقول تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (1) .

هٰذا التشكل لإرسال الرسل يتشكل معرفياً مع الخوف الذي صاحب الفكر البشري طوال تحققه ، فذهاب الخوف المتحقق للبشر بعد الإيضاح التام لكل الأسئلة التي شغلت الفكر . ومن الأسئلة التي ترددت مراراً السؤال عن البرق ، والرعد ، والسحاب ، وغيرها ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ (2) أصبح الأمر ليس لغزاً محيراً ، أو مدعاة للخوف الدائم الذي يتردَّد بين آونة وأخرىٰ ، إنه حقيقية موجودة في الوجود ، وهي صورة من صور القدرة الإلٰهية المتحققة في الأرض . ولما كان الرعد صوتاً عظيماً جعل ذكره عبرة للسامعين لدلالة الرعد بلوازم عقلية علىٰ أن ٱلله منزه عما يقوله المشركون من ادعاء الشركاء ، وكان شأن تلك الدلالة أن تبعث الناظر فيها علىٰ تنزيه ٱلله عن الشريك جعل صوت الرعد دليلاً علىٰ تنزيه ٱلله تعالىٰ ، فإسناد التسبيح إلىٰ الرعد مجاز عقلي . ولك أن تجعله استعارة مكنية بأن شُبِّه الرعد بآدمي يُسبح ٱلله تعالىٰ ، وأُثبت شيءٌ من علائق المشبَّه به وهو التسبيح ، أي : قول : سبحان ٱلله (3) .

بعد إرسال الرسل ، وبيان شرع ٱلله تعالىٰ المراد تطبيقه يتشكل منعطفا جديدا في الفكر الإسلامي ، وهو الخوف . والسؤال الذي يطرح :

---

(1) المؤمنون 44 .

(2) الرعد 12 ـ 13 .

(3) التحرير والتنوير ، ج 7 ، ص 348 .

ـ لماذا الخوف ؟

ـ ممن الخوف ؟

ـ هل الخوف مستمر أم منقطع ؟

ـ كيف تكون معالجة الخوف ؟

ـ هل هناك معالجة للخوف ؟

هـٰذه الأسئلة وغيرها تفتح ملفاً مهماً يتشكل ضمن سياق التفكير الجديد للإنسان بعد أن عرف ٱلله ، وتجلَّت له الحقائق أمامه ، فيدخل باباً جديداً يؤرقه ، ويدخله في صراع مع نفسه ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [1] هنا السياق يحيل إلىٰ فترة زمنية مهمة جداً في حياة الإنسان المسلم ، وهـٰذه الفترة تتمثل في الليل الذي يمثل جانباً مهماً من جوانب العبادة التي تتحقق فيه ، فالصلاة فيه صورة من صور التقرب إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، يقول رسول ٱلله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلاَمَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامٌ ؛ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِسَلاَمٍ » [2] . فترتفع جنوبهم ، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة ، إلىٰ ما هو ألذ عندهم منه ، وأحب إليهم ، وهو الصلاة في الليل ، ومناجاة ٱلله تعالىٰ . ولهـٰذا قال : (يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية ، ودفع مضارهما . (خَوْفًا وَطَمَعًا) جامعين بين الوصفين ، خوفًا أن ترد أعمالهم ، وطمعًا في قبولها ، خوفًا من عذاب الله ، وطمعًا في ثوابه [3] . فهنا الخوف أخذ منحًى جديداً ؛ إذ يسير وفق أطر جديدة يحكمها

(1) السجدة 16 .
(2) سنن الترمذي، ج 9، ص 380 .
(3) تفسير السعدي، ج 1 ص 655 .

الاعتقاد الراسخ بما جاء به الرسول محمد ، عليه الصلاة والسلام ، وهو القرآن الكريم ففيه كل التشريعات والأحكام التي رسمت المنهج الذي يتبع للوصول إلىٰ مرضاة ٱلله تبارك وتعالىٰ ، وهنا تتجلىٰ لنا أحد معاني اسم ٱلله تعالىٰ (المؤمن) هو الذي أمن من آمن به من عذابه ، ولذا فبعد الرسل والرسالات وخاصة الخاتمة لا خوف من المجهول ، كل شيء معلن عنه في الكتاب الحكيم ، فمن آمن به اطمئن قلبه من كل خوف ، ومن لم يؤمن لا بد له من مصاحبة الخوف ، وذلك لجهله بالحقيقة التي هي في اللوح المحفوظ (القرآن الكريم) .

وهنا تبرز لنا قضيةٌ مهمةٌ جداً شغلت حيزاً كبيراً في الخطاب القرآني ، ألا وهي قضية الإيمان . والإيمان أركانه ستة ، وهي :

الإيمان بٱلله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالقدر .

الأول : الإيمان بٱلله :

أن تؤمن بربوبية ٱلله تعالىٰ ، أي : أنه الرب الخالق المالك المدبر لجميع الأمور ، وتؤمن بإلوهية ٱلله تعالىٰ ، أي : أنه الإلـٰه الحق ، وكل معبود سواه باطل ، وتؤمن بأسمائه وصفاته ، أي : بأن له الأسماء الحسنىٰ ، والصفات العلىٰ الكاملة .

وتؤمن بوحدانية ٱلله في ذلك ، بأنه لا شريك له في ربوبيته ، ولا في إلوهيته ، ولا في أسمائه وصفاته ، قال ٱلله تعالىٰ : ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [1] .

وتؤمن بأنه لا تأخذه سنة ولا نوم ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وأنه له

---

(1) مريم 65 .

ملك السمٰوات والأرض ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) .

الثاني : الإيمان بالملائكة :

وأن ٱلله خلقهم لطاعته ، ووصفهم بأنهم : ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ (2) ، ويقول تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (3) ، حجبهم ٱلله عنا فلا نراهم ، وربما كشف ٱلله بعضهم لبعض أنبيائه ورسله .

وللملائكة أعمال كلفوا بها ، فمنهم جبريل الموكل بالوحي ، ينزل به من عند ٱلله علىٰ من يشاء من عباده المرسلين ، ومنهم الموكل بقبض الأرواح ، ومنهم الملائكة الموكلون بالأجنة في الأرحام ، ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم ، ومنهم الذين يتنزلون في ليلة القدر ، ومنهم الكثير الذي لا نعلم عنه شيئاً ، ومنهم الموكلون بكتابة أعمال الناس فلكل شخص ملكان ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (4) .

الثالث : الإيمان بالكتب :

الإيمان بأن ٱلله أنزل كتباً علىٰ أنبيائه ورسله ، لبيان حقِّه ، والدعوة إليه ،

(1) الأنعام 59 .
(2) الأنبياء 26 ـ 28 .
(3) الأنبياء 19 ، 20 .
(4) ق 17 ـ 18 .

كما قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (1) ، وهٰذه الكتب كثيرة منها : صحف إبراهيم ، والتوراة التي أوتيها موسىٰ ، والزبور الذي أرسل به داود ، والإنجيل الذي جاء به المسيح ، والقرآن الكريم (الرسالة الخاتمة) علىٰ سيدنا محمد ، عليه وعليهم جميعا الصلاة والسلام .

فالإيمان بهٰذه الكتب السابقة يتحقق بأن تؤمن بأن ٱلله أنزلها علىٰ رسله ، وأنها تضمنت الشرع الذي أراد ٱلله إبلاغه إلىٰ الناس في ذلك الزمان .

وهٰذه الكتب التي أخبرنا ٱلله عنها نسخت برسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ للكافة ، فلم يبق لصحف إبراهيم وجود في الدنيا ، أما التوراة ، والإنجيل ، والزبور ؛ فإنها وإن كانت توجد بأسمائها عند اليهود والنصارىٰ إلا أنها حرفت ، وبدلت وفقد الكثير منها ، ودخل فيها ما ليس منها ، بل نسبت إلىٰ غير أصحابها ، فالعهد القديم فيه أكثر من أربعين سفراً ، وينسب إلىٰ موسىٰ خمسة فقط ، والأناجيل الموجودة اليوم لا ينسب واحدٌ منها إلىٰ المسيح .

الرابع : الإيمان بالرسل ، صلوات ٱلله وسلامه عليهم :

إنَّ ٱلله أرسل إلىٰ خلقه رسلاً يبشرونهم بالنعيم إذا آمنوا بٱلله وصدقوا المرسلين ، وينذرونهم العذاب إذا عصوا ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ (2) وقال

(1) الحديد 25 .
(2) النحل 36 .

جل ثناؤه : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (1) .

الخامس : الإيمان باليوم الآخر :

ذلك : أنَّ نهاية كل مخلوق في الدنيا الموت ، فما مصير الإنسان بعد الموت؟ فما مآل الظلمة الذين سلموا من العذاب في الدنيا ؟ هل يسلمون من طائلة ظلمهم ؟ والمحسنون الذين فاتهم نصيبهم وجزاء إحسانهم في الدنيا ؛ هل تضيع أجورهم ؟

إن البشرية تتتابع إلىٰ الموت جيلاً بعد جيل ، حتىٰ إذا أذن ٱلله بانقضاء الدنيا ، وهلك كل مخلوق علىٰ ظهرها ، بعث ٱلله جميع الخلائق في يوم مشهود ، يجمع ٱلله فيه الأولين والآخرين ، ثم يحاسب العباد علىٰ أعمالهم من خير أو شر كسبوه في الدنيا ، فالمؤمنون يساقون إلىٰ الجنة ، والكفار يقادون إلىٰ النار .

والجنة هي النعيم الذي أعده ٱلله لأوليائه المؤمنين ، فيها من أصناف النعيم ما لا يقدر أحد علىٰ وصفه ، فيها مئة درجة ، لكل درجة سكان علىٰ قدر إيمانهم بٱلله ، وطاعتهم له ، وأدنىٰ أهل الجنة منزلةً من يعطىٰ من النعيم مثل ملك من ملوك الدنيا ، وعشرة أضعافه .

والنار هي العذاب الذي أعده ٱلله لمن كفر به ، فيها من ألوان العذاب ما يهول ذكره ، ولو أذن ٱلله بالموت لأحد في الآخرة ؛ لمات أهل النار بمجرد رؤيتها . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن

(1) النساء165 .

مَسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (1).

السادس : الإيمان بالقدر :

أ ـ معنىٰ الإيمان بالقدر :

هو التصديق الجازم بأن كل خير وشر هو بقضاء ٱلله وقدره ، وأنه الفعّال لما يريد ، لا يكون شيء إلا بإرادته ، ولا يخرج شيء عن مشيئته ، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ، ولا يصدر إلا عن تدبيره ، ولا مَحيد لأحد عن القدر المقدور ، ولا يتجاوز ما خُط في اللوح المسطور ، وأنه خالق أفعال العباد والطاعات والمعاصي ، ومع ذلك فقد أمر العباد ونهاهم ، وجعلهم مختارين لأفعالهم ، غير مجبورين عليها ، بل هي واقعة بحسب قدرتهم وإرادتهم ، وٱلله خالقهم وخالق قدرتهم ، يهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته ، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون .

والإيمان بقدر ٱلله تعالىٰ أحد أركان الإيمان ، كما في جواب الرسول ﷺ حين سأله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الإيمان قال : « أن تؤمن بٱلله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » (2) .

ب ـ مراتب الإيمان بالقدر :

الإيمان بالقدر يتضمن أربعة أمور :

الأول : الإيمان بأن ٱلله تعالىٰ عَلِم بكل بشيء جملةً وتفصيلاً ، وأنه تعالىٰ قد عَلِم جميع خلقه قبل أن يخلقهم ، وعلم أرزاقهم ، وآجالهم ، وأقوالهم ، وأعمالهم ، وجميع حركاتهم وسكناتهم ، وأسرارهم

---

(1) العنكبوت 36 ـ 38 .

(2) صحيح مسلم ، ج 1 ، ص 28 .

وعلانيَّاتهم ، ومن هو منهم من أهل الجنة ، ومن هو منهم من أهل النار .

قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [1] وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴾ [2] .

الثاني : الإيمان بكتابة ذلك ، وأنه تعالىٰ قد كتب جميع ما سبق به عِلْمُه أنه كائن في اللوح المحفوظ . ودليلُه قوله تعالىٰ : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [3] .

وقول النبي ﷺ : « كتب ٱلله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة » [4] .

الأمر الثالث : الإيمان بمشيئة ٱلله النافذة التي لا يردُّها شيء ، وقدرته التي لا يعجزها شيء ، فجميع الحوادث وقعت بمشيئة ٱلله وقدرته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

هٰذا الإيمان المتشكل من هٰذه الأركان هو صورة الإيمان التي يريدها ٱلله تبارك وتعالىٰ من عباده ، فإن تحققت ؛ أمن العباد من عذاب ٱلله تعالىٰ .

واسم ٱلله (المؤمن) فيه عدة أقوال ، كلها يدل عليها الاسم ، ويشملها ؛ لأنها من معاني الكمال الذي اتصف به رب العزة والجلال :

القول الأول في معنىٰ اسم ٱلله (المؤمن) : أن المؤمن هو الذي أمن

---

(1) الحشر 22 .
(2) الطلاق 12 .
(3) الحديد 22 .
(4) صحيح مسلم ج 8، ص 51 .

الناس : أنه لا يظلم أحداً من خلقه ، وهو الواحد القهار لا شريك له سبحانه جل جلاله ، وأمن من آمن به من عذابه ، فألله عز وجل لا يظلم أحداً من خلقه ، وكل سينال ما يستحق ، ولا يبخسه ألله شيئاً مما له من الحق ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [1] وقال تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [2] .

والقول الثاني في معنىٰ اسم ألله (المؤمن) : أن المؤمن هو المجير الذي يجير المظلوم من الظالم ، وذلك علىٰ اعتبار : أن ألله ـ عز وجل ـ هو الذي يجير المظلوم من الظالم بمعنىٰ : يؤمنه وينصره ، إذ يقول تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [3] . وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [4] لن يجدوا ملاذاً ولا مأمناً من دون ألله : ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [5] . وكان رسول ألله ﷺ يستعيذ من الظلم ؛ إذ يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ » [6] ، وورد أيضاً في قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « إِنَّ ٱللهَ لَيُمْلِىٰ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ » . قَالَ ثُمَّ قَرَأَ : [7] ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ

(1) النساء 40 .
(2) الكهف 49 .
(3) المؤمنون 88 .
(4) الملك 28 .
(5) الجن 22 .
(6) سنن أبي داود ج 5 ، ص 67 .
(7) صحيح البخاري ج 15 ، ص 322 .

ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (1) .

القول الثالث في معنىٰ اسم ٱلله (المؤمن) : أنه الذي يصدق المؤمنين إذا وحدوه ؛ لأنه الواحد الذي وحَّد نفسه بشهادته في قوله تعالىٰ : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ (2) ، وهٰذه الآية تحمل أعظم المعاني في كشف حقيقة الحياة ، وكيف أنها جعلت لتوحيد ٱلله ، فلما كانت شهادة التوحيد ـ المبنية علىٰ توحيد العبادة لله ، ونفي ألوهية ما سواه ـ هي أصل دعوة الرسل ، ومبنىٰ قضيتهم التي جاهدوا من أجلها ، وكانت هٰذه القضية مثار إنكار المشركين ، وخلافهم مع رسلهم ؛ وجب الفصل بين الجميع في هٰذه القضية بحكم عدل يصدق أهل الحق ، ويكذب أهل الباطل ، فمن المعلوم : أنه عند الاختلاف بين الناس ترفع الأمور إلىٰ القضاء ، والقضية تتطلب قاضياً ، وحكماً يفصل في الخلاف ، وكذلك إعلام المختلفين ، ودعوة المعنيين من سائر الأطراف ، كما أنها تتطلب أيضاً دفاعاً عدلاً ، وحججاً وجدلاً ، وشهوداً وقسماً ، وشهادة وبينة ، وتتطلب في نهايتها الحكم وفق دستور ثابت أو منهج ونظام ، هٰذا مع توفر القدرة علىٰ تنفيذ ما يستصدر في القضية من أحكام ، ويزداد الأمر جلاء ووضوحاً إذا أضفنا إلىٰ ما تقدم : أن قضية توحيد العبادة لله هي في حقيقتها ابتلاء وامتحان للإنسان ، الإنسان الذي استخلفه ٱلله في أرضه ، واستأمنه علىٰ ملكه ، وميزه علىٰ كثير من خلقه ، وأنه سبحانه وتعالىٰ حذر الإنس والجان من الشرك والكفر والعصيان ، وسوف يقضىٰ بينهم بالحق ، وهو أحكم الحاكمين .

القول الرابع في معنىٰ اسم ٱلله (المؤمن) : أن المؤمن هو الذي يصدق

---

(1) هود 102 .

(2) آل عمران 18 ـ 19 .

مع عباده المؤمنين في وعده ، ويصدق ظنون عباده الموحدين ، ولا يخيب آمالهم ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (1) ويقول تعالىٰ : ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (2) ويقول تعالىٰ : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ (3) . وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي ٱلله عنهما ـ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « يَقُولُ ٱللهُ تَعَالَىٰ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ؛ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ؛ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَي بِشِبْرٍ ؛ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَي ذِرَاعًا ؛ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي ؛ أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » (4) . ومن حديث ابْنِ عُمَرَ ـ رضي الله عنه ـ : أنه قَالَ : قَامَ رَسُولُ ٱللهِ ﷺ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ عَلَىٰ دَرَجَةِ الْكَعْبَةِ ، فَحَمِدَ ٱللهَ ، وَأَثْنَي عَلَيْهِ ، وَقَالَ : « الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ » (5) . فالمؤمن في أسماء ٱلله هو الذي يصدق في وعده ، وهو عند ظن عبده لا يخيب أمله ، ولا يخذل رجاءه . والخليفة المؤمن الذي لا شك في قلبه في وحدانية ٱلله وعلمه وحكمته وعظمته وقوته وقدرته المطلقة ، ولا يشك في أنه الواحد القهار ، ولا يشك : أنه علىٰ كل شيء قدير ، ولا يشك : أن صفاته الحسان تتعدد ، وهو واحد أحد صمد لا يتعدد . سبحانه لا إلـه إلا هو جل جلاله !

واسم ٱلله المؤمن يدل علىٰ ذات ٱلله وعلىٰ صفة من صفات الفعل ، وهي صدق الوعد ، وتصديق الحق للحق بدلالة المطابقة .

---

(1) آل عمران 95.

(2) الأنبياء 9.

(3) القمر 55.

(4) صحيح مسلم ج 8 ص 67.

(5) صحيح النسائي ج 4، ص 233.

وحظ الخليفة من اسم ٱلله تعالىٰ (المؤمن) أن يتشكل مع فكره ، فيكون يقينه في ربه : أنه لا يظلم أحداً من خلقه ، وأنه سينصر المظلوم ، فيلجأ إلىٰ ٱلله أن يجيره من ظلم الظالمين ، ويثق أن وعد ٱلله لعباده المؤمنين كائن لا محالة . أما التشكل الدنيوي لدور الخليفة فهو أن يأمن الخلق كلهم إلىٰ جانبه ، بل يرجو كل خائف الاعتضاد به في دفع الهلاك عن نفسه في دينه ودنياه . فضلاً عن ذلك أن يكون الخليفة سبباً للهداية لكل من خرج عن جادة الحق ، فبهداية الخلق يرسم لهم صورة الأمن المتحققة من نار جهنم ، فهو بذلك سلك مسلكاً عظيماً يتجلىٰ فيه اسمىٰ القيم والمبادئ التي أرداها ٱلله تعالىٰ ؛ إذ يقول تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [1] والخطاب في هـٰذه الآية عبر عن الموعظة والتحذير بالوقاية من النار علىٰ سبيل المجاز ؛ لأن الموعظة سبب في تجنب ما يفضي إلىٰ عذاب النار ، أو علىٰ سبيل الاستعارة بتشبيه الموعظة بالوقاية من النار علىٰ وجه المبالغة في الموعظة . وتنكير (نار) للتعظيم وأجرىٰ عليها وصف بجملة : ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ زيادة في التحذير ؛ لئلا يكونوا من وقود النار [2] .

اللهمَّ يا المؤمن أمِّن لنا الحياة والممات والبعث ، وأمِّن لنا الفوز بالجنة والنجاة من النار !

اللهمَّ يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا علىٰ دينك ! اللهمَّ يا مصرف القلوب صرف قلوبنا علىٰ طاعتك ! اللهمَّ اجعلنا من المسلمين لك المخبتين لك ، الأوابين الأواهين التوابين ، وارزقنا ذكرك آناء الليل وأطراف النهار ! اللهمَّ آمنا في أوطاننا ، وأصلح ذات بيننا ، وتب علينا ، واجعلنا من المؤمنين

(1) التحريم 6.

(2) التحرير والتنوير ج 15 ، ص 185 .

الصالحين ! اللهمَّ نسألك أن تؤمِّننا يوم تفزع الخلائق ! اللهمَّ أمنا يوم البعث والنشور فلا ملجأ إلا إليك يا أرحم الراحمين واحشرنا مع الذين قلت عنهم وقولك الحق : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ![1] وصلىٰ ٱلله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

✍ ✍ ✍

(1) الأنعام 82 .

المُهَيْمِنُ جلّ جلاله

المهيمن اسم من أسماء ٱلله تعالىٰ مصداقاً لقوله : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ [1] .

واسم (المهيمن) اسم احتوائي يحمل في مضمونه دلالات القوة والسيطرة التامة ، ولأنه المهيمن فهو القادر علىٰ أن يفعل كل شيء بالمهيمَن عليه ، فإن أراد به خيراً فعل ، وإن أراد به غير ذلك فعل ، ولكلٍّ أسباب .

ولأن اسم (المهيمن) اسم احتوائي ؛ فهو يحتوي أسماء ٱلله ، فيدل علىٰ وحدانيته ، ويحتوي اسم (الملك) في ملكه ، ويحتوي اسم (القدوس) في قداسته ، ولذا فهو المهيمن الذي يحتوي في مفهومه ودلالاته الصفات الحسنىٰ لله تعالىٰ اللاحقة من بعده من حيث الترتيب ، والنزول . ولذلك فالمهمين هو العزيز ، الجبار ، المتكبر ، سبحان ٱلله عما يشركون ، وهو الخالق ، البارئ ، المصور ، له الأسماء الحسنىٰ .

ولو لم يكن ٱلله هو المهيمن ؛ لفسدت الأرضون والسمٰوات السبع ، وانعدمت الحياة ، فبهيمنته ـ والحمد لله ـ نحيا ونموت ونُبعث من جديد لنبقىٰ في سلام سرمدي . ولولا فضل ٱلله علينا بهيمنته المباركة ؛ لاصطدمت الكواكب والنجوم والشمس ، ولاحترق كل شيء ، وعمَّ الدمار ، سبحانه إنه المتحكم في الأمر ، فلا حركة ولا سكون إلا بأمره !

---

(1) الحشر 23.

ولأنه المهيمن وكل شيء بأمره يعيش القوي ، والضعيف جنباً إلىٰ جنب علىٰ كوكب واحدٍ دون أن يقضي قوي علىٰ ضعيف ، وهـٰذه عبرة لمن يعتبر : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ (1) .

يتضح من الآيتين السابقتين : أنَّ المهيمن هو المتحكم في كل شيء ، ولذا فهو الذي يزجي سحاباً ثم يؤلِّف بينه ، ثم يجعله ركاماً ، ثم يخرج البرق من بين السحب المتراكمة ، ثم يُنزل المطر علىٰ من يشاء من عباده ، ويصرفها عمَّن لا يشاء لهم مطراً . ولأنه المهيمن فهو الذي يُقلِّب الليل والنهار ، ومع ذلك وكأن البعض لا تلفت انتباهه هـٰذه الهيمنة ، والتفت إليها أولو الأبصار فآمنوا واتقوا ٱلله حق تقاته ، حتىٰ وصفهم ٱلله تعالىٰ بالخلائف الذين يرثون الأرض بإصلاحها .

فالخليفة مهيمن علىٰ أمره وما يتعلق به من أمر ، ولأن ٱلله هو المهيمن جل جلاله ويريد للإنسان أن يكون الخليفة في الأرض ؛ لذا فلن يكون خليفة ما لم يكن مهيمناً علىٰ نفسه ، وطمعه ، وضعفه ، ومتحكماً في غرائزه ، ومشاعره ، وأحاسيسه ، وإلا وقع في الرذيلة ، فإن وقع فيها ؛ وقع في الذل الذي لا يُمكِّنه من أن يكون خليفةً .

المهيمن بالإضافة هو المقتدي بالمهيمن الحق الذي جعل له القوة الممكِّنة له من أن يكون مهيمناً بالإضافة ، ولذلك فالمهيمن بالإضافة هو الذي لا مكان للذل والظلم في قاموس معتقداته الإيمانية : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ

---

(1) النور 43 ـ 44 .

زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (1) هـٰؤلاء الذين لهم الصفات الدنيا بما يقولون ، ويظنون ، ويكفرون ، فهـٰؤلاء هم غير المعنيين بأمر الخلافة . وذلك لانعدام صفات ٱلله المهيمن ـ جل جلاله ـ فيهم . ولذا فإن الأمر لا يتمشىٰ مع القاعدة التي تقول : (الخليفة يستمد صفاته من صفات من استخلفه) ، ولأنهم لم يستمدوا شيئاً منها ؛ فقد فقدوا معطيات الخلافة . ولذا فمن أراد أن يكون خليفةً فعليه أن يستمد صفاته من صفات من استخلفه .

المهيمن هو الذي بيده الأمر ، ولا شريك له سبحانه لا إلـٰه إلا هو الواحد القهار : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (2) . بدون شك بما أنه المُهيمن فإن الأمر بيده ، ولأن الأمر بيده فهو المتصرف في كل أمر ، وكما يشاء يفعل ما يريد : ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (3) . ولأنه فعَّال لما يريد فهو الغالب علىٰ أمره : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (4) .

المهيمن الحق ـ جل جلاله ـ هو الذي يُدرك البداية والنهاية ، ولأنه كذلك فهو الذي لا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة ، وهو الذي يعلم بأمر وحال كل شيء ، أمَّا المهيمن بالإضافة فهو الذي يدرك : أن ٱلله هو المهيمن الحق ، ويدرك ما أمر به ، ويتبعه ، وما نهىٰ عنه وينتهي عنه ، ولذا فالعلاقة مع المهيمن الحق ـ عز وجل ـ علاقة تبعية إيمانية ، واقتداء بالأمر ، وتسليماً به : ﴿ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (5) .

---

(1) القلم 7 ـ 15 .
(2) ياسين 82 .
(3) البروج 13 ـ 16 .
(4) يوسف 21 .
(5) الأنفال 44 .

ولأنه المهيمن جل جلاله فهو العالم بحال كل أمر : ﴿ ۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (1) ولأنه المهيمن فإنه لا يغفل ، ولا ينام ، ولا تأخذه سِنَةٌ ، وإلا كيف يمكن له أن يكون مهيمناً ولا يعلم بحال من هم تحت هيمنته ؟ !

المهيمن هو المُدرك لنفسه ، والمدرك لغيره ، وهٰذه الصفة تمتد من المهيمن الحق سبحانه وتعالىٰ إلىٰ المهيمن بالإضافة مع عدم المساواة والمقارنة ، فالإنسان الذي خلقه ٱلله تعالىٰ في أحسن تقويم خلقه مدركاً ، ولذا يدرك المخلوقُ خالقَه ، ويدرك نفسه ، ويدرك غيره ، ولٰكنه لا يدرك حال كل أمر حتىٰ ولو كان حاله ، ولهٰذا لا تجوز له المقارنة إلا مع بني جنسه .

الهيمنة هي الحفظ ، والمهيمن هو الحافظ لما هو مهيمن عليه ، فلو لم يهيمن ٱلله تعالىٰ علىٰ ما خلق ؛ لفسدت العلاقات ، أو انعدمت ، ولذا لولا هيمنته ما حُفظنا من المخاوف والكوارث ونحن نعيش علىٰ الأرض التي باطنها نار وبراكين ! ولولا هيمنته لاختلط أمر الثقلين دون ضوابط . فالحمد لله المهيمن جل جلاله ! ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) . ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي : لا يكيده ، ولا يثقله حفظ السمٰوات والأرض ، وهو المهيمن بعلو ذاته وقوته وسلطانه علىٰ حفظهما من أي خلل ، والكرسي وسع السمٰوات والأرض ، ولم يضق بهما .

---

(1) الأنعام 59 .

(2) البقرة 255 .

ووسعت تعني : استوعبت ، والاستيعاب من أجل الحفظ ، والحفظ لا يتم إلا بهيمنة تامة ، والهيمنة لا تتم إلا بقوة ، والقوة لا تكون إلا من القوي ، وهـٰذه جميعها مستمدة من صفات ٱلله الحسان . فالحمد لله ربِّ العالمين ! إنَّا من الذين آمنوا ، وإنَّا من الذين أولوا أمرهم إليك يا ذا الجلال والإكرام !

ووسع تعني : هيمنَ وسيطرّ ، ولهـٰذا فالهيمنة سعة عُظمىٰ ، وليست ضيقاً خانقاً ، وفي هـٰذا الأمر يقول الشيخ متولي الشعراوي في تفسيره لآية الكرسي : « إنها تشير إلىٰ حفظ الحق ـ جل وعلا ـ لملكه سواء أريد بهـٰذا الحفظ . . . الحفظ من الخلل والأعطاب والفناء ، أو أريد به الحفظ من حيث العدد والصفات وما إلىٰ ذلك ، فالحفظ بمعنييه متحقق بالنسبة لله عز وجل » [1] .

وعليه : فإن المهيمن هو المُوسع للحركة ، والسكون ، والمُمكِّن منهما في الزمن لمن يشاء ، ولذا فإن المهيمن هو الموسع الرزق ، والباسط الرزق ، والحافظ من كل شر ، فمن آمن به حُفظ ، ومن لم يؤمن به فقد هلك ، لا إلـه إلا هو المهيمن العزيز الجبار له المُلك ، وله الحمد ربُّ العالمين .

قال تعالىٰ : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [2] . ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ : تدل علىٰ السعة الكبرىٰ ؛ أي : أننا لم نضيقها ، بل كان الازدياد في السعة هو الفعل المراد بالسمـٰوات ، وفي مقابل ذلك كان الانبساط هو الذي عليه خلقت الأرض ، ومن هـٰذين المعنيين يستنبط معنىٰ المهيمن بأنه الموسع . ولذلك جاء قوله تعالىٰ : ﴿شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ

(1) محمد متولي الشعراوي أسماء ٱلله الحسنىٰ . القاهرة، دار أخبار اليوم ص 166 ـ 167 .

(2) الذاريات 47 ـ 48 .

ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ . أي : بهيمنته وسع كل شيء ، وحفظه ليبقىٰ كل شيء هو كما هو .

وعليه من يريد أن يكون خليفة لله في الأرض فبإمكانه أن يكون ، ولن يكون إلا إذا هيمن علىٰ ذاته ، وصفاته ؛ ليبقىٰ هو كما هو في أحسن تقويم ، ولا يهيمن علىٰ غيره بغير حق ، فإن هيمن علىٰ غيره بغير حق ، دخل في دائرة المشاركة لمن لا شريك له في الملك ، حيث إن المهيمن المطلق هو واحد أحد لا إلـٰه إلا هو . أما المهيمن بالإضافة فلا حقَّ له أن يمتد علىٰ حساب الآخرين ليهيمن عليهم ، فإن فعل ؛ فقد فعل إثماً كبيراً .

الهيمنة واجبة علىٰ النفس الأمارة بالسوء ، وواجبة بالرعاية للقُصَّر ، ولمن لهم الحق بالرعاية والعناية حتىٰ بلوغ الرشد ، ورعاية الوالدين ، ورعاية الأمانة ، ورعاية الحقوق ، والواجبات بكل مسؤولية ، ورعاية الشرف والكرامة ، ورعاية المحتاجين ، ورعاية الأرض ، والعِرض ، ورعاية الدين الذي ارتضاه ٱلله هداية للعالمين .

لو لم يكن ٱلله هو المهيمن ـ جل جلاله ـ ؛ ما أمسك السماء والأرض من أن تزولا : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [1] بالتأكيد لو لم يمسكهما مَن رفعهما عن بعضٍ بغير عمدٍ ؛ ما أمسكهما من الزوال آخر ، وإلا : هل هناك من يستطيع ؟ بالتأكيد لا . وبما أنه لن يستطيع غيره ، فبماذا هما باقيتان منفصلتان وفي ذات الوقت بينهما علاقة ، إنهما باقيتان منفصلتان بالهيمنة . والهيمنة هي القوة التي يُحَسُ بها إدراكاً ، ولا تخضع للمشاهدة والنظر ، فيدركها من له بصيرة ولا ينظرها من له بصر . ولذا فإن الهيمنة هي القوة الفاعلة للبقاء بسلام لكل من السمـٰوات والأرض .

---

(1) فاطر 41 .

المهيمن هو الكفيل الضامن للبقاء بسلام ، الذي بيده كل شيء ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، ولأن الخليفة يؤمن بالمهيمن المطلق فهو يثق في هيمنته ، ويعتبرها ضماناً له من كل سوء ، وحفظاً وأمناً له من كل خوف ، وبما أنَّ الخليفة يؤمن بهيمنة ٱلله تعالىٰ علىٰ كل شيء فلماذا أصلا الخوف ؟ فمن يتوكل علىٰ المهيمن جل جلاله لا يخاف مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [1] وإلا : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [2] هـٰذه السورة دليل إثبات علىٰ أنَّ من يتوكل علىٰ ٱلله لا يكيده كيد الكائدين .

لذا فإن المهيمن المطلق هو وحده الضامن ، والحافظ من المكائد ، ومن هنا ترسَّخت الثقة قوة إيمانٍ في نفس المؤمن ، ولو لم يؤمن الخليفة بالمُهيمن جل جلاله ؛ ما غُرست الثقة في نفسه ، واطمأنت . ولو لم يؤمن الإنسان بالمهيمن ما آمن بأن النار عقاب لمن يكفر ، وأن الجنة ثواب لمن يؤمن ، فالحمد لله تعالىٰ أن من صفاته وأسمائه الحسنىٰ المهيمن عز وجل ! ولأن الهيمنة من أفعاله المستمدة من صفاته الحسان فهي التي بها يطمئن قلب المؤمن من أنه سيدخل الجنة وأنَّ الكافر في مقابله سيدخل النار . قال تعالىٰ : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾ [3] . إذاً المهيمن الحق هو صادق الوعد ، ومن يريد أن يكون خليفة للمهيمن الحق فعليه بالصدق ، وإلا ؛ فَقَدَ ثقة الآخرين فيه . وفي هـٰذا الأمر

(1) الطارق 15ـ16 .

(2) الفيل 1ـ5 .

(3) الأعراف 44ـ45 .

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي : « ينبغي أن لا ننسىٰ : أن هيمنة الحق جل وعلا تمتد لتشمل قلوب عباده ، ويوم القيامة خير دليل علىٰ ذلك فالناس في هٰذا اليوم قسمان : قسم تبلغ قلوبهم الحناجر من شدة الخوف والرعب . وقسم من الفزع يومئذٍ آمنون . والقلوب بين أصابع الرحمٰن يُقبلها كيف يشاء »[1] .

ويقول الدكتور الصلاَّبي : « المهيمن هو المطَّلع علىٰ خفايا الأمور ، وخبايا الصدور ؛ الذي أحاط بكل شيء علماً »[2] .

بدون شك فإن المهيمن هو المحيط ؛ الذي يعلم أمر ما يحتويه بالإحاطة ، وهو الذي يحيط كل شيء أجساداً ، وأشكالاً ، وأقوالاً ، وأعمالاً ، ولذا فإن الإحاطة إلمام تام بكل شيء خُلق مع سيطرة وحفظ : ﴿ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[3] وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[4] وقوله عز وجل بالمطلق : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴾[5] . اللهمَّ يا محيط أحطنا برضاك وغناك ورعايتك وحفظك ، وسلمنا من شر ما خلقت ، ومن شر الغاسق إذا وقب ، ومن شر الحاسد إذا حسد ، ومن شر النفاثات في العقد ، وَكِدْ لِمَنْ يريد بنا كيداً ، وأصلح حالنا ، وتوفنا وأنت راض عنَّا ، أنت مولنا فنعم المولىٰ ونعم الوكيل !

قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾[6] قال ابن عباس : ﴿ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ أي : مؤتمناً عليه .

---

(1) محمد متولي شعراوي ، أسماء ٱلله الحسنىٰ . القاهرة، دار أخبار اليوم 171 .
(2) علي محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين. بيروت، دار المعرفة الطبعة الأولى 2005 ص 189 .
(3) البقرة 19 .
(4) ال عمران 120 .
(5) النساء 126 .
(6) المائدة 48 .

وفي ذلك قال سعيد ابن جبير : القرآن مؤتمن علىٰ ما قبله من الكتب . وعن ابـــن عبـــاس ، والحســـن : المهيمـــن : الأميـــن [1] . ﴿ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴾ تعني : وشاهداً عليه [2] .

كل ما قيل عن المهيمن من حُسنٍ هو صواب ، وذلك لأنه المحتوي لكل صفات ٱلله تعالىٰ ، ولأنه كذلك ؛ فإن هيمنته احتوائية ، أي : إنها تحتوي السابق عليها من الكتب السماوية ، ولهٰذا جاءت رسالة محمد ﷺ احتوائية فهي تحتوي ما سبقها من كتب ، وهي الخاتمة التي لن تأتي من بعدها رسالة ، والمؤمنون بها هم الذين بصلاتهم وسلامهم علىٰ محمد هم يصلون ويسلمون علىٰ جميع الأنبياء والرسل .

ولأن المؤمن تعالىٰ هو الحق ؛ فلا هيمنة إلا بالحق ، ولهٰذا ورد في القرآن الكريم ﴿ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ﴾ وفي هٰذه بركة ونعمة وهي أن صفة الإيمان جاءت سابقة علىٰ صفة الهيمنة ، أي : أن التنزيه ، والوحدانية ، وعدم إيجاد الشريك هي الصفات التي جعلت المؤمن بالإضافة مدركاً للهيمنة ، وآمناً مطمئناً بها .

يقول ٱلله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [3] في هـٰذه الآية جاء الاهتداء مترتباً علىٰ وجود الأمن ؛ أي : لو لم يكن الأمن سابقاً ؛ ما كانت الهداية لاحقة له ، ولهٰذا لا يهتدي الخليفة إلا بالإيمان ، ولذلك فمن أراد أن يكون خليفة لله تعالىٰ في الأرض فعليه بالإيمان بالمهيمن جل جلاله . ولأن الإيمان اعتراف بوجود ووحدانية ؛

(1) القرطبي الجامع لأحكام القرآن . الجزء السادس ، ص 210 .
(2) مجدي منصور ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ . القاهرة ، مكتبة العلم 1999 ، ص 420 .
(3) الأنعام 82 .

لذا فمن يؤمن بالوجود والوحدانية يُستخلف ، ومن ينكر أو يجحد ويكفر بذلك فلن يكون من الخليفة في شيء ، وإلا ؛ هل يُعتقد أن يستخلف شيء دون أن تكون له صلة بمن استخلفه ؟ بالتأكيد الاستخلاف نتاج صلة ورابطة لا تنفصم ، فإن انفصمت فقدت الصلة دلالتها ومعناها ، وحل محلها الانفصال والبعد كل البعد الذي لا يجعل للخليفة صلة وعلاقة بمن استخلفه .

ولذلك فإن الاستخلاف مشروط بالصلة ، والإيمان المطلق بالهيمنة المطلقة ، والاعتراف بالسلطان المهيمن ، والمستخلفون هم المورَّثون في الأرض بإصلاحها ، أمَّا من لا يؤمن بذلك فلا يستخلف فيها ، مع أن له حق العيش عليها وريثاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [1] . ولذا فالاستخلاف مترتب علىٰ الإيمان ، ومترتب عليه مسؤولية الالتزام بالطاعة ، وعدم المعصية بإرادة .

ولأن المهيمن هو الشاهد ، لذا فهو الرقيب علىٰ كل ما يشهده ، وهو المجيب لكل من يؤمن به ويدعوه واحداً أحداً لا شريك له ، ولذا فهو مجيب الدعاء : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [2] وقوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [3] اللهمَّ يا ٱلله يا المهيمن اشفنا واغننا وأكرمنا وارحمنا وزدنا علماً وحكمة وإيماناً بك وحدك لا شريك لك ، وفرِّج كربنا واسترنا واحفظنا من الوهن والحاجة واجعلنا من المتصدِّقين والمتزكِّين والعابدين الطائعين واجعل لنا سلطان حق في حياتنا ومماتنا ويوم بعثنا سبحانك لا إلـٰه إلا أنت !

المهيمن هو القائم علىٰ الشيء بالمطلق ، والمالك زمام أمره ،

(1) الأنبياء 105 .
(2) البقرة 186 .
(3) غافر 60 .

والمتصرف فيه : ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ (1) .

المهيمن هو الذي يُدرك الأبصار والأبصار لا تدركه ، وهٰذه بطبيعة الحال قاعدة ، حيث لا يمكن أن ترىٰ أبصار من هم تحت قبضة الهيمنة القوة التي تهيمن عليهم ، فعلىٰ سبيل المثال : لو قبضت يداك علىٰ مجموعة من الفراشات ، هل تعتقد : أن الفراشات ستراك ، أو حتىٰ ترىٰ اليدين القابضتين عليها ؟ مع أنَّ الفراشات سَتحِسُ باليدين المهيمنتين عليها إلا أنها لا يمكن أن تراهما ، ولا أعني بذلك : أن الفراشات تحت ضغط لا يطاق ، بل إن الفراشات بإمكانها أن تتحرك وهي محاطة باليدين . فاليدان هما المحيط بالإرادة ، والفراشات هي المحاطة بالقوة الحافظة لها . وعليه فالفراشات بإمكانها أن تنظر داخل اليدين ، مثلما ننظر نحن بني الإنسان ونحن محاطون بالسمٰوات السبع ، فنحن ننظر داخل المحيط ، ولا ننظر خارجه ، فحالنا نحن بالتمام مثل حال الفراشات ليس بإمكاننا أن ننظر المحيط ، ولا ننظر خارجه . وحال الفراشات أيضاً مثل حالنا تحس باليدين المهيمنتين التي تحيطها ، وتدركها دون أن تميزهما يدان ، وهٰكذا نحن ندرك محيطنا مثلما هي تدرك ، إلا أننا نتجاوزها بالتمييز المتيقن حيث معرفتنا التامة بأنها السمٰوات السبع . وعليه الخليفة يدرك نفسه بأنه تحت الهيمنة ، ويدرك محيطه المهيمن عليه دون أن يراه وفقاً لقاعدة المُحاط لا يمكنه رؤية من يحيطه ، ويهيمن عليه .

ولتوضيح ذلك : أقتبس من كتابنا المعنون بـ : (البستان الحلم) قصة الدجاجة التي احتضنت بيضها بالدفء ؛ لتغرس في أفراخها حنان الأمومة الذي

---

(1) المؤمنون 84 ـ 89 .

يملؤها من احتضان أمها لها في الزمن الماضي ، وقبل يوم واحد من اكتمال نضج الكتاكيت في البيض أخبرتهم الدجاجة الحاضنة بأن غداً ينتظرهم بخيرات كثيرة ، وسيتنقلون بأرجلهم في البستان تحت ظلال الأشجار نهاراً ، وينامون علىٰ أغصانها ليلاً ، فسأل أحد الكتاكيت أمه : هل هناك عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نحن نعيش فيه ؟

فأجابته بنعم .

وما هو يا أمي؟ .

عالم الحياة الواسعة بين الكتاكيت والكائنات الأخرىٰ وفي وسط الحظائر والبساتين تُقدَّم لكم الخدمة من أيادي البشر المفضلين عليكم في الخلق .

إنه من الصعب التصديق يا أمي بأن المفضلين علينا هم الذين سيقدِّمون لنا الخدمة .

ها أنا يا أبنائي أحدثكم من العالم الواسع والعقلاء فيه هم الذين يوفرون لي الغذاء والمأوىٰ والتدفئة اللازمة للبقاء .

ولـٰكن يصعب علينا التصديق بما أننا لا نراك وإياهم .

إنكم سترون غداً بعد خروجكم إلىٰ عالمنا الواسع ما لم يسبق لكم رؤيته ، سترون الشمس ، والقمر ، والنجوم ؛ لتعرفوا المواقيت كغيركم من المخلوقات الأخرىٰ ، وستعرفون من يمشي سوياً ومن يمشي مُكِبّاً علىٰ وجهه ، وستميزون بين الطائر ، والزاحف كما تميزون بين اليابسة ، والماء ، بعدها تعرفون : أنَّ ما قلته لكم هو الحق .

نحن لا نُصدِّق ما تقولين ولا نرغب في الخروج إلىٰ عالمكم الذي تدَّعين بأنه أوسع من عالمنا الذي يملؤنا بالاستقرار كما تملؤنا الراحة والطمأنينة فيه .

أنتم وعالمكم الذي تدَّعون باتساعه كلكم من أحشائي ، وأنا في هـٰذا العالم لا أشبع نهم ثعلب .

ومن هو هـٰذا الثعلب ؟

عدوي وعدوكم .

بما أن الأمر هـٰكذا ، إذاً يبدو : أنكِ مُصرة علىٰ بيعنا بلا ثمن .

لا ، لم أقصد يا أبنائي ، ولـٰكن عليكم أن تعرفوا أن لكل بداية نهاية ، حياتكم داخل البيضة لها بداية ونهاية ، وحياتكم في عالمنا ستكون لها بداية ونهاية ، ولكل أسباب ، ومن بينها العداء الطبيعي بيننا ، وبين الثعالب .

ولهـٰذا نحن لن نخرج حتىٰ لا نكون تحت رحمة الثعالب ، وتكون لنا النهاية ، ونحن علىٰ يقين : أنه لا يمكن أن يوجد عالم أوسع وأفضل من العالم الذي نعيش فيه .

غدا سيأتي وخروجكم سيأتي إلا إذا وقعت لن .

وما هو سر لن هـٰذا ؟

أن تموتوا داخل البيض أو أنَّ غداً لن يأتي عليَّ وعليكم ، أو يحدث عالم الغيب أمراً .

في الفجر صاح الديك كعادته فاستمعت الفراخ في عالمها إلىٰ صوته فتساءلت : وما هـٰذا الصوت المدوي يا أماه ؟

صوت أبيكم يعلن عن فرحته بموعد خروجكم من زنزاناتكم الانفرادية إلىٰ الحياة الاجتماعية العامة ليراكم بأم عينيه تأكلون الحَبَّ ، وتلتقطون الحشرات كما يفعل هو ، وسأفرح أنا مثله .

إنه من الغرابة أن تفرحا بخروجنا من العالم الواسع الذي لا يشاركنا فيه أحد إلىٰ عالمكم الذي تشارككم فيه الثعالب .

ستخرجون بالقوة لا بالإرادة .

سنصرخ ونبكي .

الصراخ والبكاء لا يوقف قدوم المستقبل ، وصراخكم هـٰذا هو سبب تكسير البيض الذي يخرجكم إليه (إلىٰ المستقبل) .

صُراخ . . . صُراخ . . . يُكسَّر البيض من شدة الصراخ ، ما هـٰذا النور ؟ وما هـٰذه الأرجل التي تحملنا ؟ وما هـٰذه المساحات الشاسعة ؟ وما هـٰذا الليل الطويل ؟ ومن ذا الذي يُقدِّم لنا الخدمة ، ويسهر علىٰ راحتنا ؟

بكاء . . . بكاء وفرحة . . . فرحة . . . صدقتِ يا أمنا صدقت ، ولـٰكن أين الغذاء ؟

ها هو يملأ الأرض .

ولـٰكن كيف يؤخذ ؟

افعلوا مثل ما أفعل ، اضربوا مناقيركم في الأرض ، فأنا لا أُرضع .

الحال بالنسبة لنا كحال الفراشات بين اليدين وكحال الفراخ في البيض ليس منا من يرىٰ محيطه مع أنه يدركه . والفرق أننا نؤمن بما ندرك معرفة تامة وغيرنا مع أنه يدرك محيطه إلا أنه لا يتمكن من التمييز المجرد ، ولذا فإن الذين لا يؤمنون بالمهيمن المجرد لا يؤمنون بالجنة ولا يصدقون أنَّ عرضها كعرض السماء والأرض مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [1] ومثل هـٰؤلاء كمثل الفراخ في القصة السابقة لم يؤمنوا بما سمعوا حتىٰ فات الأوان ، ولذا لن يكون أمرهم من الخليفة في شيء . فالمؤمن لا يدرك بعينيه ، المؤمن يدرك بعقله ، ويؤمن بقلبه ، ولذا أدرك خالقة وآمن به وفقاً لقاعدة : وراء كل مخلوق خالق ، وقاعدة الأفضلية التي تقول : الخالق أفضل من المخلوق ، في الكمال والصفات والأقوال الأفعال ، والخالق يعلم علم الغيب ، والمخلوق لا يعلمه ولذا فهو يُسلِّم بعلم

---

(1) الحديد 21.

خالقه تسليماً ، ويؤمن بأن قوله حق وفعله حق وطاعته حق . وتقول قاعدة الأفضلية أيضا : المدرك بعقله وقلبه هو المفضل علىٰ الذين لا يدركون بهما . فالذين لا يدركون بهما حالهم كحال الأسماك التي تنظر إلىٰ شباك الصيادين وتقع في فخِّها . ولذلك قال ٱلله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [1] . في أحسن تقويم تعني تفضيله علىٰ ما خلق من حيث الصورة ، والمضمون مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [2] والتقويم يعني : الخلق باهتمام وعناية مع الدقة والجودة والرقي في الخَلق ، ولولا ذلك ما كان الإنسان في أفضل تقويم : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ في هٰذه الآية الكريمة جاء أمر الخلق سابقاً علىٰ أمر الصورة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [3] الخلق تكوين جزئي واكتمال مرحلي لمسببات القوة العقلية والحسية والذوقية والإدراكية ، والصورة عرض كلي لنشأة أخرىٰ ، وهي الهيئة التي عليها صورة بني آدم من حيث القامة والجمال والتمام بالحركة والسكون والفاعلية والاستجابة لقول الحق وفعل الحق .

وقد يتساءل البعض : لماذا المهيمن جل جلاله خصَّ الإنسان بأحسن التقويم ؟ خصَّه بذلك لكي يكون له خليفة في الأرض . ومع ذلك فالبعض ممن خلق لم يستجب لِما خُلق من أجله ، فهٰؤلاء هم الذين ردَّهم ٱلله تعالىٰ إلىٰ أسفل سافلين ، أما أولٰئك الذين استجابوا له ؛ فهم الذين آمنوا فاستثناهم

---

(1) التين 4 ـ 6 .

(2) غافر 64 .

(3) المؤمنون 12 ـ 14 .

الخالق تعالىٰ بالأجر غير الممنون ، كما نزل في سورة التين : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ (1) .

وبناء علىٰ ما تقدَّم فإن التقويم هو أساس الخلق ، أمَّا الإعوجاج فهو الانحراف عنه ، ولذا فالتقويم يتم عن وعي ومتابعة دقيقة للمخلوق كفكرة ، ثم له كمتجزئ ، ثم له كجزء ، وبعد ذلك تقويمه ككل وحدة واحدة . وهٰذا لا يعني أن التقويم يتوقَّف ، إنه عملية مستمرة ما استمرت حياة المخلوق . ولذا فالتقويم أولاً : للخَلْق من حيث التكوين والتركيب والوحدة . وثانياً : للأخلاق والأعمال من أجل وراثة الجنة والاستخلاف فيها : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ (2) . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (3) فالذين ثقلت موازينهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم الذين استخلفوا في الأرض ويستخلفون في الجنة . أمَّا الذين خفَّت موازينهم فهم الذين لم يُستخلفوا في الأرض وهم أصحاب النار الذين ليس لهم مكان في الجنة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ (4) . أمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (5) .

وعليه : كلُّ من يتمكن من مراجعة خلقه يتمكن من معرفة الأسباب التي من أجلها خُلق ، فإن تمكَّن منها ليس له بد إلا أن يؤمن ، وبإيمانه يُدرك : أنه في أحسن تقويم ، ويدرك أنه بحق هو المُفضَّل في استخلافه للأرض . وبإيمانه

(1) التين 6 .
(2) القارعة 6 ـ 11 .
(3) البقرة 82 .
(4) الأعراف 40 .
(5) الأعراف 42 .

هـٰذا يعرف : أنه تحت هيمنة القوة التي لها الفضل في خلقه في أحسن تقويم . وبإدراكه هـٰذا ليس له إلا أن يوحِّد ٱلله تعالىٰ ربَّ العالمين ، ويعلم أن الذين لم يعلموا لو يعلمون ؛ يعلمون علم اليقين ؛ الذي به يتمكنون من المعرفة الحقة .

ولأن المهيمن بالإضافة يعلم : أنه تحت رعاية المهيمن الحق ، فهو يرفض ولا يقبل بهيمنة غيره ، ويعلم : أن القبول بهيمنة غيره هو قبول بتعدد المهيمنين ، ولأنه يعلم : أن المهيمن جل جلاله لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له شريك ولا مثيل ، فهو سيظل رافضاً لكل من يحاول الهيمنة . ورفضه هـٰذا يُعد إيماناً تاماً بالواحد الأحد .

الاستخلاف في الأرض هو استخلاف في الدار الدنيا ، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (1) .

وقد يتساءل البعض : لماذا الاستخلاف في الدار الدنيا ؟

الاستخلاف في الأرض (الدار الدنيا) من أجل إعمارها ، وإصلاحها ، والفوز بالدار الآخرة ، ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (2) هـٰذا الخليفة هو سيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي يصلي المسلمون ، ويسلمون عليه في كل صلاة يُصلونها ، كما يصلون ويسلمون علىٰ سيدهم ونبيهم محمد ، عليه الصلاة والسلام . وفي مقابل ذلك من يرد الحياة الدنيا دون الآخرة يؤت منها ، ولـٰكن ما له في الآخرة من نصيب : ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (3) . بطبيعة الحال من تكون الدنيا غاية له في ذاتها ، لم تكن له في

---

(1) القصص 77 .

(2) العنكبوت 27 .

(3) الشورى 20 .

الآخرة غاية ، حيث قصر نصيبه علىٰ الدار الدنيا ، ولذا لن يكون له نصيب من غيرها إلا العذاب . ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (2) ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (3) . يُفهم من الآيات السابقة ضرورة أن يعمل الإنسان خيراً في الدار الدنيا التي يراد له الاستخلاف فيها بالعمل الصالح حتىٰ يكسب الدار الآخرة بالفوز بالجنة . أمَّا أولـٰئك الذين هم في أسفل سافلين حالهم كحال الكتكوت في البيضة قَبْلَ خروجه منها حيث كان يظن : أنها العالم بأسره ، ولم يخطر بباله ما رآه بأم عينيه بعد خروجه للدار الدنيا التي يعتقد البعض فيها دون الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض . هـٰؤلاء ومن علىٰ غرارهم يخسرون الدارين : الدار الدنيا باعتبارها زائلة ، والدار الآخرة التي لم يحرثوا لها في دنياهم . أمَّا المستخلفون فيها ؛ فهم العاملون عليها بحرثهم لها في الدار الدنيا مثلما حَرَثَ سيدنا إبراهيم فيها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونال أجره فكان في الآخرة من الصالحين .

قال رجل من كبار الصالحين : « عجبت لمن خرج من الدنيا ولم يستمتع من نعيمها !! قالوا : أو في الدنيا نعيم يا رجل ؟ !

قال : نعم ، إنَّ فيها نعيماً يعدل نعيم الجنة .

قالوا : وما هو !

(1) الأنفال 67 .
(2) التوبة 38 .
(3) الشورى 20 .

قال : ذكر ٱلله »[1] .

أتفقُ تماماً مع هـٰذا القول الصالح ؛ حيث قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴾[2] .

إنَّ الدارين (الدنيا والآخرة) هما تحت هيمنته مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[3] .

فالمهيمن هو ٱلله بصفاته ووحدانيته عز وجل ، ولأنه الواحد القهَّار ، لذا لا يُعقل أن لا يكون مهيمناً ، أي : بما أنه لا شريك له ، وهو مالك الملك ، وهو يحيي ويميت ، وهو علىٰ كل شيء قدير ، إذاً فهو المهيمن جل جلاله .

المهيمن هو الذي يُلمُّ بحال من هو مهيمن عليهم ، ويدرك أمرهم وكنههم ، وهو المُمَكِّن لهم من بلوغ الأشياء إن شاء ، ومتىٰ ما شاء ، وكيفما يشاء . والمهيمن يحيط بكل شيء علماً ، ولذا فهو يحيط بالأمر ، وبمن يتعلق الأمر بهم .

وعليه فالمهيمن المطلق هو الحافظ الباقي المطلق ، أمَّا المهيمن بالإضافة فهو الحافظ الذي في حاجة لمن يحفظه من الكيد والحسد والضعف والحاجة ، وهو الذي تنقصه صفة البقاء وخاصيته . وبالرغم من ذلك يستمد صفته في الحياة من المهيمن ـ عز وجل ـ بما يجعله مؤتمن الجانب ، ويشهد ويحكم بالعدل ، ولا يعتدي علىٰ من هم تحت هيمنته بظلم ، ويستمد قوته من

---

(1) محمد بكر إسماعيل ، أسماء ٱلله الحسنىٰ آثارها وأسرارها . القاهرة، دار المنار الطبعة الأولى 2000 ص 33ـ34 .

(2) الرعد 28ـ29 .

(3) الزمر 67 .

القوي الحق تعالىٰ حتىٰ يسيطر علىٰ كل ما من شأنه أن يُضعفه أو يهز إيمانه ، أو يجعله مُفسِداً في الأرض التي يُراد له الاستخلاف فيها . فبهيمنته علىٰ نفسه وأقواله وأفعاله يوصف بالخليفة المهيمن . والمهيمنون هم الذين قال فيهم ٱلله تعالىٰ : ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (1) وٱلله تعالىٰ في أساس خلقه للناس يريدهم جميعاً خليفة له في الأرض ، ولم يستثنِ أحداً منهم إلا الذي ظلم نفسه ، فاستثناها ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا ظَلَمۡنَـٰهُمۡ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ (2) .

ولأن ٱلله تعالىٰ هو المهيمن ، فهو المسيطر والقابض والباسط والحافظ والموسع والمُكيد ، والمقيت والحسيب والرقيب ، فهٰذه الصفات وغيرها هي صفات المهيمن الحق الذي بيده الثواب والعقاب . وهٰكذا من يستمد خصائص من صفاته يكون مهيمناً علىٰ نفسه وعلىٰ الذين تربطه بهم علاقات كالزوجة ، والأبناء ، وكذلك عندما يكون مسؤولاً يجب أن يكون بمسؤوليته أميناً عادلاً مسيطراً وباسطاً مع من ينبغي أن يُميَّز عن غيره بما يتفوَّق به من عطاء وإبداع وإخلاص ووفاء للمهنة والعمل واحترامٍ للمسؤولية الملقاة علىٰ عاتقه . ويكون قابضاً علىٰ من لا يُقدِّر المسؤولية والعمل المكلف بأدائه ، وعلىٰ من يُفسد ولا يُصلح ، ولهٰذا العقاب فيما يجب ضرورة وفقاً للتشريعات التي يرتضيها المجتمع وتقرها أخلاقياته المستمدة من الدين والعرف ، وهٰكذا تكون الزوجة مهيمنة علىٰ زوجها ، حافظة له في نفسها وماله وولده وسره وعرضه ، فهي سترته مثلما هو سترتها : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ (3) .

(1) التوبة 112 .
(2) هود 101 .
(3) البقرة 187 .

وقد يتساءل البعض : لماذا الهيمنة ؟ .

الهيمنة ضرورة للآتي :

- للحفظ من السوء .
- للعدل بين المحتكمين .
- للمساواة بين الشركاء .
- للرحمة والتراحم مع صلة الرحم .
- لفك المظالم وكيد الكائدين والمكائد .
- لاتزان الحركة والسكون .
- للاستواء علىٰ المُلك .
- لإدراك الأمر ، وإدراك الاستجابة .
- لفعل ما يجب ، والابتعاد عما لا يجب .

ولأن ٱلله تعالىٰ هو القادر وهو الباسط والقابض والمهيمن ؛ لذا فإن التوكل عليه واجب من قبل المهيمن بالإضافة . ولذلك فإن التوكل عليه يُعد استجابة من قبل الذي يراد له أن يكون خليفة في الأرض (أي : استجابة للأمر) وعليه لا يستجيب للمهيمن إلا مهيمن ، وفي مثل هٰذا الأمر لا يستجيب للمؤمن تعالىٰ إلا الخليفة المؤمن الذي يَحْمَد ربَّهُ ويشكره ويسبِّحه في كل حين .

إنَّ التوكل علىٰ المهيمن الحق توكل له استجابة حيث كل شيء بيد المتوكل عليه ، أمَّا التوكل علىٰ غير المهيمن ؛ فلا استجابة له حيث لا شيء بيده . أي : إنه لا هيمنة إلا علىٰ شيء ، ولا هيمنة من غير شيء . ولذا فالتوكل علىٰ المهيمن توكل له استجابة ، والتوكل علىٰ غيره لا استجابة له .

يقول أحمد عبد الجواد في كتابه : ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها : « المهيمن جل جلاله الرقيب والشاهد علىٰ خلقه ، والمؤتمن والمستولي عليهم بالرعاية والقدرة ، والقائم بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم » [1] .

المهيمن هو الذي يشمل كل شيء ، ويجازي علىٰ الأعمال بالثواب أو العقاب ، وهو الفعَّال لما يُريد ، وهو الذي يعلم بكل شيء ولا يغفل عن شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [2] . إنه العالم بكل سر ، ولذا قال تعالىٰ : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [3] .

إذاً المهيمن هو الباسط نفوذه علىٰ الكل بلا استثناء ببسطه قوته ، وتحكُّمه في الأمر : ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [4] .

وهو : القادر علىٰ القول قبل الفعل ، والقادر علىٰ تزامن القول والفعل في الزمن الآن . والقادر علىٰ تقديم الفعل علىٰ القول ليأتي من بعده الناس يتساءلون .

فَقَبْل الفعل قال تعالىٰ : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ [5] . أي : إن المَهلُ هو الفترة التي قبل فعل العقاب الذي سيواجهونه الممهلون ، وسيكون المؤمنون عليهم شهوداً . وقوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ

---

(1) أحمد عبد الجواد ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها . الدار البيضاء، دار الثقافة ص 4 .

(2) يونس 61 .

(3) ق 18 .

(4) الزمر 52 .

(5) الطارق 17 .

﴿ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ ﴾ [1] أي : أُذكِرَكُم ، وأُبلِغكم قبل أن يفوت الأوان كما حدث مع الأقوام السابقة لكم ، فإن لم تستجيبوا ؛ فبعدها لن ينفعكم الندم ، ولذا اعملوا صالحاً ، ولا تغفلوا ، وتخسروا الدارين كما خسرتها بعض الأقوام ، مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود .

وأثناء الفعل قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2] تزامن القول مع الفعل في صدور الأمر مع كينونة الفعل في الزمن الآن .

أمَّا بعد الفعل ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [3] . الزلزلة تحدث أولاً حتىٰ تخرج أثقالها ، ثم يأتي من بعدها الناس يتساءلون عن الأمر ، بقولهم ما أصاب الأرض ! أي : مالها وما بها ؟ . بعدها تأتيهم الأخبار المجيبة علىٰ التساؤل . وفي هـٰذا الأمر المهيمن بالإضافة لا يعلم ولا يعرف ما حصل ، أما المهيمن الحق فوحده العالم بالأمر ، ولهـٰذا جاء التساؤل لاحقاً للفعل ، وليس سابقا عليه . وفي هـٰذا الخصوص تُعد الزلزلة إجابة علىٰ السؤال : ما لها ؟ الذي ترتب علىٰ وقوع الفعل أولاً ، ليأتي المتسائلون بسؤالهم ثانياً .

ومع أن البعض يظن ، أو يعتقد بأن السؤال يأتي سابقاً علىٰ الإجابة إلا أن هـٰذا الظن أو الاعتقاد ليس في محله ، فالأمر الطبيعي الإجابة دائماً تسبق السؤال ، وإلا هل يعتقد أن يحاسبنا ٱلله تعالىٰ ويسألنا لو لم يتم إبلاغنا أولاً بما يجب ، وبما لا يجب ! ولنأخذ ساعة التفضيل التي أنبأ فيها آدم أسماء من

---

(1) إبراهيم 9.

(2) ياسين 82.

(3) الزلزلة 1ـ6.

يتعلق أمرهم بها ؟ فالملائكة التي ليس لها علم مسبق بذلك لم تستطع الإجابة . ووفقاً للقاعدة المعلومة : تعمم المعلومة أولاً ، ثمَّ تلاحق ثانياً بالمراجعة والسؤال عن حالها وتقويمها ، أو تقويم الفعل الذي ترتب عليها .

فإذا عُدنا للمقررات التي تُعلَّم في مراحل التعليم المتنوعة ، نجد : أن المعلومة تُعطىٰ ، أو تُدرَّس أولاً ، ثم ثانياً تلاحق بالأسئلة ، ولذا لا يسأل أحد عن شيء لم يعلمه أو يقوم به ويعرفه . حتىٰ في المسابقات العامة لا يسأل أحد عن شيء لم يُنشر أو يُسوَّق أو يُعلن عنه ، ولذا من يتمكن من الاطلاع والمعرفة ويتذكَّر ويتفكَّر يُجيب ويفوز ، ومن لم يتمكن فالأمر يعود لتقصيره بعدم البحث والاطلاع علىٰ المنشور أو المبثوث والمنقول عبر شبكات المعلومات ووسائل الاتصال المتطورة . ولهٰذا لو لم تقضِ من عمرك أعواماً ما سألك سائلٌ عما قضيت منه ، ولو لم تدخل المدرسة وتعطىٰ لك المعلومات والمقررات ما سألك المدرس عنها ، ولو لم تكفر ما سألك وحاسبك ٱلله علىٰ كفرك ، ولو لم تؤمن ما جازاك ٱلله خيراً علىٰ إيمانك .

وعليه فعل الإجابة يأتي لاحقاً لفعل إعطاء المعلومة ، وفعل دخول الجنة يأتي لاحقاً لفعل الاستخلاف في الأرض .

والمهيمن هو المجيب ، ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (2) المضطر لا يدعو إلا من يعرف مسبقاً : أنَّه يستجيب له في حالة ما إذا دعاه ، أي : إنه لا يسأل إلا مجيباً ، أما أولـٰئك الذين يسألون من لا إجابة عندهم فهـٰؤلاء لن يستمعوا لأي إجابة ، وهم في حالتهم هـٰذه كمن

(1) النمل 62 .

(2) البقرة 186 .

يسأل أصحاب القبور : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [1] .

ولأن المهيمن المُطلق هو المجيب ، فهو يهيمن علىٰ كل شيء ويُجيب علىٰ كل شيء ، ولذا فالمهيمن بالإضافة هو المجيب بالإضافة ، أي : إنه لم يكن مهيمنا بالمطلق ، ولأنه كذلك فهو لا يمتلك إجابة المطلق .

إنَّ المهيمن الكل هو الذي يحتوي علىٰ كل جزء ، أمَّا المهيمن الجزء فهو الذي يحتوي علىٰ المتجزئ ، ولا تتسع دائرة امتداده لتشمل الكل . ووفقاً لقاعدة النسبية ، فإذا نظرنا للإنسان ككل في ذاته ، نجده يتكون من أجزاء تتجزأ ، وإذا ما أصاب الألم أحد أجزائه ؛ تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ . وهـٰذا يدل علىٰ إحساس الكل بالجزء والمتجزئ منه . ولهـٰذا يحس الكل بالجزء ، ويستجيب له ، وهـٰذا الأمر علىٰ مستوىٰ المهيمن الجزء وهو الإنسان إذا ما نُظِرَ إليه ككل في ذاته ، أمَّا إذا نُظِرَ إليه في وسط ما خلق المهيمن الحق ؛ فنجده جزءاً منفرداً ، ومنه تتجزأ الأعضاء والأجهزة التي منها تتكون وحدته ككل مستقل بذاته . ولهـٰذا مع أنَّ الإنسان إذا ما نظرنا إليه كمفردة مستقلة بذاتها ، فهو أيضاً المترابط مع بني جنسه بعلاقات علىٰ مستويات متعددة في مجالات متعددة وفقاً لأدوار متنوعة .

فالفرد الواحد يلعب دور الأب بعاطفة الأبوة ، ودور الأم بعاطفة الأمومة ، ودور الأخ ، أو الأخت بعاطفة الأخوة ، ودور العم بعاطفة العمومة ، ودور الجار بعاطفة الجيرة ، ودور المسؤول ، والمربي ، والقائد ، والمعلم ، والمساعد ، والمُحسن ، والسائق ، والراكب ، والزارع ، والجاني ، وإلىٰ النهاية يلعب أدواراً متنوعة وفقاً لمسؤوليات وصلاحيات واختصاصات في ضوء حقوق تمارس ، وواجبات تؤدىٰ ، ومسؤوليات تمَّ حملها . ولذا كل مُهيمن مهما تعددت أدواره فهو يحسُّ ، ويستجيب لكل

---

(1) فاطر 22 .

دورٍ ، ويستجيب لكل من تُلعب الأدوار من أجلهم .

وفي مقابل ذلك ومن غير مقارنة ، فالمهيمن الكل يستجيب لكل من يهيمن عليهم ، وهو يحسُّ بآلامهم ، ويستجيب لهم كلما دعوه دون أن يتألم ، وذلك لأن الألم متلازم في خلقه مع الكائن المخلوق ، وليس متساوياً مع الخالق جل جلاله ، ولهـٰذا فإن حاله كحال المخلوقات الأخرىٰ التي تخضع لهيمنة المهيمن عز وجل .

ويقول الإمام الغزالي : « المهيمن هو القائم علىٰ خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، وقيامه عليهم باطلاعه واستيلائه وحفظه . وكل مشرف علىٰ كنه الأمر مسؤول عليه حافظ له فهو مهيمن عليه . والإشراف يرجع إلىٰ العلم ، والاستيلاء إلىٰ كمال القدرة ، والحفظ إلىٰ العقل » [1] .

إذاً المهيمن هو الذي يحتوي بعلمه علىٰ كل ما بيده ، بسلطانه وملكوته وكيده ، فهو يُمهل ولا يُهمل ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة ، يهيمن عليها هيمنة كاملة .

ويقول البغوي : « المهيمن هو الشهيد علىٰ عباده بأعمالهم . وقال ابن عباس ومجاهد : هيمن ، يهيمن ، فهو المهيمن : إذا كان رقيباً علىٰ الشيء » [2] .

ولذا : فإن المهيمن هو المسيطر علىٰ كل أمر ، والقادر علىٰ كل فعل ، والفاتح لكل خير ، والمغلق لكل شر .

وعليه : المهيمن هو الذي بيده كل شيء ، وله كل شيء ، ويستطيع فعل

---

(1) أبو حامد الغزالي ، المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ . بيروت ، دار الكتب العلمية ص 50 .

(2) تفسير البغوي ، ج 5 ، ص 624 .

كل شيء . قال تعالىٰ : ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [1] ، فلا يمكن للعبد الاستعانة إلا به ، ولا يمكنه اللجوء إلا إليه ، وهيمنته تؤكد وحدانيته ، فهو الواحد الأحد الصمد . قال سبحانه وتعالىٰ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [2] ، فهـٰذه الوحدانية التي تفرض هيمنته علينا تُشعرنا بالعبودية تجاهه ، مما يجعل من العبد المؤمن حراً من أي خضوع لغير الواحد الأحد ؛ إذ يدرك المؤمن أن أي إنسان غيره هو بحاجة للمهيمن المطلق ؛ إذ إنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً ؛ فكيف يملكون لغيرهم ؟ !

وهـٰذا من شأنه أن يجعل المؤمن معتزاً بنفسه لا يرضىٰ بالعيش إلا كريماً ، ويجعله محباً طائعاً متعلقاً بمن هو مهيمن عليه برحمته ورعايته ومراقبته ، فمن شأن ذلك أن يجعله شاكراً لمن يعطيه الشعور بالأمان والحماية والرعاية الدائمة ، فلا يكون للمؤمن أي معين سواه ـ عز وجل ـ في حل ما يلاقيه من متاعب وهموم ومشاكل في حياته معتمداً بذلك علىٰ المسيطر والقادر علىٰ كل شيء ، فيستغني المرء بذلك عن سؤال البشر .

وبإيمان العبد بأنه المهيمن والقادر علىٰ أمر حياتنا ومماتنا فإنه يجعل من حياته سلسلةً متواصلةً للطاعة والعبادة والخضوع له ، فهو خالق كل شيء . قال تعالىٰ : ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [3] .

ولأنه المهيمن فهو القادر ولذا فلا يمكن أن تتوافر الهيمنة المطلقة دون توافر القدرة المطلقة علىٰ كل شيء ؛ لأن الهيمنة في حقه عز وجل تعني أن الخالق هو الرقيب الذي لا يخفىٰ عليه شيء في الأرض ولا في السماء . قال

---

(1) البروج، 15، 16 .
(2) الإخلاص 1 ـ 2 .
(3) الملك 1 ـ 2 .

تعالىٰ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ (1) . وتكمن سر هيمنته المطلقة في رقابته المطلقة التي لا يمكن لأي مخلوق أن يشاركه فيها ، ولأنه الرحيم المطلق استوجب في حقه هـٰذه الهيمنة الكاملة التي تمكّنه من معرفة ، وإدراك كل شيء مهما صغر أو كبر ، مهما ظهر أو خفيَ .

والمهيمن في حق ٱلله تعالىٰ تعني : أنه الشهيد علىٰ كل شيء بالرعاية والقدرة والرحمة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (3) . فٱلله بهيمنته هو القائم بأعمال العباد جميعاً وأرزاقهم وما يتعلق بهم من أقدار ، وهـٰذا دليل وحدانيته التي تجعله مهيمناً بهـٰذه الوحدانية علىٰ كل شيء . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ

---

(1) سبأ 1 ـ 5 .

(2) الحج 17 .

(3) الحاقة 13 ـ 18 .

لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) . فالهيمنة هي أساس عدله ـ عز وجل ـ ورحمته ، وجبروته ، وقدرته .

فالقدرة الحق إذاً لا تأتي إلا بكامل الهيمنة ومطلقها ؛ لأنه إذا نقصت هـٰذه الهيمنة ولو مقداراً ضئيلاً بنسيان أو غفلة فقد فقدت العدل والقوة والرحمة في الحكم ، والخالق جل جلاله هو العدل المطلق في حكمه الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، سبحانه جل جلاله !

والخليفة بالإضافة هو من اتصف بصفات ٱلله تعالىٰ ، فكان قادراً علىٰ الإلمام بالأمور من حوله ، فلا يكون غافلاً عما يدور خارج محيطه النفسي أو العائلي ، إذ إن الإنسان هو جزء من المجتمع أولاً ، ومن العالم بأسره ثانياً ، فلا يجب أن يعيش معزولاً أو محدود العلم والمعرفة والقدرة ، بل لا بد أن يهيمن علىٰ ما حوله من تغيرات ومجريات أمور لكي يستطيع التغلب عليها ويكون متفاعلاً مع الحق بالحق وفقاً لقاعدة : اتباع ما يجب ، والابتعاد عما لا يجب إتباعه .

وعليه فالمهيمن هو مالك الملك بالمطلق ، ولذا فهو الملك المهيمن علىٰ عباده بذاته ، فهو فوقهم جميعاً ، لا يعلو عليه شيء ، وكيف ذلك وهو الملك المطلق ! هو الملك المتعال يأتمر العباد بأمره عز وجل ، وكذا جميع الخلق ، يعلم كل ما يحدث ، ويدور في مملكته التي تمتد إلىٰ ما لا نهاية ، والتي لا يعلمها إلا هو جلَّ جلاله ، بحكمته المطلقة وبعلمه المسبق بكل شيء وبتفاصيل الأمور ودقائقها ، لا يعزب عن علمه وإدراكه أي شيء في الأرض ولا في السماء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (2) .

---

(1) الحشر 22 ـ 24 .

(2) الأنبياء 47 .

وإذا رأينا : أن بعض الظالمين والعصاة يسرحون في هـٰذه الدنيا دون أن يردعهم أحد ؛ فليس معنىٰ ذلك : أن الملك غافلٌ عنهم ؛ أو متناسي لأمرهم ، بل لأنه يتركهم يفسدون في الأرض فيزداد عقابهم ومصيرهم السيىءِ يوم يقوم الحساب . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ (1) ، فهو الملك الذي بيده أمر تقديم وتأخير العقاب والثواب لمن يستحق من العباد ، وهو الملك المهيمن علىٰ الطائعين والعصاة والمؤمنين والكفار ، والإنسان مهما ارتفعت مكانته في الدنيا وعلا شأنه في الحياة الدنيا يبقىٰ فقيراً إلىٰ الملك الغني القوي المهيمن العزيز جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ (2) . وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (3) . إذ إن هيمنته تظهر لنا من استغنائه عن جميع الخلق ، فلا يحتاج الملك لأي مخلوق آخر في تدبير أمور ملكه ، فهو الواحد الذي لا شريك له في حكمه وهيمنته وسيطرته علىٰ كل شيء .

وهو الملك الذي يعطي لكل ذي حقٍّ حقه ، فلا يزيد ولا ينقص من حق العباد شيئاً ، فهو الملك الذي يعلم ما تخفي الصدور والأنفس ، وبهيمنته عليها فهو المحاسب العادل لها . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (4) .

---

(1) إبراهيم 42.
(2) الأنعام 133 .
(3) فاطر 15 ـ 17 .
(4) آل عمران 29 .

لذلك فعلىٰ خليفة ٱلله أن يكون ملكاً علىٰ ذاته وعلىٰ شهواتها ، وأن لا يسمح لنفسه بأن يكون عبداً لها ، أو عبداً لغيره من البشر ، فيكون حراً يصدع بالحق الذي أمرنا ٱلله بالدعوة إليه والسعي لتحقيقه علىٰ الأرض ، فالروح بأمر خالقها وليست بأمر أحد من الخلائق ، فبمجرد تفكير الخليفة وإدراكه لذلك ؛ فإنه يصبح مالكاً لزمام نفسه ، ومهيمناً عليها ، ومسيطراً عليها بالتمام .

ولأن المهيمن هو الحي القيوم ، فإن الهيمنة المطلقة تتطلب الحياة الأزلية والقيومية ، فلا يمكن أن تكمل هيمنته إلا إذا كان حياً لا يموت قائماً علىٰ أمور خلقه . قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [1] ، وهـٰذه الحياة الأزلية في حقه ـ عز وجل ـ تتضمن السمع والبصر المطلقين والمحيطين بالخلق جميعاً ، كذلك تتضمن هـٰذه الحياة الكبرياء والعظمة والصمدية في حق ٱلله ، جل جلاله ، فبهـٰذه الصفات جميعها تكمن الهيمنة المطلقة للحي القيوم الذي هو قائم وحده علىٰ أمر الخلائق جميعاً : بمراقبته لهم ، وتدبيره أمورهم بعلمه وحكمته بالعباد ، وهو الشهيد علىٰ خلقه ، كما جاء في قوله تعالىٰ : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [2] ، فالشهادة علىٰ الخلق تتطلب مراقبةً لا تنقطع ، وتكون نتيجة هـٰذه المراقبة الدائمة هو الحساب العادل للبشر ، ولا يمكن للهيمنة والسيطرة والقدرة علىٰ القيام بكل ذلك إلا إذا كان الخالق حياً لا يموت واحداً لا شريك له ، سبحانه جل جلاله !

---

(1) البقرة 255.

(2) النساء 166.

وعلىٰ خليقة ٱلله أن يكون مستحقاً للحياة ، فلا يكون حياً بمأكله ومشربه وملبسه فقط ، بل يجب أن يكون حياً بقيمته وعطائه في هـٰذه الحياة ، لا يغفل عما يدور حوله من أمور وأحداث ، فالحياة تستحق أن نكون قائمين علىٰ أسرارها وجوهرها لا علىٰ ظاهرها ، فبهـٰذا الشكل نكون مهيمنين علىٰ كل جوانب حياتنا فلا نسمح لأحد بسلب هـٰذه الهيمنة منا .

وعليه فالمهيمن هو القوي ، ولذا فالهيمنة تتطلب القوة المطلقة والسلطة الكاملة ، فالخالق عز وجل هو القوي بهيمنته المطلقة علىٰ كل شيء ، ولأنه يهيمن علىٰ كل شيء والبشر هم من مجموع الشيء المهيمن عليه بالمطلق ، لهـٰذا تتجلىٰ هيمنته علىٰ البشر في أمورٍ عديدةٍ ، منها :

أ ـ أخذ الكفار بالعقاب الشديد :

فالعقاب يتطلب قوة كبيرة ، والقدرة علىٰ الظالمين والأقوياء يستوجب من هو أقوىٰ منهم ، فيهيمن عليهم ويسيطر علىٰ أمورهم جميعاً ، فلا يستطيعون معه شيئاً . قال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ (1) ، فمن المعروف مدي جبروت فرعون وقوته وظلمه ولـٰكن القوي المطلق فرض سيطرته عليه وعاقبه بقوة يستحيل معها أن يملك الإنسان رداً لها ، فعقابه عز وجل للكفار والمفسدين أكبر دليل علىٰ هيمنته القوية عليهم ، وكذلك عقاب القوي الجبار لقارون حين تجبَّر ، وتكبَّر في الأرض . قال تعالىٰ : ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ

---

(1) الأنفال 50 ـ 52 .

صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [1] ، فمن شأن هـٰذه القصص أن تكون عبرة لكل قوي جبار لا يرىٰ في الدنيا مثيلاً لقوته وسلطانه ، متناسياً أمر المهيمن عليه والقادر علىٰ سلبه هـٰذه القوة في أية لحظة ، وبأبسط الأسباب ، فمثلاً إذا سيطر مرضٌ ما علىٰ الإنسان القوي المعافىٰ فإنه يسيطر علىٰ صحته ويسلب قوته وعافيته ، ويصبح هـٰذا الإنسان ضعيفاً لا حول له ولا قوة ، ولو كان قوياً بماله وسلطانه فالقوي قادر علىٰ سلب هـٰذا المال أو السلطان ، فيظل بلا قوة ولا معونة تساعده في الحياة بدون توكله علىٰ المهيمن المطلق ، فلا قوي إلا ٱلله ، ولا مهيمن إلا هو ، عز وجل ، سبحانه جل جلاله !

ب ـ تغيير أحوال العباد :

لا يتغير حال الإنسان إلىٰ حال آخر إلا بقدرة القوي المالك ، فقد تجد إنساناً كان فقيراً ثم أصبح ثرياً ، وهناك من كان ضعيفاً فيصبح قوياً ، فسبحان الذي يغير ولا يتغير ! ولـٰكن هـٰذا التغيير يتطلب من القوي العزيز الهيمنة الكاملة علىٰ الخلق والقدرة علىٰ التغيير والتبديل ، فالضعيف لا يملك أن يغير لنفسه حتىٰ يغير للآخرين ، ولكنَّ ٱلله هو القادر علىٰ كل شيء بقوته وهيمنته .

فعلىٰ خليفة ٱلله في الأرض أن يكون قوياً في الحق ، فلا يخشىٰ أحداً في إحقاقه ، ولا يضعف أمام مال أو أولاد أو جاه أو أي نزوة ، بل عليه أن يقوىٰ علىٰ كل شيء ، فيكون بذلك مالكاً لنفسه مهيمناً عليها لا يسمح لأحد من الخلق أن يستولي علىٰ حقه فيها ، فالخلافة تحتاج إلىٰ أشخاص أحرار أقوياء مالكين لأنفسهم ، ومهيمنين عليها ، فلا يضيعون في متاهات الدنيا ،

(1) القصص 79 ـ 82.

ولا تأخذهم الحياة بعيداً عن تحقيق الهدف من خلقهم .

إذاً المهيمن هو الرحيم بعباده وذلك بأنه سبحانه وتعالىٰ كانت رحمته من هيمنته علىٰ كل شيء ، وكانت هيمنته رحمة بالعباد ، فهي رحمة في عدم لجوئهم لغيره عز وجل ، وفي هـٰذا تقدير لهـٰذا المخلوق ورحمةٌ به ، فيتغلب المرء بذلك علىٰ التشتت والتعب وتناقض التفكير في كل من يمكن أن يلجأ إليه هـٰذا الشخص ممن حوله ، ولأنه الرحيم المطلق فهو المهيمن علىٰ أمور العباد رحمةً بهم ، فلا يتحكم بهم أيٌّ مخلوق آخر من شأنه أن يتجبر ويظلم ، بل جعل من ذاته العظيمة هي المهيمنة علىٰ كل شيء ، وهـٰذا في حد ذاته رحمةٌ بالعبد الذي لا يملك إلا قدراتٍ محدودةً وقوةً محدودةً وتفكيراً محدوداً في دائرة النسبية المتوقعة وغير المتوقعة ، ويأتي دور الإنسان في استخدام عقله للجوء والوصول إلىٰ فهم هـٰذه الهيمنة ؛ إذ إن الفتَّاح عز وجل هو الذي يفتح أمام تفكير العبد هـٰذه الحقائق ، ويجعله مدركاً لرحمة المهيمن وقدرته ، فيسعىٰ لخالقه بالدعاء والعمل ليكرمه ويفتح عليه أبواب الرزق ، والرحمة ، وهي مطلب كل عبدٍ .

فالرحيم المطلق هو الذي تظهر رحمته وتتجسد في هيمنته علىٰ الخلق ، فالشعور بحد ذاته من المؤمن تجاه الخالق بهـٰذه الهيمنة تجعله يعدِّل من سلوكه ، ويصحِّح مساره في الحياة ، وهـٰذه رحمة من الرحيم في عباده ، وكذلك في شعور الإنسان المتكبر حين يستشعر وجود مهيمن عليه بقوته وقدرته وعظمته ، فإنه سوف يرجع لحقيقته وإدراك قدرته التي وهبها الرحيم له القادر علىٰ سلبه إياها ، وهـٰذه رحمة من الخالق بعبده المتكبر في هـٰذه الدنيا ، وكذلك بالنسبة للكافر فالخالق هو المانع له عن التمادي إذا أراد في كفره وعناده ، وهو المعطي له النعم والعطايا لعله يرجع للحق والهداية وهـٰذه الرحمة متجسدة وواضحة في حق الرحيم بعباده ، كذلك هيمنته علىٰ الكون الظاهرة لنا من خلال تسييره وفق نظام معين لا يتخطاه ، ولا يتعداه ، فبدون

وجود مسيطر ومهيمن عليه لكانت الفوضىٰ سادت وعمت هـٰذا الكون ، ولكانت حياتنا عليه غير منظمة ، فالخالق بوحدانيته هو المهيمن عليه فيجعله سائراً حسب قوانين كونية هو واضعها . قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (1) . وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (2) . فرحمة الخالق بهيمنته علىٰ الكون هي رحمة بعباده أجمعين ، فلو تصورنا : أن الإنسان هو المسيطر علىٰ نظام الكون ؛ لكان سيَّره علىٰ هواه ، وهواه في اختلاف ، والاختلاف فساد ، فيصبح كل إنسان يريد أن يفرض ما يريد علىٰ سيره ، فيغيِّر ويبدل كل حين حسب هواه ، ولكان في ذلك اختلال كل هـٰذا النظام ملايين المرات ، ولكانت حياتنا مهددةً بالخطر والعبث والفساد ، ولـٰكنه جعل من ذاته الجليلة هي المهيمنة علىٰ هـٰذا النظام الكوني العجيب ، وهـٰذه رحمة من الرحيم المطلق بخلقه .

وعلىٰ خليفة ٱلله بالإضافة أن يكون رحيماً بذاته أولاً ، فيجنبها المعاصي والمفاسد ، ولا يُهلكها في الرذائل والشرور ، فهي مكرَّمة من خالقها ، ومفضلة علىٰ باقي الخلق ، وعليه أن يكون رحيماً بمن هم أضعف منه ويحتاجون لمعونته ؛ سواء كانت فكرية أو مادية هـٰذه المعونة ، فلابد أن يكون مهيمناً علىٰ قسوته وشره وكل ما هو سيِّئ في ذاته فيحصر كل هـٰذه الشرور ويقضي عليها بحبه لله تعالىٰ وقربه منه وتذكير نفسه بالمهيمن المطلق عليه وهو اللطيف الخبير .

---

(1) الأنبياء 30 ـ 33 .
(2) الأنبياء 22 .

وعليه علىٰ الخليفة أن يكون مهيمناً علىٰ الآتي :

أولاً : نفسه :

فالنفس البشرية تتفاوت من إنسان لآخر ، وسبب هـٰذا التفاوت هو اختلاف هيمنة الإنسان علىٰ مشاعره ونفسه بشكل عام ، فلا يمكن أن تسير النفس في طريق الصلاح والخير بدون قائم عليها يقوِّم من اعوجاجها وزلاتها ، فإذا ترك الإنسان نفسه تهيمن عليه وتسير به كيفما تشاء ؛ فإنها سوف تؤدي به إلىٰ الهلاك والخسارة . قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (1) ، فالنفس أمارة بالسوء أحياناً ، لذلك كان لابد لها من ضابط ، ومقوِّم لها ، من شأن ذلك أن تصحِّح من سيرها في الحياة ، فلا يكون الإنسان فريسة للشهوات ، والأهواء المضلة التي يدعمها الشيطان الرجيم ، الذي توعد الإنسان بالضلال والضياع بسبب حقده علىٰ بني آدم فأراد أن يحتكر أغلب البشر في جهنم بفرض سيطرته عليهم ، ومن هنا كان اختلاف الأنفس البشرية في اتباع طريق الشيطان والضلال ، أو في الابتعاد عنه ، واتباع طريق الرحمـٰن ، كما جاء في قوله جل جلاله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (2) ، فلا بد للخليفة أن يكون مهيمناً علىٰ خبايا نفسه ،

---

(1) القصص 49، 50.

(2) ص 71 ـ 83.

فلا يسمح لوسوسات الشيطان بإغوائها والتلاعب بها والاستهزاء بقدراتها التي كرّمها ٱلله بها ، وطالما كان الإنسان رقيباً ومسيطراً علىٰ ذاته ، فإنها لن تضِل ، ولن تفسد .

ثانياً : أن يكون مهيمناً علىٰ من هم تحت رعايته :

أحياناً يكون الإنسان في مكانة اجتماعية تجعله مسؤولاً عن غيره ، ومُراقِباً لهم ، هنا لابد أن تكون له هيمنة معينة عليهم تكون رادعاً لهم عند الحاجة لذلك ، فمثلاً لابد أن يكون الأب مسيطراً ، ومهيمناً علىٰ كل أنحاء وجوانب أمور أبنائه دون مظلمة ؛ إذ إنه بدون ذلك فإن من شأن هـٰذه العائلة أن تفقد روح الاحترام لهـٰذا الأب والخوف من مراقبته ، وعلمه بكل تفاصيل حياتهم التي بهيمنته عليها يستطيع أن يدرك كل ما هو جيد ، وفاسد فيها لأجل تقويمه وإصلاحه ، وهديهم بالتي هي أحسن للتي هي أحسن .

فالطفل منذ تعرفه يحتاج لمن يأخذ بيده ويُشْعره بأن هناك من يراقبه ويقف له عند نهاية كل مسلك من الممكن أن يسير فيه ، فلا يتهور ، ولا يسير في دروب الضياع والفساد ، فكيف يسير فيها طالما هناك رادع ومراقب له بالحق من أجل الحق ؟ ومع ذلك من يقف في نهاية الطريق مربياً عليه أن يعلم أن من مهامه فتح المسالك والدروب أمام الأجيال لأجل أن تطوىٰ الهوة بينها وبين محققات طموحاتها وآمالها التي فيها الأفضل والأجود والأحسن ؛ ولهـٰذا قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (1) .

---

(1) الإسراء 23 ـ 27 .

وفي أحيان أخرىٰ يكون الإنسان في مرتبة عملية تخوِّله لأن يكون مسؤولاً عن عدد من الموظفين والعاملين تحت يده ، فإذا أراد هـٰذا الشخص أن يكون عمله سائراً بالشكل الصحيح ؛ فإنه لا بد أن يكون ممسكاً بزمام الأمور جميعاً ، ولا يمكنه ذلك إلا بامتلاكه القدرة علىٰ المراقبة الشاملة والهيمنة علىٰ جوانب العمل بكل حق ، فإذا استشعر العامل أو الموظف بهيمنة صاحب العمل ومراقبته له بالحق ؛ فإنه يسعىٰ لتحسين عمله ، والإبداع فيه محافظةً عليه وخوفاً من ضياع هـٰذا العمل ، فيصبح بذلك الإنتاج أفضل وأكثر وأجود ، علىٰ عكس صاحب العمل الغافل المهمل عن سير عمله فنجد أن العاملين والموظفين يتخبطون في عملهم ، ولا يحركون ساكناً لأيِّ مجهود من شأنه أن يحسِّن العمل ، فيصبح الإنتاج بذلك أقلَّ جودة ، ونوعية ، فتكون الخسارة واردة لعدم وجود من يفرض وجوده ، ويهيمن علىٰ سير العمل كما يجب أن يكون .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [1] . إذاً فالمهيمن جل جلاله هو الرقيب علىٰ أعمالنا وأقوالنا جميعها . فمن الآيات الكريمة السابقة نستطيع أن نربط بين عملية خلق ٱلله تعالىٰ للبشر (ولقد خلقنا الإنسان) وبين علمه المطلق بخفايا أموره عن طريق مراقبته وهيمنته علىٰ هـٰذا المخلوق ، فالهيمنة المطلقة لله علىٰ البشر ضعيفهم وقويهم ، غنيهم وفقيرهم ، المؤمن فيهم والكافر هي حق الخالق علىٰ الخلق ، فمن الممكن أن يُخفي الإنسان ما يريد عن أقرب الأشخاص إليه ، ولـٰكنه لن يستطيع ذلك مع الخالق جل جلاله ، فكل من حوله يفتقدون القدرة علىٰ فرض هـٰذه الهيمنة ، أما المولىٰ ـ عز وجل ـ فإنه يملك القدرة والحق في

(1) ق 16 ـ 18 .

ذلك ، وهناك فرق بين الخلق في فهم هـٰذه الهيمنة ، فالمؤمن يستطيع أن يستشعر في هـٰذه المراقبة حباً ووداً ورحمةً وهدايةً له . قال تعالىٰ : ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (1) . فهـٰذا العلم بخفايا النفوس هو بحد ذاته رحمة وحب ؛ لأن نفوسنا مليئةٌ بالاحتياجات والرغبات التي لا تنتهي ، وهو العالم المطلق بما فيه صالح أنفسنا وخيرها ، فهـٰذا الشعور إذا تملَّك صاحبه فإنه يجعل منه متوكلاً علىٰ المهيمن القادر العليم الرحيم ، وكم من السعادة توجد في التوكل عليه ، عز وجل ، فلا يحزن ولا ييأس هـٰذا المؤمن من ضياع ما يسعىٰ خلفه ، أو عدم حدوث ما هو منتَظَر ، فيقينه بأن ذلك خير فيه رضاً وسعادة للنفس وطمأنينة يفتقدها أي إنسان كافر ، أو عاصي ، كذلك فالمذنب والخاطئ في حق نفسه وحق ٱلله تعالىٰ تجده عائداً للحق ، ويكون لهـٰذا الاسم نصيباً في ذلك ، فبمجرد يقين المذنب بأن هناك من يراقبه ويهيمن علىٰ حياته كلها فإنه يراجع نفسه ويعاتبها ويقع الخوف في نفسه موقعاً عظيماً يكون من شأنه أن يجعل من هـٰذا المذنب تائباً راجعاً لله تعالىٰ . قال عز وجل : ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (2) ، وقال تعالىٰ : ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (3) ، فاسم المهيمن إذاً من شأنه أن يجعل من المذنب تائباً مستغفراً طامعاً في رحمته جل جلاله ساعياً لمغفرته ورحمته ووده عز وجل ، فلا يمكن أن يغفل أي إنسان عاقل عن هـٰذا الاسم لتغلغله في تفاصيل حياتنا ؛ والذي يجب أن تكون أعمالنا وأقوالنا مستمدة من شعورنا بهـٰذه الهيمنة المحببة والمعلِمة لنا والموضحة لكل البشر طريق الضلال من الهدىٰ ، أما بالنسبة للإنسان الكافر ؛ فإن من شأن جهله بأسماء ٱلله تعالىٰ

---

(1) إبراهيم 38 .
(2) التوبة 27 .
(3) التوبة 104 .

وصفاته أن يجعله كالدواب ، فلا ينتصح لنصيحة ، ولا يجعل من عقله نعمة يهتدي بها لطريق الخير والفلاح . قال تعالىٰ : ﴿ ۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (1) ، وكذلك قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (2) ، فلا بد للعقل البشري أن يعمل فيتدبر ويدرك لكي يستوعب مدىٰ أهمية هـٰذه الهيمنة علىٰ حياتنا البشرية ، فهي بحد ذاتها قانونٌ يكون بموجبه كل إنسان مسؤولاً عن عمله ، لا يمكن لأي كان أن يفرض علىٰ أي شخص ما هو ضد تفكيره واعتقاده الصحيح في الحياة ، لأنه بالإيمان بالمهيمن المطلق لا يمكن أن يعيش الإنسان عبداً لمخلوق آخر ، بل من شأن هـٰذا الاسم أن يحرر المؤمن به من كافة أنواع العبودية والخضوع لغير ٱلله تعالىٰ ، فالعقل البشري حين يتحرر من فكرة سيطرة الأوهام والخرافات والأباطيل التي قد يمتلئ بها هـٰذا العقل ، فإنه ينأىٰ بصاحبه عن الاستسلام والذل لأي مخلوقٍ كان ومهما ارتفعت درجته في الدنيا ، بل يجعل منه إنساناً مسيطراً علىٰ ذاته وعلىٰ حياته له من بُعْدِ النظر ما يعينه علىٰ تصحيح خُطاه بالاستعانة والتوكل علىٰ المهيمن المطلق .

وعليه فإن ٱلله تعالىٰ هو المهيمن علىٰ الكتب السماوية ، فهو من أنزل جميع الكتب لهداية البشر للصراط المستقيم . قال تعالىٰ : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (3) ، وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

---

(1) الأنفال 22ـ23 .

(2) الأنفال 55 .

(3) البقرة285 .

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (1) ، فالكتب السماوية جميعها منزلة من عند ٱلله لهدفٍ واحد ، وهو هداية البشر ، ورفع الحُجَّة ، فلا يكون لأي إنسان حُجَّة علىٰ ٱلله يوم القيامة بعدم معرفته لطريق الحق والصلاح من الباطل والفساد . قال تعالىٰ : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (2) . فمن الآية الكريمة السابقة نستطيع أن ندرك مدىٰ ربط إرسال الرسل جميعاً بالكتب السماوية ، وبين شهادة الخالق عليهم ، فشهادة ٱلله هي الحق ؛ إذ لا مبرر للكفر يوم القيامة ، ولا للعصيان والجحود ، فطريق الجنة واضحٌ وطريق جهنم واضحٌ أيضاً فمن هيمن عليه الحق واليقين فاز في الدنيا والآخرة ومن هيمن عليه الباطل خسر الدنيا والآخرة .

والمهيمن جعل من آخر الكتب السماوية ـ وهو القرآن الكريم ـ محتوياً علىٰ باقي الكتب السماوية السابقة له ، ومهيمناً عليها . قال تعالىٰ : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن

(1) النساء 136 .
(2) النساء 165 ـ 170 .

يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ (1) ، فمن الآية الكريمة السابقة نستنبط ما يلي :

أ ـ إن القرآن الكريم كتابٌ جامع وشامل لكل الشرائع والقوانين التي بهيمنتها وتطبيقها نحمي أنفسنا ونقيها عذاب الجحيم .

ب ـ بما أن القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وهو كتاب الكافة فإنه الشاهد علىٰ كل ما سبق ، وهو الباقي مع البشرية إلىٰ قيام الساعة ، وبذلك فهيمنته صالحة لكل زمان ومكان ، وهـٰكذا سيظل الحق في الدارين باقياً كما أنزل .

ج ـ في هيمنة القرآن الكريم رادع لعدم اتباع طريق الباطل الذي تقود إليه الأهواء . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ (2) .

وبما أن الكتب السماوية هي من عند ٱلله فهو العالم بموعد نزولها ، وعلىٰ من تُنّزل بحكمته وهيمنته عليها وعلىٰ الخلق جميعاً ، مع معرفته المسبقة بنتيجة إنزالها ، ومن سيؤمن بها ، ومن سيعاديها ويحرِّفها لكي تتناسب مع أهوائه إن استطاع إلىٰ ذلك سبيلا ، وبقدرته عز وجل شهد علىٰ كل الأمم السابقة لنا وسجل أعمالهم ليحاسبهم عليها يوم يقوم الحساب ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (3) .

---

(1) المائدة 48، 49.

(2) المؤمنون 71.

(3) يونس 44ـ47.

إنه المهيمن علىٰ الحياة الدنيا والآخرة ، الحياة الدنيا والآخرة هما الداران اللذان يعيش فيهما الإنسان ، فالمرء يُخْلق في الحياة الدنيا فيعيش حياته ويعمل فيها ويجتهد ، ولكل إنسان ما عمل يُحَاسَب عليه في الدار الآخرة . قال تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [1] . وقال تعالىٰ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [2] . فالخالق عز وجل هو المهيمن علىٰ الدارين ، فهو المهيمن علىٰ الحياة بالتالي :

1 ـ بعملية خلق الكون جميعه بما يحويه من كائنات ومخلوقات ومكونات مختلفة . قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [4] ، فلا يكون إلا ما أراد هو عز وجل ، ولا يمكن أن يخلق من غيره أي شيء ، فهو مهيمن بعملية الخلق وبقدرته وقوته علىٰ كل شيء ، وهو المهيمن علىٰ حياة الخلق بعلمه وتقديره وحكمته ، فيؤخِّر ويقدِّم ويسخِّر الأشياء في الحياة لصالح الإنسان متىٰ شاء ، وكيفما يشاء .

(1) الأنبياء 47 .
(2) الزلزلة 1 ـ 8 .
(3) يونس 5 ـ 6 .
(4) الأنعام 102 .

2 ـ بخلق الأرزاق والآجال والأقدار ، فالمهيمن المطلق هو الذي يقدِّر رزق كل إنسان وعمره وقدره مسجلاً ذلك في كتابٍ محفوظ . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (1) ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (2) ، ولأنه هو خالق الرزق والأجل والقدر فهو القادر علىٰ التحكم فيها كيفما يشاء ، وبسيطرته عليها فهو المهيمن الكامل عليها ، الذي لا حدود لهيمنته ، فلا يمكن أن يغيِّر أيُّ مخلوق قدره ، أو يؤخر أجله مثلاً ، أو يتحكم في رزقه . قال تعالىٰ : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (3) ، فبتحكمه في كل هٰذه الأمور دليل علىٰ حكمته ورحمته وعلمه بكل جوانب حياتنا ما ظهر منها وما بطن ، فكل هٰذه الأمور من شأنها أن تُخلق مع الإنسان ، فتسير معه مدىٰ حياته إلىٰ أن يموت ، فينتهي رزقه المادي في الدنيا ، وكذلك أجله ، ويدرك ما قد قدَّر الخالق له .

إنه المهيمن علىٰ الآخرة ، فهو الذي يقوم بإعادة الحياة إلىٰ الخلق ، وبث الروح فيهم من جديد لتتجدد هيمنته عليهم ، ولذا فهو المهيمن الدائم بالمطلق سبحانه جل جلاله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾ (4) . وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (5) . فلا ترجع الروح إلىٰ صاحبها إلا بأمره عز وجل ، فهو المالك بخلقه لها وبثها في الجسد الآدمي متىٰ يشاء ،

(1) فاطر 11 .
(2) الذاريات 22 .
(3) الأعراف 34 .
(4) الحج 66 .
(5) الملك 2 .

فبذلك فإن الخالق جل جلاله هو المهيمن المطلق علىٰ أمر إعادة الروح يوم القيامة .

إنه سبحانه وتعالىٰ هو المهيمن علىٰ حساب العباد ، فمن البديهي أن الإنسان لم يُخْلق سدىٰ علىٰ هـٰذه الأرض دون حساب ، قال تعالىٰ في كتابه الكريم : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (1) . بل إن عملية خلقه كانت لهدفٍ نبيل ، ولما كان الغرض عظيم خلقه فقد استوجب ذلك حساباً علىٰ الأقوال والأفعال لتفاوت البشر في تحقيق الهدف من الخلق ، فمنهم من كان مستحقاً لهـٰذه العملية ، ومنهم من كان غير مستحقٍ لها ، فخلق ٱلله الثواب والعقاب في الآخرة كل إنسان حسب عمله في الدنيا ، قال تعالىٰ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ (2) ، فهو المهيمن يومئذ علىٰ أمر الحساب العادل للخلق ، فتتوافق هيمنته مع رحمته وعدله بالبشر ، فبفضل هـٰذه الهيمنة المطلقة فهو المدرك لمن يستحق رحمته ومغفرته ، وبعلمه بظواهر الأمور وخفاياها فهو المدرك لمن يستحق الثواب ومن يستحق العقاب ، وبحكمته المطلقة فهو الفيصل يوم القيامة بين الحق والباطل الذي كان الخلق يختصمون عليه في الدنيا .

إذاً فالمهيمن عز وجل هو المسيطر بالمطلق علىٰ أمر الحساب يوم

---

(1) القيامة 36ـ40.

(2) الانشقاق 1ـ15 .

القيامة ، فلا يغفل عن صغيرة أو كبيرة بما أنه الشاهد الحكم العدل علىٰ ما قدّمنا في الحياة الدنيا ، التي كان البعض ينظر إليها وكأنها دار لهو ولعب ، ولم يحسبوا للآخرة أيَّ حساب ، فأضاعوا حياتهم وأخراهم ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [1] . وقال : ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ [2] .

إنه جل جلاله هو المهيمن علىٰ الجنة والنار ، ٱلله هو خالق الجنة وخالق النار ، وبخلقه لهما فهو المتحكم فيهما . قال تعالىٰ : ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ﴿١٣﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ﴾ [3] . فأمر الجنة والنار بيده وحده ، يُدخل من يشاء جنته ، ويُدخل من يشاء الجحيم كلٌ بحسب عمله في الحياة الدنيا ولا يظلم ربك أحدا ، فالدار الدنيا دار ابتلاء لا دار لهو ، وعبث ، ومن عبث فيها ، ونسي نفسه باللهو سيكون حسابه عسيراً ، وبهيمنته علىٰ هـٰذين المكانين فلا يمكن للمرء أن يختار أو أن يتدخل في أمر حسابه الذي سجله الخالق في كتاب أعماله ، إنه علام الغيوب الذي لا يغفل عن صغيرة ولا كبيرة . قال تعالىٰ : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا

---

(1) غافر 39 ـ 40 .

(2) المؤمنون 115 ـ 116 .

(3) التكوير 1 ـ 14 .

ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (1) . فبهيمنته عز وجل علىٰ أَمْرِ خلقنا وتسجيل أعمالنا فهو المهيمن علىٰ أَمْرِ حسابنا واختيار أي المكانين سيكون مصيرنا بالذي جنيناه بأيدينا ؛ إذ إن الشهود والدلائل والقرائن موجودة ولا مبرر ولا حُجَّة لكافر ولا مشرك وعاصي يومئذ ؛ بل هو الندم والتحسر علىٰ ضياع حياته سدىٰ . قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ (2) .

وعلىٰ الخليفة أن يكون مستعيناً بالمهيمن جل جلاله علىٰ صلاح حاله ونفسه في الدنيا ، فلا يسعىٰ وراء الملاهي والدنيا ، فلديه مراقب وشاهد عليه يهيمن علىٰ حياته ويحفظه إذا طلب ذلك وسعىٰ إليه ، ويرحمه إذا التجأ إليه ، وأن يكون علىٰ يقين بأنه معه في الدنيا وفي الآخرة يرحمه هنا وهناك ويستر عليه في الدارين ، فهو بهيمنته ـ عز وجل ـ للإنسان فإنه يرعاه ويحفظه حتىٰ من نفسه ، فبذلك يتحقق الأمن في قلب الخليفة ، فلا تستعبده شهوة ، ولا يخضع لإنسان بغير حق ، ولا يكون أمله إلا أن يكون ٱلله معيناً له ، فبذلك يصل الخليفة في الأرض أن يكون شاهداً حقاً لا ظالماً ، ولا متحيزاً ، فيتحقق العدل والمساواة في الأرض ، والحمد لله رب العالمين !

اللهمَّ يا المهيمن علىٰ الروح اجعل أرواحنا طاهرة ! ويا المهيمن علىٰ العقول اجعل عقولنا مستنيرة بذكرك ! ويا المهيمن علىٰ النفس اجعل أنفسنا برحمتك مطمئنة ! ويا المهيمن علىٰ الأبدان اجعل أبداننا مبرئة من العذاب ! ويا المهيمن علىٰ الحياة اجعل حياتنا في طاعتك ، ومماتنا في طاعتك ، وبعثنا

(1) الكهف 48ـ49.
(2) النبأ 38ـ40.

في طاعتك ، إنك أنت المهيمن علىٰ الكون وعلىٰ الخلق وعلىٰ ما نعلم وما لا نعلم بيدك الخير إنك علىٰ كل شيء قدير ! اللهمَّ إنك أنت المهيمن ولا مهيمن سواك فلا تجعلنا تحت المسيطرين ! اللهمَّ يا مهيمن اجعل الخير والصلاح والفلاح والعمار مهيمناً علينا ، واجعل ديننا مهيمناً علىٰ دنيانا فلا نضل سبيلك يا المهيمن يا ٱلله !

اللهمَّ يا المهيمن اجعل فينا الحق مهيمناً علىٰ الباطل ، والعلم مهيمناً علىٰ الجهل ، والخير علىٰ الشر ، والعدل علىٰ الظلم ، والحب علىٰ البغض ، حتىٰ نكون خير أمة أخرجت للناس كما أردت لنا !

العزيز جل جلاله

العزيز هو ٱلله ـ عزَّ وجل ـ مصدر كل عزة .

العزة رفعة لا تُستمد إلا من رفيع يمتلك القوة الساندة والداعمة ، والقوة مدد تمتد من مصدر انبعاثها إلىٰ حيث تكون ، وتترك أثراً موجباً علىٰ من يستغيث بمالكها بتقويته ، ومناصرته فيما هو حق ، وتفاجئ الخصم بإضعافه حيثما أصابته .

العزة لله في ذاته وصفاته وملكوته وملكه ، ولمن استمد القوة منه مصداقاً لقــولــه تعــالــىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [(1)] . ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ : يقول ابن منظور في لسان العرب : « له القوة والغلبة » [(2)] ، وقال العلامة عبد الرحمـٰن بن ناصر السعدي : « نزلت هـٰذه الآية بعد أن صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدَّرَ الخواطر ؛ ظهر حينئذٍ نفاق المنافقين ، وتبيَّن ما في قلوبهم ، وقال كبيرهم عبد ٱلله بنُ أُبيّ ابن سلول : ما مثلنا ومثل هـٰؤلاء ـ يعني : المهاجرين ـ إلا كما قال القائل : سمِّن كلبك يأكلك . وقال : لئن رجعنا إلىٰ المدينة لَيُخرِجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ . بزعمه : أنه هو ومن معه من المنافقين الأعزُّون ، وأنَّ رسول ٱلله ومن تبعه هم الأذلُّون » [(3)] .

---

(1) المنافقون 8 .

(2) لسان العرب المحيط . ج 2، ص 764 .

(3) عبد الرحمـٰن ابن ناصر السعدي ، تيسير الكريم الرحمـٰن في تفسير كلام المنَّان . =

وأخرج البخاري عن زيد بن أرقم ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : سمعت عبد ٱلله ابن أُبي ابنُ سلول المنافق يقول لأصحابه : لا تنفقوا علىٰ من عند رسول ٱلله حتىٰ ينفضوا ، فلئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمِّي ، فذكر ذلك عمي للنبي ﷺ ، فدعاني النبي ﷺ فحدثته ، فأرسل رسول ٱلله إلىٰ عبد ٱلله بن أُبي وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فكذَّبني ، وصدقه ، فأصابني شيء من الحزن لم يصبني مثله ، فجلست في البيت ، فقال عمي : ما أردتَ إلا أن كذَّبك رسول ٱلله ﷺ ومقتك ؟! فأنزل ٱلله تعالىٰ قوله : ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إليَّ رسول ٱلله ، وقال : « إنَّ ٱلله قد صدَّقك » بقوله تعالىٰ : ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [1] » .

العزة مناصرة ، بها يُعزَّز الحق ويمحق الباطل ، وفي الآية السابقة يُضرب المثل لذلك ؛ حيث عززت وظهرت الحقيقة بصدق زيد بن أرقم ، وكذب من حلفوا علىٰ صدقٍ وهم كاذبون ، فزيد الذي كان علىٰ حقٍ جاءته العزة من ٱلله تعالىٰ تناصره ، وعبد ٱلله بن أُبي ابنُ سلول جاءته الهزيمة نِتَاجَ كذبه ضعفاً .

فـ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ عُرِضت مُرَتَّبةً علىٰ ثلاثة أبعاد :

البعد الأول : أنَّ العزة لله ، فهي تُستمد منه جل جلاله ، فلو لم يكن هو العزيز ؛ ما كانت العزة : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ [2] من كان يريد الشرف والمكانة العالية فعليه أن يتوجه إلىٰ مصدرها عزَّ وجل ، مثل ما قال أبو الأنبياء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى

= الرياض ـ دار ابن الجوزية الطبعة الأولى 1435 هجري 1027 .

(1) تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص 744 .

(2) فاطر 10 .

هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (1) كل المطالبة الإبراهيمية هي لنيل العزة ، والإمداد بالقوة ليكون عزيزاً غير مهانٍ في الدنيا ، والآخرة . اللهمَّ يا عزيز مدَّنا بعزتك وقوتك ورحمتك سبحانك لا إلـه إلا أنت !

البعـد الثـانـي : العـزة للـرسـول ، عليـه الصـلاة والسـلام ، الـذي اصطفاه ٱلله ، وأعزه بالكتاب مصدقاً لما بين يديه : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (2) . فعزة الرسول ﷺ من عزة ٱلله تعالىٰ ، ولذا فهو يمتلك القوة من القوي عز وجل . والقوة حُجَّة ، فكان الكتاب الرسالة الخاتمة وهو مجمع الحُجَج الذي يهدي للتي هي أقوم .

والبعد الثالث : العزة للمؤمنين ؛ الذين آمنوا بٱلله وكتبه ورُسله ، عليهم الصلاة والسلام . والمؤمنون هم الذين آمنوا ، وبإيمانهم أعزُّوا الإسلام ، والرسول ، فأعزهم ٱلله بالإسلام ، وبالرسول . إنها العزة المتبادلة فمن ينصر ٱلله ينصره : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (3) ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ : ليعزن ٱلله من يعزه . أي : لا نصر بدون عزة ، ومن يعزه ٱلله تعالىٰ ينتصر ، ومن يذله يُهزم . فالذين يراد لهم أن يُستخلفوا في الأرض يُمكِّنهم ٱلله فيها ، مما يجعلهم يعزون من ٱلله بالصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؛ ليرثوا الجنة من بعد أن ورثوا الأرض .

---

(1) الشعراء 78ـ 83 .

(2) آل عمران 3 .

(3) الحج 40ـ 41 .

قال تعالىٰ : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (1) فسوف يأتي ٱلله بقوم يستخلفهم في الأرض محبة لهم علىٰ محبتهم له ، وبهٰذا الحب المتبادل يتعزَّز الإيمان في الأرض بعطف المؤمنين علىٰ بعضهم ، وبشدتهم علىٰ الكافرين بكلِّ قوة .

وفي مقابل الأبعاد الثلاثة جاء الاستثناء للمنافقين بقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لا يعلمون : أنَّ العزة لله ، وللرسول ، وللمؤمنين ، ذلك باعتقادهم أن العزة لهم بما يمتلكون ، ولو تفكروا ؛ لعرفوا : أن المُلك لله تعالىٰ . وهٰؤلاء ومن هم في حكمهم ليسوا بالمستخلفين في الأرض ، حتىٰ وإن توارثوا فيها ، وامتلكوا نصيبهم منها ، فليس لهم في الآخرة من نصيب . فهم لم يرثوا الأرض ، ولن يرثوا الجنة .

(العزيز) ، هو الذي لا يُغلب ، ولا يُقهر ، فالغلبة له لا عليه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (2) قال الزجاج : « نزلت في أبي جهل حيث كان يقول : أنا أعز أهل الوادي ، وأمنعهم ، فذق هٰذا العذاب إنك أنت القائل أنا العزيز الكريم » (3) . وفي هٰذا المعنىٰ لو لم تكن يا أبا جهل ذليلاً ؛ ما ذُقتَ العذاب ، ولو كنت عزيزاً ؛ لكنت من المؤمنين الذين لهم العزة . الذين ورثوا الأرض ، واستخلفوا فيها ، وسيرثون الجنة مع الوارثين .

يقول الإمام ابن القيم الجوزية : العزة يراد بها ثلاثة معانٍ :

« عزة القوة ، وعزة الامتناع ، وعزة القهر ، والرب تبارك وتعالىٰ له العزة التامة بالاعتبارات الثلاثة ، ويقال من الأول : عزَّ يعَزُّ ـ بفتح العين ـ في المستقبل . ومن الثاني : عزَّ يعِزُّ ـ بكسرها ـ ومن الثالث : عزَّ يعُزُّ ـ بضمها ـ

(1) المائدة 54 .
(2) الدخان 49 .
(3) لسان العرب المحيط ، الجزء الثاني ، ص 765 .

أعطـوا أقـوىٰ الحـركـات لأقـوىٰ المعـانـي ، وأخفهـا لأخفهـا ، وأوسطهـا لأوسطها . وهـٰذه العزة مستلزمة للوحدانية ؛ إذ الشركة تنقص العزة ، ومستلزمة لصفات الكمال ؛ لأن الشركة تنافي كمال العزة ، ومستلزمة لنفي أضدادها ، ومستلزمة لنفي مماثلة غيرها له في شيء منها » [1] بدون شك فإن العزة الكاملة لله تعالىٰ ، ولذا فهو مصدر لكل عزة ، منه تُستمد ، ومنه تُعطىٰ ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

« وقد جمع الشيخ ابن القيم معاني هـٰذا الاسم الكريم في « النونية » وأشار إلىٰ المراد منه في ثلاثة أمور ، فالأول : عزة الامتناع ، وذلك بمفهوم قوله : (فلن يرام جنابه) والثاني : عزة القهر ، والغلبة ، والثالث : عزة القوة ، والقدرة علىٰ الأشياء ، وجمعها في « النونية » فقال :

وهـو العـزيـزُ فلـن يُـرام جنـابـه ... أنَّـىٰ يُـرام جنـابُ ذي السلطـانِ
وهـو العـزيـزُ القـاهـر الغـلاَّبُ لـم ... يَغْلِبْـه شـيءُ هـٰـذه صفتـانِ
وهـو العـزيـزُ بقـوةٍ هـي وصفـهُ ... فـالعـزُّ حينئـذٍ ثـلاثُ معـانِ
وهـي التـي كمُلـت لـه سبحـانُـه ... مـن كـل وجـهٍ عـادم النقصـانِ » [2]

وفي اسم (العزيز) تعالىٰ يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي : « العزيز اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، ويعني : الغالب الذي لا يُهزم ، وهو اسم يضم في ثناياه العديد من الصفات » [3] فهو الذي يحتوي صفات الكمال ، والجمال

---

(1) مدارج السالكين . ج 3، ص 268، 269 .

(2) مشرف بن على الغامدي، منهج الإمام ابن القيم الجوزية في شرح أسماء ٱلله الحسنى . الرياض، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع الطبعة الأولى 2005، ص 290 .

(3) محمد متولي الشعراوي ، أسماء ٱلله الحسنى . القاهرة، مكتبة الشعراوي الإسلامية، ص 173 .

مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (1) .

كل صفة تسبق أختها تحتويها وتمدها بصفات منها ، ولذا فصفة العزيز متضمنة في صفة المهيمن التي تمد صفة العزيز بصفة الهيمنة مما يجعل صفة العزيز محتويةً لكل الصفات الآتية من بعدها ، وفاتحة أمامها أبواب المدد بالصفات الحسان التي تحتويها من اسم ٱلله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن . وهي الأسماء الحاملة للصفات السابقة عليها ، وهـٰذا الأمر هو الذي يجعل كل صفة من صفات ٱلله تعالىٰ تحتوي جميع صفاته الأخرىٰ . ولذا فإن العزيز الأعظم هو ٱلله جل جلاله .

وخاطب ٱلله الناس بقوَّتهِ وعزَّتهِ ؛ ليُبيِّنَ لهم : أنه القوي العزيز ، ولا قوي وعزيز بالمطلق غيره ، فقال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (2) فالقوي العزيز هو الذي لم يكن ضعيفاً وهو القادر علىٰ كل فعل ، فإذا أراد أمراً يقول له كن فيكون ، فالأمر عليه يسير ، إنَّه المالك للقوة والعزة ، والمؤمن هو المُدرك الذي لا يعبد ضعيفاً ، فالأصنام لا تسمع ولا تجيب الدعاء ؛ إن داعٍ دعاها ، وهي ضعيفة معرضة للزوال ، ولهـٰذا لا يعتقد في الضعيف إلا ضعيفٌ ، ولا يعتقد في القوي إلا قويٌّ .

فالأصنام والأزلام وكذلك البشر هم بدون عزة من ٱلله لا يستطيعون فعل شيء حتىٰ وإن اجتمعوا ، ومن يقل غير ذلك ؛ فليجمع همته بهممهم ، وعزته

(1) الحشر 23 .

(2) الحج 73ـ74 .

بعزتهم ليصنعوا لنا ذبابةً واحدةً فقط ، ضعف الطالب والمطلوب . وحتىٰ وإن اجتمعوا لذلك فلا يستطيعون فهم لن يصنعوا إلا بسلطانٍ من عند القوي العزيز . إنهم الأحياء الذين لم ولن يصنعوا حياً واحداً ولو اجتمعوا . إنَّ هـٰذا الأمر بيد ٱلله وحده لا شريك له ، ولذا فإن صنعوا ؛ شاركوا ، ولأن ٱلله واحد أحد لا شريك له ، إذاً لن يصنعوا كائناً حياً ، ولوا اجتمعوا له .

وبما أن ٱلله هو القوي العزيز الذي قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (1) . إذاً الخليفة قوي عزيز بالإضافة ، ولذا فالمستخلف من الشيء يستمد صفاته من صفات مستخلفه . والصفات قوة تربط الصفة بالموصوف كما تربط الخليفة بمستخلفه . فٱلله القوي العزيز استخلف الإنسان في الأرض لا ليقوم مقامه ، بل ليقوم بدوره من أجل نفسه ، وأجل الآخرين الذين تربطه بهم علاقات دم ومصاهرة ومحبة وألفة ، وعلاقات جيرة ووطن وعقيدة ، وعلاقات ضمير ، ليكون خليفة مُصلحاً في الأرض . ومن يفسد فيها من بني الإنسان يُعَدُّ مخلاً بشروط استخلافه فيها ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ (2) . لقد خلف داود من سبقه من الأنبياء والصالحين ، وملَّكهُ ٱلله من مُلكه ليحكم بالحق . والحكم بالحق ، هو : الحكم بالبينة ، أي : بالدليل الواضح الذي لا لبس ولا غموض فيه ، ولا ميل ولا انحياز ، والحكم بالحق الحكم بما أمر ٱلله تعالىٰ ، لا بالمزاج والعاطفة الشخصانية ، بل بالعدل الحق . ومن يحكم بما أنزل ٱلله لا يمكن أن يكون مثل أولـٰئك المفسدين في الأرض ، فأولـٰئك لن يكونوا الخلائف فيها مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ (3) . لا يمكن المساواة ؛ فالمصلحون في الأرض

(1) البقرة 30.

(2) ص 26.

(3) ص 28.

لا يتساوون مع الذين يفسدون فيها ، وهٰكذا لا يمكن مساواة المتقين الذين آمنوا بٱلله ورسوله مع أولـٰئك الكفرة الفجرة . المساواة في هٰذه الحالة ظلم كبير ، لا يرتضيه ٱلله ؛ ولا يرتضيه العباد : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ (1) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (2) وقوله تعالىٰ : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (3) وقوله عز وجل : ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ (4) .

إذاً الحكم بالعدل لا يعني المساواة ، فالحكم بالعدل هو إحقاق الحق هو كما هو دون ميل ، ولهٰذا لا للمساواة بالمطلق : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (5) العدل يستوجب معرفة سابقة علىٰ إصدار الحكم ، ولذلك فمن يحكم بما لم ينزل ٱلله فقد ضلَّ ، وفي ذلك لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ (6) وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ (7) وقال عز وجل : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ

---

(1) البقرة 134 .
(2) آل عمران 25 .
(3) فصلت 46 .
(4) الروم 44 .
(5) النحل 75 ـ 76 .
(6) المائدة 44 .
(7) المائدة 45 .

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [1] ولأن العدل يستوجب معرفة قبل إصدار الأحكام ، لذا فقد بعث ٱلله الرسل والأنبياء برسالات منه ، فمن يتبعها لن يضل ، ولا يكفر ، ولا يظلم ولا يفسق ، إنها الرسالات المنزَّلة (المنزَّهة) التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها : ﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [2] فالذي لا يأتيه الباطل هو الحق ، كلام ٱلله عز وجل الذي نزل علىٰ سيدنا محمد ﷺ في الكتاب المحفوظ الذي احتوىٰ في مضامينه ومعانيه ونصوصه ما سبقه من كتب ورسالات ونبوءات .

إنَّ الملوك والسلاطين والحكام بجميع نُظمهم المتعددة هم ضُعفاء إن لم يحكموا بما أنزل ٱلله تعالىٰ ، فالحكم القوي يستمد قوته من القوي إذا أراد أن يحكم بالعدل ، والحكم الضعيف لا يُستمد إلا من ضعيفٍ ، ولذا فمن يستعن بٱلله لا يُغلب ، ولا يُهزم . قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ [3] .

وفي ذلك قال الشيخ محمد متولي الشعراوي : « وإذا كانت العزة تعني القوة والغلبة ؛ فإن ذلك لا يعني : أنَّ عزة قوته تبارك وتعالىٰ مبنية علىٰ الظلم ، أو أن عزة غلبته مبنية علىٰ القهر ؛ لأنه ـ جل وعلا ـ منزه عن الظلم ، ومنزه عن القهر ، ولذلك أشار عز وجل إلىٰ أن عزته موصوفة بالعلم » [4] فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [5] .

---

(1) المائدة 47 .

(2) فصلت 42 .

(3) الحديد 25 .

(4) محمد متولي الشعراوي ، أسماء ٱلله الحسنىٰ ، مرجع سابق ، ص 175 .

(5) النمل 78 .

وهٰكذا من يريد أن يكون حاكماً عادلاً فليخف ٱلله ، فبمخافته لله لا يخاف ، ولا يخشىٰ أحداً في إحقاق الحق وإزهاق الباطل ، وإذا كان كذلك ينال العزة من ٱلله ومن العباد ، ولذا فالناس لا تخاف ممن يخاف ٱلله ، الناس تخاف من الذين لا يخافون ٱلله ، فالذي يخاف ٱلله لا يُخافَ منه ، بل يُخافَ عليه . الذي يخاف ٱلله لا يوجد في قاموسه السياسي مفردات القهر والظلم وأكل أموال الناس بالباطل ، ولهٰذا يخاف عليه من الظالمين ، والمنافقين ، والمزورين للحقائق . أمَّا المؤمنون فهم الذين بالعدل يسعدون ، وهم الذين لا تستوي عندهم الحسنة والسيئة ، وهم الذين لا يفسدون في الأرض التي ارتضاها لهم ٱلله ؛ ليكونوا فيها خلائف ، ويرثونها ليصلحوها ، ويعيشوا أعزاء حتىٰ يرثوا الجنة من بعدها بما يعملون من إصلاح في القول والفعل .

قال الصلابي في اسم ٱلله العزيز : « العزيز الذي له العزة كلها ، عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع . فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته » (1) . في هٰذا التعريف ربط الدكتور الصلابي العزة بالقوة والغلبة والامتناع ، وهٰذا التعريف يدلُّ علىٰ أن أسماء ٱلله الحسنىٰ صفات جامعه مانعة ، جامعة لكل المحاسن ، ومانعة لغيرها من الصفات غير الحسان .

وقال الزجاج : « العزيز : الممتنع ، فلا يغلبه شيء » (2) .

نعم إن العزة لله وللرسول وللمؤمنين ، ونعم إن العزة قوة بها يعزُّ من يشاء ، ويذل من يشاء : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ

---

(1) محمد علي الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين. بيروت، دار المعرفة الطبعة الأولى 2005، ص 188 .

(2) مجدي منصور الشورىٰ ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ. القاهرة، مكتبة العلم 1999، ص 404 .

مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [1] .

إنَّ الذي يطب العزة من الذليل لن يجدها ، فإن أرادها ؛ فعليه بالمُذل الذي بيده العزة والقوة وبيده الخير وهو القادر علىٰ كل شيء .

وعليه فالذليل ضعيف يَخاف ، ولا يُخيف ، يحتاج ، ولا يحتاج إليه ، يأخذ ، ولا يعطي ، يؤمر ، ولا يأمر ، يجوع ويتألم مثلما يفرح ويغضب ، فهٰذا ومن يكون علىٰ شاكلته إن أُستحكمَ ليحكم بين الناس لن يحكم بالعدل ، وذلك لفقدانه لصفات العزة والقوة والهيمنة والعلم والمُلك والإيمان والبقاء . إنه الزائل ، والزائل دائماً يخاف من الزوال ، ولذا فالفرق بينه وبين المؤمن : أن المؤمن يؤمن بأنه زائل باقٍ ، زائل من الدار الدنيا ، وباقٍ في الدار الحيوان ، ولهٰذا يعد زواله من الدار الدنيا إيذاناً بالبقاء الدائم الذي كان طوال حياته في انتظاره ، أمَّا غير المؤمن فهو لا يرىٰ بعد الممات بقاء هانئاً .

ومن يؤمن بأن الموت إيذانٌ بالبقاء الدائم يؤمن بأن الحياة حياة عبور ، ولهٰذا لا يُقدِم علىٰ الأفعال والأعمال التي قد تحرمه من دخول الحياة الباقية بأوصاف الجنة . أي : إنه يخاف ، والخوف هنا نتاج قوة لا نتاج ضعف ، إنه يخاف ٱلله ، فيتقيه ، فيزداد إيماناً وعزة وقوة ، ولذا فمثل هٰذا الخوف هو الخوف المُمكِّن من إزالة الضعف ، والمُمكِّن من امتلاك القوة . إنه خوف الخشية ، الخشية مما يترتب علىٰ الضعف والطمع ، كما حدث مع أبينا آدم : ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [2] . من يضعف يطمع ، ومن يطمع لا ينتهي عما يُنهىٰ عنه ، ومن يفعل ذلك يقع في الخطيئة .

---

(1) آل عمران 26 .

(2) البقرة 35، 36 .

إنَّ الطامعين في غير وجه ٱلله تعالىٰ هم الذين لا عزة لهم ، ولذا فمن يطمع في حاكمٍ تحكمه الغرائز فليقبل بقانون البيع والشراء والمساومة حتىٰ يرضىٰ أو يغضب عليه ، فيضطر إلىٰ التنازل الذي لا يحمد عقباه في معظم الأحيان .

كن قوياً باستمدادك القوة من القوي الحق ، قال ﷺ في الصحيح : « المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ ٱلله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير »[1] وكن عزيزاً باستمدادك العزة منه ، وكن عادلاً باستمدادك العدل منه ، فإن كنت هـٰكذا كنت من المستخلفين في الأرض ، وإن لم تكن ؛ فليس لك من الاستخلاف من نصيب .

العزيز هو الذي يودُّ أن يكون عباده أعزاء ، ولن يكونوا أعزاء ما لم يستمدوا العزة منه ، ولأنه العزيز الحكيم ؛ فهو لن يستخلف في الأرض إلا الأعزاء ، الذين بعزته يُستخلفون ، وبعزته يرثون الأرض ، ويصلحون فيها القول ، والعمل .

ولذا فإن العزيز يُطاع ، والذليل لا يُطاع ، فمن يَتَّبع عزيزاً يَعز ، ومن يَتَّبع ذليلاً يَذل ، ولأن العزيز هو ٱلله تعالىٰ ، فالذين آمنوا هم الأعزاء ، والذين كفروا هم الأذلاء ، والأعزاء هم الذين يعتصمون بٱلله حتىٰ يهتدوا إلىٰ الحق : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] ولا يهتدي إلىٰ صراط مستقيم إلا حكيم . ولهـٰذا فإن ٱلله هو العزيز الحكيم الذي بعزته وحكمته جعل المؤمنين أعزاء في الأرض ، وحكماء فيها . فالعزيز الحكيم هو القوي المتين الذي بيده الأسرار جميعاً ، أسرار الخلق ، وأسرار الحياة والممات ، وأسرار استخلاف البعض في الأرض ، وعدم استخلاف البعض الآخر فيها ، وأسرار

---

(1) مجدي منصور ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ . مرجع سابق ، ص406 .
(2) آل عمران 101 .

الجنة والنار . ولأننا من المؤمنين فإننا نعلم بعضاً منها علماً من عند ٱلله تعالىٰ ، ولهـٰذا قال عز وجل : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [1] وهـٰذه حكمة من عند العزيز الحكيم ، وإلا لماذا لم نؤت من العلم كثيرا ؟ ! وقال تعالىٰ لنبيه الأعز ﷺ : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [2] وهـٰذه حكمة أخرىٰ ، فٱلله يمدنا بعلم من علمه علىٰ قدر عقولنا ، فعقولنا والحالة التي هي عليها لا تسع علمه الواسع فقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا متناهية (لها بداية ونهاية) وعلم ٱلله ليس كذلك فهو العلم التام الأزلي ، ولهـٰذا لا نعلم إلا بمقدار . وفي هـٰذه حكمة .

العزيز الحكيم المتصرف فينا وفي أمرنا وفيما يتعلق بنا من أمور وعلاقات مع الآخرين ، ولذا فالحكمة من العزيز توهب ، وتؤخذ ، توهب منه فهو الذي يؤتي الحكم بحكمته لمن يشاء ، وينزعها متىٰ ما يشاء ممن يشاء ، وتؤخذ بالإيمان والتقرب منه وإليه . ولذا فمن الحكمة الحُسن في التصرف ، والأخذ بزمام الأمور ، وإدارتها بمعرفة وعلم ويقين ، وإدراكها وإدراك عواقبها وفقاً لقاعدة ما يجب ، والإقدام عليه ، وما لا يجب ، والإحجام عنه .

العزيز الحكيم هو ٱلله الواحد الأحد ، ولذا لم يكن العزيز الحكيم اثنين بل إنه الواحد الأحد فالعزيز هو الحكيم لا آخر غيره ، ولهـٰذا فإن ٱلله تعالىٰ واحد وصفاته تتعدد سبحانه لا إلـٰه إلا هو العزيز الحكيم .

إن ارتباط اسم العزيز بالحكيم هو ارتبط الذات العلية بالصفات العلية ، ولذا فإن العزة في ذاته ، والحكمة في أفعاله ، وهو الواحد الأحد الذي ليس له شريك ولا والد ، ولا ولد ، هو الأول والآخر ، وهو علىٰ كل شيء قدير .

والحكيم : « الذي إذا أمر بأمر ؛ كان المأمور به حسنًا في نفسه ، وإذا نهىٰ عن شيء ؛ كان المنهي عنه قبيحاً في نفسه ، وإذا أخبر بخبر ؛ كان

---

(1) الإسراء 85.

(2) طه 114.

صدقاً ، وإذا فعل فعلاً ؛ كان صواباً ، وإذا أراد شيئاً ؛ كان أولىٰ بالإرادة من غيره »[1] .

ولذا فالعزيز هو الرحيم الذي بيده أمر البداية والنهاية وما بينهما وما فيهما من حكمة ، وهو الذي بعزته ينجي من يشاء كما نجّىٰ نوحاً ، ويونس ، وموسىٰ ، ومن معهم من المؤمنين ، وبعزته يذل ، أو يغرق من يشاء كما أغرق الكفرة الذين نصبوا العداء لموسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[2] .

فالرحيم هو الذي برحمته نجّىٰ موسىٰ ، ومن معه من المؤمنين وبها أغرق الآخرين جند فرعون الكفرة ، فجاءت الرحمة مرتين : الأولىٰ بنجاة موسىٰ ومن معه من المؤمنين . والثانية : بغرق الكافرين في البحر ؛ الذي هو الآخر كان رحمة من الرحمـٰن الرحيم ، أي : إن إغراقهم في البحر أطمأنت به قلوب المؤمنين . وقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ﴾ تعني : إن في ذلك حكمة يعلمها العزيز الرحيم ، والآية هي دليل إثبات وشاهد علىٰ الفعل والقدرة ، ولأنها آية فهي باقية ، وستظل هـٰكذا باقية بين أيدي المؤمنين حكمة إلىٰ النهاية .

ومع أن العزة واحدة إلا أنها ثنائية المعنىٰ ، كما ورد في الآيات السابقة :

---

(1) مجدي منصور الشورىٰ ، القول الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ . القاهرة، مكتبة العلم 1999، ص 408 .

(2) الشعراء 63 ـ 68 .

المعنىٰ الأول : نجاة موسىٰ ، والمؤمنين الذين معه من الغرق عزَّزت مواقفهم الإيمانية ، وزادتهم قوة ، وفي هـٰذا الأمر العزة بالنجاة قوة .

المعنىٰ الثاني : غرق من كان مع فرعون أضعفَ موقف فرعون وجنده . وهـٰذا عز لموسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن معه من المؤمنين ، أي : إن العزة بالغرق ضعف لمن كفر ، وقوة لمن آمن .

وهـٰذه الآيات بهـٰذه القوة تُرسِّخُ قول الحق تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بدون شك فالعزة بهـٰذا المعني ترسَّخت ثلاث مرات في وقتٍ واحد :

في الأولىٰ : إنَّ العزة لله فلا تُستمد إلا من العزيز جل جلاله ، فلو لم يكن هو العزيز ؛ ما كانت العزة .

في الثانية : عزة ٱلله تعالىٰ لموسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [1] فمعنىٰ : ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ : إنَّ معي العزيز سيعزنا بتعزيز مواقفي من خلال إرشادي إلىٰ سبل النجاة ، وهـٰذه العزة هي التي غرست الثقة في نفس موسىٰ ؛ حيث قال وهو واثقٌ لما يقول : ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ ولذا لم يصاحبه شك في ذلك . ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [2] عصا موسىٰ فيها العزة والقوة ، ولذا فهي الآية التي بها فلق موسىٰ البحر ، ونجا من فرعون وجنوده ومن الغرق .

---

(1) الشعراء 61ـ 67.

(2) الشعراء 63.

وفي الثالثة : كانت العزة للمؤمنين دون غيرهم ، فهم الذين نجوا ، والكافرون هم الذين غرقوا وهم في هـٰذا الحال : (المؤمنون والكافرون) كحال الذين نجوا مع نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ والذين لم ينجوا معه : ﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ (1) .

وبما أن العزة لله وللرسول وللمؤمنين إذاً المؤمنون هم المستمدون للعزة ، وهم الذين يراد لهم العيش بها ، ولذا فمن يعز نفسه يعزه ٱلله ، ومن يذلها يذله ٱلله ، ومن يضعفها يضعفه ٱلله ، ومن يقوِّها يقوِّه ٱلله ، ولهـٰذا فالعلاقة مباشرة بين ٱلله العزيز ، وبين المؤمن بالعزيز الحق .

العزيز بالإضافة هو الذي يستمد صفاته من العزيز الحق ، ولذا فمن يعش عزيزاً يصبح قوله الحق ، وأفعاله وأعماله الحق ، يقوله ويشهده ، ويشهد عليه ويؤمن به ، وفقاً للقاعدة : لا يخلف الحق إلا الحق ، ولا يقول الحق إلا مُحق . ولأن ٱلله تعالىٰ جاعل في الأرض خليفة ، وٱلله هو العزيز الحق ، إذاً لا يستخلف ٱلله أحداً لم يكن عزيزاً مؤمناً بالحق وشاهداً به ، وعاملاً عليه . أما أولـٰئك الذين ظلموا أنفسهم فقد خسروا الخلافة بخسرانهم للعزة في الدارين فلم يكونوا من المستخلفين في الأرض ، ولن يستخلفوا في الدار الآخرة . إنهم أصحاب النار .

العزيز هو الذي يحتوي في مضمونه صفات الكمال ، فهو بالوحدانية عزيز ، وبِمُلكه وقداسته عزيز ، وبسلامه وإيمانه عزيز ، وبهيمنته وكيده للكائدين عزيز ، وبانتقامه من المشركين عزيز ، وبجميع صفاته عزيز .

---

(1) هود 41ـ43 .

ولأن ٱلله العزيز هو مصدر كل عزة ؛ قال : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [1] فمن يلتجئ إلىٰ ٱلله لن يخيب له مطلباً .

العزيز هو ٱلله تعالىٰ ، وصفته العزة التي بها يناصر من يلتجئ إليه ، فمن يمده العزيز بالعزة مده بالنصر ، ولذا فمن يعتز بغير ٱلله ذل : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ ولأن جميع العزة له إذاً لا عزة لغيره من غيره .

فالذين كفروا هم الذين يشركون مع ٱلله إلـٰهاً آخر ، وهم المشركون في مقابل الذين آمنوا ؛ الذين لا يشركون به أبداً حتىٰ خصَّهم بعزته كما خصَّ بها ذاته وخصَّ رسوله بها . ولهـٰذا فبالإرادة يتم نيل العزة لا بالمغالبة ، بالإيمان والهداية وحسن التدبُّر لا بالإكراه والإذلال والإجبار .

وبناء علىٰ ذلك فإن للعزيز بالإضافة صفاتٍ عديدةً تتعدد مع صفات العزيز المطلق ولا تساويها ، تتعدد بتعددها ؛ لأنها المستمدة منها ، ولا تساويها لأن المستمد من الشيء لم يكن ولن يكون بالتمام هو الشيء ذاته ، وكلما تصدَّرت صفة من صفات ٱلله تعالىٰ بالظهور كانت محاطة ببقية الصفات الأخرىٰ التي تحتويها . فظهور صفة العزيز ، أو إظهارها يدل علىٰ وجود قوة دافعة من الصفات الأخرىٰ الكائنة وراءها .

والعبد المؤمن هو العبد العزيز الذي استخلفه ٱلله تعالىٰ في الأرض ؛ ليمارس حقوقه فيها بإرادة ، ويؤدي واجباته بإرادة ، ويحمْل مسؤولياته بكل حرية ، يخاف ٱلله ، ولا يخاف غيره في قول الحق والشهادة به ، وعمل الخير والاعتزاز به . ولأنه خليفة ٱلله في الأرض ؛ فهو المطيع لأمر من استخلفه بالعزة فيها .

والاستخلاف بالعزة يتعلق بأمرين :

الأمر الأول : أن يعيش عزيزاً في نفسه ومع الآخرين ، والعزة هنا ليس

---

(1) فاطر 10 .

التكبُّر الذي في كثير من الأحيان يتجسَّد في سلوك بعض المنقوصين الذين يتظاهرون به تعويضاً عما ألمَّ بهم من نقص . بل العزة في التواضع الذي به ينال الخليفة الهيبة دون الغرور ، وينال التقدير دون التقليل .

الأمر الثاني : أن تكون علاقاته مبنيةً علىٰ غرس قيمة العزة مع من يتولىٰ أمرهم بالرعاية والعناية سواء أفراد أسرته أو الذين يتعلَّم معهم ، أو يُعلِّمهم أو يشرف علىٰ تعليمهم أو أنه المسؤول عليهم وظيفياً أو أخلاقياً في ميادين العمل والحياة الاجتماعية والإنسانية . ومن يعيش الحياة عزيزة لا يغتر ، فإن أغتر فقد العزة بغروره . وذلك لسببين :

السبب الأول : يفقد رضاء ٱلله عليه حتىٰ تنقطع صلته به .

السبب الثاني : يفقد احترام الآخرين له وقد يفقد كثيراً من علاقاته الاجتماعية والإنسانية ، حتىٰ يصبح منعوتاً بصفات تقليل الشأن . قال تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ (1) .

وفي مقابل ذلك من يعتز بالعزيز جل جلاله يجد العزة فيه ، في نفسه وفي دينه الذي ارتضىٰ ، وفي كلامه وأعماله ، وفي رضاء الآخرين عنه ، حتىٰ يصبح قدوة حسنة يقتدي بها من يريد ، أو يراد له أن يكون خليفة في الأرض . قال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ (2) .

يقال : إن هٰذه الآية الكريمة نزلت في الأخنس بن شريق ، واسمه أبي ، والأخنس لقب لقِّب به ؛ « لأنه خنس يوم بدر بثلاثمئةٍ من حلفائه من بني زُهرة

---

(1) ص 2 .
(2) البقرة 204 ـ 206 .

عن قتال رسول ٱلله ﷺ ، وجاء بعد ذلك إلىٰ النبي ، فأظهر الإسلام ، وبعدها مرَّ بزرع لقوم من المسلمين ، وبحمر ، فأحرق الزرع ، وعقر الحمر » [1] . فالأخنس ومن هم علىٰ شاكلته أكثر الناس عداوةً للرسول ، والمؤمنين ، وهـٰذا يـدلُّ إثبـاتـاً علـىٰ أنهـم أعـداء لمـن تجسَّـدت فيهـم صفـة العـزيـز ، جلَّ جلاله : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ . ولأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ؛ فإن العزيز لا يستخلف إلا عزيزاً ، ولفقدان الأخنس ومن كان معه ومن يتبع خطاه لصفة العزيز ؛ فإنهم فقدوا صفات الاستخلاف التي يجب أن يكونوا عليها في الأرض . ولأن ٱلله تعالىٰ هو العزيز ؛ قال : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والخلفاء هم الذين يستمدون صفاتهم من صفات خالقهم ، جل جلاله .

ولأن في الآخرة جنة ونار ، والدخول إليهما بالأعمال ، فإن الدار الدنيا بطبيعة الحال هي الدار التي فيها تكون الأعمال خيِّرةً أو شريرةً ، حتىٰ تناظر معطيات الدخول للجنة ، أو الدخول إلىٰ النار عافانا ٱلله ، وإياكم من دخولها ، وأعطانا ٱلله الفوز بالجنة !

فالذين إذا قيل لهم اتقوا ٱلله أخذتهم العزة بالإثم تكبراً بما يظنون أنهم لن يكونوا في حاجة لأحد لما يمتلكونه من ثروة ، أو مال ، فهم الواهمون حقاً ، فٱلله هو الغني ، وهم الفقراء . فـ : ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ تعني : أخذته حمية الجاهلية ، وشدة النفس التي أوقعته في الخطيئة حين قيل له : اتق ٱلله فلم يقف عند اتقائه ومخافته ، فعصىٰ ، ولذا فالعزة علىٰ المعصية إصرار علىٰ التمادي فيها ، ولأن المعصية في مقابل الطاعة ، فهل يُعتقد ، أو يُعقل أن يجعل ٱلله خليفة له في الأرض عاصياً لأمره ، وغير مؤمن به ، ولا يعتز إلا بما يعصي أمر الطاعة له سبحانه وتعالىٰ العزيز الحكيم .

---

(1) القرطبي الجامع لأحكام القرآن . الجزء الثالث ، ص 14 .

ارتبط مفهوم العزيز بصفات أخرىٰ منها :

الحكيم : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) .

الرحيم : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (2) .

العليم : ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (3) .

الغفّار : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (4) .

الكريم : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (5) .

الحميد : ﴿ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (6) .

الغفور : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (7) .

الوهاب : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ (8) .

القوي : ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (9) .

المقتدر : ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (10) .

---

(1) النمل 9.

(2) الشعراء 9.

(3) غافر 1 ـ 2.

(4) ص 66.

(5) الدخان 49.

(6) إبراهيم 1.

(7) فاطر 28.

(8) ص 9.

(9) الشورى 19.

(10) القمر 42.

كما ربط اسمه تعالىٰ العزيز بكل من الأسماء الآتية : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (1) .

ويقول أحمد عبد الجواد : حظُّ العبد من اسم ربه العزيز جل جلاله : « أنَّ ذاكره يُعزه ٱلله بعزته ، وقوته ، وسلطانه ، ويكون مهاباً عند الناس » (2) .

وعليه فالعزة قوة تستمد من القوي العزيز ، حتىٰ تتجسد في القول الحق والعمل الحق ، وفي العزة الحكمة والاقتدار علىٰ أفعال الخير ، وبها يُحمد ٱلله علىٰ كل خير ، وبها ينال العبد المغفرة من العزيز الغفور ، فمن يعيش عزيزاً بين الناس يعيش كريماً بينهم .

قال ابن الأثير : « العزة ، في الأصل القوة ، والشدة ، والغلبة . وقال الصديقي : العزيز الغالب الذي لا يُغلب » (3) .

العزيز هو من تستمد منه الشدة والصلابة والصرامة التي تحقق الغلبة والفوز بما يُمكِّن من الاستخلاف في الأرض بثبات علىٰ الإصلاح ، والإعمار ، والإحسان ، ومد يد العون لمن هم في حاجة .

وللعزة ثلاثة أبعاد مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

أولاً : البعد الإلـٰهي (لله العزة) أي : إنَّ الوحدانية هي مكمن العزة .

---

(1) الحشر 23.

(2) أحمد عبد الجواد ، ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها . الدار البيضاء ، دار الثقافة ، ص 45 .

(3) محمد حسين ، شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ . الإسكندرية ، المدائن للنشر والتوزيع 1996 ، ص 28 .

ثانياً : البعد الاصطفائي (للرسول العزة) اصطِفاء ٱلله للرسول عزةٌ له ، والرسالة تعزيز بما يُمكِّن من الاستخلاف وفقا لأفعال ما يجب . ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [(1)] . طاعة الرسول فيما يقول ، وبما أتىٰ به من رسالة فيه عزة للرسالة وللرسول ، وعزة لله تعالىٰ ، وعزة لمن أعزَّ الرسول بإيمانه . ومن أعز رسول ٱلله ؛ فقد أعزَّ الإسلام ، ومن أعزَّ الإسلام ؛ فقد أعزَّ ٱلله تعالىٰ .

ثالثاً : البعد الإيماني . (للمؤمنين العزة) إيمان الخليفة بالواحد الأحدُ ، وإيمانه بما يجب والعمل به أو العمل عليه هو المحقِّق للخليفة العزة . ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [(2)] . الطاعة تأخذ الأوجه الثلاثة التالية :

أولاً : طاعة ٱلله وحده لا شريك له .

ثانياً : طاعة الرسول الذي من يطيعه يطيع ٱلله تعالىٰ .

ثالثاً : طاعة أولي الأمر منكم ، قال تعالىٰ : (أولي الأمر منكم) ولم يقل (أولي أمركم) فأولي أمركم هم : الوالدين ، والإخوة ، والأقارب ، ومن يتولىٰ أمر الرعاية والتربية الصالحة . أمَّا أولي الأمر منكم ، فهم : الذين يتم اختيارهم طواعية بعد معرفة تامة ، ويكلفون بإدارة شؤون الأفراد والجماعات أو المجتمع بكامله ، وفي هـٰذه الدائرة يدخل الحكَّام المنتخبون أو المختارون أو المصعدون لفترة معينة لتنفيذ ما يتعلق بالأمر ؛ أمر المواطنين سواء فيما يتعلق بالسياسة الداخلية ، أو الخارجية ، أو في أمر السلم أو الحرب ، أو في أمر الأمن والعدل والإنتاج وميادين العمل المتعددة . وهـٰذه ضرورة مما يجعل الطاعة لهم طاعة للأمر الذي هو من عند الناس . ولهـٰذا

---

(1) النساء 80 .

(2) النساء 59 .

تصبح الطاعة لهم واجبةً عندما يقومون بتنفيذ الأمر ، ولا طاعة لهم إذا تخاذلوا ، أو ولَّوا عن تنفيذه . وطاعة أولي الأمر ليس غاية في ذاتها ، بل الغاية طاعة للأمر الذي هو منهم . وبالمنطق : من ولاَّك علىٰ أمره بإرادته يطيعك فيه حرصاً منه علىٰ التزامك بالأمر وحفاظك عليه ، وعدم حيادك عنه .

وعليه فإن البعد الأول بعد الوحدانية بالعزة المطلقة ، والبعدين الثاني والثالث هما بُعدا الاستخلاف بالعزة .

العزيز هو رفيع المقام المُبصر لكل شيء العالم بالأحوال والأقوال والأفعال لا باطن مخفيٌّ عليه ، ولا ظاهر إلا بإذنه ، إنه العليم الحكيم ؛ الذي ليس في حاجة لشيء وكل شيء في حاجة إليه . ومن علامات عزته :

1 ـ إنه لا يضعف بالمطلق .

2 ـ إذا قصدته بالدعاء ؛ أتتك منه الاستجابة .

3 ـ يُدرَك هو كما هو في ثبات ذاته العلية .

4 ـ إنه يرانا ولا نراه .

5 ـ إنه لا يماثله شيء .

6 ـ يعطي ، ولا يَطلب ، ولا يَأخذ .

7 ـ يأمر ولا يُؤمر .

8 ـ يُحيي ويُميت وهو الحي الذي لا يموت .

9 ـ علمه بالغيب والشهادة .

10 ـ واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

11 ـ يُعبد ولا يُستعبد .

12 ـ مصدر مُطلق لكل الصفات الحسان .

13 ـ يَخلُق ولا يُخلَق .

14 ـ حيٌّ قيُّوم لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

15 ـ سعة كرسيه للسمٰوات والأرض .

16 ـ يرزق من يشاء بغير حساب .

17 ـ يؤتي الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده الخير .

18 ـ واحد أحد لا يتعدد ، وصفاته تتعدَّد .

19 ـ يحاسب ويجازي كلَّ أحدٍ ، وهو ليس في حاجة لأحد ، ولا يحاسبه أحد .

20 ـ يعزُّ من يشاء ، ويذلُّ من يشاء متىٰ يشاء وكيفما يشاء .

21 ـ لم يكن له شريك في المُلك ، ولا ولي من الذل .

22 ـ كل شيء يسبح بحمده .

23 ـ إنه جعل في الأرض خليفة .

24 ـ إنه علىٰ كل شيء قدير .

قال تعالىٰ : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ المنافقون لا يعلمون تعني : لو يعلمون : أنَّ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ؛ لآمنوا ، أي : إنهم لا يعلمون : أن العزة في الإيمان ، فالذين آمنوا هم الذين يتيقَّنون عن معرفة تامة : أن العزة في الإيمان ، فآمنوا ، فنالوا العزة ؛ حتىٰ أصبحوا هم الأعزاء .

وكلمة (يعلمون) لا تعني البلاغ بالعزة ومصدرها ، أو الإبلاغ عنها ، بل تعني : التبيُّن عن وعي ، والتيقُّن الذي لا يشوبه ظن ، وعلم يُعرف وأدرك بإرادة حرة . والمنافقون هم الذين يقولون مالا يفعلون ، فإن صُدِّقوا كذبوا ، وإن عاهدوا ؛ خانوا ، وولَّوا ، أو أدبروا .

ولأن العزة بيد العزيز الحق ، فمن اعتز بغيره ذل . وحال السحرة الذين آجرهم فرعون ليس بالبعيد ، فكل شيء في الكتاب محفوظ : ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (1) . ولأنهم اقسموا بما لم يكن هو الحق ، فخسروا الرهان ، فإذا بعصا موسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ تلقف ما يأفكون بقوة العزيز ربِّ موسىٰ وهارون ربِّ العالمين . لو كانت العزة بما قسموا لكانت الغلبة لهم ، ولأنهم يعرفون أنفسهم : أنهم سحرة ، وأن ما كانوا يعتقدون فيه لم يعد في مستوىٰ الاعتقاد به ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۝٨١ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (2) فالذي بيده العزة هو الذي أعز موسىٰ بقوته التي بها بطل عمل المفسدين ، وبها حق الحق وزُهِق الباطل والحمد لله ربِّ العالمين الذي حوَّل اعتزاز السحرة من الاعتزاز بفرعون إلىٰ الاعتزاز بالله تعالىٰ ! فعندما قال لهم فرعون كما جاء في الكتاب الحكيم : ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (3) . فقالوا بإيمانهم : ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (4) .

العزة مناصرة تحقق الغلبة ، وإزهاق الباطل ، فمن يؤمن بالله تعالىٰ يناصره في دينه ، ومن يناصر الله ينصره ، ومن يعز الله في دينه الذي أرتضىٰ يعزه خليفة له في الأرض وخليفة له في الجنة : ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (5) .

---

(1) الشعراء44.
(2) يونس 81ـ 82.
(3) الشعراء 49.
(4) الشعراء 50ـ 51.
(5) الحج 40 .

ربُّ العزة هو الذي لا يوصف إلا بها ، ومن يصفه بغيرها فلن يصف ٱلله العزيز في شيء ، مما يجعل الأمر لا علاقة له به . فٱلله هو الذي ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2] الصفة المطلقة لله تعالىٰ هي العزة ، ولذا لا ينبغي أن يوصف إلا بها ، والرُسُل ـ صلوات ٱلله وسلامه عليهم جميعاً ـ يعرفون هٰذه الحقيقة ، والخاصية الإلـٰهية ، حتىٰ خصَّهم ٱلله بها ومن بعدهم المؤمنين الذين استجابوا لدعواتهم الإيمانية بتوحيد ٱلله تعالىٰ . فالحمد لله ربِّ العالمين ؛ الذي خصَّ الحامدين ، والشاكرين له بالاستخلاف ، والعزَّة .

العزيز هو العزيز بالمطلق ، وكل ما غيره ذليل ، وهٰذه معادلة عقلية لا يختلف عليها أيُّ عقل ولو كان بسيطاً في منهجه ، ومستوىٰ فكره ، فكل محتاج هو ذليل ، وكل غني بالمطلق (أي : من انتفت عنده الحاجة بالمطلق) هو عزيز ، فمن ذا يكون غنياً بالمطلق ؟ ومن ذا يكون محتاجاً بالمطلق ؛ ولو استغنىٰ ؟

الخالق سبحانه غنيٌّ بالمطلق ، فالحاجة عنده منتفية إلىٰ ما سواه فهو ٱلله ولصفاته الكمال المطلق ، فلا حاجة له بمخلوق ، وغناه سبحانه مُفسر بآياته ، وعلىٰ النحو الآتي :

1 ـ لأنه الخالق ، قال تعالىٰ : ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟

(1) الحشر 23 .

(2) الصافات 180 ـ 182 .

فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (1) .

2 ـ لأنه المالك ، قال تعالىٰ : ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (2) .

3 ـ لأنه الفرد الصمد ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (3) .

4 ـ لأنه الغني ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (4) .

5 ـ لأنه كريم ، قال تعالىٰ : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (5) .

وآيات غناه كثيرة أوسع من القدرة علىٰ إحصائها ، ومن كان غنياً بمثل ذلك كان عزيزاً .

أما غيره فهو ذليل بالمطلق ، فكل المخلوقات ذليلة ؛ لأنها محتاجةٌ ، وكل محتاج ذليل حاجته ، وحاجة المخلوقات بادية في خلقها ، ويمكن تمييز هٰذه الحاجات علىٰ نوعين هما :

---

(1) الزمر 6 ـ 7 .
(2) الحج 64 .
(3) يونس 68 .
(4) الحديد 24 .
(5) النمل 40 .

أولاً : حاجات روحية ؛ وهي تلك التي تتعلق بالروح ومنها :

1 ـ الهُدىٰ : وهو الرشادُ والدلالةُ [1] ، والهدىٰ بيان طريق الرشد ليُسلك دون طريق الغي . هـٰذا إذا أطلق ، فإذا قيد ؛ استعمل في غيره [2] . والعزيز سبحانه وتعالىٰ أطلق لفظة الهدىٰ لتعم جميع المخلوقات ، فقال تعالىٰ : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [3] ، فالهدىٰ هنا جاء مطلقاً ، أي : أرشد ودل سبحانه بذلك علىٰ وجوده ، ومحصل الآية ربنا الذي خلق كل شيء حسب استعداده أو علىٰ الوجه اللائق به ، وجعله دليلاً عليه جل جلاله ، فقال (ثُمَّ هدىٰ) إلىٰ طريق الانتفاع والارتفاق بما أعطاه وعرفه كيف يتوصل إلىٰ بقائه وكماله إما اختياراً كما في الحيوانات ، أو طبعاً كما في الجمادات والقوىٰ الطبيعية النباتية والحيوانية ، وكل شيء سواءٌ أكان عموم الأفراد أم عموم الأنواع [4] .

ويلاحظ : أن إطلاق الهدىٰ دلالة علىٰ عموم حاجة الخلق (المطلق أيضاً) إليه ، فقد قال العزيز سبحانه وتعالىٰ في سورة الأعلىٰ : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [5] .

ثم خصَّ الإنسان بالهدىٰ المحدد له ، هدىٰ يختلف عن بقية مخلوقات ٱلله سبحانه ، فقد هداه السبيل : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [6] ، المراد

(1) الصحاح في اللغة الجوهري، ج 2، ص 247.
(2) الفروق اللغوية، ج 1، ص 109 .
(3) طه 50.
(4) تفسير الالوسي، ج 12، ص 171.
(5) الأعلى 1 ـ 3 .
(6) الإنسان2 ـ 3.

بالسبيل هاهنا : سبيل الخير ، والشر ، وسبيل النجاة ، والهلاك ، ويكون معنىٰ هديناه ؛ أي : عرفناه ، وبينا كيفية كل واحد منهما له [1] . ثم جعل له هدىٰ الاختيار بين هـٰذين الطريقين : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ [2] ، فقد ترك العزيز الاختيار بيد العبد ، وهو قادر علىٰ أن يجعل أيَّ عبد من عباده علىٰ الطريق الذي يشاء له أن يكون .

قال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [3] ، لـٰكن ذلك مناقض لإرادة الاختبار التي أراد ٱلله لعباده الذين استخلفهم في الأرض : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [4] ، فكان هدىٰ الاختيار .

2 ـ المودة : من حاجات العبد التي يوصل الافتقار إليها مرحلة الذل ، لما فيها من تلبية لصفات جُبل عليها العبد من رغبة في التواصل مع الآخرين ، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [5] .

3 ـ السكينة : وتشتمل علىٰ راحة الروح والمؤدية لراحة البدن ، فهي ما يجده القلب من الطمأنينة [6] ، وهي هيئة بدنية تنشأ من اطمئنان الأعضاء [7] .

---

(1) تفسير الرازي ، ج 16 ، ص 216 .
(2) البلد 10 .
(3) السجدة 13 .
(4) الكهف 7 .
(5) الروم 21 .
(6) التعريفات ، ج 1 ، ص 39 .
(7) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 280 .

وتشتد الحاجة إلىٰ السكينة في مواطن الشد الروحي ، والترجيح العقلي ، وذلك لحدوث تعدد الاختيارات مع خوف من النتائج ، وقد مرَّ المسلمون بها في موضعين :

الأول : في يوم البيعة : وما صاحبه من اضطراب في اتخاذ القرار المهم والمصيري في حياة الأقوام التي ترغب بمبايعة الرسول محمد ﷺ فأنزل ٱلله العزيز السكينة تلبية للحاجة الروحية إليها ؛ ليعز الرسول ، والمؤمنين معه ، ويذل الكافرين ، والمشركين ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (1) .

والثاني : في يوم فتح مكة : حيث كانت بعض النفوس حائرةً وخائفةً من المجهول الذي ينتظرها ذلك اليوم ، فهو يوم حاسم في تاريخ الإسلام والمسلمين احتاج المسلمون فيه إلىٰ السكينة لإكمال تحقيق رسالة الإسلام ، قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (2) .

وفي الموضعين السابقين نزلت السكينة من ٱلله سبحانه وتعالىٰ مخصوصةً ومستقلة في نفوس المؤمنين ، وقد يكون نزول السكينة بغير الطريق المباشر ، فقد تحصل السكينة بالآيات كما حدث مع اليهود : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (3) . أي : تسكنون عند مجيئه ، وتقرون له بالملك ، وتزول

---

(1) الفتح 18 .

(2) الفتح 4 .

(3) البقرة 248 .

نفرتكم عنه ؛ لأنه متىٰ جاءهم التابوت من السماء ، وشاهدوا تلك الحالة فلا بدَّ وأن تسكن قلوبهم إليه ، وتزول نفرتهم بالكلية [1] .

وقد تكون السكينة نتيجة حاصلة في الأشياء ، فهي في الزوجة حاصلة : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [2] .

كما تحصل في أمور أخرىٰ كالبيوت ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [3] ، وفي الليل ، قال تعالىٰ : ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [4] .

ثانيا : حاجات مادية : وهي تلك المتعلقة بحاجات البدن ، ومنها :

1 ـ الأكل والشرب : قال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [5] .

2 ـ اللذة : قال تعالىٰ : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ

---

(1) تفسير الرازي، ج 3، ص 410.

(2) الروم 21.

(3) النحل 80.

(4) الأنعام 96.

(5) الأنعام 141.

ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (1) .

3 ـ الملك : قال تعالىٰ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (2) .

4 ـ الأولاد : قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (3) .

فمن كانت هٰذه حاجاته فهو ذليل لمن يملكها ، وما من مالك لكل هٰذه الحاجات إلا ٱلله العزيز جل شأنه ـ تبارك وتعالىٰ ـ الذي يعز من يشاء بجعل خلقة أغنياء عن الحاجة إلىٰ الغير ، ويذل من يشاء بجعل الحاجة دائمة في النفوس ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (4) ، فهو عزيز لأن العزة لله سبحانه ، وشعار العبد الذلة ، والاستكانة (5) ، وٱلله سبحانه يقول عندما يُقرِّعُ بعض أعدائه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (6) .

---

(1) البقرة 187 .

(2) البقرة 247 .

(3) النحل 72 .

(4) آل عمران 26 .

(5) معجم المناهي اللفظية بكر بن زيد ، ج 19 ، ص 21 .

(6) الدخان 49 .

ومهما ظن العبد أنه عزيز بسلطان ، أو بمال ، أو ببنين ؛ فليعلم : أن عزه مؤقت ؛ لأن العزيز هو الغالب كل شيء فهو العزيز الذي ذل لعزته كل عزيز [1] .

العزيز هو الذي لا مثيل له ؛ لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد ، ويقال : عَزَّ الشيء يَعِزُّ عِزًّا وعِزَّةً وعَزازَةً : إذا قلَّ ولا يكاد يوجد ، فهو عزيزٌ [2] .

والعزيز هو الغالب ، فالعز يتضمن معنىٰ الغلبة والامتناع [3] . وقد مرَّ الحديث عن غلبة القوة والحجة ، وما نريد إضافته هنا مبدأ الغلبة المطلق ، فالعزيز سبحانه وتعالىٰ غالب بالمطلق : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [4] ، بمعنىٰ القدرة علىٰ الإتيان بما يريد وقت يريد ، فهو لا يُمنع عما يشاء ، ولا يُنازع فيما يريد ، بل إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون سبحانه وتعالىٰ عما يشركون ، إضافة إلىٰ القدرة علىٰ سلب ما يريد وممن يريد تأكيداً للقدرة المطلقة ، فالمسلوب فاقد القدرة علىٰ فعل الأشياء وإن أراد ، أتُرىٰ هل يمكن للأعمىٰ الإبصار وهو يريد ذلك ؟ لذلك فإن جنود العزيز يسلبون ما يشاء هو ، وممن يشاء دون أن تكون لنا قدرة رد ذلك ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [5] ، وأيُّ شيءٍ أهون من الذباب علىٰ الإنسان ؟ ! ولـٰكنه فاقد

(1) تفسير أسماء ٱلله الحسنىٰ الزجاج ، ج 1 ، ص 34 .

(2) الصحاح ، ج 1 ، ص 467 .

(3) الفروق اللغوية ، ج 1 ، ص 355 .

(4) يوسف 21 .

(5) الحج 73 ـ 74 .

القدرة علىٰ ردِّ ما سلب الذباب منه ومن حاجاته ، فهو ذليل لفقده العزة المطلقة .

والعزيز غالب بأمره ، وقد كتب الغلبة له ، ولرسله ، فقال عز من قائل : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ (1) ، وغلبة العزيز ورسله مطلقة لم يحدد طبيعة الغلبة ، فقد تكون الغلبة بالقوة التي حثنا العزيز علىٰ الإتيان بها وبالبحث عن أسبابها للوصول إلىٰ السلام وتحقيقه وإن كره المشركون ، فقال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ (2) . وقد تكون بالحجة ، وهي مطلقة فما من حجة من حجج الأنبياء إلا وكانت غالبة ؛ لأن العزيز أراد العزة لأنبيائه ، وأراد الذلة لأعدائه ، وهي أولاً حجة الإدراك التي ترسخ في عقول الأنبياء الذين يصطفيهم ألله سبحانه . كما تؤكد الآية الكريمة التي يقول فيها العزيز سبحانه : ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾ (3) . قوله : ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ يدل علىٰ أن تلك الحجة إنما حصلت في عقل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بإيتاء ألله ، وبإظهاره تلك الحجة في عقله ، وذلك يدل علىٰ أن الإيمان والكفر لا يحصلان إلا بخلق ألله تعالىٰ (4) .

ثم حجة الإعجاز التي حاجَّ بها الأنبياء أقواماً أرسلوا إليهم ، فحجة موسىٰ

---

(1) المجادلة 21 .

(2) الأنفال 60 ـ 61 .

(3) الأنعام 83 .

(4) تفسير الالوسي، ج 5، ص 411 .

عليه الصلاة والسلام المعجزة لسحرة فرعون ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ (1) ، وطب عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ المعجز لطب بني إسرائيل : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (2) ، والكتاب الذي أنزل علىٰ محمد ـ صلوات ٱلله وسلامه عليه ـ المعجز لبلاغة العرب : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (3) ، فهو كتابٌ مَنيعٌ لا يُغلَب ولا يُقهَر ، وقال تَعالىٰ : ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ ﴾ أي : حُفِظَ وعَزَّ من أن يَلْحَقَه شيءٌ من الباطل (4) .

والعـزيـز : هـو الشـديـد (5) ، فتقـول : عَـزَّزْتُ القَـوم : قَـوَّيْتُهـم . والأَعِزَّاء : الأَشِدَّاء ، وليس من عِزَّةِ النَّفْس (6) . وٱلله شديد وشدته عز وجل تتجلىٰ في صور كثيرة يرهب منها الذين آمنوا ، ويغفل عنها الغافلون ، فهو :

---

(1) الأعراف 113 ـ 120 .
(2) آل عمران 49 .
(3) فصلت 41 ـ 42 .
(4) تاج العروس 1 / 3765 .
(5) تهذيب اللغة ، ج 1 ، ص 245 .
(6) تاج العروس ، ج 1 ، ص 3765 .

أ ـ **شديد القُوَّة** : فلا يَلْحقُه في أفعاله مَشَقَّةٌ ولا كُلْفَةٌ ولا تَعَبٌ [1] ، والتشديد في القوة يرد في موضع الحاجة إليه ، وهو تشديد إما مادي ، ويتجلىٰ في عقاب الذين كفروا ، وأصروا علىٰ ذلك : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [2] ، وقد يكون تشديد القوة معنوي ، لاسيما في مجال الجدل ، فعندما أُنزل القرآن علىٰ العرب واجهوه بالجدل الرافض فقابل المتين ـ عز وجل ـ فعلهم هـٰذا بعلمِ شديدِ القوىٰ : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [3] .

ب ـ **عذابه شديد** : المتين سبحانه أرسل الرسل والأنبياء لهداية الناس ، وأمهلهم ؛ ليؤمنوا ، وكتب علىٰ نفسه الرحمة : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [4] ، لكي يكون ذلك حجة علىٰ الناس : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [5] ، فإذا انتفع الإنسان بالهدىٰ فاز ، وإذا أنكر خسر وكان العذاب الشديد عقابه كالكافرين : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [6] ، والمشركين : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾ [7] ، والكاذبين : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ

---

(1) النهاية في غريب الأثر ، ج 4، ص 613.
(2) آل عمران 12 .
(3) النجم 4 ، 5 .
(4) الأنعام 12 .
(5) النساء 165 .
(6) يونس 69 ، 70 .
(7) ق 26 .

إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (1) .

ج ـ **بأسه** : يقول العزيز عن شدة بأسه : ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ (2) .

د ـ **امتحانه** : قال تعالىٰ : ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (3) ، أي : عند ذلك امتحن ٱلله المؤمنين ، فتميز الصادق عن المنافق ، والامتحان من ٱلله ليس لاستبانه الأمر له بل لحكمة أخرىٰ وهي أن ٱلله تعالىٰ عالم بما هم عليه ؛ لـٰكنه أراد إظهار الأمر لغيره من الملائكة والأنبياء ، كما أن السيد إذا علم من عبده المخالفة ، وعزم علىٰ معاقبته علىٰ مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم ، فيأمره بأمر عالماً بأنه يخالفه فيبين الأمر عند الغير ، فتقع المعاقبة علىٰ أحسن الوجوه ؛ حيث لا يقع لأحد أنها بظلم ، أو من قلة حلم . وقوله : (وَزُلْزِلُواْ) أي : أزعجوا ، وحركوا ، فمن ثبت منهم كان من الذين إذا ذكر ٱلله وجلت قلوبهم ، وبذكر ٱلله تطمئن مرة أخرىٰ ، وهم المؤمنون حقاً (4) .

هـ ـ **حسابه** : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ (5) .

و ـ **حرسه** : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ (6) ، والحرس : اسم مفرد في معنىٰ الحرَّاس ، كالخدم في معنىٰ الخدَّام ؛

(1) المجادلة 14 ـ 15 .
(2) الكهف 2 .
(3) الأحزاب 11 .
(4) تفسير الرازي ، ج 12 ، ص 334 .
(5) الطلاق 8 .
(6) الجن 8 .

ولذلك وصف بشديد ، وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ، ويمنعونهم من الاستماع [1] .

ز ـ **عقابه** : قال تعالىٰ : ﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [2] .

ح ـ **أخذه** : قال تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [3] ، والأَخْذ خلاف العطاء ، وهو أَيضاً التناول : أَخذت الشيء ، آخُذُه أَخذاً : تناولته [4] . إنه تعالىٰ لما بين كيفية أخذ الأمم المتقدمة ، ثم بين أنه إنما يأخذ جميع الظالمين علىٰ ذلك الوجه ؛ أتبعه بما يزيده تأكيداً وتقوية فقال : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ فوصف ذلك العذاب بالإيلام وبالشدة ، ولا منغصة في الدنيا إلا الألم ، ولا تشديد في الدنيا وفي الآخرة ، وفي الوهم والعقل إلا تشديد الألم [5] .

طـ ـ **محاله** : قال تعالىٰ : ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ [6] ، أي : المماحلة ، وهي المكايدة من : محل بفلان بالتخفيف : إذا كاده ، وعرَّضه للهلاك ، ومنه : تمحَّل لكذا : إذا تكلف استعمال الحيلة ، واجتهد ، فيه [7] .

(1) تفسير الزمخشري، ج 7، ص 153.
(2) البقرة 211.
(3) هود 102.
(4) لسان العرب، ج 3، ص 470.
(5) تفسير الرازي، ج 8، ص 468.
(6) الرعد 13.
(7) تفسير الالوسي، ج 9، ص 227.

ي ـ **عونه** : قال تعالىٰ : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ (1) .

وعلىٰ الخليفة أن يفهم معنىٰ الشدة من ذلك ، ويعي الحاجة إليها في مواضعها ، وأن يعمل بها موقناً بجدواها في موضع الحاجة إليها لتستقيم أمور الرعية .

والمخلصون من عباده أشداء ، فالرسول كان يتصف بهٰذه الصفة . قال تعالىٰ : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (2) . عزيز هنا معناه : شديدة معزته عن وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم (3) ، والأتقياء من عباد ٱلله ، وقوله تعالىٰ يدل علىٰ ذلك . قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (4) .

فالعزيز الذي لا يعجزه شيء ، والشديد في انتقامه من أعدائه ، والذي عز كل شيء فقهره وغلبه ، والمنيع الذي لا ينال ولا يغالب ، ذلت لعزته الصعاب ، ولانت لقوته الشدائد الصلاب ، وهب العزة لرسوله ﷺ وللمؤمنين ، فمن أراد العزة فليطلبها بطاعة ٱلله سبحانه ، والتمسك بكتابه وسنة نبيه ﷺ (5) .

---

(1) القصص 35 .
(2) التوبة 128 .
(3) تفسير الرازي، ج 8، ص 192 .
(4) المائدة54 .
(5) الوجيز في أسماء ٱلله، ج 1، ص 9.

وارتبط اسم العزيز بأسماء حسنىٰ أخرىٰ ، ولذلك دلالة إعجازية ، فإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتماً بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام حتىٰ كأنها ذكرت دليلاً عليه ، وموجبة له ، وهـٰذا كقوله تعالىٰ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (1) . أي : فإن مغفرتك لهم مصدر عن عزة هي كمال القدرة لا عن عجز وجهل . وقوله : ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (2) ، وقد وردت في عدة مواضع من القرآن ، ويذكر ذلك عقب ذكره الأجرام العلوية وما تضمنه من فلق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، وإجراء الشمس والقمر بحساب ، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم ، وحراستها ، وأخبر : أن هـٰذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه ليس أمراً اتفاقياً لا يمدح به فاعله ، ولا يثنىٰ عليه به كسائر الأمور الاتفاقية . ومن هـٰذا ختمه سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عقب كل قصة قال تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (3) ، فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة ، فوضع الرحمة في محلها ، وانتقم من أعدائه بعزته ، ونجّىٰ رسله وأتباعهم برحمته ، والحكمة الحاصلة من ذلك أمر مطلوب مقصود ، وهي غاية الفعل لا أنها أمر اتفاقي (4) .

والعزيز من العباد من يحتاج إليه عباد ٱلله في أهم أمورهم ، وهي الحياة الأخروية والسعادة الأبدية ، وذلك مما يقل لا محالة وجوده ويصعب إدراكه ، وهـٰذه رتبة الأنبياء ـ صلوات ٱلله عليهم أجمعين ـ ويشاركهم في العز من ينفرد بالقرب من درجتهم في عصره كالخلفاء وورثتهم من العلماء ، وعزة كل واحد

(1) المائدة 118 .
(2) يس 38 .
(3) الشعراء 9 .
(4) المجلىٰ شرح القواعد المثلىٰ ، من شرح القواعد المثلىٰ في الأسماء والصفات الحسنىٰ لابن عثيمين 4 ص 13 .

منهم بقدر علو رتبته عن سهولة النيل والمشاركة ، وبقدر عنائه في إرشاد الخلق [1] .

اللهمَّ يا العزيز نشهد أن لك العزة ! ولرسولك العزة ، وللمؤمنين العزة ! اللهمَّ يا العزيز عزَّنا بقوتك وقدرتك وغنائك وكرمك وعلمك وحكمتك وحفظك وسلامك ! اللهمَّ إن العزة بالحق فلا تجعلنا يا العزيز من الذين أَخَذَتْهُم الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ واجعلنا يا ٱلله للحق مُحقِين ، وإذا حكمنا بين الناس نحكم عادلين ، ولا تجعلنا من المطففين الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ !

اللهمَّ يا العزيز عز الإسلام بزيادة عدد المؤمنين الذين إذا عاهدوا أو نذروا أوفوا والذين يَقِيمُون الصَّلاَةَ وَيُؤْتُون الزَّكَاةَ ويقْرِضُون اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ويَدْعُونَ إِلَىٰ الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ !

اللهمَّ يا العزيز يا من له العزة ، وبه العزة ، ومنه العزة أعزنا ولا تجعلنا أذلاء ! اللهمَّ يا العزيز يا رافع الشأن ارفع شأننا وقدرنا واجعلنا من حملة راية دينك عزيزة ، واجعلنا أعزاء بنصرك يا العَزِيزُ يا الرَّحِيم ! اللهمَّ اجعلنا أعزاء في أنفسنا قبل أن نكون في غيرنا ! اللهمَّ يا العزيز اجعلنا وبنونا وأهلونا في حماك ، ورعايتك ، فلا نكون ممن قلت عنهم : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [2] فلا نطلب سواك ، ولا نلجأ لغيرك يا العزيز ! ولا تجعلنا أذلاء خائفين !

---

(1) المقصد الأسنىٰ ـ الغزالي ، ج 1 ، ص 74 .

(2) النساء139 .

الجبّار جلّ جلاله

الجبار : اسم من أسماء ٱلله الحسنىٰ ، وصفة من صفاته الحسان مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ [1] .

وفي لسان العرب المحيط : الجبار : « ٱلله عز اسمه القاهر خلقه علىٰ ما أراد من أمر ونهي ، وهو المتكبر الذي لا يرىٰ لأحدٍ عليه حقاً » [2] .

الجبار : صفة مطلقة لله تعالىٰ ، الذي بجبروته فعَّال لما يُريد . وصفة نسبية للعباد ، والصفة النسبية تنقسم إلىٰ قسمين :

الأول : صفة إيمانية : حيث اتصاف المؤمن بصفات من يؤمن به ، وهو الجبار الحق جلا جلاله . وهـٰؤلاء هم الذين يستمدون جبروتهم من الجبار العظيم ، ولا يظلمون أحداً . وهم الخلفاء في الأرض الذين سيجازون الجزاء الأوفىٰ .

والثاني : صفة إنكار وجحود وكفر ، وهي من نصيب الذين يظنون أنهم مصدر للقوة والجبروت ، وكأنه لا خالق من ورائهم ، أي : وكأنهم وُجِدوا هـٰكذا ضربة عشواء ، وهـٰؤلاء هم الخاسرون الذين لو اجتمعوا لن يخلقوا ذبابة واحدة ، وهـٰؤلاء هم الظالمون ، الذين ظلموا أنفسهم ويظلمون الآخرين ،

---

(1) الحشر 23 .

(2) لسان العرب المحيط المجلد الأول 394 .

وبأعمالهم هـٰذه هم الذين سيجازون العذاب العظيم من الجبار الحق ، جل جلاله .

الجبار : كما ورد في لسان العرب المحيط هو : « العالي فوق خلقه » [1] .

والجبَّار بغير حق ، هو العاتي المتكبر الذي لا يلتفت لمن يجب الالتفات إليه ، وهو كما يظن لا أحد من قبله ، ولا من بعده ، وهـٰذا ما نهىٰ ٱلله تعالىٰ عنه بقوله : ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [2] .

وفي ذلك يقول الشاعر :

ولا تمشِ فوق الأرض إلا تواضعاً فكم تحتها قوم هم منك أرفعُ
وإن كنت في عزٍّ وحِرز ومَنعة فكم مات قوم همو منك أمنعُ

والجبار من غير حق هو الذي يملأ قلبه التجبُّر والقسوة ، ولا تدخله الرحمة ، ولا يقبل موعظة ، وهو ما نهىٰ ٱلله عنه ، بقوله تعالىٰ : ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾ [3] الآية موجهة لتأييد الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وتوجيهه إلىٰ عمل الخير دون إجبار ، أو إكراه ، فٱلله يعلم بما يقولونه عن الرسول والدين الذي ارتضىٰ ، فٱلله لا يود لرسوله أن يستعجل ، إنه يمهل ولا يهمل ، فيريده أن يقول لهم قولاً ليناً ، حيث لا إكراه في الدين . قال تعالىٰ : ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [4] . فباللين والتسامح تسود العزة والمناصرة للدين ، وبالتجبُّر والتكبُّر يسود الإكراه له .

---

(1) المصدر السابق . المجلد الأول ص 395 .
(2) الإسراء 37 .
(3) ق 45 .
(4) البقرة 256 .

وحتىٰ لا يسود التجبر والتكبر قال عز وجل : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ .

والجبر خلاف الكسر ، وهو الربط والاتصال والتماسك والمتانة ، والجبر يُستمد من الجبَّار تعالىٰ ، الذي يجبر المكسور بقوته ، ويجبر الخواطر بعد خوفٍ ، أو شقاق ، ونزاع ، أو تباين ، واختلاف ، أو صراع ، وصدام مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ (1) .

ولأن الجبر خلاف الكسر ؛ فإن الجبار تعالىٰ يجبر المستقل مع المستقل عنه في علاقة اتصال وفقاً للقواعد الآتية :

قاعدة جبر الروح مع الكائن :

الروح مخلوق مستقل حاله من حيث الخلق كحال أيِّ مخلوق ، إلا أن الروح لا يشاهد بالرغم من الإحساس به ، ولا يُسمىٰ الكائن حياً إلا إذا دخلته الروح ، والروح لا تدخل الأجساد ، ولا تخرج منها أو تفارقها إلا جبراً ، والجبر لا يتم إلا بقوة من الجبار الأعظم جل جلاله ، فالروح والجسد شيئان غير متشابهين ولا متماثلين بقوة الجبار الحكيم يصبحان شيئاً واحداً لا يمكن الفصل بينهما حتىٰ النهاية . إنه الجبر العظيم الذي لا يفصله إلا الموت .

قاعدة جبر النفس :

مع أن الأنفس تتنوع وتتعدَّد بالشح ، والاطمئنان ، واللوم ، والأمر بالسوء والأمر بالمعروف ، إلا أن منها ما يتآلف بعضه مع البعض ، ومنها ما يرفض بعضه بعضاً ، وبالإجبار تتم المواءمة طوعاً وكرهاً ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ (2) وفي كلتا

---

(1) الفتح 4 .

(2) آل عمران 83 .

الحالتين (الطوع والكره) هناك إجبار :

الإجبار الإرادي بالقبول والاستحسان والتآلف ، وهو القبول الطوعي الذي تترتب عليه صلة وعلاقة برغبة ، وهـٰذا الأمر يجعل العلاقة بين الأنفس تمتدُّ وتُربط بقبول مع فائق التقدير والاحترام المتبادل .

الإجبار بالقوة المسيطرة التي تجعل الليل يأتي في مواعيده ، والنهار كذلك مع انعدام الاستطاعة والتدخل في التقديم ، أو التأخير ، أو التعديل .

وقاعدة جبر النفس ، تعني : أن النفس كمفردة لا تُجبر إلا مع نفس الآخر قال تعالىٰ : ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ﴾ [1] ، وزواج الأنفس يتم أولاً بدخولها البناء البدني للإنسان ، والاندماج فيه ، والاصطباغ بخصوصيته . وثانياً بقبول الآخر ، والاستئناس له . فهناك من يقبل البعض ، ولا يقبل البعض الآخر ، أي كما يقولون : هناك من يوصف بثقل ملائكته ، وهناك من يوصف بخفتها ، بمرحها وانبساطها بالبشاشة والمحبة ، وهـٰذه تؤدي إلىٰ القبول والميل إلىٰ المشاركة والتحاب للأنفس الأخرىٰ ، وتؤدي إلىٰ جذبها والتعلق بها . وبالتعلق يحدث إجبار النفس مع النفس ، الذي لولاه ؛ لكانت كل نفس هائمة في بعدها واستقلاليتها عن الأخرىٰ .

قاعدة جبر العقيدة :

مع أن الدين مصدر للعقيدة ، إلا أن الدين من عند ٱلله تعالىٰ ، أمَّا العقيدة فهي رابطة قيمية وأخلاقية توثق بين الناس وبين ما يعتقدون فيه ، أو يؤمنون به . ولذا لولا الإجبار ؛ ما كانت العلاقة بين الدين وبين البشر ، فالبشر مادة لهم من العواطف والمشاعر والأحاسيس . أمَّا الدين فكَلِمٌ وحُجَّة ومواعظ تُنظِّم حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات الإنسانية ، وارتباط البشر إيماناً

---

(1) التكوير 7.

بالكلم الحق لا يتم إلا بقوة الجبَّار الحكيم ، وإلا كيف يمكن لها أن تتم لولا مشيئة من يريد لها أن تتم بيسر ومحبة وشوق . وهـٰذا الأمر لا يجعل الإكراه فعلاً قاسياً ، بل أنه الفعل المتمشي مع طبيعة الخلق . وفي مقابل ذلك عندما يظهر فعل الرفض للدين أو المعتقد يظل في فعل أمره غير متمشي مع الطبيعة الخلقية .

ودائرة الدين ، أو العقيدة تمتد لتتجاوز دائرة الأبوة والأخوة وذي القربىٰ وبني الوطن أو العرق لتحتوي جبراً من يؤمن بالمعتقد الواحد ؛ حتىٰ يندمج أصحابها في إحساس ومشاعر مشتركة تستوجب التقدير والاعتراف بالمساندة والمؤازرة والفداء المتبادل بحاسة الدين والمشاعر التي أنتجتها وجعلتها في حالة مدد بين الذين يدينون بالدين الواحد أو المعتقد الواحد .

قاعدة جبر الخواطر :

الناس بطبعهم يحبون ويكرهون ، يغضبون وينبسطون ، وبهـٰذا تكون عليهم ولهم مآخذ ، مما يجعل الإخوة وذوي الحقوق يحتجُّون علىٰ بعضهم في كل تقصير أو ارتكاب خطأ ، ويجعل الكبير يأخذ بيد الصغير ، ويجعل الصغير في حالة أدب يعتذر لمن هو أكبر منه سناً ، ويجعل المؤمن يستغفر من كل ذنب ويتسامح ، فبهـٰذه المواعظ والعبارات الإصلاحية تُجبر الخواطر ، وبها تكون اللُحمة ، وتعود المياه ـ كما يقولون ـ لمجاريها ، ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾ (1) . وقوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (2) . الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات هو الجبار جل جلاله الذي يأمر بالتسامح في كتابه العزيز بين الناس المستخلفين في الأرض .

---

(1) يوسف 97 .
(2) الشورىٰ 25 .

ومن يريد أن يكون خليفة عليه بالتسامح الذي به تُجبر الخواطر بين الناس وخاصة ذوي العلاقة ، ولهـٰذا فالاعتراف بالخطيئة فضيلة بين الناس في كثير من الأحيان يترتب عليها أفعال التسامح لا أفعال الإدانة التي تصدر في دوائر المحاكم التي تُجرِّم كل من يعترف بذنب ، أو عملٍ يقترفه ، ومع ذلك بالتسامح يتم الإعفاء ، وبالاستغفار تزداد التوبة .

وعليه ينبغي أن تكون الأحكام قيمية تستمد قوتها وحُجَّتها من مصادر التشريع ، لتؤيد عقاباً ، أو لتنصف مظلوماً ، أو لتبرئ متهماً ، أو لتعفو عن سيئة . ولهـٰذا فإن جبر الخواطر لا يتم إلا بجبَّار ماهرٍ في معرفة تناول المواضيع والقضايا بين الناس ، وفي هـٰذا المقام يُعد الجبر مصدراً للإصلاح وعودة للعلاقات إلىٰ ما يجب أن تكون عليه ، وهو ما يرضي ٱلله تعالىٰ .

إنَّ جبر الخواطر يعيد الاتصال بالآخر والتواصل معه ويفتح آفاق التعايش والسلام من أجل علاقات مشتركة ، ومستقبل أفضل .

قاعدة جبر الزوجين :

في أساس خَلقِنا خُلِقنا فرادىٰ ، وفي أساس وجودنا وتكاثرنا جُبرنا أزواجاً مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [1] هـٰذا من حيث الخلق كل فرد لا يُمكن أن يتطابق مع الآخر ، والدليل الشاهد علىٰ ذلك البصمة التي بها يتميز كل فرد عن غيره ، ولهـٰذا لا يشتبه اثنان في البصمة الواحدة مما جعل الفروق بين الخَلقِ من حيث الخَلْق لكل مفردة خصوصية تتميز بها عن غيرها من الخصوصيات الأخرىٰ التي هي الأخرىٰ تتميز بما تمتاز به من خلق الرحمـٰن . وإلىٰ جانب التميُّز الخَلقي كذلك يتميز الأفراد خُلقا بما يقولون ، وبما يعملون من أعمال تدخل بعضهم الجنة ، وتدخل

(1) الأنعام 94.

غيرهم النار . قال تعالىٰ : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (1) .

ومع أن أساس الخلق فرادىٰ ، إلا أن أساس البقاء والاستمرارية هو الزوجية ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) . وقوله عز وجل : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ ﴾ (3) ، فالجعل في الأرض هو الاستخلاف فيها ، والاستخلاف لا يتم إلا بالإجبار الزوجي ، ولأجل ذلك خلق ٱلله تعالىٰ الكائنات أزواجاً ؛ أي : من كل نوع خلق الذكر والأنثىٰ ، فتضاعفت الأنواع جميعها جبراً حتىٰ أصبحت علىٰ ما هي عليه طوعاً وكرهاً .

ومع أن الأنثىٰ نوع مستقل بذاته ، والذكر كذلك إلا أن التقائهما لا يتم إلا جبراً ، سواء أكان غريزة أم وفق شِرعة ومنهاج ، ولهٰذا يعد الزواج جبراً لعلاقة تستوجب الاستمرار والاتصال والتواصل ، والجبر هنا يعني وجود رابطة تُوحِّد علاقة طيبة بين اثنين كان كلٌّ منهما منفصلاً أو مستقلاً عن الآخر ، والحاجة تتطلب التقاءهما بمودة ، والشريعة والسنن تؤسس لها القواعد التي تُرضي الخالق والمخلوق دون أن تترك ذنباً وإثماً .

قاعدة جبر الأبوة والأمومة :

الأبوة عاطفة يستمدها الأبناء من الآباء ، والأمومة عاطفة يستمدها الأبناء من الأمهات ، أي : بالالتقاء الشرعي بين الزوجين جبراً يكون الجنين نتاج

---

(1) الإسراء 13 ـ 15 .

(2) الذاريات 49 .

(3) فاطر 11 .

الاثنين المشترك هو الثالث جبراً ، أي : لولا جبر الزوجين ما كان الثالث مولداً يجمع خاصيتين في واحد عدداً ؛ حيث يرث صفاتٍ من أمه ، وأجداده الذين هم من دمها وفقا لقانون مندل للوراثة ، ووفقا للقانون ذاته يرث صفات من أبيه وأجداده الذين هم من دمه ، فيكون هو نتاج مشترك منهما ولن يكون نسخة لواحد منهما أبداً ، بل يكون ثالثاً بالإضافة الجبرية . وبهـٰذه الوراثة والتربية يستمد عاطفة الأبوة من أبيه ، وعاطفة الأمومة من أمه ، مما يجعله يفرح لفرحتهما ، ويتألم لآلامهما ، ويحزن بفراق أيٍّ منهما ، مع الاحتفاظ لهما بالإحسان والطاعة في غير معصية ٱلله تعالىٰ . ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [1] . وهـٰكذا بالجبر تكون العلاقة بين الأبناء والآباء والأجداد والأحفاد ، وكلٌّ منهم يستمد عواطفه بالحب والحنان والاشتياق من الجيل الذي يسبقه في الوجود .

الأبوة ، والأمومة عاطفتان قويتان تنتجان مشاعر متبادلة تربط علاقات الحب بين الآباء والأبناء ، وتجعل الصلة بينهم قيمة أخلاقية ، ووجدانية متفاعلة في ذات الإنسان ، وفي هـٰذا الأمر مع أنَّ الأبوة والأمومة واحدة ، إلا أن النظام الأخلاقي والسلوكي يختلف من فردٍ لآخر ومن جماعة لأخرىٰ ومن مجتمع لمجتمع آخر . ففي المجتمعات المسلمة تتعدد أساليب العناية والرعاية كما تتعدد هي الأخرىٰ في المجتمعات غير المسلمة ، ففي المجتمع الإسلامي الدين واحد ولـٰكن الإيمان ليس واحداً ، فمن يؤمن لا يضل ولا يشقىٰ ، ومن لم يؤمن إيماناً حقيقياً سيقع في أخطاء تؤدي به إلىٰ المحاسبة الشديدة وقد تقع أعماله تحت المغفرة الواسعة ، أمَّا غير المسلم فسيكون حسابه عسيراً وتكون جهنم رحمةً بما قدمت أيديهم .

---

(1) الإسراء 23 ـ 24 .

الأب الخليفة ، والأم الخليفة هما اللذان يعملان علىٰ غرس قيم العقيدة وأصول الدين وتعليم الكتاب والحكمة لأبنائهماأولاً ، ثم ثانياً إلىٰ من يستطيعون إلىٰ النهاية ، وهـٰؤلاء هم الذين قال فيهم ٱلله تعالىٰ : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ (1) . وهم أيضاً الذين قال فيهم الجبار جل جلاله : ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (2) . أمّا أولـئك المنافقون والكافرون ؛ فإن ٱلله تعالىٰ قال فيهم : ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (3) .

قاعدة جبر العمومة وذي القربىٰ :

تقول هـٰذه القاعدة : (كلما كان الأصل واحداً تشعبت منه الفروع) . والأصل في الخلق التكاثر الذي تأسس في النوع البشري علىٰ ثلاثة أبعاد جبرية :

---

(1) البقرة 25 .

(2) التوبة 111 ، 112 .

(3) النساء 138 ـ 140 .

البعد الأول : خلق الشيء من الشيء . وفقا لهٰذه القاعدة خلق ٱلله التراب الذي منه خلق آدم ، عليه الصلاة والسلام ، وخلق حواء ، وكلاهما بدون أب ولا أم (كن فيكون) .

البعد الثاني : خلق الشيء في الشيء (الخلق الروحي) . مثلما خلق عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في رحم مريم بنت عمران بنفخة من الروح التي لم نعلم أمرها هي كما هي ، ولٰكننا نعلم : أن أمر الكينونة قد صدر من الجبار الأعظم ، وقد تحقق بميلاد عيسىٰ ، عليه الصلاة والسلام . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1] . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾ [2] . فمثلما جاء خلق آدم من تراب بدون أب وأم ، كذلك كان خلق عيسىٰ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في رحم أمه ـ رضي ٱلله عنها ـ من غير أبٍ .

البعد الثالث : جبر الالتقاء العلائقي ، لقاء آدم بحواء الذي بعث فيهما ، ومنهما غريزة التجاذب العاطفي ؛ حيث كلٌّ منهما في حاجة لعاطفة الآخر وأحاسيسه وأشواقه ، ومؤانسته ، فكان الالتقاء بينهما فطرةً والمؤانسة بينهما كثرةً ، وكانت بداية الكثرة ليس بالخلق من التراب بل كانت البداية من النطفة التي أنجبت قابيل ، وهابيل ، وأختيهما الكريمتين . وبالرغم من الخلاف والاقتتال الذي راح ضحيته هابيل استمر التكاثر من أبناء قابيل الذي تجاوز اليوم السبعة مليار ابنا ، ولو كان هابيل حيا في زمنه وتزوج أخته كما تزوج قابيل لكان سكان الأرض هم علىٰ ضعف ما هم عليه ، وفي عدم بلوغ ذلك بنهاية هابيل إن لله شؤوناً لا نعلمها . سبحانه جل جلاله !

---

(1) الأنبياء 91.

(2) التحريم 12.

وبهـٰذا التكاثر لم يكن الشقاق بين الإخوة هو القاعدة بل كان الاستثناء ، القاعدة تقول (الأبناء يرثون المحبة من أبائهم ، وإذا اختلف الآباء ضعفت العلاقة بين الأبناء) ، وبالرغم من ذلك تظلُّ العمومة عاطفة بين ذوي القربىٰ ، بها يتم التآزر ، وبها يستمد أبناء العمومة الطمأنينة من أجدادهم ، وبها تتسع دائرة الأصول مهما تفرَّعت ، مما يجعل الأعمام ، والأخوال ، والعمات ، وفروعهم مهما تعددت هم في حالة نسب وعاطفة تشغل حيزاً من التقدير والاعتبار والاحترام .

ومع أن العمومة قاعدة إلا أن في بلاد الصين لا يُعمل بها ، حيث لا تنجب الأسرة وفقا للقانون إلا طفلاً أو طفلةً واحدة فقط وذلك حدَّاً للنسل بأسباب الكثرة المؤثرة علىٰ المستوىٰ المعيشي للأفراد . وهـٰذا الحدُّ ألغىٰ من القاموس العاطفي جميع المفردات التي تحمل في مضامينها مشاعر الأخوة والعمومة والإحساس بها مع ذوي القربىٰ : ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (1) .

من يريد أن يكون من المستخلفين في الأرض فعليه بعبادة ٱلله الذي بعبادته يتم الجبر معه في علاقة توحيد ، وعليه بأن يؤمن بالأنبياء والرُسُل الذين اصطفاهم ٱلله تعالىٰ ؛ حيث الإيمان بهم إيمان بٱلله تعالىٰ ، وفي هـٰذا جبر مع رُسُل وعقيدة ومع ربُّ العقيدة الملك المتعال . والجبر لا يقتصر علىٰ ٱلله تعالىٰ والرسل والعقائد بل يمتد الجبر لشمل علاقات التوحد مع الإحسان للوالدين وذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين ثم الجبر مع القول الحسن وهـٰذا لا يتم إلا بالإيمان الذي يستوجب الجبر مع أفعال الخير مثل إيتاء الزكاة .

قاعدة جبر العمومة ، وذي القربىٰ مثلما تمتد لتجبر علاقة الفرد مع

---

(1) البقرة 83.

الجماعة ، وعلاقة الجماعة مع المجتمع ، فهي تمتد لتجبر المشاعر والأحاسيس بينهم في عاطفة الأبوة والأخوة والعمومة والجيرة جنباً وبعداً .

قاعدة جبر الحاجة مع مشبعاتها :

لو سألك أحد عن العلاقة الغريزية بين العطش والماء ، والعلاقة بين الجوع والأكل ، والعلاقة بين الجنس والسكينة ، والعلاقة بين الخوف والاطمئنان ، والعلاقة بين الظلم والعدل ؛ لن تكون لك إجابة إلا أن تقول لا علاقات بينها إلا بالإجبار ، ولن يستطيع القيام بهـٰذه العلاقات علىٰ الكمال والتمام إلا عظيم جبَّار . فمع أن العطش والجوع والجنس والخوف إحساسات تجول بداخل الإنسان ونفسه ، إلا أنها لا تشبع إلا من خارجها إشباعاً مادياً ، ولذا لن يتحقق الرضا النفسي للإنسان إلا بما يشبع الحاجة . ولهـٰذا فالقاعدة : (يتحقق الرضا بما يشبع الحاجة ، ولا تجبر الحاجة إلا بمشبعاتها) .

قاعدة جبر الكسر :

بما أن الجبَّار هو القادر وحده علىٰ جبر العظم المكسور إلىٰ حيثما كان عليه ؛ إذاً ما يقوم به الطبيب أو الجبار بالإضافة هو جعل العظام المكسورة في حالة ملامسة لبعضها ، مع تثبيتها بموضوعية في الاتجاه السليم لإعادة جبرها علىٰ الحالة التي كانت عليها قبل أن تتعرض للكسر . وقد يظن البعض أن الطبيب يستطيع أن يجبر العظام بما يقوم به من جهد فني وإنساني ، إلا أن ما يقوم به الطبيب هو جعل أطراف العظام في حالة ملامسة وعلىٰ حالة من الثبات ، أما عملية الجبر فلا تتم إلا بنمو العظام في اتجاهها الذي بَذل الطبيب جهد التثبيت بشأنه . فالعظام لا تُجبر إلا بقوة تجعلها في حالة امتداد يتمكن من خلاله كل متجزئ من ملامسة المتجزئ الآخر والالتفاف حوله حتىٰ تتم عمليات الجبر مع المتجزئات الأخرىٰ ، ومن ثم مع الأجزاء التي نمت بترابط

المتجزئات في اتجاه جبر الكتلة الواحدة التي تجعل العظام في حالة تماسك وقوة كما هي كانت عليه .

إنَّ ما يقوم به الجبار بالإضافة لا يزيد عن كونه عملية توكُّل علىٰ الجبار الأعظم ، حتىٰ يعود العظم مجبوراً علىٰ ما كان عليه قبل الكسر . ولذا فإن القاعدة تقول : (اتصال مؤقت من الجبار بالإضافة يؤدي إلىٰ اتصال دائم من الجبار الدائم) . إن ما يقوم به الطبيب من جهد مؤقت في سبيل توصيل العظام المتباعدة بالكسر إلىٰ بعضها هو الجهد المؤقت . أما الاتصال الدائم هو الذي يتم بأفعال الجبار الدائم حيث تنمو أمشاج العظام ، وتمتد إلىٰ أن تتصل وتتماسك في وحدة واحدة بقوة الواحد الجبار .

العظام لا تجبر إلا بطينتها المنبعثة الحياة فيها ، وهـٰذه الطينة وإن وجدت بين يدي الطبيب إلا أن الحياة لن توجد فيها ، الحياة ديمومة منبعثة لا توجد إلا بيد الحي الدائم ، أما الحي بالإضافة كل ما بيده مؤقت ، ولهـٰذا ما يقوم به من جهد في سبيل تجبير العظام هو جهد مؤقت . ولأن العظام لا تلتئم إلا بجهد دائم ، لذا فإن التآمها لن يكون إلا بقوة الجبار الدائم . فالعظم بعدما يكسر تنفصل الحياة عن جزئه المنفصل عنه ، ولأن انبعاث الحياة بيد الحي الذي لا يموت ؛ إذاً إذا انكسر العظم ، وفقد انبعاث الحياة فيه ؛ فمن هو القادر علىٰ إعادتها إليه ؟ إنه الجبار الذي بيده أمر الحياة والموت . ولهـٰذا فدور الطبيب هو فقط أن يجعل العظام المكسورة في حالة تلامس وثبات ؛ أما الجبر فليس من مهام الطبيب ، بل هي من الجبار الدائم جل جلاله . قال تعالىٰ : ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (1) ننشزها : نجبرها وحدة واحدة بانبعاث الحياة فيها ، حتىٰ

(1) البقرة 259 .

تصبح قواماً تاماً للهيئة المناسبة لها ، ثم نكسوها لحماً .

كل شيء علىٰ ٱلله يسير ، فهو الذي أنشأ العظام أول مرة من تراب ، وهو الأصعب علىٰ مستوىٰ التفكير الإنساني ؛ فما بالك بأن يجبرها بعد أن تكسر وهو الأيسر ، وفي هٰذا قال تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [1] . يقال : جاء رجل لرسول ٱلله ﷺ ، وهٰذا الرجل غير محدد بالتمام ، فالعباس قال : إنه عبد ٱلله بن أبيٍّ . وقال سعيد بن جبير : هو العاصي بن وائل السَّهمي . وقال الحسن : هو أُبي بن خلف الجمحي : أنه أتىٰ الرسول ﷺ بعظم حائل ، فقال : يا محمد ! أترىٰ : أن ٱلله يحيي هٰذا بعد ما رَمَّ ؟ ! فقال النبي ﷺ : « نعم ، ويبعثك ٱلله ، ويدخلك النار » [2] . بهٰذه الأسباب نزلت هٰذه الآيات المباركة . فالحمد لله ربِّ العالمين !

وفي سورة القيامة قال تعالىٰ : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [3] . قسمين بتأكيدين من (لا) النافية مع التعجب في الآية الثالثة : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ التي تلتها الإجابة بـ : ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ أي : بدون شك القادر المطلق سيظل قادراً ، ونسوِّي : تعني : نجمع ، ونضم بعضها إلىٰ بعض ، كما كانت مهما كانت صغيرة ، فما بالك بأن تكون كبيرة ؟ !

إنه من العجب أن يسأل السائل عن جبر عظم ، ولا يسأل عن الكيفية التي بها ، وعليها خُلق ! فالعظام لن تحيا إلا بمحييها ، ولذا فإن محيي العظام هو

(1) ياسين 77 ـ 79 .
(2) القرطبي الجامع لأحكام القرآن . الجزء الخامس عشر ص58 .
(3) القيامة 1 ـ 4 .

الجبار العظيم ، وليس الطبيب البارع . ولأن فضل ٱلله واسع وٱلله غني عن العباد فالأجر يعود علىٰ من وضع العظام ، وربطها في الاتجاه السليم لتعود إليها الحياة ، وتنمو من جديد . ومن يحمد ٱلله ويشكره علىٰ نعمه ؛ يُعد من خلفائه في الأرض ، ومن الوارثين في الجنة . ومن يجحد ؛ فلن يكون له في الجنة من نصيب .

قاعدة جبر الأعداد :

تقول هٰذه القاعدة : (عندما يكون الخالق واحداً يكون المخلوق بأسمائه وصفاته كثرةً) .

في أساس الخلق الواحد يخلق الآحاد ويجبرها أزواجاً ويعدِّدها جموعاً ، فٱلله تعالىٰ خلق أبونا آدم وأمنا حواء فرادىٰ ، وبتزاوجهما جعل من تزاوجهما فروعاً وأعداداً . ولولا الجبر ما تعارفنا ، وتآنسنا ، وفاض الود من صدرٍ لصدرٍ بأشواق الحنين ، وجبرنا العمر عدَّاً بالشهور والسنين .

العدُّ إحصاء لمتاح في حيز الزمان والمكان ، ولو لم يُجبر المحصي يظل في حالة انفراد بذاته ، كالزمن والحركة اللذين بهما نَعدُّ ، فالزمان متصل مثلما الحركة متصلة ، فمنذ أن قال ٱلله تعالىٰ للزمان والحركة كونا ، فكانا علىٰ حالة مستمرة لا انقطاع فيها ، ولولا الاستمرارية المتصلة لكانت النهاية ، ولذا فإن أمر النهاية سيكون مفاجئاً لنا بقوله لهما (للزمان والحركة) : (قِفَا) حينها يكون الجمود ، وتكون زلزلة الساعة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [1] . بطبيعة الحال زلزلة الساعة شيء عظيم ، ومهما توقعنا ؛ فستكون المفاجأة والمخافة والعظمة أكبر لولا الإيمان الذي به يُزاح الشك ،

(1) الحج 1 ـ 2.

وتطمئن قلوب المستخلفين في الأرض بأن ساعة الزلزلة هي ساعة الحق العظيم ، فالحمد لله ربِّ العالمين ! أما الكافرون ؛ فسيكونون في فزعٍ ورُعبٍ إلىٰ يوم يبعثون ، ولو فكرنا قليلاً : ألا يكون الزمان والحركة هما اللذان سيؤديان بنا إلىٰ ذلك اليوم العظيم ، اليوم الذي مهما بلغنا من العلم لن نحصيه ولا نعده عدّاً ، أي : هو اليوم الذي لن نستطيع جبره مع ما عرفنا من الأعوام والسنين . إنه اليوم الذي يعلمه العليم الحكيم جل جلاله .

قال تعالىٰ : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ (1) ، (أحصاهم) تعني : حصرهم ، وجبرهم ، وأحاط بهم ، وهيمن عليهم بقوته وسلطانه ، فهو الذي يعلم بأمرهم الظاهر والباطن ، إنه علاَّم الغيوب . سبحانه جل جلاله .

الجبر العددي يتجزأ من الكل إلىٰ المتجزئ منه ، فلو أخذنا الوحدات القياسية : المتر ، أو الكيلو متر ، أو الكيلو جرام ، أو أي واحدة من الوحدات القياسية نجد : أنها كوحدة واحدة كلٌّ يتجزأ ، فالمتر كوحدة واحدة يتجزأ إلىٰ السنتمترات ثم تتجزأ السنتمتر إلىٰ المليمترات ، وهٰكذا يتجزأ وزن الإنسان كمفردة من المجموع المتكون منه إلىٰ جرامات وأجزاء تتجزأ منها ، كما يتجزأ جسمه إلىٰ ملايين الخلايا الدقيقة التي بجبرها تتكون الوحدة البشرية ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (2) .

ولأن كل شيء نسبيٌّ ولا مطلق إلا من عند ٱلله عز وجل ، فما نعدُّه بوحداتنا القياسية التي عرفناها لا تَعُدُّ ما يَعدُّهُ الجبار العظيم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (3) . أي : إن

(1) مريم 93 ـ 95 .
(2) التين 4 .
(3) الحج 47 .

ما مجموعه ألف سنة بمقاييسنا التي عرفناها علىٰ الكوكب الأرضي ، يساوي جبراً يوماً واحداً فقط مما يعدُّه ٱلله العليم الحكيم . وجميع الكواكب لا يتساوىٰ فيها طول اليوم إذا اعتمدنا الشروق والغروب مقياساً لذلك . فالسنة علىٰ زحل لا تساوي السنة علىٰ عطارد ، ولا علىٰ الزهراء ، ولا علىٰ المريخ ، ولا علىٰ الأرض ، وذلك لأن طول اليوم زمناً لم يكن واحداً أربعة وعشرين ساعة كما هو الحال علىٰ الأرض .

في اللغة أجبر : أكثر . ولذا لا يمكن أن يُجمَعَ الاثنان إلا جبراً ، ولا تتكون الأسرة والجماعات إلا جبراً ، وهٰكذا تزداد الجموع حتىٰ تكوَّن المجتمعات جبراً .

الجبار الحق : المتعالي ، والمتكبر ، متعالي ؛ لأنه فوق كل شيء ، وهو لا يساويه شيء ، وهو الذي في علوه الرفعة والمكانة العالية التي يستظل تحتها المؤمنون ، وهو المتكبر الذي لا يضعف ، ولا يجوع ولا يظمأ ، ولم يكن في حاجة للمؤانسة كما هو حال البشر . فالمتكبر هو الذي لا يمكن أن ينزل منازل المحتاجين ، والضعفاء ، والذين تسيطر عليهم الغرائز ، إنه المسيطر علىٰ كل شيء ، ولا شيء يسيطر عليه .

والجبار بالإضافة هو المؤمن الذي لا يقبل بأن يكون وضيعاً ، فيتعالىٰ بإيمانه وكبريائه عن كل ما من شأنه أن يجعله عبداً لعبدٍ ، أو يجعله سائلاً يتضرع من لا يستوجب تضرعه ، أو طامعاً في غير وجه الرحمـٰن الرحيم ، أو منعوتاً بالوشاية ، والنفاق ، وقول الزور ، وأكل السحت ، أو مفرِّقاً بين المرء وزوجه ، فالجبار بالإضافة هو الذي يعمل علىٰ جبر الخواطر ، ورفع المعاناة عن المعانين ، ويقول الحق ، ويشهد به وإذا حكم بين الناس يحكم بالعدل ، وإذا تصدق حُفِظ من كل شر ، وإذا تاجر زكىٰ حتىٰ يجبر ماله بالمزيد الطاهر ؛ وإذا صلىٰ دخل أبواب الرحمة ، وإذا صام يتذكر حتىٰ تأتيه الصدقة من الصدقة ، وإذا حجَّ نال البراءة من ذنبه والذنوب ، وإذا استشهد في جهاده دخل الجنة .

وفي مقابل ذلك يكون التجبُّر تكبُّراً علىٰ الآخرين بالظلم والاضطهاد والاستعباد ، وهـٰؤلاء ومن هم علىٰ مثلهم هم الذين يعيشون في الأرض ، ولا يستخلفون فيها ، وذلك لفقدانهم صفة التجبر من الجبار الأعظم جل جلاله الذي بتجبره يعلو ، وتلين له القلوب ، ولا يلين للوضاعة .

قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [1] . إنه المثل في الاستخلاف ، فهو لم يكن عاقاً ، أو عاصياً ربه ، ولهـٰذا لم يكن جباراً بمعصية ، بل كان جباراً بالطاعة ، فأتاه ٱلله الحكم صبياً ، (خذ الكتاب بقوة) تدل علىٰ قوة الإيمان ، فالكتاب ـ وهو التوراة ـ قوة ، والقوة لا تؤخذ إلا بالقوة . الكتاب قوة ، والإيمان قوة ، والحكم قوة ، والنبوة قوة ، وبامتلاك يحيىٰ لمصادر القوة الأربعة كان تقياً عطوفاً علىٰ والديه ببرهما ، وطاعتهما في غير معصية ٱلله تعالىٰ ، ولم يكن عاقًّاً ، أو عاصياً لربّه ، ولذا كان له السلام من ٱلله تعالىٰ يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيًّاً .

ومن أراد أن يقتدي من ملوكنا فليقتد بما فعل يحيىٰ ، عليه الصلاة والسلام ، لا أن يكونوا جبابرة طغاة وكأنهم يملكون الأرض ومن عليها ، فالملك دائما للواحد القهار ، وقلوب الجبابرة في الأرض قاسية إلا من آمن واتقىٰ . فالذي يمتلك السلطة أو يتفرَّد بها من أجل أن يُفسد في الأرض لن يكون كمن يريد الإصلاح فيها ، فالذي يريد الإصلاح يستخلف مرتين (في الدنيا والآخرة) والذي يريد الفساد ليس له من الاستخلاف من شيء ؛ حتىٰ وإن عاش ملكاً في حياته ، ولهـٰذا لن يكون مثله كمثل الذي قال فيه تعالىٰ : (وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) . فالخليفة بإيمانه

(1) مريم 12 ـ 15 .

وإصلاحه الأرض ينال السلام فيها ، وكذلك من ربه تعالىٰ يناله في يوم موته ، ويوم بعثه من جديد .

يقول الإمام الغزالي : « الجبار : هو الذي تنفذ مشيئته علىٰ سبيل الإجبار علىٰ كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذي لا يخرج أحد عن قبضته » [1] .

قال تعالىٰ : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [2] . يقول ٱلله تعالىٰ لرسوله محمد ﷺ : نحن أعلم بما يقوله الكفرة ، فأنت لا يحق لك أن تجبرهم ، ولا تكرهم وترغمهم علىٰ الإسلام ؛ حيث لا إكراه في الدين مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [3] وقوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [4] . الدين ينشره التبشير والتحريض علىٰ اتباعه ، والإنذار به والتذكير ، ولأن ٱلله تعالىٰ نهىٰ عن الإكراه في الدين ، والرُسُل هم خير خلائف ٱلله في الأرض ، والمؤمنون الذين ود لهم الاستخلاف فيها بالحكمة والموعظة الحسنة مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [5] . فادعُ الذين بُعِثتَ إليهم إلىٰ الإسلام بالحكمة : بالدليل والبرهان الحق ، وجادلهم باللِّين ، وبالتي هي أحسن ، ولا تغلظ عليهم ، فأنت يا محمد ـ صلىٰ الله عليك وسلم ـ عليك البلاغ ، أمَّا الهداية ، ليس من مهمتك فٱلله يهدي من يشاء

(1) أبو حامد الغزالي ، المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ . بيروت ـ دار الكتب العلمية ص 71 .

(2) ق 45 .

(3) يونس 99 .

(4) البقرة 256 .

(5) النحل 125 .

من عباده ، ويضل من يشاء ، فهو أعلم بالضالين والمهتدين ، وهو المجازي لهم بالثواب أو العقاب .

الجبار تعالىٰ هو الذي جعل الهداية بين الناس رحمة ، ولذا ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ ، ومن يحاول الإكراه في الدين لن ينجح بالإكراه ، سواء بالدخول إليه أو بالخروج منه ، وبناء علىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ يكون الجبار هو :

1 ـ جبار ؛ لأنه قال الحق وأمر به .

2 ـ جبار ؛ لأنه يمتلك القوة ، وهو الرحمـٰن الرحيم .

3 ـ جبار ؛ لأنه أتىٰ بالحق ، وقال : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ .

4 ـ جبار ؛ لأنه أجبر المؤمن مع الإيمان ، وأجبر الكافر مع الكفر .

5 ـ جبار ؛ لأنه خلق الدنيا والآخرة .

6 ـ جبار ؛ لأنه جعل الجنة وجعل النار .

7 ـ جبار ؛ لأنه جعل الثواب والعقاب .

8 ـ جبار ؛ لأنه جعل الذنوب ، وجعل المغفرة لها .

9 ـ جبار ؛ لأنه جعل الحسنات يُذهبن السيئات .

10 ـ جبار ؛ لأنه أوجد للداء الدواء .

11 ـ جبار ؛ لأنه خلق الفرادىٰ ، وجعل منهم الجموع .

12 ـ جبار ؛ لأنه يهب لمن يشاء ذكوراً ، ويهب لمن يشاء إناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً .

13 ـ جبار ؛ لأنه جعل الشمس مصدراً للنور ، ومصدراً للنار .

14 ـ جبار ؛ لأنه جعل الخوف والطمأنينة في النفس الواحدة .

15 ـ جبار ؛ لأنه حفظ البقاء للقوي والضعيف علىٰ الأرض الواحدة .

16 ـ جبار ؛ لأنه علام الغيوب ، وهو الذي يُمهل ، ولا يُهمل .

17 ـ جبار ؛ لأنه يملك كل شيء ، ولا يحتاج لشيء .

وعليه : لو لم يكن اسمه الجبَّار ؛ ما خُلقنا ، وما نطقنا بعد صمت ، وما صرخنا بعد ألم ، وما غضبنا من عيوب ، وما حزنا من مآسي وفراق . ولو لم يكن من صفاته الجبر ؛ ما تلاقينا ، وتحاببنا ، وتزاوجنا ، وتفارقنا ، وتسامحنا ، بعد شِقاق وخصام . فالجبار هو الذي بقوته تلين القلوب ، وتخشع وتخضع لقول الحق ، وتعمل من أجل إحقاقه ، فلولاه ؛ ما آمنَّا ، وما كفر غيرنا . فنحن آمنا به طوعاً ، وغيرنا كفر به طوعاً . والذين آمنوا هم الخلفاء الجبارين بالإضافة ، الذين يصلحون فيما استخلفهم فيه .

يقول أبو حامد الغزالي : « الجبار من العباد من ارتفع عن الأتباع ، ونال درجة الاستتباع ، وتفرد بعلو رتبته ، بحيث يجبر الخلق بهيئاته وصورته علىٰ الاقتداء به ومتابعته في سمته وسيرته ، فيفيد الخلق ولا يستفيد ، ويؤثر ولا يتأثر ، ويستتبع ولا يتبع ، ولا يشاهده أحد إلا ويفنىٰ عن ملاحظة نفسه ، ويصير متشوقاً إليه ، غير ملتفت إلىٰ ذاته . ولا يطمع أحد في استدراجه واستتباعه »[(1)] .

الجبار كما يقول الدكتور الصلابي : « بمعنىٰ العلي الأعلىٰ ، وبمعنىٰ القهار ، وبمعنىٰ الرؤوف ، الجبار للقلوب المنكسرة ، وللضعيف العاجز ، ولمن لاذ به ولجأ إليه »[(2)] .

---

(1) أبو حامد الغزالي ، المقصد الأسنىٰ في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ . بيروت ـ دار الكتب العلمية 51 .

(2) علي محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين . بيروت ـ دار المعرفة الطبعة الأولىٰ 2005 ص 188 .

وفي اسم الجبار يقول الدكتور محمد بكر إسماعيل : « هـٰذا الاسم له في اللغة ثلاثة معانٍ كلها مرادة لله تعالىٰ وهي :

المعنىٰ الأول : هو العظيم الذي تحار في كنه جلاله وجماله وكماله العقول ، ولا تحيط بمعاني صفاته البصائر ، ولا ترتقي إلىٰ معرفة ذاته الأفهام .

والمعنىٰ الثاني : هو المصلح لأمور الخلق ، والمظهر للدين الحق ، والميسر لكل عسير ، والجبار لكل كسير .

والمعنىٰ الثالث : هو الذي أجبر الخلق علىٰ ما أراد ، وحملهم عليه طوعاً وكرهاً ، فلا يقع في ملكه إلا ما يريد ، ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه » [(1)] .

والإجبار في دائرة الممكن يأخذ الصفات الآتية :

أولاً : في دائرة الممكن المتوقع :

1 ـ الإجبار علىٰ قول ، أو فعل ما يجب .

2 ـ الإجبار علىٰ الامتناع عن قول ما لا يجب ، أو فعل ما لا يجب .

ثانياً : في دائرة الممكن غير المتوقع :

1 ـ الإجبار علىٰ قول أو فعل ما لا يجب .

2 ـ الإجبار علىٰ الامتناع عن قول ، أو فعل ما يجب .

وعلىٰ العبد أن يتخذ من ربه العزيز صفة الجبار ليرقَّ قلبه علىٰ من هو في حاجة إليه ، دون أن يستغله فيما لا يرضي ٱلله ، وأن يتصف بالجبار في قول

---

(1) محمد بكر إسماعيل ، أسماء ٱلله الحسنىٰ آثارها وأسرارها . القاهرة ـ دار المنار الطبعة الأولى 2000 ص 45 .

الحق وفعل الحق ، والتمسك به ، ومناصرة أصحابة ، وأن يتعالىٰ عن النزول إلىٰ الرذائل ، وأن يتعفف ويتكبر عن الصغائر ، وأن يخشىٰ ٱلله في نفسه وعياله وفيما يؤتمن عليه ، وأن يعمل صالحاً يرضاه ٱلله تعالىٰ ، وأن لا يُفسد في الأرض ، وأن يمارس حقوقه بكل قوة ، وأن يؤدي واجباته بكل قوة ، وأن يحمل مسؤولياته بإرادة ، وأن يكون جباراً في حرصه علىٰ النجاح ، وأن لا يؤمن بالفشل ، وأن يرفض الخيانة للدين ، والوطن ، والعِرض ، وأن يشتد ، ويتجبَّر علىٰ من يخون الدين والوطن والعرض والأمانة ، وأن يعتز بإيمانه بالواحد الجبار الذي أسلم له كل شيء طوعاً وكرهاً ، وأن لا يتجبر ويتكبر علىٰ من نهىٰ ٱلله عن التكبر عليهم ، وأن يحترم الأرض التي منها خلق ، وفيها يُستخلف ، وأن يتواضع ، ويتقي ٱلله ربه : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴾ [1] .

ولذا فإن الجبار بالإضافة هو القوي الذي لا تضعفه غريزة علىٰ حساب

(1) الفرقان 63 ـ 75.

إيمانه وقيمه وأخلاقه التي استمدها من دينه وأعرافه الخيرة ، فالجبار عندما يكون في مستوىٰ الخلافة في الأرض يتكبر عن المظالم ، ولا يقبل بظلم للآخرين ولا بظلم منهم ، فهو الذي يسمع ويرىٰ ولا يحكم إلا بالبينة . ولذلك فمن عرف الجبار تواضع في قوله وفعله وتعالىٰ عن الصغائر والرذائل . قال رسول ٱلله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر » . قال رجل : يا رسول ٱلله ! إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً ، ودابته حسنة ؛ أذلك من الكبر ؟ قال : « الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »[1] .

وبطر الحق تعني : إنكاره وطمسه . وغمط الناس تعني : احتقارهم والاستهزاء بهم .

ويقول الدكتور محمد بكر إسماعيل : « علىٰ المسلم إذا ذكر ٱلله باسمه الجبار أن يتصاغر أمام عظمته ، وعزته ، وقهره ، وجبروته ، فلا يرىٰ لنفسه شيئاً معه جل شأنه مهما كان ذا جاه وملك وسلطان ، فالجاه جاهه ، والسلطان سلطانه ، وهو وحده ذو العزة والجبروت ، فتبارك ٱلله في ملكه ، وتعالىٰ علىٰ عرشه ، وعزَّ في سلطانه ، خضعت الجن والإنس لجبروته ، وسبَّح كل شيء بحمده ، وهو القاهر فوق عباده »[2] .

الجبار الحق هو الذي باسمه تُسبح جميع الخلائق طوعاً ، وكرهاً ، والجبار بالإضافة هو من بين المسبحين له بالحمد ، وهو الذي لا يركع ولا يسجد لسواه . أما أولـٰئك الذين لم يربطوا مصيرهم به تعالىٰ ؛ فأولـٰئك هم الضالون الذين لن تقبل توبتهم بعد موتهم وهم كافرون . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ

(1) محمد بكر إسماعيل ، أسماء ٱلله الحسنىٰ آثارها وأسرارها . مرجع سابق ص 48 .
(2) المرجع السابق ص 47 .

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [1] . وقوله تعالىٰ : ﴿ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴾ [2] . فعاد هم الذين عصوا الرسل الذين يدعونهم للإيمان ، واتبعوا أمر كبرائهم الطاغين الذين يدعونهم إلىٰ الكفر بالواحد الجبار ، وهٰذا الأمر جعل اللعنة تلاحقهم في الدارين ، كما تلاحق غيرهم من الأقوام الكافرة . والفرق كبير بين الجبار المطلق ، والجبار بالإضافة ، والجبار العنيد :

فالجبار المطلق هو ٱلله تعالىٰ . والجبار بالإضافة هو المؤمن الحق . والجبار العنيد هو الذي يعرف الحق ، ويحيد عنه ، ولا يتبعه ، ويكفر به .

الجبار : هو القوي المطلق الذي يغفر ولا يظلم ، ويمهل ولا يهمل ، ويضاعف الحسنة كما يضاعف العقاب ، وينهىٰ كما يأمر ، ويحلل كما يحرِّم ، ويعلم ، ولا يجهل ، ويعطي ولا يأخذ ، ويَقهَر ، ولا يُقهَر ، ويُصلح ولا يُفسد ، ويعلو ولا يدنو ، ويعدل ولا يظلم ، وهو الذي يرانا ولا نراه ، ويُطاع ولا يَطيع ، ويكيد ولا يُكاد ، ويؤثر ولا يتأثر ، ويستتبع ولا يتبع ، ويُقتدىٰ به ولا يَقتدي ، وهو الذي قال الحق وجاء به في الكتاب المحفوظ ، وهو الذي يتحكم في كل شيء ولا شيء يتحكم فيه . سبحانه جل جلاله !

وفي ذلك قال الإمام الغزالي : « الجبار هو الذي تنفذ مشيئته علىٰ سبيل الإجبار في كل أحد ، ولا تنفذ فيه مشيئة أحد ، والذي لا يخرج أحد عن قبضته ، وتقصر الأيدي دون حمىٰ حضرته ، فالجبار المطلق هو ٱلله تعالىٰ ، فإنه جبر كلَّ واحدٍ ولا يجبره أحد .

---

(1) آل عمران 91.

(2) هود 59ـ60.

الجبار المطلق : هو الذي خلق كل شيء كما شاء . والجبار بالإضافة هو الذي يؤمن بأنه مخلوق علىٰ مشيئة الجبار المطلق ، وليس علىٰ مشيئته هو ، فنحن وكذلك بقية المخلوقات لا نعلم لماذا خلقنا هـٰكذا ، أي لماذا البعض يمشي مكباً علىٰ وجهه ، والبعض يمشي سوياً ، والبعض يعلم ويؤمن ، والبعض يعلم ولا يؤمن ، والبعض لا يعلم : أنَّ لله في خلقه شؤون . ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [1] وقوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [2] .

ولأن القاعدة تقول : (وراء كل مخلوق خالق ، والخالق خير من المخلوق) فالجبار بالإضافة يؤمن بأنه خيرٌ من ٱلله ، وٱلله خيرٌ منه . خيرٌ من ٱلله تعني : إنه من عند ٱلله الخالق له ، والباعث له ، ومع أنه خير من ٱلله تعالىٰ ، إلا أن خالق الخير خير من الخير ؛ أي : أفضل منه . أي : إن الإنسان الذي خلقه ٱلله في أحسن تقويم كان المُفضَّل علىٰ بقية المخلوقات الأخرىٰ ، وفي هـٰذا خير كثير ، والإنسان المؤمن هو الخير من ذاته ، أي : من ذات ٱلله تعالىٰ التي هي أفضل من الخير ، ولذا فوجود الخليفة خيرٌ من ٱلله ، وٱلله خير منه هي مؤسسة علىٰ القاعدة : (وراء كل مخلوق خالق ، والخالق خيرٌ من المخلوق) .

فالجبار هو الذي خلق كل شيء بالقوة ، وهـٰذا الخلق ليس فيه شيء من مشيئة المخلوق ، بل كل شيء من مشيئة الخالق عز وجل وفقا لقاعدة : (كن فيكون) التي بها خُلق الخلق كله . ولأنه الجبار كان الخلق ، ولا مفر من أن يكون كما شاءه الخالق تعالىٰ ، ولذا لا يوجد مقام للاستشارة حتىٰ تتم

---

(1) الملك 22 .

(2) النور 45 .

الموافقة ، أو لا تتم ، والجبار لا ينتظر أحداً ليستشيره ، فهو الذي بدأ الخلق ثم يعيده : ﴿ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [1] وقوله تعالىٰ : ﴿ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ [2] . سبحانه إنه الجبار العالم بكل شيء ، وهو علىٰ كل شيء قدير !

قال سعد بن علي القحطاني : للجبار أربعة معانٍ ، هي :

المعنىٰ الأول : يجبر الضعيف وكل قلب منكسر لأجله ، فيجبر الكسير ، ويغني الفقير ، ويجبر المصاب بتوفيقه للثبات والصبر .

المعنىٰ الثاني : إنه القهار لكل شيء ، الذي دان له وخضع كل شيء .

والمعنىٰ الثالث : إنه العلي علىٰ كل شيء .

والمعنىٰ الرابع : إنه المتكبر عن كل سوء ونقص ، وعن مماثلة أحد ، وعن أن يكون له كفؤ ، أو ضد ، أو سميٌّ ، أو شريك في ذاته [3] .

قال تعالىٰ : ﴿ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ [4] ، جاء قوله تعالىٰ بالمطلق حيث قال : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ أي : لم يستثنِ أحداً من أمر التسليم له ، فطوعاً : بالاعتراف : أنه الحق ، وبالإيمان به لا شريك له في الخلق ، والمُلك . وكرهاً : حيث لا يستطيعون أن يغيروا من

---

(1) يونس 4 .

(2) يونس 34ـ36 .

(3) سعد بن علي بن وهف القحطاني ، شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ في ضوء الكتاب والسنة . بيروت ـ دار ابن حزم 2003 ص 72 .

(4) آل عمران 83 .

أمره شيئاً ، الشمس تشرق وتغرب والحياة والممات والمرض والمعافاة وهم لا يستطيعون إلغاء شيء منه ، فأسلموا بذلك الاعتراف دون أن يؤمنوا .

وقد قال ابن القيم في نونيته :

وكــذلــك الجبــر مــن أوصــافــه ... والجبــر فــي أوصــافــه قسمــان
جبـر الضعيـف وكـل قلـب قـد غـدا ... ذا كســـرة فـــالجبـــر منـــه دان
والثـانـي جبـر القهـر بـالعـز الـذي ... لا ينبغـــي لســـواه مـــن إنســـان
ولـه مسمـىٰ ثـالـث وهـو العلـو ... فليـس يـدنـو منـه مـن إنسـان
مـن قـولهـم جبـارة للنخلـة الـ ... ـعليا التي ارتفعت عن كل بنان [1]

وقد قال ابن القيم : الجبر في اللغة يرجع إلىٰ ثلاثة أصول :

الأول : أن يغني من الفقر ، أو يجبر عظمة من كسر ، وهـٰذا من الإصلاح .

الثاني : الإكراه والقهر ، يقال : أجبرته علىٰ كذا : إذا أكرهته عليه .

الثالث : من العز والامتناع .

وفي الشرع يقول ابن القيم :

أولاً : أنه الذي يجبر ضعف الضعفاء من عباده ، ويجبر كسر القلوب المنكسرة من أجله الخاضعة لعظمته وجلاله .

ثانياً : إنه القهَّار دان كلُّ شيء لعظمته ، وخضع كلُّ مخلوق لجبروته وعـزتـه ، فهـو يجبـر عبـاده علـىٰ مـا أراد ممـا اقتضتـه حكمتـه ومشيئتـه ، فلا يستطيعون الفكاك منه .

---

(1) مشرف بن علي الغامدي ، منهج ابن القيم الجوزية في شرح أسماء ٱلله الحسنىٰ. القاهرة ـ دار ابن الجوزية الطبعة الأولىٰ 2005 ص 293.

ثالثاً : إنه العلي بذاته فوق جميع خلقه ، فلا يستطيع أحد أن يدنو منه [1] .

الجبار بالإضافة هو الذي استخلفه الجبار الحق ليُصلح في الأرض بما يرضيه تعالىٰ ، ولذا فعلىٰ الخليفة أن يعمل علىٰ الآتي :

1 ـ جبر الخواطر المنكسرة بأفعال الخير : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [2] .

2 ـ جبر خواطر المرضىٰ من اليأس بالأمل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ [3] . وقوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [4] .

3 ـ جبر الفساد يجبر المُصلح مع الجنة : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [5] . وقوله عز وجل : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [6] .

4 ـ فك المظالم ؛ أي : جبرها بالفصل حتىٰ لا تستمر ، ويكثر الشقاق والخصام ، والجبر هنا من أجل الإصلاح . ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [7] .

---

(1) المرجع السابق ص 292 ـ 293 .
(2) البقرة 263 .
(3) الزمر 53 .
(4) الحجر 56 .
(5) القصص 83 .
(6) المائدة 32 .
(7) فصلت 46 .

5 ـ العدل مُرضٍ لجبر الاختلافات بين الأنا والآخر ، ويطوي هوة التباعد والفراق ويعيد الوحدة والألفة ويحقق الوفاق والاتفاق علىٰ ما يجب : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ (1) . وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (2) .

6 ـ طاعة الرسول تجبر العبد مع خالقه : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (4) ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ (5) .

7 ـ طاعة أولي الأمر وتتجزأ إلىٰ جزءين :

الجزء الأول : طاعة أولي الأمر في غير معصية ٱلله تجبر العلاقة مع الوالدين ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ (6) .

الجزء الثاني : طاعة من يُزكىٰ بأمرٍ ، وهم الذين يكلّفون ممَّن يتعلق الأمر بهم بتولي الإشراف والرعاية والتنفيذ مع القبول الإرادي من قبل أصحاب

(1) النساء 58.
(2) النساء 105.
(3) النساء 80.
(4) النساء 64.
(5) المائدة 12.
(6) الإسراء 23، 24.

الأمر ، ومن قبل الذي يتم اختياره حتىٰ يتحمَّل المسؤولية تجاه أي تقصير أو خلل في الأمر الذي من أجله يستوجب الطاعة : ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ (1) طاعة الرسول هي طاعة لله تعالىٰ ، وطاعة أولي الأمر : هي طاعة للأمر الذي هو من الذين تستوجب لهم الطاعة . ولذا قال تعالىٰ : ﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ ولم يقل أولي أمركم ، فأولي أمركم تعني الذين يتولون أمركم كالوالدين ، أو الإخوة ، أو من له علاقة ، والأحقية في الطاعة من غير معصية ٱلله تعالىٰ . أمَّا أولي الأمر منكم فهم الذين يتولوا تنفيذ ما يقرره أصحاب الأمر ؛ وهنا تكون الطاعة لمن يعمل بأمانة علىٰ تنفيذ ما تم تكليفه به دون زيادة ولا نقصان ، فإن حاد عن الأمر ؛ فلا طاعة له في شيء . وهٰذا الأمر يتعلق بمن يتم اختيارهم لرئاسة البلاد ، أو لعضوية في المجالس التنفيذية ، أو الرقابية ، أو المؤتمرات ، واللجان الشعبية ، أو البرلمانات في الأنظمة النيابية ، وكذلك كل من يُكلَّف ، ويقبل التكليف وفقاً للدساتير ، والقوانين المُسَنَّة ، والمعتمدة من قبل مَنْ يتعلق الأمر بهم .

8 ـ الإحسان يجبر علاقة مع ٱلله تعالىٰ ، ومع الذين هم في حاجة لمن يحسن إليهم مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (2) . وقوله جل جلاله : ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ (3) .

9 ـ التسامح والعفو عند المقدرة ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ (4) وقوله عز وجل : ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ (5) .

---

(1) النساء 59 .

(2) المائدة 93 .

(3) القصص 77 .

(4) آل عمران 134 .

(5) النور 22 .

10 ـ إزهاق الباطل وإحقاق الحق : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ ﴾ (1) .

الجبار بالإضافة هو من آمن بالجبار المطلق الذي لا يتجبَّر إلا في الحق ، ولذا فهو الجبار الحق ، أي : إنه لا يجبر ظلماً مع ظلمٍ ، ولا ذُلاً مع ذلٍ ، ولا قهراً مع قهرٍ ، ولا إفساداً مع إفساد ، بل يجبر عاطفة وكسراً وعلاقة وفرقة حتىٰ تتم اللحمة ، ولهـٰذا فهو الجبار من أجل الإصلاح ؛ والصلح خير . قال تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ ﴾ (2) وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (3) .

إذاً الخليفة هو المُصلح في الأرض ، وليس المفسد فيها ، وبهـٰذا إن أفسد ؛ فلن يكون من الخلفاء فيها . والإصلاح يستوجب الآتي :

1 ـ نية صادقة حيث لا غاية ولا مآرب إلا الإصلاح من أجل الخير .

2 ـ جهداً يُبذل ، وعملاً يُخلص فيه .

3 ـ معرفة الأسباب التي تكمن وراء الإفساد .

4 ـ تنقية الالتباسات وتوضيحها مع التصويب .

5 ـ تصحيح المعلومة الخاطئة بمعلومة صائبة .

6 ـ إيجاد البديل الذي به تحدث اللحمة .

7 ـ جبر الكسر لتعود الأمور إلىٰ ما كانت عليه .

---

(1) الأنبياء 18 .
(2) البقرة 220 .
(3) هود 117 .

8 ـ التوكل علىٰ ٱلله تعالىٰ ، والتطلُّع إلىٰ صناعة المستقبل الأفضل حتىٰ لا تحدث الانتكاسة .

الجبار الحق هو الذي ينحاز للحق ، والجبار بالإضافة كذلك ، أما المتجبر بغير الحق فهو الذي لا ينحاز إلا لظلمٍ . والفرق كبير بين الجبار الحق الذي يجبر ولا يكسر ، وبين المتجبر الذي يكسر ولا يجبر . إن الاشتقاق الأول غايته اللحمة والإصلاح ، والاشتقاق الثاني غايته التباعد والانفصال والإفساد ، ولذا فالجبار المطلق يناصر الحق حتىٰ النصر طوعاً وكرهاً ، والجبار بالإضافة يناصر الحق حتىٰ النصر أو الاستشهاد دونه . ولهٰذا يحق ٱلله الحق ، ويبطل الباطل : ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [1] .

إنَّ الجبابرة هم الطغاة الذين يحرِّفون الكَلِم عن مواضعه ، وبأعمالهم غير الإنسانية يفسدون في الأرض ، وفي مقابل ذلك ٱلله يريد الإصلاح فيها ، ويريد إحقاق الحق ولو كره المجرمون ، لذا فالذي يكون جباراً بالإضافة يكون ٱلله معه نصيراً . وفي هٰذا الأمر يصبح الجبر واجباً ، وحقّاً علىٰ كل مؤمن . ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [2] وقوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [3] . وقوله عز وجل : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [4] أي : أبشروا فالنصر من عند ٱلله آتٍ لا محالة ، مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [5] .

(1) الأنفال 8 .
(2) الحج 40 .
(3) محمد 7 .
(4) إبراهيم 15 .
(5) الطارق 15 ـ 16 .

الجبار الحق لإحقاق الحق ، والجبار الظالم لنشر المظالم ، ولأنه لا مقارنة بين الجبار الحق ، والجبار الظالم ؛ فإن الجبار الحق هو : الذي يُحق الحق ويزهق الباطل مصداقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ ﴾ [1] . ومن الناس من يتجبَّر عليهم بظلمٍ من أجله فقط وأجل مصالحه وآرائه القاصرة ، فيجبرهم قهراً علىٰ ما لا يرغبون ومالا يحبون أو يفضلون ، والجبار الحق هو الذي يجبر الناس مع ما ينفعهم هم ، أي : إنه الجبار من أجلهم هم ، وليس الجبار من أجله هو .

يقول الشيخ الشعراوي : « إنَّ الجبر الإلـٰهي بكل معانيه صفة من صفات الكمال الإلـٰهي المطلق ، ولا يستعمل الحق جل وعلا جبروته في مواضع إلا تحقيقاً لخير ، أو دفعاً لشر ، وهو سبحانه مستحق للحمد علىٰ جبروته كما هو مستحق للحمد علىٰ رحمته ومغفرته وكرمه » [2] .

وصدق ٱلله العظيم في قوله : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [3] .

لما كان الجَبَّارُ هو ٱلله عزَّ اسمه القاهر خلقه علىٰ ما أَراد من أَمرٍ ونهيٍ ، ولأن الجبار في صفة ٱلله ـ عزَّ وجل ـ الذي لا يُنالُ منه ؛ جعل جَبَّاراً في صفة ٱلله تعالىٰ ، أَو في صفة العباد من الإِجْبار ، وهو القهر ، والإِكراه لا من جَبَرَ [4] .

فالجَبَّار العالي فوق خلقه . وفي الحديث : « سبحان ذي الجَبَرُوت

---

(1) الأنبياء 18 .

(2) محمد متولي الشعراوي ، أسماء ٱلله الحسنىٰ . القاهرة ـ دار أخبار اليوم ص 181 .

(3) الحشر 23 .

(4) لسان العرب، ج4، ص113 .

والمَلَكُوت » هو فَعَلُوتٌ من الجَبْر ، والقَهْر [1] . ولما كان ذلك من أفعاله تعالىٰ فكيف يقبل من عبده أن يكون كذلك ، فالجَبَّار هو المتكبر عن عبادة ٱلله تعالىٰ ، فالخلفاء يدعون ربهم ليلٍ نهار ألا يكونوا كذلك ، ومن ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴾ [2] ، وكذلك قول ٱلله تعالىٰ علىٰ لسان ـ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴾ [3] ، أَي : متكبراً عن عبادة ٱلله تعالىٰ ، فلا تدخله الرحمة ؛ الرحمة لا توجد في قلبٍ ذي كبر ، ويرجع ذلك لعدم قبوله الموعظة ، فيصير رجلاً جَبَّاراً متُسَلِطاً قاهراً ، وقد نهىٰ الجبار جل جلاله عن ذلك رسوله ، فقال ٱلله ـ عز وجل ـ : ﴿ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [4] ، فقوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ ﴾ ، أَي : بِمُتسَلِّطٍ فتَقْهَرَهم علىٰ الإسلام .

من صور تجبُّر خلقه علىٰ خلقه :

والتجبُّر نوعان : تجبُّر محمود ، وتجبُّر مذموم ، ومن صوره :

ـ جَبَّارُ يَقْتُلُ علىٰ الغَضَبِ : وذلك ما فعله جبابرة العالم ، ولأقل سبب تراهم يقتلون والدماء يسفكون ، وأحياناً بغير سبب ، فقد ورد في كتب التاريخ : أن جبابرةً حكموا العالم بقسوة وعنف ، وعمِّروا دهراً طويلاً مع قدرته تعالىٰ علىٰ إهلاكهم في طرفة عين ، ولٰكن هنالك حكم ومصالح

(1) لسان العرب، ج4، ص 113.
(2) مريم12ـ14.
(3) مريم32ـ34.
(4) ق 45.

لا يمكن أن يحيط بها بشر . « قال مجاهد ، وغيره : فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة : مؤمنان ، وكافران »[(1)] .

فالمؤمنان :

1 ـ ذو القرنين : كان ذو القرنين ملك بعد النمرود ، وكان من قصته أنه كان رجلاً مسلماً صالحاً ، أتىٰ المشرق والمغرب ، ومد ٱلله له في الأجل ، ونصره حتىٰ قهر البلاد ، واحتوىٰ علىٰ الأموال ، وفتح المدائن ، وقاتل الرجال ، وجال في البلاد والقلاع ، فسار حتىٰ أتىٰ المشرق والمغرب ، فذلك قول ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾[(2)] . أي : خبراً ، وقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾[(3)] . وقوله تعالىٰ : (أَتْبَعَ سَبَبًا) ، أي : علماً بطلب أسباب المنازل ؛ ليجبر به الناس علىٰ عبادة الواحد الجبار . وقال قتادة : معالم الأرض ، ومنازلها ، وأعلامها ، وآثارها . وقال عبد الرحمـٰن بن زيد بن أسلم يعني : تعليم الألسنة كان لا يغزو قوماً إلا حدثهم بلغتهم . والجبر الصحيح : أنه يعلم كل سبب يتوصل به إلىٰ نيل مقصوده من جبر الممالك في المملكة ، وغيرها ، فإنه كان يأخذ من كل إقليم من الأمتعة ، والمطاعم ، والزاد ما يكفيه ويعينه علىٰ أهل الإقليم الآخر ، ومكث طويلاً يجوب الأرض ويدعو أهلها إلىٰ عبادة ٱلله وحده لا شريك له[(4)] . وقوله : ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

---

(1) البداية والنهاية، ج1 ص 171 .

(2) الكهف 83 .

(3) الكهف 84 ـ 89 .

(4) البداية والنهاية، ج 2، ص 126 .

أي : طريقاً من طرق الجبر التي مده الجبار المطلق بها . قال تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ ﴾ ، يعني : من الأرض ، انتهىٰ إلىٰ حيث لا يمكن لأحدٍ أن يجاوزه ، ووقف علىٰ الحافة ، فشاهد مغيب الشمس فيما رآه بالنسبة إلىٰ مشاهدته ﴿ تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ ، والمراد بها البحر في نظره فإن من كان في البحر أو علىٰ ساحله ، يرىٰ الشمس كأنها تطلع من البحر ، وتغرب فيه ؛ ولهـٰذا قال : ﴿ وَجَدَهَا ﴾ أي : في نظره ، ولم يقل : فإذا هي تغرب في عين حمئة ، أي : ذات حمأة ، وهـٰذا هو الجبار بالإضافة الذي استطاع أن يجبر أهل الأرض علىٰ طاعة ٱلله تعالىٰ .

2 ـ سليمان بن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ : لما توفي داود ملَّك بعده ابنه سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ علىٰ بني إسرائيل ، وكان ابن ثلاث عشرة سنة ، وسأل ٱلله أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فاستجاب له ، وسخّر له الإنس ، والجنّ ، والشياطين ، والطير ، والريح ، فكان إذا خرج من بيته إلىٰ مجلسه ؛ عكفت عليه الطير ، وقام له الإنس والجنّ حتىٰ يجلس ، هـٰكذا بقوة الجبَّار المطلق كان سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ خليفة جباراً لأجل الإصلاح والفلاح لا لأجل الفساد والخراب والدمار ، فسبحان من جبر القلوب علىٰ طاعة أوامر عباده الصالحين ، فقد سخّر له الريح ، والجنّ ، والشياطين ، والطير ، وغير ذلك ، ومِنْ جبره بالإضافة فإنه كان يحكم في القضايا ، ويحلها بشكل مُرضٍ فقد كان أبوه يستشيره في حياته ، ويرجع إلىٰ قوله ، فمن ذلك ما قصَّه ٱلله في كتابه العزيز في قوله : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [1] ، وكان خبره : أنّ غنماً دخلت زرعاً ، فأكلت منه ، وأفسدته ،

(1) الأنبياء 78 ـ 79 .

فقضىٰ داود بالغنم لصاحب الزرع ، فقال سليمان : أن تسلّم الزرع إلىٰ صاحب الغنم فيقوم عليه حتىٰ يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلىٰ صاحب الزرع ، فيصيب منها إلىٰ أن يعود زرعه إلىٰ حاله ، ثمّ يأخذ زرعه ، ويدفع الغنم إلىٰ صاحبها . فأمضىٰ داود قوله ، وقال ٱلله تعالىٰ : ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ . وفي هـٰذا دليل علىٰ أنّ كلَّ جبار بالإضافة مجتهدٍ في الأحكام الفرعيّة مصيب ، فإن داود أخطأ الحكم الصحيح عند ٱلله تعالىٰ ، وأصابه سليمان ، فقال ٱلله تعالىٰ : ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ . وكان سليمان يأكل من كسب يده ، وكان كثير الغزو ؛ وكان إذا أراد الغزو أمر بعمل بساط من خشب يسع عسكره ويركبون عليه هم ودوابهم وما يحتاجون إليه ، ثمّ أمر الريح فحملته فسارت في غدوته مسيرة شهر وفي روحته كذلك [1] ، قال تعالىٰ : ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [2] .

والجباران الكافران هما :

1 ـ النمرود بن كنعان : فأبوه أول من ملك الأرض من ولد نوح ، وهو كنعان بن كوش بن حام ، فسار من أرض كنعان بالشام إلىٰ أرض بابل فبنىٰ مدينة بابل ، وورث ملكه ابنه النمرود الجبار الطاغية ، وعظم سلطانه في الأرض وطال عمره ، وغلب علىٰ أكثر المعمورة ، وأخذ بدين الصابئة ، وفي زمانه بنىٰ النمرود الصرح ببابل [3] ، وكان من أمره ما نصَّ عليه القرآن الكريم ، قال تعالىٰ : ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا

(1) الكامل في التاريخ ، ج1 ص75 .
(2) الأنبياء 81 .
(3) تاريخ الطبري ، ج1 ، ص 287 ـ 288 ، وتاريخ ابن خلدون ، ج2 ، ص 34 .

عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [1] . ذكر : أن نمرود آثر الحياة الدنيا ، فلما دعاه إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلىٰ عبادة ٱلله وحده لا شريك له حمله الجهل ، والضلال ، وطول الآمال علىٰ إنكار الصانع ، فحاجَّ إبراهيم الخليل في ذلك ، وادَّعىٰ لنفسه الربوبية ، فلما قال الخليل : ربي الذي يُحي ويميت ، قال : أنا أحي وأميت ، يعني أنه إذا أُتِيَ بالرجلين قد تحتم قتلهما ، فإذا أمر بقتل أحدهما ، وعفا عن الآخر ، فكأنه قد أحيا هـٰذا ، وأمات الآخر .

قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [2] ، فقول هـٰذا الملك الجاهل : أنا أحي وأميت إن عنىٰ : أنه الفاعل لهـٰذه

(1) الأنبياء 51ـ72 .

(2) البقرة 258 .

المشاهدات ؛ فقد تجبَّر ، و كابر ، وعاند . ولما كان انقطاع مناظرة هـٰذا الملك قد تخفىٰ علىٰ كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ؛ ذَكَرَ دليلا آخر بَيَّنَ وجود الصانع وبطلان ما ادعاه النمرود ، قال تعالىٰ : ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ ، أي : هـٰذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما جبرها وسخرها خالقها ، ومسيرها ، وقاهرها ، وهو ٱلله الذي لا إلـٰه إلا هو خالق كل شيء ، فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحيي وتميت فائتِ بهـٰذه الشمس من المغرب ، فإن الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ، ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء ، وجبره ، ودان له كل شيء ، فإن كنت كما تزعم ؛ فافعل هـٰذا ، فإن لم تفعله ؛ فلست كما زعمت ، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر علىٰ شيء من هـٰذا ، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضةً أو تنتصر منها ! فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه ، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل انقطع وسكت ؛ ولهـٰذا قال : ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ . وقد ذكر : أن هـٰذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ، ولم يكن اجتمع به يومئذٍ ، فكانت بينهما هـٰذه المناظرة . ورويَ : أن النمرود كان عنده طعام ، وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ، فكان بينهما هـٰذه المناظرة ، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطىٰ الناس ، بل خرج وليس معه شيء من الطعام ، فلما قرب من أهله عمد إلىٰ كثيب من التراب ، فملأ منه عدليه ، وقال أشغل أهلي إذا قدمت عليهم ، فلمَّا قدم وضع رحاله ، وجاء فاتكأ فنام ، فقامت امرأته سارة إلىٰ العدلين ، فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً ، فعملت منه طعاماً ، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه ، فقال : أنىٰ لكم هـٰذا ؟ قالت : من الذي جئت به ، فعرف : أنه رزق رزقهموه ٱلله عز وجل . وبعث ٱلله إلىٰ ذلك الملك الجبار ملكاً يأمره بالإيمان بٱلله فأبىٰ عليه ، ثم دعاه الثانية فأبىٰ عليه ، ثم الثالثة فأبىٰ عليه ، وقال : اجمع جموعك ، وأجمع

جموعي ، فجمع النمرود جيشه ، وجنوده وقت طلوع الشمس ، فأرسل ٱلله عليه ذباباً بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها ٱلله عليهم ، فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاماً بادية ، ودخلت واحدة منها في منخر الملك ، فمكثت في منخره أربعمئة سنة عذبه ٱلله تعالىٰ بها ، فكان يضرب رأسه بالمزارب في هـٰذه المدة كلها حتىٰ أهلكه ٱلله عز وجل بها . وكان نتيجة صبر سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن آمن به سيدنا لوط ، وجعل في ذريته النبوة ، فهـٰكذا تجبر القلوب بالمكافأة التي قد لا تكون ردودها آنية . قال تعالىٰ : ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (1) ، وقال ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (2) .

2 ـ شداد بن عامر بن عاد : وهو الذي بنا إرم ذات العماد ، وكان جباراً من الجبابرة ، وهو الذي أراد أن يبني صفة الجنة ، فمكث في بنائها

---

(1) العنكبوت 26 ـ 27 .

(2) الأنعام 83 ـ 90 .

خمسمئة عام ، قال ٱلله تعالىٰ يصف ما بنوه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ (1) ، ولـٰكنهم طغوا وعتوا وتجبروا ؛ فبعث ٱلله سيدنا هود ـ عليه الصلاة والسلام ـ يدعوهم إلىٰ ٱلله ، فزادوا في الكفر والطغيان ، وكان شداد قد أتمَّ سبعمئة سنة ، فأنذره هود بعذاب ٱلله ، فلم يرتدع ، فأخذته الصيحة ، ومن معه (2) . قال تعالىٰ : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (3) .

جَبَّارٌ يقتل بغير حق : ففي التنزيل العزيز تظهر صورة التجبر بغير الحق واضحة جلية وبشكلها الممقوت فيما كان يفعله قوم عاد ، قال تعالىٰ : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّـٰتٍ

(1) الفجر 6 ـ 8 .
(2) النور المسافر ، ج 1 ، ص 70 .
(3) هود 50 ـ 59 .

وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ [1] ، فقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ فيه دلالة واضحة علىٰ عظم ما كانوا يفعلون من تجبر ، وتكبر ، والذي ـ دون شك ـ يكون نتاجه الهلاك والفساد لهم ولمن يقع عليه ذلك التجبر الممقوت عند ٱلله والناس . وكذلك قول الرجل لموسىٰ في التنزيل العزيز : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [2] . أي : قتَّالاً في غير الحق . وكله راجع إلىٰ معنىٰ التكبر ، والتجبر بغير الحق .

من مظاهر الجبار :

ـ جبر الخليفة للمؤلفة قلوبهم بالصدقات :

علىٰ الجبار بالإضافة أن يجبر بالفقير ، فيسد مفاقره ؛ ولأن ذلك يجبر القلوب ، فيقيمها ويثبتها علىٰ الدين الحنيف ، فتقترب من معرفة الجبار ، والإقرار به ، فالجبار جل جلاله ما أمر بأن يحسب المؤلفة قلوبهم من الأصناف التي تجب لهم الزكاة إلا لجبر قلوبهم ؛ ليدخلوا في الإسلام ؛ ولو كانوا أغنياء ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [3] .

ـ جبر النبات :

ويجبر النبتُ ، والشجر الأخْضر أَوْرَاقَهُ ، وتظهر فيه المَسَرَّةُ ، ويعود نابتاً مخضرَّاً بعدما كان رعي ، وأُكِل ، ومن تَجبُّر الجبار بالنبت والشجر ينبت في

---

(1) الشعراء 124 ـ 136 .

(2) القصص 19 .

(3) التوبة 60 .

يابسه الرَّطْبُ فيصلح بعد أَكله ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [1] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [2] .

ـ جَبر الدِّين :

وذلك بالإيمان ؛ ولذلك سميت المدينة المنورة (يثرب) بالجابِرَة ، كأَنها جَبَرَتِ الإيمانَ ، وسماها النبي ﷺ المدينة بذلك ؛ لما رأىٰ منها من جبر للقلوب بالإيمان ، وإخراجها من الظلمات إلىٰ النور ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [3] ، وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [4] ، وقال تعالىٰ : ﴿ الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [5] .

ـ جبر السمٰوات والأرض :

قال تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [6] .

---

(1) الزمر 21 .
(2) الحديد 20 .
(3) البقرة 257 .
(4) البقرة 22 .
(5) إبراهيم 1 .
(6) البقرة 29 .

ـ جبر الكون :

وبما حواه من سموات وأرضين وما في السماء من كواكب ونجوم وقمر وشمس ، وما ينتج عن حركتها من ليل ونهار ، و ما في الأرض من بحار وأنهار ، وما تخرج الأرض من نبات وأشجار ، قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (1) .

ـ جبر القلوب بالإحسان :

ولما كان من تأثير للإحسان علىٰ القلوب فكان هـٰذا الميزان الذي خلقه في الإنسان أداة لجذب القلوب وجبرها لتتوحد ، وتكون سبباً في عمار هـٰذا الكون ، وفي توحدها نصرة علىٰ هـٰذا الكون الواسع وما يتطلبه من معطيات لا يمكن أن تتوفر إلا بالاتحاد ، فجعل الجبَّار المطلق جبر القلوب بالإحسان لا بكره وهو قادر علىٰ فعل ذلك ؛ ولـٰكن يريد من الإنسان أن يكون أداة إعمار لهـٰذا الكون الواسع ، وليكون جواباً للملائكة الكرام في قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (2) .

---

(1) إبراهيم 32 ـ 33 .

(2) البقرة 30 ـ 33 .

ـ جَبْرُ القضاء والقدر بالتثبيت والوقوع : والذي يلزمه ، الصبر : والصَّبْرُ أنواع منه :

1 ـ **الصبر علىٰ طاعة الجَبَّار : والتي تتمثل في :**

أ ـ **مجاهدة الأعداء** : وهـٰذا ما صبر عليه الرسل والأنبياء ، وهم الذين مجَّدهم القرآن الكريم في قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (1) .

ب ـ **مجاهدة النفس والشيطان** : والتي يجب علىٰ الخليفة الجبَّار بالإضافة أن يحذر غضب الجبَّار المطلق ، وليحذر أعداءه ، وعلىٰ رأسهم الملعون الشيطان الرجيم الذي إن لم تتعوذ منه قد يحول بينك وبين علاقتك بالجبار المطلق جل جلاله حتىٰ يفسدها ، وهـٰكذا النفس الأمارة بالسوء إن لم تتطهر هي الأخرىٰ تقود إلىٰ الضلال ، ولذا فالجبار بالإضافة هو الذي ارتقت نفسه حتىٰ أطمئنت بذكر ٱلله ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) .

2 ـ **الصَّبْرُ عن المعاصِي : ويكون الخليفة الجبار كذلك بالآتي :**

أ ـ **بالتقوىٰ** : بامتثال قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (3) ، وقوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ

---

(1) آل عمران 146 ـ 148 .

(2) البقرة 168 ـ 169 .

(3) البقرة 197 .

ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (1) .

ب ـ **الرضا والقناعة** : وذلك بالرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، ليوم لا ينفع لمال ولا بنون ، إلا من جاء بقلب سليم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (2) .

اللهمَّ يا الجبَّار اجبر أنفسنا علىٰ الطاعة التامة والطمأنينة التامة ، ولا تجعلها مع الأهواء والضالين ! اللهمَّ اجبرنا علىٰ طاعة الوالدين في غير معصيتك ! اللهمَّ اجبرنا علىٰ الصلاة والصوم والزكاة والحج إننا نلبيك واحداً أحداً لا شريك لك ، ونصلي ونسلم علىٰ سيدنا محمد الرسول الخاتم بالرسالة الكافة كما نصلي ونسلم علىٰ جميع أنبيائك ورسلك ! اللهمَّ اجبر خواطرنا وخواطر أبنائنا برضاك ولا تجعلنا في حاجة لسواك ! اللهمَّ إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك ! اللهمَّ اجبرنا مع العدل علىٰ العدل الحق ، واجعلنا من المصلحين في الأرض التي استخلفتنا فيها ؛ فأنت نعم المولىٰ ، ونعم النصير !

✍ ✍ ✍

---

(1) الفتح 26 .

(2) التوبة 100 .